مدخل إلى الأدب الصوفى الفارسى

مع

دراسة وترجمة للمنظومة الصوفية

الهـــى نـــامـــه

"الكتاب الإلهي"

للشاعر فريد الدين العطار

أ . د . ملكـــه على التركى

كليـة الآداب - جامعـة عين شمس

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

الطبعة الثانية

الفهـرس

الموضـــوع	الصفحة
مقدمـــه	١ : ٣
القسم الأول	
مدخل إلى الأدب الصوفى الفارسى	
أولا : ظهور التصوف الإسلامى وتطوره	٤ : ٥٠
ـ أهمية دراسة الأدب الصوفى الفارسى	٤ : ٤
ـ المعنى اللغوى لكلمة تصوف	٤ : ٦
ـ تعريف التصوف	٦ : ١٠
ـ أصل التصوف ونشأته	١٠ : ١١
ـ الزهد وتطوره فى القرنين الأول والثانى الهجريين	١٢ : ١٣
ـ التصوف فى القرنين الثالث والرابع الهجريين	١٤ : ٢٠
ـ التصوف فى القرن الخامس الهجرى	٢١ : ٣٣
ـ التصوف فى القرنين السادس والسابع الهجريين	٣٤ : ٥٠
ثانيا : معالم الطريق الصوفى	٥١ : ٧٨
ـ الطريقة	٥١ : ٥١
ـ تعريف المقامات والأحوال	٥١ : ٥٢
ـ التوبة	٥٣ : ٥٦
ـ الورع	٥٧ : ٥٨

- الزهد ..... ٥٩ : ٦٠

- الفقر ..... ٦١ : ٦٥

- الصبر ..... ٦٦ : ٦٨

- التوكل ..... ٦٩ : ٧١

- المحبة ..... ٧٢ : ٧٤

- الخوف ..... ٧٥ : ٧٦

- الرجاء ..... ٧٧ : ٧٨

- هوامش القسم الأول ..... ٧٩ : ١٠٣

القســـــم الثـــانى

١٠٤ : ١٧٧

قراءة فى منظومة الهى نامه

- أولا : موضوع منظومة الهى نامه ..... ١٠٤ : ١٣٦

- ثانيا : الملامح العامة للقصص الواردة فى منظومة الهى نامه ..... ١٣٧ : ١٥٢

- ثالثا : آراء العطار فى منظومة الهى نامه ..... ١٥٣ : ١٧٧

- هوامش القسم الثانى ..... ١٧٨ : ١٨٤

القســـم الثـــالـــث

ترجمة منظومة الهى نامه من الفارسية إلى العربية

- الترجمة ..... ١ : ٢٢٤

مدح الله عز وجل ١:٤

نعت الرسول صلى الله عليه وسلم ٤:١٦

مناقب أمير المؤمنين أبي بكر ١٦:١٥

مناقب أمير المؤمنين عمر ١٧:١٦

مناقب أمير المؤمنين عثمان ١٨:١٧

مناقب أمير المؤمنين علي ٢٠:١٩

خطاب إلى الروح ٢١:٢٠

الابن الأول ٥١:٢١

الابن الثاني ٧٧:٥٢

الابن الثالث ١١٤:٧٨

الابن الرابع ١٣٩:١١٥

الابن الخامس ١٧١:١٤٠

الابن السادس ٢١٠:١٧٢

خاتمة الكتاب ٢٢٤:٢١٠

- هوامش الترجمة ..... ٢٢٥ : ٢٤٥

مقدمة

حاز الأدب الصوفي الفارسي ، شهرة طبقت الآفاق ، وأضحى يمثل أبرز سمات الأدب الفارسي ، كمحور أساسي من محاوره وركناً ركينا فيه .

ويضم الأدب الصوفي الفارسي أسماء عديدة لشعراء عظام ، خلفوا تراثاً ضخماً وحافلاً ورحباً بكل المقاييس ، ربما يماثل في رحابته وتعدد معالمه واختلافها عالم التصوف ذاته .

ودراسة الأدب الصوفي الفارسي على هذا النحو أمر شاق لأنه ربما ينقضي عمر المرء في دراسة أديب واحد من أدباء التصوف عند الفرس دون الإحاطة بآثاره كلها إحاطة كاملة.

ولا شك أن دراسة الأدب الصوفي الفارسي تتطلب التعرف على نشأة التصوف الإسلامي وتطوره ومدى تغلغله في المجتمع الإسلامي ، وتأثيره على الفكر والثقافة ، وانعكاس كل ذلك على الأدب ، فكما سيطر التصوف على الثقافة الإسلامية ، اتجه الإبداع الأدبي وخاصة النظم إلى التصوف فكان الأدب مرآة للمجتمع حيث جاء مصوراً للمعاني الصوفية وموضحاً لتطورها ، يضم كل ما مر به التصوف من مراحل ويعبر عن كل معاني الصوفية سواء أكانت إيجابية أم سلبية ، فكان الأدب الصوفي صورة ناطقة لما يموج به مجتمع الصوفية من أفكار تتوافق أحياناً وتتصارع أحياناً أخرى مع الفقهاء .

وقراءة الأدب الصوفي تتيح الولوج إلى عالم يموج بالصفاء والنقاء والمثاليات الأخلاقية وتربية النفس وتهذيبها والطواف في رحاب محبة الله وذكره بين أشواق الصوفية ومواجيدهم ورموزهم ومعانيهم الواضحة والمتفقة مع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أو معاينهم المبهمة و التى كانت مثار خلاف وجعلت الكثيرين يرفضون التصوف تماما وكل ما يتصل به .والأدب الصوفى فى الواقع يحتوى على تراث أدبى زاخر ، لايمكن غض الطرف عنه ، خاصة ذلك التراث الذى لايتعارض مع صحيح الدين أو الذى يتسم بتأكيد القيم الإسلامية الأصيلة وإثارة الجوانب الإيجابية فى النفس الإنسانية ، فإن قراءة مثل ذلك الأدب ولاشك تصل بنا إلى تنقية النفس وتهذيب الروح و تربية الوجدان ، وما أحوج العالم الآن إلى ذلك .

إن الأدب الصوفى فى شقه الإنسانى الأخلاقى الوجدانى يحمل كل عوامل البناء للفرد وبالتالى للمجتمع . وعلى الجانب الآخر كان الشق الفلسفى يحمل بذور الخلاف والانقسام ، وقد ألقى بظلاله السلبية على الأدب الصوفى . ولاشك أن هناك أمرين قد أثرا أيما تأثير على مسيرة التصوف وبالتالى على الأدب الصوفى وهما أولا تسرب الفلسفة إلى التصوف .وهو الأمر الذى أدى إلى إفراز أدب يتسم بالغموض الشديد والصعوبة وبالانطلاق إلى ما وراء الخطوط الحمراء للعقل البشرى . والأمر الآخر هو اختلاط القص بالتصوف وقد أدى إلى شيوع قصص كان لها مردودها الإيجابى كما كان لها مردودها السلبى أيضا. وإذا أضفنا إلى السببين السابقين ممارسات بعض الفرق الصوفية فى الموالد والاحتفالات ، نجد أن نشر التراث الصوفى ، وحصر الثروة الأدبية الكبيرة من الأدب الصوفى و دراسته أمر هام و مطلوب .

وهذا الكتاب محاولة للاقتراب من عالم الأدب الصوفى عند الفرس و الذى يحتاج ـ كما ذكرت ـ إلى مجلدات و مجلدات . و القسم الأول من الكتاب يحتوى على الحديث عن التصوف الإسلامى ونشأته وتطوره ومعالم طريقه ، وظهور الأدب الصوفى الفارسى وتطوره وقد حرصت على تضمين حديثى نماذج شعرية لكبار أدباء التصوف الفارسى وراعيت أن تكون هذه النماذج متعددة ، بحيث توضح التطور الذى طرأ على شكل الأدب الصوفى الفارسى ومضمونه ، كما أنها تحتوى على كثير من المعانى والمضامين التى طرقها أدباء التصوف الفارسى .

أما القسم الثانى من الكتاب فيشتمل على دراسة وترجمة كاملة لمنظومة الهى‌نامه للشاعر فريد الدين العطار ، كنموذج للأدب الصوفى الفارسى القصصى .

ومايسطره المرء لا يأتى من فراغ أبدا ، بل إنه نابع من جهود سابقة ، لذلك لا يفوتنى أن أشكر أستاذى أ.د فؤاد عبد المعطى الصياد جزيل الشكر ، على ما أفادنى به فى مرحلتى الماجستير والدكتوراة ، وعلى مواصلة رعايته الأبوية لى ، متعه الله بالصحة والعافية ، وأمد فى عمره .

كما أتذكر بكل الخير أستاذى المرحوم أ.د عبد النعيم حسنين والذى كان دائم المؤازرة لى خاصة فى الأوقات العصيبة .

وأستاذتى المرحومة أ.د إسعاد عبد الهادى قنديل والتى تعلمت منها الكثير أثناء عملى معها فى رسالة الدكتوراه .

وأحمد الله حمدا كثيرا على أن مكننى فى النهاية من نشر منظومة الهى نامه ، بعد أن حالت الظروف بينى وبين ذلك عدة مرات .

والله لا يضيع أجر من أحسن عملا

القسم الأول

مدخل إلى الأدب الصوفى الفارسى

- ظهور التصوف الإسلامى وتطوره حتى القرن السابع الهجرى .
- معالم الطريق الصوفى .

ظهور التصوف الإسلامي وتطوره

أهمية دراسة الأدب الصوفي الفارسي :

إن دراسة الأدب الصوفي الفارسي أمر لا مناص منه لدارسي الفارسية ، حيث يمثل الشعر الصوفي نسبة كبيرة من الأدب الفارسي تقدر بأكثر من ثلثي الشعر الفارسي(١) هذا بالإضافة إلى أن التصوف قد تغلغل في الأدب إلى حد كبير يمكن معه القول إنه لا يوجد شعر فارسي يخلو من المعاني الصوفية .

ودراسة الأدب الصوفي تتطلب ذوقا خاصا وولوجا إلى عالم التصوف والتعرف على رموزه ومعانيه ، والإبحار في عالم الأدب الصوفي إبحار عميق وطويل قد يكلف المرء عمره كله دون الوصول إلى مرفأ أو شاطىء .

ونبدأ الحديث بقراءة سريعة في تاريخ التصوف الإسلامي ، ولا شك أن الحديث عن التصوف حديث ممتد وأن كل موضوع فيه يصلح أن يكون بحثا مستقلا بذاته .

لذلك كان لابد من تناوله بصورة موجزة ، ومن الإلمام بالصورة الكلية العامة والتي تساعد على فهم أدق لمعاني كبار أدباء التصوف .

المعنى اللغوى لكلمة تصوف :

اختلفت الآراء حول أصل كلمة تصوف ، ويتراوح أهمها بين عدة أمور قيل إن كلمة تصوف قد اشتقت منها وهي : أهل الصفة ـ لبس الصوف ـ قبيلة بني صوفة ـ الصفاء ـ الكلمة اليونانية تيوصوفيا .

وقد رجحت أغلب الآراء اشتقاق كلمة صوفي من الصوف حيث يتعذر لغويا اشتقاقها من الأسماء الأخرى بينما يصح ويمكن اشتقاقها من الصوف وإن كان القشيري لم يطمئن أيضا إلى هذا الرأى حيث يقول :

" يقال تصوف إذا لبس الصوف فذلك وجه ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف(٢) ".

ومما يؤيد أن النسبة إلى الصفوف لا تعنى جوهر التصوف ولا تتطرق إلى مراميه ما يقوله ابن تيمية :

" ليس طريقهم مقيدا بلبس الصوف ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال[٣] ".

والواقع أن أغلب الصوفية يميلون فى تعريفاتهم للتصوف إلى تعريفه بما يتفق مع جوهره ومعناه .

أما أين ومتى ظهر أول شخص أطلق عليه لفظ صوفى فى الإسلام فهذا الأمر لا يعرف أيضا على وجه الدقة ، وتتعدد حوله الآراء ومنها ما ذكره الطوسى[٤] : " أما قول القائل إنه اسم محدث أحدثه البغداديون فمحال لأن فى وقت الحسن البصرى كان يعرف هذا الاسم ".

كذلك يذكر الطوسى وجود بعض الكتابات التى تدل على وجود الاسم قبل الإسلام وكان يُنسب إليه أهل الفضل والصلاح .

ويبدو أن التصوف قد ظهر متزامنا أو متقاربا فى أكثر من جهة ربما بسبب الترحال الذى كان السمة الغالبة على حياة العلماء والفقهاء آنذاك .

فابن تيمية[٥] يؤكد بدء ظهور التصوف فى البصرة حيث يقول : " التصوف وهو المعروف أنه نسبة إلى لبس الصوف فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة ، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد وعبد الواحد من أصحاب الحسن . وكان فى البصرة من المبالغة فى الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن فى سائر أهل الأمصار ولهذا كان يقال فقه كوفى وعبادة بصرية ".

بينما هناك من يرى أن ظهور التصوف بدأ فى الكوفة على يد أبى هاشم الكوفى[٦] أو جابر بن حيان وهو صاحب كيمياء شيعى من أهل الكوفة أو عبدك الصوفى الذى توفى فى حدود سنة ٢١٠ هـ وكان من القائلين بأن الإمامة بالتعيين وكان لا يأكل اللحم .

وعندما انقضى خمسون عاما أصبح اسم الصوفية يطلق على جميع صوفية العراق في مقابل الملامتية (صوفية خراسان) وبعد ذلك بقرنين أخذ يطلق على جميع أهل الباطن من المسلمين[٧] .

تعريف التصوف :

إن تعريف التصوف أمر غير وارد فكل الموضوعات الخاصة بالتصوف قد تختلف من صوفي إلى آخر ومن فرقة إلى أخرى ، فالتصوف تجربة وجدانية ذاتية نابعة من القلب وإذا أردنا أن نعرف التصوف فلن نجد تعريفا جامعا مانعا متفقا عليه ، فقد عرفه كل صوفي بطريقه خاصة تعبر عن إحساسه ووجدانه وتترجم تجربته الخاصة ، هذا بالإضافة إلى أن الغموض الذي يحيط بعالم التصوف قد ألقى بظلاله أيضاً على تعبيراتهم ودفعهم إلى استخدام الرموز ، كما أنهم كانوا في بداية أمرهم يرفضون التأليف والتدوين وكانوا يعتبرون العلم حجاباً وعائقاً .

وكانت التعاليم العرفانية تنتقل من صدر إلى صدر ، فيقوم المرشد بتعليم المريدين أو السالكين أصول العرفان النظرية بالرموز وقد وردت أقوال للصوفية في ذم العلم والحكمة والعقل كما هاجموا العلماء والفلاسفة .

كما توجد روايات متعددة عن شيوع دفنهم للكتب وإحراقها ورميها في الماء .

ولا شك أن هذا الأمر كان من بين الأمور التي أثارت جدالاً وخلافاً بين الصوفية وبين الفقهاء .

وقد تكون مهاجمة الفقهاء لهم هي التي أدت بهم الى تسجيل مذهبهم خوفاً عليه من الاندثار . فبدأوا منذ أوائل القرن الثالث الهجري في التأليف وتركوا لنا آثاراً نثرية وشعرية غزيرة .

وحتى نصل إلى معنى التصوف يجب أن نقرأ بعض التعريفات المختلفة للتصوف لدي الصوفية أنفسهم .

وقد وردت تعريفات التصوف في الكتب التي تناولت التصوف وسير الصوفية وقد صيغت هذه التعريفات باللغة العربية أو باللغة الفارسية أو باللغتين معاً ، وجمع منهـا نيكلسون[٨] (٧٨) تعريفاً ومنها :

١ـ معروف الكرخي (المتوفي سنة ٢٠٠ هـ) :

التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق .

٢ـ أبو سليمان الدراني (المتوفي سنة ٢١٥ هـ) :

تصوف آنست كه بروي افعال مي رود كه جزخداي نداند وبيوسته باخداى بود حنانك جز خداي نداند أي : التصوف هو أن تتنازع الصوفي أحوال لا يعلمها إلا الله وأن يكون دائماً مع الله بحيث لا يعرف سواه .

٣ـ بشر الحافي (المتوفى سنة ٢٧٧ هـ)

صوفي آنست كه دل صافي دارد باخداي أي : الصوفي هو من يصفو قلبه بالله .

٤ـ ذو النون المصري (المتوفى سنة ٢٤٥ هـ) :

سئل ذو النون عن التصوف فقال : هم قوم آثروا الله عز وجل على كل شيء فآثرهم الله عز وجل على كل شيء .

٥ـ أبو تراب النخشبي (المتوفى ٢٤٥ هـ)

الصوفي لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء .

٦ـ أبو حفص الحداد (المتوفى ٢٦٥ هـ)

تصوف همه ادب است أي التصوف كله آداب

٧ـ سهل بن عبد الله التستري (المتوفى ٢٨٣ هـ)

صوفي آن بود كه صافي شود از كدر ويرشود از فكر ودر قرب خد اي منقطع شود از بشر ويكسان شود درجشم اوخاك وزر ونصه العربي كما جاء في عوارف المعارف : الصوفي من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله واستوى عنده الذهب والمدر ، وأيضاً ، تصوف اندك خوردن است وبا خداى آرام كرفتن

وازخلق كريختن أى التصوف الزهد فى الطعام ، والسكينة مع الله ، والفرار من الخلق.

٨ ـ سمنون المحب (المتوفى ٢٩٧هـ)

سئل سمنون عن التصوف فقال : ألا تملك شيئا ولا يملكك شيء .

٩ـ أبو الحسين النورى (المتوفى ٢٩٥ هـ)

صوفى آن بودكه هيچيز دربنداو نبود واو در بند هيچيز نشود أى الصوفى هو من لا يتقيد به شئ ولا يتقيد هو بشئ .

وأيضا : تصوف دشمنى دنيا است ودوستى مولىأى التصوف عداء الدنيا وحب المولى

١٠ – الجنيد البغدادى (المتوفى ٢٩٧ هـ)

التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحيك به

١١ – أبو محمد الجريرى (المتوفى ٣١١ هـ)

التصوف هو الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى

١٢ – أبو بكر الكتانى (المتوفى ٣٢٢ هـ)

التصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء

وأيضا : تصوف صفوة است ومشاهدة ، أى التصوف هو الصفاء والمشاهدة

١٣ – أبو عبد الله بن خفيف (المتوفى ٣٣١ هـ)

تصوف صبر ست در تحت مجارى اقدار وفراكرفتن ازدست جبار وقطع كردن بيابان وكوهسار أى : التصوف هو الصبر تحت مجارى الأقدار ، والرضا بما تعطيه يد الجبار ، وقطع الفيافى والصحراء .

١٤ – أبو الحسن الخصرى (المتوفى ٣٧١ هـ)

صوفى آنست كه وجداو وجود اوست وصفات او حجاب اوست يعنى من عرف نفسه فقد عرف ربه .

أى الصوفى هو من يكون وجده وجوده وصفاته حجابه أى من عرف نفسه فقد عرف ربه . وأيضا : تصوف صفاء دلست ازكدورت مخالفات .

أى التصوف هو صفاء القلب من كدورة المخالفات .

١٥- أبو عثمان المغربى (المتوفى ٣٧٣ هـ)

تصوف قطع علايق است ورفض خلايق واتصال حقايق التصوف هو قطع العلائق ورفض الخلائق واتصال الحقائق

١٦- أبو سعيد بن أبى الخير (المتوفى ٤٤٠ هـ)

شيخ رابرسيد ندكه تصوف جيست كفت آنجه درسر دارى بنهى وآنجه دركف دارى بدهى وآنجه برتو آيد نجهى أى :

سئل الشيخ ما هو التصوف فقال : أن تدع ما يجول برأسك وأن تجود بما فى يدك وألا تفزع مما يصيبك .

وكما نرى فكل تعريف يشير إلى ناحية من التصوف ، وتوضح هذه التعريفات فى مجملها أهمية تصفية الباطن والتخلص من شرور النفس وآفاتها ونبذ الأخلاق السيئة والتحلى بالأخلاق والخصال الحميدة بحيث يصير القلب خالصا لله تعالى وتجلو مرآته من الشوائب والأدران فتنعكس عليها النفحات الربانية ويصبح القلب جديرا بالمعرفة الحقيقية وهى معرفة الله تعالى ويصير زاهدا فى أعراض الدنيا الزائلة الزائفة ويصير صاحب هذا القلب صاحب أحوال يهبها الله له ولا يعلم بها إلا سبحانه فيستوى الذهب والتراب أمام ناظريه لا يفزع من شئ ولا يهتم بشئ سوى الله .

أما التعريف الذى يوضح أساس التصوف وموقف الصوفية من الحياة فهو (التصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى الصفاء)

ويقول ابن القيم فى كتابه مدارج السالكين واجتمعت كلمة الناطقين فى هذا العلم على أن التصوف هو الخلق .

والتصوف بهذا المفهوم يهتم بجوهر الدين وبروح الإسلام فأحكام الإسلام كلها مردودة إلى أساس خلقى لأن أخلاق الإسلام هى أساس الشريعة بحيث إذا افتقرت أحكام الشريعة

سواء فى ذلك الأحكام الاعتقادية أو الأحكام الفقهية إلى الأساس الخلقى كانت صورة لا روح فيها أو هيكلا فارغا من المضمون فالدين فى جوهره أخلاق بين العبد وربه وبينه وبين نفسه وبينه وبين الآخرين .

والصوفية يضعون نصب أعينهم دائما قول الحق تعالى للرسول (ص) "وإنك لعلى خلق عظيم"

وأحاديث الرسول (ص) :

"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه:

"أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا"

خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن البخل وسوء الخلق"[٩]

أصل التصوف ونشأته :

إن الخلاف الأساسى بين الصوفية ومعارضيهم يتمثل فى أمر هام وهو القول بأن التصوف بدعة دخيلة على الإسلام بدليل عدم وجوده فى عصر الرسول (ص) ، وأنه قد وفد إلى الإسلام بطرق شتى وفى هذا الصدد توجد عدة آراء متباينة :

١- هناك من يرى أن التصوف جاء للمسلمين من الفرس أو من الهند عن طريق الفرس وكان بمثابة رد فعل أمام الفتح العربى بل توجد دراسات ذهب فيها أصحابها إلى أن كل الموضوعات الخاصة بالتصوف وحتى فكرة الشيخ والمريد كلها تابعة للفكر الشيعى ومستمدة منه .

٢- هناك رأى يرى أن التصوف استمد أصوله من الرهبنة المسيحية نتيجة للاختلاط بين المسلمين والنصارى العرب فى الحيرة والكوفة ودمشق ونجران ويستشهدون بالتشابه فى بعض المظاهر مثل استعمال الخرقة فى مقابل ما يستعمله الرهبان من ثوب على

الكتفين واستعمال السبحة منذ ابتدأ بها الجنيد واستعمال الصوف وكان أول من لبسه زهاد الكوفة.

٣- وفريق آخر تحدث عن التأثير اليوناني وقال إن التصوف الإسلامي نشأ عن الأفكار الفلسفية خاصة الأفلاطونية الحديثة ودللوا على ذلك بشيوع الفلسفة اليونانية في غرب آسيا قبل الإسلام وبعده [١٠]

أما الصوفية فيرفضون هذه الآراء تماما ويرون أن التصوف نزعة إنسانية عالمية توجد في كل الديانات والمذاهب وأن التشابه بين التصوف الإسلامي وما عداه لا يتصل أبدا بجوهر التصوف الإسلامي الذي استند إلى الآيات القرآنية وإلى سيرة الرسول (ص) وإنما هي مؤثرات وفدت إلى التصوف بسبب اتساع رقعة العالم الإسلامي والاتصال بشعوب البلاد المفتوحة ويبقى التساؤل الخاص بعدم ظهور التصوف في عصر الرسول (ص) حيث كان الرسول (ص) يفسر القرآن بنفسه ويقوم بالتصحيح في حالة سوء الفهم .

وكانت الإجابة المنطقية على هذا التساؤل عند البعض هي أن التصوف ما هو إلا رد فعل إزاء الأحداث السياسية الدامية التي عرفت بالفتنة الكبرى وانتهت بمقتل عثمان بن عفان والتي صار المسلمون بعدها فرقا وأشياعا من أتباع لعلي بن أبي طالب وخوارج ومرجئة وجبرية وقدرية ونتج عن ذلك أن كل فرقة من هذه الفرق أخذت تتوسل بالآيات القرآنية وتفسرها بما يفيد سلامة مذهبها مما حدا بعلي بن أبي طالب أن يقول "القرآن حمال ذو وجوه [١١]

وكان من الطبيعي أن يلوذ البعض بالدين ويزهد في الحياة ثم تتبلور معالم هذه الظاهرة رويدا رويدا وتسفر عن الصوفية .

التصوف حتى القرن السابع الهجرى

الزهد وتطوره فى القرنين الأول والثانى الهجريين

ذكرت لنا المصادر أسماء نيف وأربعين من كبار الزهاد الذين عاشوا فى القرنين الأول والثانى الهجريين وقد عاشوا فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى فى الكوفة والبصرة والشام وخراسان ومصر.

والإسلام دين وسط معتدل يدعو إلى الاستمتاع بالحياة وإعمارها كما يدعو إلى العمل من أجل الآخرة .

حيث يقول الله تعالى : (ولا تنس نصيبك من الدنيا)[١٢]

وكذلك من الأحاديث التى تروى عن الرسول : إذا قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة فليزرعها .

وعلى الرغم من الزهد الذى كان يغلب على الحياة الإسلامية فى عهد الرسول (ص) وفى سير الصحابة إلا أن هذا الزهد بالإضافة إلى أنه كان زهدا طبيعيا فرضته ظروف الحياة آنذاك فإنه لم يكن يعنى أبدا الانقطاع عن الحياة ، بل إن الرسول (ص) قد نهى عن الإفراط فى الزهد كما لم يمنع الزهد عمر بن الخطاب من أن يكون حاكما لدولة كانت تعتبر آنذاك من أغنى الدول فى العالم أجمع .

وعلى هذا لم يعرف لفظ الزاهد بين الصحابة أو التابعين أو تابعى التابعين ومع اختلاف الأحوال قيل لخواص الناس ممن لهم تعمق شديد فى الدين الزهاد أو العباد .

وهؤلاء الزهاد بالغوا فى الزهد واكتسبت حياتهم مظهرا غريبا خاصا واعتزل أغلبهم الحياة وقد شاعت المبالغات فى القصص التى رويت عنهم ومنهم[١٣] :

إبراهيم بن أدهم (المتوفى ١٦٢ هـ) والذى ظهر فى خراسان ويقال إنه كان ابن ملك فى بلخ فترك ملكه وأخذ يجوب الفيافى والصحراء .

ومنهم بشر الحافى (المتوفى ٢٢٧ هـ) وقد لقب بالحافى لأنه ذهب ذات يوم إلى إسكافى وطلب منه مسمارا لنعله ولكن الإسكافى أغلظ له القول فقذف بشر بنعليه و لم ينتعل شيئا بعد ذلك طوال حياته كى لا يحتاج إلى الخلق .

ومنهم معروف الكرخى (المتوفى ٢٠٠هـ) ونراه يوصى عند مرضه بأن يعطوا ثوبه الذى لا يملك غيره إلى فقير حتى يخرج من الدنيا على الصورة التى أتى بها إليها .

ومنهم الحسن البصرى (المتوفى ١١٠ هـ) وهو من أبرز زهاد البصرة حيث كان الطابع الفارسى أكثر وضوحا منه فى الكوفة نظرا لأنها ميناء يحتشد بمختلف الثقافات الوافدة مع شعوب البلاد المفتوحة .

أما رابعة العدوية (توفيت ١٨٥ هـ) فقد تجاوزت معنى الزهد لدى الحسن البصرى وغيره والقائم على الخوف من النار والشوق إلى الجنة إلى زهد يعنى ترك كل ما يشغل العبد عن الله تعالى واستعارت فى التعبير عن ذلك من معجم الحب الإنسانى كلمة الحب وكانت أول من استخدمها فى مجال التصوف .

فكانت أبياتها المعروفة :

أحبك حبين حب الهوى ... وحبا لأنك أهل لذاكا

فأما الذى هو حب الهوى ... فشغلى بذكرك عمن سواكا

وأما الذى أنت أهل له ... فكشفك للحجب حتى اراكا

وقد اتخذ الزهد أبعادا مختلفة اختلفت باختلاف الحالة السياسية والدينية وعلى الرغم من ذلك كانت السمة العامة هى التقيد بما جاء فى الكتاب والسنة ومراعاة أحكام الشرع.

التصوف فى القرنين الثالث والرابع الهجريين :

أخذ التصوف يتبلور بدءا من القرن الثالث الهجرى ، وبدأت معالمه تتشكل وتتضح من الناحيتين النظرية والعملية .

ويمكننا إجمال أهم مميزات التصوف فى هذه الفترة فيما يلى :

١- ظهور الطرق الصوفية :

حيث أصبحت كل طريقة تنسب إلى شيخها الذى يلتف حوله المريدون ويحدثنا الهجويرى [١٤] فى الباب الرابع عشر من كتابه كشف المحجوب عن اثنتى عشرة فرقة اثنتان منها مردودتان وعشر مقبولة ويناقش الهجويرى أفكار كل طريقة وما تشتهر به وبالطبع فقد ذكر الهجويرى كل الفرق التى ظهرت حتى عهده أى القرن الخامس الهجرى

وكان لكل طريقة طرق متنوعة ومختلفة فى السير والسلوك وقد تفرقت هذه الطرق فى الأمصار والبلدان حيث كان الشيوخ يهاجرون من قطر إلى قطر .

ونظرا لاختلاف الظروف السياسية والاجتماعية والدينية واختلاف العادات والتقاليد من مدينة إلى أخرى ومن مكان إلى مكان فقد امتازت كل طريقة بطابع خاص بل وربما اختلف كل صوفى عن الآخر طبقا للقول الشائع لديهم "الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق"

وأهم الطرق التى ظهرت فى هذا العصر كما ذكرها الهجويرى هى :

أ - المحاسبية :

وتنتمى إلى أبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى المتوفى ٢٤٣ هـ ويقال إن المحاسبى قد سمى بهذا الاسم لمحاسبته لنفسه ويعتبر مؤسس مدرسة بغداد الصوفية ويقول عنه الهجويرى إنه كان بإتفاق جميع أهل زمانه مقبول النفس والقول وعالما بأصول الحقائق وفروعها .

ب - الملامتية (القصارية) ٢٧٠ : ٣٧٠ هـ

ينتمون إلى أبى صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار وكانوا معاصرين للحلاج ونشأوا فى نيسابور بخراسان والمقصود باللوم فى اسمهم هو لوم الملامتى نفسه وحرصه أيضا على

جعل صلته با لله سرا لا يكشفه ظاهره بل وتعمد فعل ما يوجب سخط الخلق عليه وقد تجاوز المذهب نيسابور إلى مكة وبغداد .

ومن أقوال أبى صالح حمدون التى أوردها الهجويرى : ينبغى أن يكون علم الحق بك أطيب من علم الخلق أى أن تكون معاملتك مع الحق فى الخلا أحسن من معاملتك مع الخلق فى الملا ، لأن الحجاب الأعظم هو انشغال قلبك بالخلق .

وبالطبع فقد واجهوا مهاجمة الفقهاء لهم .

حـ ـ الطيفورية :

ينتمى الطيفوريون إلى أبى يزيد طيفور بن عيسى البسطامى وكان من رؤساء المتصوفة وكبارهم وطريقه الغلبة والسكر .

د ـ الجنيدية :

ينتمى الجنيديون إلى أبى القاسم الجنيد بن محمد المتوفى ٢٩٨ هـ وكان يسمى "طاووس العلماء" وكان سيد هذه الطائفة وإمام أئمتهم وطريقه مبنى على الصحو على عكس الطيفوريين .

هـ ـ النورية :

ينتسب النوريون إلى أبى الحسين النورى المتوفى ٢٩٥ هـ وكان أحد صدور علماء المتصوفة ويقول الهجويرى عن مذهبه : كان له فى التصوف مذهب مرضى وقاعدة مختارة وقانون مذهبه هو تفضيل التصوف على الفقر ، ومعاملاته تتفق مع الجنيد ومن نوادر طريقته أنه يؤثر حق الصاحب على حقه ويرى الصحبة بلا إيثار حراما ويقول : الصحبة للدراويش فريضة والعزلة غير حميدة .

ر ـ السهلية :

ينتمى السهليون إلى سهل عبد الله التسترى المتوفى ٢٧٣ أو ٢٨٣ هـ ويقول عنه الهجويرى إنه كان من محتمشى أهل التصوف وكبارهم وكان سلطان الوقت فى وقته ومن أهل الحل والعقد فى هذه الطريقة .

وطريقه الاجتهاد ، ومجاهدة النفس والرياضة وكان يوصل المريدين بالمجاهدة إلى درجات الكمال .

ز - الحكيمية :

ينتمى الحكيميون إلى أبى عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى ويصفه الهجويرى بأنه كان واحدا من أئمه وقته فى جميع علوم الظاهر والباطن وله تصانيف كثيرة ، وكانت قاعدة كلامه وطريقه على الولاية وكان يعبر عن حقيقتها وعن درجات الأولياء ومراعاة ترتيبها

ك - الخرازية :

ينتمى الخرازيون إلى أبى سعيد الخراز المتوفى ٢٧٧ هـ وله فى هذه الطريقة تصانيف زاهرة وكان أول من عبر عن حال الفناء والبقاء وأضمر طريقته كلها فى هاتين العبارتين .

ل - الخفيفية :

ينتمى الخفيفيون إلى أبى عبد الله محمد بن خفيف وكان من كبراء سادات هذه الطائفة وكان عالما بعلوم الظاهر والباطن وله تصانيف معروفة فى فنون علم الطريقة ويقال إنه كان من أبناء الملوك وعندما تاب كان أهل شيراز يتقربون إليه كثيرا ، وطراز مذهبه فى التصوف هو الغيبة والحضور أى غيبة القلب عما دون الحق إلى حد أن يغيب عن نفسه حتى أنه بغيبته عن نفسه لا يرى نفسه ، والغيبة عن النفس حضور بالحق والحضور بالحق غيبة عن النفس .

ن - السيارية :

ينتمى السياريون إلى أبى العباس السيارى وكان إمام مرو فى كل العلوم وهناك رسائل كتبها أهل مرو رنسا عن طريقه وبناء عباراتهم على الجمع والتفرقة .

والجمع والتفرقة كما يعرفهما الهجويرى :

جمع الله تعالى الخلق فى الدعوة في قوله تعالى (والله يدعـوا إلى دار السلام) يونس-٢٥ ثم فرقهم فى حق الهداية فى قوله تعالى (ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) يونس - ٢٥

فدعا الجميع من وجه الدعوة وطرد جماعة بحكم إظهار المشيئة جمع وأمر الجميع وفرق فطرد جماعة بالخذلان وقبل جماعة بالتوفيق منح جماعة العصمة وجماعة الميل إلى الآفة فالجمع هو الحقيقة والسر المعلوم ومراد الحق ، والتفرقة إظهار أمره ونهيه .

م + و ـ الحلولية :

ويعتبرهم الهجويرى من الملاحدة ويذكرهم مقرونين باللعنة ويقـول : فهم من الطائفتين المطرودتين اللتين تنتميان إلى هذه الطائفة ، وطائفة منهما تنتمى إلى أبى حلمان الدمشقى وأصله من فارس وأظهر بدعته فى دمشق .

والطائفة الأخرى ينسبون أقوالهم إلى فارس وهو يدعـى أن هذا هو مذهب الحسين بن منصور .

ومذهبهم يقوم على الحلول والامتزاج وتناسخ الأرواح ويقول الهجويرى إنه لا يعرف من هو فارس ويرفض الأقوال التى صدرت منهم .

٢ ـ التـــدويـــن :

مع ظهور الفرق الصوفية بدأت تتحـدد أسس التصوف ومفاهيمه ، وبدأ يظهر كعلم مستقل ويقول ابن خلدون[١٥] : " وصار علم الشريعة على صنفين ، صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهى الأحكام العامة فى العبادات والعادات والمعاملات ، وصنف مخصوص بالقوم فى القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام فى الأذواق والمواجد العارضة فى طريقها ، وكيفيـة الترقى فيها من ذوق إلى ذوق ، وشرح الاصطلاحات التى تدور بينهم فى ذلك " .

وقد أطلق الصوفية منذ هذا العصر وما بعده تسميات خاصة على علمهم منها علم الباطن أو علم الحقيقة أو الوراثة أو الدراية فى مقابل علم الظاهر أو الشريعة أو الدراسة أو الرواية[١٦] .

ومنذ القرن الثالث الهجرى ومع ذيوع مسمى الصوفية بدأ التدوين فى التصوف ، ومن أقدم من صنف فيه :

أ ـ المحاسبى المتوفى ٢٤٣هـ ومن رسائله كتاب "الرعايا لحقوق الإنسان" والذى يصفه ماسينون بأنه أجمل كتاب عن حياة الباطن أخرجه الإسلام ويقال إن الغزالى قد استفاد من هذا الكتاب فى كتابه الإحياء[١٧] .

ب ـ كذلك ألف أبو سعيد الخراز المتوفى ٢٧٩هـ كتاب الطريق إلى الله أو كتاب الصدق تحدث فيه عن المقامات والأحوال واعتبر المعرفة تأتى إلى القلب من وجهين : " من عين الجود ومن بذل المجهود " أى أنها فيض من الله كما أنها اكتساب وجهد[١٨] .

حـ ـ كتاب اللمع تأليف أبى نصر عبد الله على السراج الطوسى المتوفى سنة ٣٧٨ وهو واحد من أقدم وأهم كتب مؤلفى الصوفية القدماء .

د ـ من الكتب الهامة أيضا لهذه الفترة كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف تأليف أبى بكر محمد بن إبراهيم البخارى الكلابادى المتوفى عام ٣٠٩ هـ .

و ـ كتاب قوت القلوب فى معاملة المحبوب تأليف أبى طالب محمد بن على الحارثى المكى المتوفى عام ٣٨٦ هـ . وهو من الكتب الهامة أيضا .

٣ـ تفرع التصوف إلى تيارين :

فى هذا العصر ظهر تيار صوفى آخر ، بجانب التيار القائم والذى كان يتمسك بالسنة إلى حد كبير .

وقد تجاوز أصحاب التيار الجديد أحكام الشريعة ، ونطقوا بعبارات غريبة عرفت بالشطحيات ، وكانوا ينطقون بها أثناء حالة الفناء وقد التمس لهم البعض الأعذار لأنهم ينطقون وقد فنوا عن أنفسهم أما الفقهاء فقد ثاروا عليهم واتهموهم بالبدع وأحيانا بالكفر والإلحاد .

وكان من نتيجة ذلك أن توسل أكابر الصوفية بالاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية أكثر من ذى قبل . ومن أهم رموز تيار الشطحيات :

أ ـ ذو النون المصرى :

المتوفى عام ٢٤٥هـ . وقد اشتهر بالاشتغال بمسائل السحر والكيمياء واستخدام الأدعية واستعمال البخور ، كما تحدث عن المعرفة والولاية ، ويقال إنه كان أول من تكلم فى مراتب الأولياء ودرجات الأبدال والأحوال والمقامات ، وأول من استعمل الرموز فى التصوف ويقال إنه لما تكلم بعلوم لدنية لا علم لأهل مصر بها ، وشوا به إلى خليفة بغداد ، فحمل إليه مغلولا مقيدا ، فقدم للقتل ، فكلم الخليفة ، فأعجبه ، فأطلقه ورفقته وقال : إن كان هؤلاء زنادقة ، فما على وجه الأرض مسلم . وقد اعتبره البعض أكبر شخصية شكلت المذهب الصوفى وطبعته بطابعة الدائم[١٩].

ب ـ أبو يزيد البسطامى ٢٦١هـ : ولد أبو يزيد طيفور بن عيسى بن آدم بسن سروشان فى بسطام إحدى مدن إقليم قومس فى الجنوب الشرقى لبحر الخزر وكان جده زرادشتيا ويقول نيكلسون[٢٠] إنه من العسير أن تتحقق من صحة كل ما نسب إليه فهو يرى أن أبا يزيد قد أصبح البطل الأسطورى فى التصوف الفارسى لأنه منحدر من أصل فارسى قديم وكانت تتمثل فيه نزعات أهل وطنه الدينية فهو الذى أدخل فى التصوف الإسلامى فكرة وحدة الوجود التى كانت ذائعة ذيوعا عظيما فى أنحاء فارس حتى زمن الساسانيين وقد أخذ البسطامى نفسه بشتى أنواع الرياضات والمجاهدات للوصول إلى الفناء المطلق وأعلن فى جرأة عجيبة قوله أنا هو وهو أنا وهو هو ـ كما قال سبحانى ما أعظم شأنى ، وقال ليس فى جبتى سوى الله .

ويرى الدكتور التفتازانى[٢١] أن نيكلسون قد أخطأ فى نسبة وحدة الوجود إلى البسطامى لأن وحدة الوجود لم تعرف فى التصوف الإسلامى قبل ابن عربى المتوفى عام ٦٣٨ هـ وأن البسطامى فى الحقيقة هو صاحب مذهب اتحادى قائم على أساس من الفناء أو الشعور النفسى وأنه هناك فرق بين عبارات تصدر عن صوفى كالبسطامى فنى عن كل شئ فلم يعد يستشعر وجودا سوى وجود الله وبين مذهب صوفى فلسفى متكامل فى

طبيعة الوجود كمذهب ابن عربى لا يرى إلا حقيقة وجودية واحدة يطلق عليها اسم الله تارة واسم العالم تارة أخرى حيث يقول أصحاب هذا المذهب " ماثم غير " ويرون الوجود واحداً لا تعدد فيه بوجه من الوجوه . وهذا لا يمنع من أن كثيرا من الباحثين قد اعتبروا كلام البسطامى والحلاج يحمل قسمات من وحدة الوجود.

ج ـ الحسين بن منصور الحلاج (٢٤٤ : ٣٠٩هـ) من الشخصيات المحيرة التى نطقت بالشطحيات . وتتأرجح الآراء حولها بين أقصى درجات التكفير أو بين أعمق درجات الفهم ، كانت حياته صورة لاضطراب عصره ، فقد قبض عليه بتهمة القرمطة فى عام ٣٠١هـ وسجن ثمانى سنوات ثم قتل بصورة بشعة فى عام ٣٠٩ هجريا من أقواله التى حوكم عليها "أنا الحق" " وما فى الجبة إلا الله " . بعد وفاته قامت طائفة صوفية فى منتصف القرن الخامس الهجرى دانت بفكرة الحلول ونسبتها إليه ولا شك أن الحلاج قد ترك بصمة واضحة فى الأدب الصوفى حيث صار قديسا وشهيدا فى الوجدان الصوفى .

ويتميز هذا العصر أيضا بظهور الشعر الصوفى فبجانب المؤلفات النثرية الصوفية بدأت إرهاصات الشعر الصوفى تظهر فى صورة رباعيات أخذت تنشد داخل الخانقاهات منذ أواسط القرن الرابع الهجرى . وكان أول صوفى فارسى اختار الشعر لتعليماته هو أبو سعيد بن أبي الخير (٣٧٥ـ٤٤٠) وكانت أشعاره فى صورة رباعيات و قد جعلها وسيلة صالحة لأداء الأفكار الدينية و الصوفية و الفلسفية وأضفى على الرموز والتعبيرات الصوفية هذا الجمال الذى عرف به الشعر الصوفى منذ ذلك الزمان . وقد وجد إنشاد الرباعيات قبولا تاما فى مجالس الوجد والحال عند الصوفية. (٢٢)

التصوف فى القرن الخامس الهجرى

شهد هذا القرن مدا دينيا شيعيا وسنيا على حد سواء ، حيث وصل النفوذ الشيعى إلى عاصمة الخلافة فى بغداد على يدالبويهيين ووصل النفوذ الفاطمى إلى أعالى الشام حين استولت قوات الدولة الفاطمية على حلب ٤٤١هـ .كما نشط الإسماعيلية لنشر مذهبهم بالقوة وبسفك الدماء ومن ناحية أخرى شهد هذا القرن أيضا ظهور قوة السلاجقة المتنامية وكانوا من السنة المتعصبين وقد استطاعوا أن يحموا الخلافة من الخطر الشيعى آنذاك وحققوا انتصارات رائعة على البيزنطين ويقال إن السلاجقة كانوا يتميزون بالتعصب وأنهم كانوا أشد غيرة على الدين وأكثرهم تمسكا به ربما من أبناء الدين أنفسهم .وقد قام وزيرهم نظام الملك بإنشاء المدارس النظامية فى المدن المختلفة كان يدرس بها المواد الدينية ، وقد أنشأ هذه المدارس لمواجهة الفكر الشيعى .

وقد نجحت هذه المدارس فى إذكاء الروح الدينية وراجت سوق الفقهاء والمحدثين والوعاظ والقصاص . وتراجعت الفلسفة وكثر النزاع بين الفرق الإسلامية المختلفة ووصل إلى حد سفك الدماء . وقد أدى ذلك كله إلى رواج التصوف ، وأصبح الصوفية موضع احترام العامة والأمراء والسلاطين على حد سواء حيث ألف الناس لديهم السلام الروحى والنفسى كما كانوا موضع احترام الأمراء و السلاطين لبعدهم عن قصور الحكام و التزلف إليهم . ومن أشهر القصص التى توضح لنا مكانة الصوفية لدى الحكام القصة التالية :

عندما قدم السلطان طغرل بك إلى مدينة همدان كان بها ثلاثة من شيوخ الصوفية هم بابا طاهر وباباجعفر والشيخ حمشا وكانوا يقفون عند مقدمه على جبل يسمى جبل الخضر بالقرب من باب همدان فلما وقعت عليهم عين السلطان أمر رجاله بالوقوف وترجل عن جواده وتقدم إليهم وقبل أيديهم وكان باباطاهر مجذوبا فقال له : أيها التركى ماذا نويت فعله بعباد الله ؟ فأجابه السلطان سأفعل ما تأمرنى به عندذلك قال له باباطاهر بل افعل ما يأمرك به الله والله يأمر بالعدل والإحسان . عند ذلك بكى السلطان وقال : سأفعل ذلك إن شاء الله فأخذ باباطاهر بيده وقال له: هل تقبل منى هذه الهدية ؟ وأخرج من أصبعه رقبة إبريق مكسور كان يستعمله فى الوضوء مدة طويلة ثم وضعها فى إصبع

السلطان وهو يقول : إنى أضع فى يدك ملك العالم كما أضع هذا الخاتم فى أصبعك فكن عـــادلا . فظـــل السلطـــان بعد ذلك يحتفظ بها فإذا خرج لموقعة من المواقع وضعهـــا فى إصبعه (٢٣) .

وقد واكب انتصار القوى السنية السياسية وما تلاه من إنشاء المـدارس النظاميـة وتدريس المذهب الأشعرى السنى وسيادة الدين وتراجع الفلسفة بـروز شـخصيات كـان لهـا أكبر الأثرفى التأثير على مسار التصوف فىذلك القرن ونتج عن ذلـك ظهـور مؤلفـات عديـدة أهمها :

١ ـ طبقات الصوفية تأليف أبى عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمى النيسـابورى المتوفى عام ٤١٢ هـ .

٢ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء تأليف أبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهانى المتوفى عام ٤٣٠ هـ ويعتبر أكبر كتاب ألف عن تراجم أحوال الصوفية حتى الآن .

٣ ـ أبو القاسم عبد الكريم بن هـوازن القشيرى (٣٧٦ ـ ٤٦٥هـ) ويعتبر من أشـهر صوفية هذا القرن وهو مؤلف الرسالة القشيرية التى تعتبر من المصادر الأساسية فى دراسـة التصوف .

والقشيرى عربى الأصل نشأ فى نيسابور وتوفى بها ، وقد برز القشيرى بين صوفية عصره بحيث وصف بأنـه الإمام ، الفقيـه ، المتكلـم ، الأصـولى ، المفسـر، الأديـب ، النحـوى ، الكاتب ، الشاعر ، لسان عصره وسيد وقته ..

وللقشيرى مؤلفات عديدة تبلغ نحو خمسة عشر كتابا أشهرها هى الرسـالة القشـيرية التى كتبها عام ٤٣٧ هـ إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام ، كتبها تصحيحـا لأوضـاع كثيرة انحرفت وبيانا لما ينبغى أن يكون عليه المريد الصادق .

وتشتمل الرسالة على سيرة رجال التصوف حتى عهده وعلى بعض أقوالهـم كمـا تشـتمل أيضا على مبادئ السلوك ومناهجه. (٢٤)

٤- أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصارى الهروى

ولد بهراة من أعمال خراسان عام ٣٩٦ هـ وتوفى ٤٨١ هـ وكان يعتبر من أبرز فقهاء الحنابلة وله مؤلفات فى التصوف وقد اعتبر من أصحاب الاتجاه الاصلاحى للتصوف ومن المنكرين على أصحاب الشطحيات .

من أهم مؤلفاته فى التصوف كتاب "منازل السائرين إلى رب العالمين" وكما يتضح من اسم الكتاب فهو يتناول مقامات الطريق الصوفى .

وقد كتبت شروح كثيرة على منازل السائرين من أهمها شرح ابن القيم المتوفى ٧٥١ هـ باسم مدارج السالكين .

ومن مؤلفاته كتاب طبقات الصوفية وهو مأخوذ عن كتاب السلمى النيسابورى كتبه الأنصارى بلهجة هروية قديمة وقد نقله الجامى إلى الفارسية المعروفة وأضاف إليه تراجم أحوال الصوفية حتى عصره وقدمه باسم نفحات الأنس . (٢٥)

والجدير بالذكر أن الأنصارى كان أيضا من شعراء الرباعيات فى هذا القرن .

٥- حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالى الذى ولد بطوس فى خراسان عام ٤٥٠ هـ وتوفى عام ٥٠٥ هـ

وقد كتب الغزالى فى علوم الكلام والفقه والفلسفة وانتهى إلى التصوف وإلى أن العقائد لا يمكن الاستدلال عليها بأساليب الفلاسفة والمتكلمين بل بالذوق الصوفى عن طريق النور الإلهى الذى يقذفه الله فى قلب السالك كما أكد الغزالى أنه بمقدار ما يتحقق فى النفس الإنسانية من صفات الكمال الإلهية يكون استعدادها وقربها من معرفة الله وأن العبد عبد والرب رب ولن يكون أو يصير أحدهما الآخر البته وبهذا ابتعد عن فكرة وحدة الوجود وحاول أن يوفق بين الشريعة والطريقة وقد أدى الغزالى بكتاباته إسهاما كبيرا فى إعادة التصوف إلى حظيرة الدين مرة أخرى خاصة بعد الحوادث المفجعة التى صاحبت تقديم كثير من المتصوفة إلى المحاكمة ، ومشاهد قتل الحلاج بصورة وحشية عام ٣٠٩هـ (٢٦)

كما استطاع أن يعمق روحانية الإسلام فى العبادات والمعاملات وأن يبعده عن الجمود والجموح على حد سواء . ومن أشهر مؤلفاته كتاب إحياء علوم الدين الذى ما زال يطبع على فترات متقاربة حتى يومنا هذا .

٦ـ أبو الحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابى الهجويرى الغزنوى (توفى٤٦٥ هـ)
وقد تلقى علومه الأولى فى موطنه غزنة ، ثم سلك مسلك علماء عصره فى السفر والتجوال وطاف بأرجاء العالم الإسلامى وقابل عددا من شيوخ الصوفية المعروفين ولازم بعضهم لفترات كما تردد على لاهور بالهند حيث استقر به المقام حتى وفاته .

وقد بقى من مؤلفاته كتاب "كشف المحجوب" الذى يعد من المصادر الأساسية فى دراسة التصوف ، لأنه سجل فيه جميع التيارات الدينية التى كانت سائدة فى العالم الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى ، كما يضم الكتاب كثيرا من الأصول النظرية والعملية للتصوف هذا بالإضافة إلى أنه أقدم كتاب مؤلف فى التصوف باللغة الفارسية. (٢٧)

٧ ـ شعراء الرباعيات :

كان الصوفية قد بدأوا يطرقون الشعر مع نهايات القرن الرابع الهجرى ووجد إنشاد الرباعيات قبولا تاما فى مجالس الوجد والحال عند الصوفية حيث انتشر إنشاد الشعر وزاد إلى درجة أنه وجد فى كل مدينة أربطة وخانقاهات كان يجلس بها الصوفية حيث راج الشعر الصوفى بينهم .

وأشهر شعراء الرباعيات الصوفية فى هذا القرن هم :

ـ أبو سعيد بن أبى الخير ٣٥٧ هـ - ٤٤١ هـ

ـ بابا طاهر الهمدانى الملقب بالعريان والمرجح أنه بقى حيا حتى ٤٤٧ هـ

ـ عبد الله الأنصارى ٣٩٦ هـ - ٤٨١ هـ

وقد تضمنت رباعياتهم معانى صوفية عديدة ومتنوعة كما يتضح من النماذج التالية :

أ ـ عبد الله الأنصارى

من مناجاته : إلهى إنك واحد أحد ، وقيوم ، وقادر ، وبصير بكل شئ ، ومحيط بكل الأحوال ، بعيد عن العيوب ، مبرأ من الشريك ، أصل كل دواء ، بلسم للقلوب ملك الملوك ، نافذ الأمر ، يليق بك الملك الإلهى.

إلهى إنك لست محتاجا للزمان ، ولست محتاجا للمكان ، لا يشبهك أحد ، ولا تشبه أحدا من الواضح أنك قائم فى الروح ، بل إن ما تحيا به الروح هو أنت .

إلهى كل من عرفك ، ورفع علم حبك ، ترك كل شئ سواك .

ـ ذلك الشخص الذى عرفك ماذا يفعل بوجوده

وماذا يفعل بالأبناء والعيال والأسرة

ـ تفتنه بالعالمين اللذين منحتهما له

والمفتون بك ماذا يفعل بالعالمين

ومن مواعظه :

يا عزيزى أصل الإيمان أربعة أشياء : الأول الخوف والثانى الرجاء والثالث الحب والرابع اليقين. إن لم يكن الخوف ، كان عدم الخشوع لله ، وعدم الخشوع لله تعالى كفر وإن لم يكن الرجاء كان اليأس ، واليأس من رحمة الله كفر ، وإن لم يكن الحب كان البغض ، وبغض الله كفر ، وإن لم يكن اليقين كان الشك والشك فى الله كفر . وكل من تخلص من ثلاثة أشياء نجا من كل البلاء ، من غم الحسد ومن عذاب الحرص ومن الخوف من الفقر . لا تفعل أربعة أشياء لأنها علامات التعاسة : عدم الشكر فى السراء وعدم الرضا بالقسمة والتكاسل فى العبادة وعدم الحرمة فى الصحبة .

ومن رباعياته :

ـ يارب املئنى بشراب العشق ، وامتنى وأحيينى بعشقك

ـ افرغنى من كل شئ سوى عشقك ، وقيد قدمى مرة واحدة بقيد عشقك

ـ أيها المطلع على سرائر الخلق جميعا ، ومغيث الجميع عند العجز

ـ اغفر لى كل ذنوبى واقبل توبتى ، يا مانح التوب وغافر الذنب للبشر أجمعين

ـ ذلك الشخص الذى يسلم بعبوديته ، أى شأن له بخير البشر وشرهم

ـ إن كنت عبدا فاخترِ العبودية ، لذلك العظيم الذى يملك الاختيار

ـ أتعلم بماذا يأمرك العشق !؟، إنه يجدر بك التخلص من وجودك وأهواء نفسك.

ـ لا تتعلق بأهواء النفس الأمارة ، حتى تنطلق فى رحاب صفاء الدين .

ـ اذهب أيها الدرويش وقم بحق العبادة ، وأد شكر نعمته كل ساعة

ـ يا من تتمتع بالغنى والثروة ، وأد شكر نعمته بالطاعة

يعلم حسناتى وسيئاتى جيدا ، وأنت سواء أعلنتها أم أخفيتها سيعلمها

أنت عبد محتاج وهو الرحيم بعباده ، يعلم وإن حاسب أو غفر

ـ يأتنس خاطرى الحزين بذكرك ، وبدون ذكرك لا يقر لى قرار أبدا

ـ ومع ذكرك تتعالى صيحاتى إليك ليل نهار ، وشمع حبك فوق وسادتى

ـ ليس فى رؤوسنا طيف لأحد سواك ، وفى عشقك ليس لنا اهتمام بآخر عداك

ـ لم يستقر فى القلب أحد سواك ، فقد صار القلب مقرك وليس لأحد سواك

ـ أتذكر الآخرة كل يوم ، وأستغيث من عذاب الذنوب آلاف المرات

ـ وأحزن مجددا خوفا من ذنوبى ، ثم أطمئن خاطرى برحمته

ـ لا تخالط الخلق لأنه سيتملكك الغرور ، وتنشغل بهم وتبتعد عنه

ـ ولا تبح بسر قلبك لأهل العال ، لأنك ستتألم ولن يستطيعوا لك علاجا

ـ كل نملة تحمل سرا من صنعك ، وكل ملتاع يحمل سرا من الشوق إليك

ـ أيها الخالق ذو الجلال ، لا ترد من يلجأ لأعتاب حضرتك

ـ ترددت طويلا بين الخير والشر ، فلم يتأت من عمرى سوى التطلعات

ـ طالما يبقى يا إلهى نفس من عمرى ، أدركنى لأنه ليس هناك مغيث سواك

ـ معاناة الناس من ثلاثة أشياء ، يطلبون قبل الأوان

ـ ويريدون أكثر مما قسم لهم ، ويطلبون ما لدى الآخرين

ـ إن كنت راضيا بعطاء الحق ، فمتى تنازع مثل ذلك الولى

ـ فارض واسعد ، فما هو إلا أسبوع ، ويأتى المستقبل وتكون ماضيا

ـ طالما لا تتجرد فى طريق عشقه ، فلن تفنى عن وجودك أبدا

ـ الدنيا كلها قيد لك أمام أعتابه ، فتعلق بقيد الإقبال حتى لا تتردى[٢٨]

****

ب. بابـا طاهر :

ـ تعال نكف أيدينا عن هذا العالم ، تعال ننزع أقدامنا من الطين

ـ تعال نحترف الصبر ، تعال نزرع بذور الخير

ـ أيها القلب الغافل عن الله، ماذا جنيت ؟ يا من أطعت النفس الشيطانية، ماذا كسبت ؟

ـ إن مكانتك تفوق الملائكة ، إنك لا تعرف قدر نفسك ، فماذا حصدت ؟

ـ بدونك الروضة تشبه السجن أمام ناظرى ، والبستان كمعبد النار فى عينى

ـ بدونك السكينة والعمر والحياة ، كله يتراءى لى أضغاث أحلام

ـ بعيدا عنك لا يقر لقلبى قرار ، ولا عمل له سوى إيلامى

ـ يلطم الرأس بيديه كطفل سئ الطباع ، وبسبب هجرك لا ليل له ولا نهار

ـ تعال أيها الحبيب وانظر إلى قلبى الملتاع ، وشاهد دمعى الدامى ولونى الشاحب

ـ وأحزانى المكبوتة وآلامى الصامدة ، تعال لتر روحى الواهة الملتاعة

ـ بعيدا عن وجهك أيها القمر المبهج ، لا أعرف النهار من الليل ولا الليل من النهار

ـ إن تيسر لى وصالك ، يصر كل يوم مثل عيد النيروز

ـ لا يستقر رأسى فوق وسادة ولا جسدى على سرير ، ولا يوجد فى رأسى سوى النزوع إلى محبتك.

يا إلهى كل شخص يضع رأسه فوق وسادة بعيدا عنك لا رفع رأسه عنها .

ـ يا إلهى الغوث من هذا القلب ، الغوث من هذا القلب فلم أسعد لحظة واحدة به .

ـ وغدا عندما يطالب المظلومون بالقصاص ، سوف أقول الغوث من هذا القلب مئات آلاف المرات .

ـ متى يسمع الفلك أهاتى وصيحاتى ، وهو يشعل النيران فى روحى مع كل حركة له

ـ أقضى العمر فى الآلام والأحزان ، ولا تحقق لى السماء رغبة القلب

ـ ألا تعلم أيها الفلك أننى مسكين ، فلا تعصف بى لأننى ملتاع

ـ ألا ترى أنك فى حركة واحدة لك ، تقيدنى بمتاعك مثل الحبل

ـ أنا الشمل من خمر الكرم ، لماذا أكون بعيدا عن محبوبى ؟

ـ ولماذا أكون غافلا عن المحنة بعيدا ؟ وأنا الذى تتجدد أحزانى بعشقك

ـ حزنى لا حد له وألمى دون حصر ، الغوث لأن هذا لا وسيلة له ولا علاج

ـ يا إلهى إن ناصحى لا يعلم ، أن استغاثة قلبى بلا اختيار

ـ أيها القلب ألا تخف أصلا من الطريق البعيد ، أيها القلب ألا تخف أصلا من دخول القبر

ـ أيها القلب ألا تخف أصلا لأنه ذات يوم ، سوف تصير مقرا للحيات وتصبح بيتا للنمل

ـ تعال تعال لأن محبوبى هو أنت ، تعال تعال لأن سلطانى هو أنت

ـ أنت نفسك تعلم أننى لا أعرف سواك ، تعال تعال فإيمانى هو أنت

ـ بدونك يحرم على الورد والشقائق ، بدونك يحرم على تغريد البلابل

ـ بدونك يحرم على الجلوس بعيدا ، أناول أقداح الخمر داخل الروضة

ـ أيها القلب أيها القلب لما اضطرابك . أيها القلب أيها القلب لماذا تتملكك الأوهام دائما

ـ اذهب واعتزل واشكر الله ، فربما تحقق مرادك أيها القلب أيها القلب

ـ إن كنت أسدا أو فهدا أو حمارا وحشيا ، فنهايتك هى غياهب القبر

ـ حيث يصير جسدك داخل القبر سفرة ممتدة ، يتناوب عليها الفئران والحيات والعقارب والنمل

ـ أحزان عشقك أفضل من الكنز المباح ، ووصالك أفضل من العمر الأبدى

ـ وفى الحقيقة إن حفنة من تراب حيك ، يعلم الله أنها أفضل من الكون والمكان

ـ تعال ، تعال لأشاهد طلعتك ، واقطف ورود وصالك وسنابله

ـ فمنذ شهور وسنين وأنا مشتاق ، أن أجالسك لحظة ذات يوم

ـ يا إلهى اشعل روحى بنيران العشق ، ومد شررا من لهيبى إلى عظامى

ـ اشعلنى بنيران العشق مثل الشمعة ، واجعل قلبى يحوم حول هذه النيران كالفراشة

ـ لا تفعل أمرا يصيبك بالأدبار ، فتضيق الدنيا عليك على اتساعها

ـ غدا عندما تعرض الصحائف ، يلحق بك العار من قراءة صحيفتك

ـ لى قلب يشبه طائر مكسور القدم ، أو سفينة راسية أمام شاطئ البحر

ـ الجميع يقولون : يا طاهر اعزف التار* ، وكيف للـ تار المحطم أن يصدر صوتا

ـ تغلغلت جذور شجرة الأحزان فى روحى ، وأنا دائم التضرع للحضرة الإلهية

ـ أيها الأعزاء اعرفوا قدر بعضكم البعض ، فالأجل حجر والمرء مثل الزجاج

ـ الليل مدلهم ، والمكان موحش ، وأنا ثمل ، سقط القدح من يدى ، ولم ينكسر

ـ فقد حفظه الحافظ جيدا ، وإلا لتحطم مائة قدح لم يسقط

ـ قسما بوجهك القمرى يا بدر التمام ، وبقدك السروى أيها المتبختر

ـ لا يشاغل قلبى أى خيال سوى عشقك ، ولا شأن لى بشئ فى الديار سواك

ـ ليس فى رأسى طيف سواك ، ولا أمنية لقلبى عداك

ـ الله يعلم أنه فى سوق عشقك ، لا بضاعة لى سوى الروح

ـ تعال يا من وجهك حديقتى وربيعى ، وطيفك مؤنس ليالى المظلمة

ـ الله يعلم أنه فى الدنيا الفانية ، لا شاغل لى سوى عشقك

ـ عندما أنظر إلى الصحراء أراك أنت ، وعندما أشاهد البحر أراك أنت

ـ وحيثما تطلعت إلى الجبال والفيافى والوديان ، أر دلائل قامتك الهيفاء

ـ القلب بلا عشق ، أجدر به التوقف ، و من لم يخبر الآلام يستحق الموت

ـ الجسد غير الثابت فى طريق العشق ، أجدر به الاحتراق بالنيران ذرة ذرة

ـ من لايعرف المعاناة أجدر به الموت ، والقلب بلا ألم وبدون عشق جدير بالتوقف

ـ البلبل يغرد وقت السحر فى الروضة قائلا: من لايعرف العشق ، أجدر به الموت

ـ لم يقدر لأحد ما يعتمل في قلبي من الآلام ، إنها كثيرة ، أحزاني التي لا طائل تحتها

ـ أيعلم أحد أحزاني وآلام ؟ ومن ذا الذي يعاني ما أعانيه ؟

ـ مرة يرتضى الداء ومرة الدواء ، ومرة الوصل ومرة الهجر

ـ وأنا بين الدواء والداء والوصل والهجر ، راض بكل ما يرتضيه الحبيب[٢٩]

****

التصوف في القرنين السادس والسابع الهجريين

ساد التصوف ووصل إلى أوج إنتشاره وذيوعه في القرنين السادس والسابع الهجريين .

ويمكننا أن نلخص أهم مميزات ذلك العصر في النقاط التالية : -

١- تحول القالب الفني للمؤلفات الصوفية من النثر إلى النظم :

لم يكن التحول مفاجئاً فقد سبق ذلك ظهور الرباعيات التي بدأها أبو سعيد بن أبي الخير في القرن الخامس الهجري ولكن كانت هناك أسباب ساعدت على تغيير سير التأليف الصوفي من النثر إلى النظم ومنها :

أ - كان من نتيجة الأحداث التي أصابت المجتمع الإسلامي تعطش الناس إلى حياة صوفية تبعدهم عن أهوال الحياة الدنيا كما أرهفت مشاعر الشعراء فكان الشاعر أمام هذا المجتمع بمثابة الطبيب يعالج الأمراض التي أصابت ذلك المجتمع أو بمثابة المصلح الاجتماعي يرشد هذا المجتمع .

ب - يناسب الشعر حاجة الصوفية لبيان إحساساتهم ومواجدهم الداخلية واصطلاحاتهم المتزايدة التي كانت قد توسعت جداً في ذلك العهد من وحدة وجود إلى عشق إلهي أو فناء مما يعجز النثر عن توضيحه .

حـ - يناسب الشعر أيضاً السماع الصوفي و كانت أبيات الشعر تنشد في الخانقاهات والأربطة وفي أخبار الصوفية حكايات كثيرة لا تعد ولا تحصى تقص علينا كيف كانت تعتري الواجد منهم حالة الجذب عند سماع بضعة أبيات من الشعر .

وقد أدى التصوف خدمة جليلة للشعر الفارسي فقد استطاع أن يبعد الشعر منذ القرن الخامس حتى القرن التاسع الهجري عن بلاط السلاطين والأمراء إلى الخانقاه وإلى الناس فتغيرت بالتالي أغراضه من المدح إلى تهذيب النفس والروح واستغنى الشعراء عن عطاء الأمراء[٣٠] .

وقد أخضع الصوفية كل أغراض الشعر لمذهبهم فأصبح الوصف هو وصف أحوالهم ومواجيدهم ، كذلك استخدموا الشعر القصصي بطريقتهم الخاصة بحيث استخلصوا من كل قصة المبادئ الأساسية للتصوف ، كما أوجد التصوف نوعاً من الغزل هو الغزل الصوفي ، واستخدموا فيه رموز المحبين .

فالله عندهم هو الحبيب وهو المعشوق وهو المحبوب والوجد الحاصل من التفكير فيه هو الخمر وهو الخمار والظاهر والباطن منه عبارة عن طلعته المنيرة أو طرته السوداء .

كذلك تدور الأشعار حول العشق ومظاهره والجمال ومظاهره مثل الورد والبلبل والشمع والفراشة ، كما استخدموا قصص العشق المشهورة مثل ليلى والمجنون وواميق وعذرا وخسرو وشيرين ، كما كثرت في الشعر الصوفي ألفاظ الدير والحانات[٣٣] ، وقد أسهم شعراء الصوفية من الفرس إسهاماً كبيراً في مجال الأدب الصوفي سواء من حيث الكم أو الكيف فظهر نوع من الأدب تميز به الأدب الفارسي واعتبر من أسرار عظمته [٣٤] .

٢ - ظهور الشعراء الكبار والمنظومات القصصية الطويلة : -

ظهرت المنظومات القصصية الطويلة منذ القرن السادس الهجرى وقد تميز القرنين السادس والسابع الهجريين بظهور أهم ثلاثة شعراء في مجال الأدب الصوفي ، وهم سنائى والعطار ومولوى، ونبدأ بالحديث عن سنائي ، الذي كان له فضل الريادة في هذا المجال :

أ ـ سنائي الغزنوي : هو أبو المجد مجدود بن آدم عرف بالحكيم سنائي (٤٧٣-٤٣٧هـ،٥٣٥ - ٥٢٥هـ) وتعتبر منظومته حديقة الحقيقة أول منظومة صوفية بحيث يمكن القول إنه الرائد في هذا المجال ، فقد نظم مجموع التراث الصوفي الذي كان موجوداً قبله وأدخله إلى ميدان الشعر ، فمنح الشعر الصوفي الفارسي بذلك دفعة جديداً ، ومكانة مرموقة مميزة في الأدب الفارسي ، وقد ألف الحديقة في أحد عشر ألف بيت ، وقسمها إلى عشرة فصول وأهداها إلى السلطان بهرامشاه سلطان غزنة آنذاك وقد اعتبر براون منظومة حديقة الحقيقة من أسقم الكتب الفارسية المملة وقال إنها مليئة بالبديهيات الساذجة والحكايات السخيفة ، إلا أن الدراسات الأكاديمية الموضوعية المتأنية قد استطاعت أن تنصف سنائي ومنظومته[٣٥] .

ومن قصائد سنائي : —

ـ لا تستقر في الجسم والروح ، فالجسد وضيع والروح سامية .
ابتعد عن كليهما ، ولا تكن هنا ولا هناك .
ـ ودعك من كل كلام يبعدك عن الطريق سواء أكان كفرا أم إيمانا .
ومن كل نقش يبعدك عن الحبيب سواء أكان جميلاً أو قبيحاً .
ـ علامة السالك أن تجده بارداً في الجحيم .
وعلامة العاشق أن تراه جافاً في البحر .
ـ ليس من العجيب أن نصيبك من القرآن ليس سوى نقوش.
لأن عين الضرير لا تدرك من الشمس سوى الحرارة .
ـ أيها الصديق إن أردت الحياة فمت قبل أن تموت .
فبمثل هذا الموت عرف سبيله إلى الجنة قبلنا .
ـ إن راودتك الآمال في الفوز من صفقة الحياة
فما أجمل الفوز الذي ستدركه غداً من مثل هذه الصفقة :
ـ ضع رأسك في طريق الملك حيث تكون كل ساعة
مثل كرة منطلقة والطريق مثل ساحة لا حدود لها .
ـ إن كنت ترهب النار فلا تغتر بما يكتنزه الآخرون
فصورته هنا أموال وشكله هناك ثعابين
ـ إن أخمدت اليوم نار الشهوة تفز بلا شك
وإلا أحالتك حرارة هذه النار إلى حطب غداً .

ـ أيها القلب إلام تنخدع في هذا السجن بهذا وذاك
غادر هذا الجب المظلم مرة ، حتى ترى عالماً .
ـ كل قلب تجده فيه تجده ملكاً
وكل روح تراها فيه تراها مسرورة .
ـ وإن خطت ثوباً هناك تفز بالطريق من فضله .

ولو شيدت منزلاً ، ترى أعتابه من عدله .

ـ ولاتجد هناك فى أوج فضائه عقابا يصطاد القلوب

ولا ترى فى قاع بحره تمساحا يقبض الأرواح .

ـ وإن لم يغادرك إمامك من الكبر والحرص والبخل والحقد

فكل علمك فى الجحيم وإن رأيته بستانا .

ومن غزلياته :

ـ أيها الحبيب ليس لى رغبة فى شئ سوى عشقك

وأقسم أنه ليس لدى أحد فى مكانتك .

ـ اليوم أنا عاشق بلا مؤنس ولا حبيب

أستغيث ولا مغيث لى

ـ فى العشق لا أعرف دواء لقلبى

أود أن أصبر لكن الصبر ليس فى متناول يدى

ـ أريد أن أشاركك أنفاسى بسعادة

ولكن من ضيق صدرى أيها الحبيب لا قدرة لى على التنفس .

ـ كل ليلة أجئ منخفيا إلى حيك

ولا أخاف العسس فى وجود زعامة عشقك .

ـ تقول إنك تبحث عن حبيب آخر فكفى كفى

نعم أيها المعشوق ألا يكفينى محنة عشقك ؟![٣٦]

ب ـ فريد الدين العطار ٥٤٠ - ٦١٨ هـ

ويعد العطار واحدا من أكبر شعراء التصوف عند الفرس وله إنتاج غزير وقد بالغ كتاب التراجم فى عدد مؤلفاته حتى أوصلوها إلى مائة وأربعة عشر بعدد سور القرآن الكريم ، إلا أن ما استقرت عليه الأبحاث الحديثة فيما يتعلق بعدد مؤلفات العطار يعد أيضا بكل المقاييس إنتاجا غزيرا ومنها : اسرار نامه - الهى نامه - منطق الطير - بند نامه - خسرو نامه - مصيبت نامه - مختار نامه - الديوان (٤٥٤٥٠) خمسة وأربعون ألف وأربعمائة وخمسون بيتا) ، بالإضافة إلى كتابه النثرى الوحيد تذكرة الأولياء[٣٧].

ويبلغ عدد القصص فى مؤلفات العطار - كما أحصاها الأستاذ فروزانفر[٣٨] ألف وثمانمائة وسبع وتسعين قصة ويعلق الأستاذ فروزانفر على ذلك بقوله إنه ربما لا يمكن العثور على مثل هذا العدد من القصص فى آثار أى واحد من شعراء الفرس وربما لهذا السبب أيضا قيل عن العطار إنه خلق من أجل نظم الحكايات[٣٩].

والواقع أن اهتمام العطار بإيراد القصص فى مؤلفاته ، كان نابعا من الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التى أحاطت بعصره وبيئته .

فمع عوامل الضعف والتفكك والصراع الذى ساد إبان الغزو المغولى لأقاليم إيران. ومع رواج التصوف وازدهاره وزيادة عدد الخنقاهات والأربطة فى سائر المدن الإسلامية والتفاف العامة حول الصوفية ، الذين ألفوا لديهم السلام الروحى من عناء المجادلات المذهبية لدى الفرق الإسلامية المتنازعة وبعيدا عن غموض الفلسفة وإغلاق مضامينها بالنسبة إليهم ومع رواج الشعر الصوفى كان من الطبيعى أن يتخذ هذا الشعر أسلوبا مشوقا يناسب العامة.

كما كان استخدام هذه القصص يتيح لهم الحديث عن بعض موضوعات التصوف ، التى قد تكون أكثر تأثيرا إذا ما رويت فى صورة قصة مثل بعض الموضوعات ، التى رويت على ألسنة المحاذيب وربما كان الخوف من إظهار عقائدهم أمام المخالفين لهم ، أحد الأسباب التى حدت بهم إلى استخدام القصص[٤٠].

ولم تظهر هذه القصص من فراغ فقد كانت البيئة الإسلامية تزخر بقصص رويت على ألسنة القصاص والذين كان قد ازداد عددهم فى عصر العطار خاصة فى شرق العالم الإسلامى ، وأصبحوا موضع ذم وهجوم لأن كثيرا من القصاص أساءوا استعمال القصص وخرجوا به عن غايته ولم يكن هدفهم سوى تسلية العامة لكسب الأموال منهم ، فلم يتورعوا عن اختراع الأحاديث ، وتشويه القصص الدينية ، وكانوا لا يتحرجون من اتخاذ أية وسيلة لجذب العامة ، وكانوا يستمدون قوتهم من تأييد العامة لهم ، وقد ذكر لنا ابن الجوزى المتوفى فى نهاية القرن السادس الهجرى ٥٩٧ هـ والذى كان معاصرا للعطار الحيل التى كان القصاص يلجأون إليها فى عهده ، مثل من يضع على وجهه الزيت والكمون ليصفر وجهه أو من يمسك معه ما إذا شمه سال دمعة ، أو من يخرق أثوابه ويرمى بنفسه من على المنبر تواجدا ، والجدير بالذكر أن القصاص كانوا من العرب وغير العرب على حد سواء[٤١].

وقد اشتملت أحاديث القصاص بالإضافة إلى القصص الدينية على القصص الشعبية وقصص البطولة أو قصص الحب الشائعة ويقول ابن الجوزى[٤٢] : إن من القصاص من يمضى أكثر مجلسه فى الشوق والمحبة وإنشاد الغزل الذى يحتوى على وصف المعشوق وجماله وشكوى ألم الفراق ومن القصاص من يخرج الكلام فى المحبة إلى فن آخر ، فيجعل صفة الحق - عز وجل - على حديث سعدى ولبنى .

كذلك اشتملت قصص القصاص على قصص الأمم التى اتصل بها المسلمون فظهرت الحكايات الموروثة من المواريث الدينية السابقة على الإسلام وكذلك الحكايات الأسطورية والقصص التى تتعلق بالمعجزات وغرائب الأمور كما استمدت مادتها من القرآن الكريم وما يتصل به من الأحاديث والروايات وكذلك تناولت أخبار العرب وأساطيرهم وأشعارهم وسيرة الرسول (ص) والخلفاء وغزواتهم وفتوحاتهم كذلك كان من مصادر هذه القصص ما يأخذه القصاص عن أهل الكتاب من أخبار الأنبياء والأحبار والرهبان كما استقوا مادتهم من أخبار الفرس وأساطيرهم وأخبار الهند وأساطيرها [٤٣]

وقد تميزت هذه القصص بكل عوامل الإثارة والمبالغة التى تستهوى العامة وبتداخلها شيئا فشيئا مع التصوف أصبح التراث الصوفى القصصى يحوى الكثير من ملامح هذه القصص

بإيجابياتها وسلبياتها فكما كانت القصة وسيلة محببة للأديب الصوفى يدعو من خلالها إلى ضرورة معرفة الله سبحانه وتعالى معرفة حقيقية وإلى سلوك طريق العشق والاستجابة إلى نداء الله المتواتر للإنسان ، والاعتماد على القلب وعدم التكالب على الدنيا وذمها وتصفية النفس كانت كذلك سبيلا لظهور المبالغة والشطط فى كثير من القصص خاصة تلك التى تتعلق بكرامات الصوفية ، أو بذم الدنيا أو بتصوير الآخرة ، مما جعل التصوف يرتبط فى ذهن الكثيرين بالابتعاد عن الدنيا وقد أشار العطار فى كتابه تذكرة الأولياء إلى ما أصاب التصوف فى عصره من ظهور الأدعياء والمتكسبين من التصوف وأوضح أن هدفه من جمع القصص والحكايات والسير المتعلقة بالأولياء هو إبراز التصوف فى صورته الصحيحة(٤٤).

وقد استفاد العطار ولا شك من هذه القصص ومن هذا التراث الغزير فى نظم منظوماته فكانت بمثابة المادة الخام التى أقام عليها بناءه الفنى لكل منظومه من منظوماته .

ويتضمن القسم الثانى من هذا الكتاب ترجمة لإحدى منظومات العطار ودراسة لقصصها.

جـ - جلال الدين الرومى ٦٠٤ - ٦٧٢ هـ

درج المشتغلون بالدراسات الأدبية الفارسية عند الحديث عن أدباء الفرس بصفة عامة على اعتبار جلال الدين الرومى واحدا من أهم أدباء الفرس ، أما عند الحديث عن الأدب الصوفى بصفة خاصة ، فهناك ثمة اتفاق على اعتباره قمة الهرم الكبير الذى يمثله شعراء التصوف فى ذلك الأدب .

وذكر المولوى وتراثه الأدبى يتردد ويتواتر عبر صفحات كتب تاريخ الأدب ، ويتركز غالبا على منظومته المثنوى المعنوى والتى تذكر فى كتب الأدب بإجلال تام ، وتقع فى ستة وعشرين ألف بيت تقريبا وقد منحها الإيرانيون مكانة سامية إلى درجة أنهم أطلقوا عليها (قرآن بهلوى) أى قرآن الفارسية .

كذلك حاز جلال الدين مكانة رفيعة أيضا فى أفغانستان بحكم ميلاده ونشأته الأولى فى بلخ ويتمثل هذا الاهتمام فى عقد المؤتمرات والندوات العلمية حول مؤلفاته كما تخصص سهرات ببلخ لقراءة المثنوى بلهجة خاصة يتبعها العزف بالناى (٤٥) كما نال اهتماما خاصا فى تركيا حيث استقر فى آسيا الصغرى (الأناضول) ، وعاش ردحا طويلا من الزمن وظهر إنتاجه الأدبى هناك ، وكان له تأثير كبير على الشعراء العثمانيين .

كذلك قدر لأفكار جلال الدين أن تبعث من جديد فى العصر الحديث ، وأن توضع تحت دائرة الضوء من خلال فيلسوف باكستان ومفكرها وأديبها الذائع الصيت محمد إقبال ولم يقتصر الاهتمام بجلال الدين وأدبه على البلدان الإسلامية ، بل امتد إلى الغرب أيضا حيث تعددت الدراسات حول أدبه .

وقد شب جلال الدين عن الطوق وأدرك الحياة فى فترة تموج بالاضطراب وعدم الاستقرار والتنقل فيقال إنه أمضى عدة سنوات متنقلا مع أبيه بين عدد من البلدان الإسلامية إلى أن استقر به المقام فى قونيه بآسيا الصغرى لدى سلاجقة الروم[٤٦] وهناك رواية مشهورة عن مقابلة جلال الدين ووالده بهاء ولد لفريد الدين العطار فى نيسابور عام ٦١٨ هـ ويقال إن العطار أهدى نسخة من منظوماته اسرار نامه للصغير جلال الدين وتنبأ له بشأن عظيم فى عالم التصوف [٤٧].

وفى قونية قدر لجلال الدين أن يبزغ نجمه ويذيع أمره ويصبح من الشخصيات المرموقة كواعظ ثم صوفى وأديب وشاعر وكانت كل الظروف المحيطة به ممهدة لأن التصوف كان قد راج تماما آنذاك ، وجذب العامة والخاصة فكان السلاطين والأمراء يذهبون إلى مجالس الصوفية ، بل ويبعثون بهم أحيانا فى مهام ، أو يرسلونهم لطلب عقد صلح .

وقد أسس سلطان ولد بعد وفاة أبيه الطريقة المولوية ، وكان دراويش هذه الطريقة يرتدون زيا خاصا ويضعون تيجانا فوق رؤوسهم ويربط مشايخهم عمامة فوق تلك التيجان وقد تميزت هذه الطريقة بالسماع والرقص وقد ظلت ذكرى جلال الدين قائمة فى أغلب بلدان العالم الاسلامى بواسطة الطريقة المولوية التى انتشرت فى آسيا الصغرى وإيران والعراق والشام ومصر [٤٨] .

ولم يفتر الاهتمام بالمولوية بمرور الزمن فظلت مشيخة الطريقة قائمة فى قونية حتى عهد أتاتورك .

من أشعار جلال الدين الرومى :

ـ أصحاب القلوب الطاهرة الذين تحرروا من العلائق الدنيوية ، تتنزل عليهم النفحات متواترة دون توقف

ـ تركوا زخارف العلوم وقشورها ، ورفعوا راية عين اليقين

ـ غادرهم الفكر وغمرتهم الأنوار ، وأدركوا بر المعرفة وبحرها

ـ والموت الذى يفزع منه الجميع ، يستهين به هؤلاء القوم

ـ لا سبيل لأحد لقهر قلوبهم ، لأنهم صاروا مثل الصدف المملوء بالجواهر

ـ على الرغم من أنهم تجاوزوا النحو والفقه ، إلا أنهم فازوا بالمحو والفقر

- من هو طبيب الداء الذى لا دواء له ؟ ومن هو رفيق الدرب الذى لا نهاية له ؟

– ومن هو السراج المنير لعالم الخلد ، البعيد عن الكفر والإيمان ؟

– ومن هو بحر المطلق الغاص بالدرر ، والذى ينبع منه جوهر الإنسان ؟

– أيها المسلمون إننى لا أعرف نفسى فما هو الحل ؟

– فأنا لست مسيحيا ولا يهوديا ولا مجوسيا ولا مسلما

– ولست من الشرق ولا الغرب ولا من البر ولا من البحر

– لست جزءا من الطبيعة ولست من الأفلاك

– ولست من التراب ولست من الرياح ولست من الماء ولست من النار

– ولست من العرش ولست من الفرش ولست من الكون ولست من معادن الأرض .

– ولست من الدنيا ولست من العقبى ولست من الجنة ولست من النار

– ولست من آدم ولست من حواء ولست من فردوس الرضوان

– مكانى حيث المطلق ، وأثرى حيث لا أثر

– ووجودى ليس جسما ولا روحا بل إنه نفحة من روح الحبيب

– نزعت الاثنينية عن وجودى فرأيت كلا العالمين هو

– وهو من أبحث عنه ، ومن أترنم بذكره ومن أعرفه ومن أناديه

– هو الأول ، هو الآخر ، هو الظاهر ، هو الباطن

– لا أعرف شيئا آخر سواه ، ولا أقول إلا يا من هو

– إن كنت تنفست لحظة واحدة طوال عمرى بعيدا عنه

– فأنا نادم على ذلك الوقت وتلك اللحظة من عمرى .

ـ جاء في الحديث أن الله تعالى، جبل الخلق على ثلاثة أنواع

ـ مجموعة كلها عقل وعلم وجود ، وهى الملائكة التى لا تعرف إلا السجود

ـ لم تجبل على الحرص والهوى ، فهى نور مطلق تحيا بعشق الله

ـ وطائفة أخرى عديمة المعرفة ، ومنها الحيوان الذى يسمن بالعلف

ـ ولا يرى إلا الاصطبل والعلف ، غافلا عن التردى والشرف

ـ والنوع الثالث البشر وابن آدم ، ونصفه من الملائكة ونصفه الآخر من الحمار

ـ ونصفه البهيمى يميل إلى الحضيض ، ونصفه الآخر يهفو إلى السمو

ـ صدق الله فى قوله ، إن الدنيا لعب ولهو وإنكم أطفال

ـ إن حروب الخلق تشبه الصراع بين الأطفال ، كلها بلا معنى ولا قيمة ولا هدف

ومن رباعياته :

ـ أحاطنى ذلك الحبيب بنعمائه وعطفه ، أخاط لى المرقع من عروقى وجلدى

ـ فالجسد خرقه وهو الصوفى القابع داخل قلبى ، والعالم كله خانقاه وهو شيخى

ـ لا أنيس لى سوى العشق ، ولا أعرف له بداية من نهاية

ـ تهتف بى الروح من داخلى ، أيها المتمهل فى طريق العشق افتح لى الباب

ـ توجد صحراء بعيدا عن الكفر والاسلام ، يهفو وجودنا إلى رحابها

ـ إذا ما وصل العارف إليها أسلم رأسه ، فلا سبيل هناك للكفر ولا للإسلام

– فى مطبخ العشق لا يضحى إلا بالتقى ، ولا يضحى بضعاف النفوس سيئ الطباع

– إن كنت عاشقا صادقا فلا تهرب من القتل ، لأن الجيفة هو من لا يضحى به

– أسرار الحقيقة لا تنكشف بالسؤال ، ولا أيضا بفقدان الحشمة والمال

– ما لم تدم العين والقلب خمسين عاما ، لا يتيسر لأحد السبيل من القال إلى الحال

– لن أتخلى بسهولة عن أشجانى ، ولن أنزع قلبى عن الحبيب حتى أسلم الروح

– أعايش آلامى من الحبيب كالذكرى ، ولا أتخلى عنها بمائة ألف دواء

– بذكر الله ينطلق المرء إلى المطلق ، فانظر أى رونق يتأتى بنور الحق

– باطن الرجال هذا بحر للعجائب ، عندما تتلاطم أمواجه يصدر منه "أنا الحق"

– يا أهل الصفاء يا من تطوفون بالعالم ، لماذا أنتم حائرون على هذا النحو من أجل صنم

– إن ما تبحثون عنه فى هذا العالم ، عندما تبحثون عنه داخلكم ستجدون أنه أنتم

– طالما لا يفنى العبد عن وجوده فناء مطلقا ، لن يتحقق لديه التوحيد

– والتوحيد ليس حلولا إنه فناؤك ، وإلا لن يصير الباطل حقا جزافا

– ليس لى وجود يجعلنى أقترن بالحبيب ، ولا عقل أتخلص به من العشق

– ولا يد أطاول بها القضاء ، ولا قدم أهرب بها من كل ذلك

ـ أيها القلب إنك لم تطع السبحان لحظة واحدة ، و لم تندم عن أفعالك السيئة أبدا

ـ إنك صرت متعدد الجوانب ، صوفيا وفقهيا وزاهدا وعالما ، إلا أنك لم تصر مسلما

ـ أيها القلب أتعشق وتفكر فى وجودك ، تمارس السرقة وتهتم بالحارس

ـ تدعى المحبة أيها التافه ، ثم تفكر فى كلام هذا وذاك

ـ هو من يشغل قلبى من الداخل والخـــارج ، الروح والعروق والدماء داخل جسدى كلها هو

ـ فكيف يتسع هذا المكان للكفر والإيمان ، وكيف يتأتى وجودى ووجودى كله هو

ـ قيل إن الجهات الست كلها نور الله ، فتعالت صيحات الخلق : أين ذلك النور ؟

ـ وتطلع الغريب إلى كل صوب يمينا ويسارا ، فقيل له انظر لحظة بعيدا عن اليمين واليسار

ـ لنا لغة أخرى غير هذه اللغة ، ولنا مكان آخر غير الجنة والنار

ـ أصحاب القلوب الحرة يحيون بروح مختلفة ، فجوهرهم الطاهر من منجم آخر (٤٩)

٣ـ نشاط الطرق الصوفية :

ومع رواج التصوف وذيوعه فى الحياة الثقافية الإسلامية ، حفلت مجالس الصوفية بالغناء والرقص والذكر وسادت رسومهم وخفتت أمامها أصوات المعارضين ممن أقلقهم ذيوع بدع باسم الإسلام وقد نشطت الطرق الصوفية أيضا فى هذا العصر وكانت تعد امتدادا لتصوف الغزالى ومن أبرزها :

الطريقة القادرية نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلانى الذى ولد بجيلان عام ٤٧٠ هـ وقد نشر تلاميذه طريقته فى بلدان إسلامية عديدة ولا تزال طريقته موجودة بمصر .

الطريقة الرفاعية نسبة إلى الشيخ أحمد الرفاعى المتوفى عام ٥٧٨هـ والمنسوب إلى بنى رفاعة وهو قبيلة من العرب وقد وصلت طريقته إلى مصر عن طريق تلاميذه أيضا .

الطريقة السهروردية نسبة إلى أبى نجيب السهروردى وابن أخيه شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردى البغدادى ٥٣٩ - ٦٣٢ هـ مؤلف كتاب عوارف المعارف الذى يتضمن آداب هذه الطريقة وقد تأثر بالسهروردى وطريقته سعدى الشيرازى .

وفى القرن السابع الهجرى ظهرت الطريقة الشاذلية وانتقلت منه إلى مصر وغيرها وهى المنسوبة إلى أبى الحسن الشاذلى وأصله من شاذلة بتونس واستوطن بالاسكندرية ٦٤٢ هـ ومن تلاميذه الذين وفدوا معه الشيخ أبو العباس المرسى والذى خلفه فى قيادة الطريقة ثم مات فخلفه ابن عطاء السكندرى .

وفى القرن السابع تأسست الطريقة الأحمدية التى أسسها أحمد البدوى ٥٩٦ - ٦٧٥هـ الذى ارتحل من المغرب إلى مكة ثم إلى مصر .

الطريقة البرهامية أسسها الشيخ إبراهيم الدسوقى فى مصر وتوفى عام ٦٧٦هـ وانتشرت فى مصر وخارجها .[٥٠] .

٤ - ازدهار التصوف الفلسفي :

ازدهر فى ذلك العصر ما يسمى بـالتصوف الفلسـفى ، وهـو تصـوف ممـتزج بالفلسـفة ، تسـربت إليـه فلسـفات متعـددة يونانيـة وفارسية وهنديـة ومسيحية ويصـف الدكتـور التفتازانى [٥١] التصوف الفلسفى على النحو التالى : " ثمة طابع عام يطبع هـذا التصـوف الفلسفى ، وهو أنه تصوف غامض ، ذو لغة اصطلاحية خاصة ، ويحتاج فهـم مسـائله إلى جهد غير عادى ، ولا يمكن اعتباره فلسفة حيث أنه قائم على الذوق كما لا يمكن اعتباره تصوفا خالصا ، لأنه يختلف عن التصوف الخالص فى أنه معبر عنه بلغـة فلسـفية ، وينحـو إلى وضع مذاهب فى الوجود أساسا ، فهـو إذن بـين بـين " وقـد تعـرض هـذا النـوع مـن التصوف لهجوم الفقهاء لما أعلنوه من نظريات مثل وحدة الوجود والقطبية ووحدة الأديان وقد أعلنوها كنظريات متكاملة وليست مجرد عبارات .

ومن أبرز متفلسفة الصوفية فى هذا العصر :

أ - السهروردى المقتول بأمر صلاح الدين الأيوبى ٥٨٧هـ .

وعرفت حكمة السهروردى بالحكمة الإشراقية نسبة إلى الإشراق وهـو الكشـف أو نسـبة إلى المشارقة وهم أهل فارس وحكمتهم ذوقية تعتمـد علـى الإشـراق وهـو ظهـور الأنـوار العقلية وفيضانها فى النفس عند تجردها . وعند تقسيم السهروردى لمراتـب الحكمـاء قـال عن المرتبة الرابعة منها :

أما الحكيم الإلهى المتوغل فى البحث والتأله كالسهروردى فله الرئاسة فى وقته وهو الـذى يسمى بالقطب وهو أيضا خليفة الله وقد يكون خفيا ولا يخلـو منه العـالم . وكـان قولـه هذا سببا لهجوم فقهاء عصره عليه وقتله [٥٢] .

ب - ابن عربى : ٥٦٠ - ٦٢٨هـ

هو أبو بكر محمد بن على المعروف باسم ابن عربى وبألقـاب محى الديـن والشيخ الأكـبر وابن أفلاطون . ولد فى إحدى مدن أسبانيا فى سنة ٥٦٠هـ ، وهو من أسـرة نبيلـة غنيـة

وافرة التقوى قضى سنى طفولته فى وسط عامر بالزهد والتصوف كما تلقى تربية أدبية دينية كاملة ثم اتجه إلى التصوف وهو فى الحادية والعشرين من عمره .

عاش حياة حافلة بالأسفار والسياحة تنقل خلالها فى جميع البلاد الإسلامية فى المغرب والمشرق متعلما ومناقشا[٥٣] أما مذهب وحدة الوجود فهناك إجماع على أنه ظهر فى صورته الكاملة على يديه .

وأهم النظريات التى أتى بها ابن عربى :

أ - وحدة الوجود :

يقول ابن عربى إن ذات الله منزهة عن المعرفة وإن الحق يعرف عن طريق صفاته وهى الدنيا وإن الله يتخلل العالم بأكمله فيضا عن فيض ، وهو الفاعل الحقيقى لكل شىء ، ويقول : فسبحان من أظهر الأشياء وهو عينها :

فما نظرت عينى إلى غير وجهه ولا سمعت أذنى خلاف كلمه

ووجود العالم كوجود الظلال بالنسبة لأشخاصها ، والعالم فى نفسه ليس إلا خيالا وحلما يجب تأويله لفهم الحقيقة ، والوجود الحقيقى هو وجود الله[٥٤] .

ب - وحدة الأديان :

ترتب على قول ابن عربى بوحدة الوجود ، قوله بوحدة الأديان ، فإذا كان الإله الواحد متجلى فى صور جميع المعبودات ، فمن الخطأ أن يقصر الإنسان ربه على مجلى واحد دون غيره واستنتج من ذلك صحة الإيمان بكل المعتقدات فقال :

لقد صار قلبى قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألوح توراة ومصحف قرآن[٥٥]

جـ - الإنسان الكامل :

وملخص هذه النظرية هى أن الإنسان هو الكون الجامع لجميع حقائق الوجود وهو العالم الأصغر الذى انعكست فى مرآة وجوده كل كمالات العالم الأكبر لهذا استحق الخلافة ،

ولا يصدق ذلك إلا على أعلى مراتب الإنسان ، وهى رتبة الأنبياء والأولياء وأكملهم محمد (ص) والمقصود به الحقيقة المحمدية الأزلية الأبدية أو الروح المحمدى أو النور المحمدى الذى ظهر بصورة آدم ثم بصورة كل نبى بعده حتى ظهر أخيرا فى صورة الرسول (ص) وقد أضاف الشيعة أنه ظهر بعد ذلك فى صورة على وآل بيته كما قال الصوفية أنه امتد إلى صورة القطب عندهم .

والإنسان الكامل هو حلقة الوصل بين الله والعالم يستمد منه كل علم إلهى وكل وحى أو إلهام[٥٦] .

ومما لاشك فيه أن ابن عربى أثر تأثيرا كبيرا فى التصوف الإسلامى والأدب الصوفى على حد سواء ويقول المستشرق الأسبانى أسين بلاثيوس[٥٧] : لعل كاتبا لا يؤثر فى شعراء إيران تأثيرا خصبا أعظم من ابن عربى اللهم إلا جلال الدين الرومى " .

وإذا طرحنا المبالغة فى هذا الرأى جانبا ، نجد أن هناك تشابهاً بين جلال الدين وابن عربي فكما جمع جلال الدين كل التراث الصوفي السابق عليه في كتابه "المثنوي" بحيث صار هناك شبه إجماع على اعتبار المثنوي أفضل و اكمل منظومة صوفية كذلك تحتوي مؤلفات ابن عربي على كل الأفكار الصوفية السابقة هذا بالإضافة إلى ما تتسم به مؤلفاته من ضخامة وصعوبة ما زالت تحتاج إلى دراسة حتى الآن وقد ترك كل منهما أثراً عميقاً في التراث الصوفي .

الطريقـــة

يسمى من يخطو فى الطريق الصوفى بالسالك أو المريد أو رحل الطريق أو المسافر إلى الله ، وفى أثناء سيره للوصول إلى هدفه أى إدراك معرفة الحق تعالى يمر السالك بمراحل مختلفة .

والمراحل الخاصة بسلوك الطريق متنوعة ومختلفة وقد قسم الصوفية هذه المنازل والمراحل إلى مقامات وأحوال ويجب على السالك أن يجتاز هذه المقامات بالتدريج والترتيب حتى يصل إلى الحقيقة .

وقد اختلف الصوفية فى عدد المقامات والأحوال حيث تقوم الطريقة الصوفية على مجموعة من القواعد والرسوم التى يفرضها الشيوخ على مريديهم ولهذا لم يكن للطريقة صفات ثابتة محدودة لأن تعاليم كل طريقة ترجع إلى شيخها أو مرشدها .

تعريف المقامات والأحوال :

تعددت التعريفات الخاصة بالمقامات وتدل كلها على أن المقصود بالمقامات هو ما ينشأ للمريد فى مجاهداته وعباداته البدنية والنفسية من حالات روحية ونفسية ولا ينتقل المريد من مقام إلى المقام الذى يليه حتى يصل إلى درجة الكمال فيه ، وقد سمى المقام مقاما لثبوته واستقراره ، يتحقق به العبد آناء الليل وأطراف النهار . أما الحال فهو معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب وقد سمى الحال حالا لتحوله فهو يأتى وينصرف وليس بدائم فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب بمواهب .

وقالوا : الأحوال تأتى من غير الوجود والمقامات تحصل ببذل المجهود .

وقد اختلفوا فى عدد المقامات وترتيبها كما اختلفوا فى البعض مقام أم حال وفى الفرق بين المقام والحال .

ويوضح ابن القيم فى كتابه مدارج السالكين الصلة بين المقامات والأحوال فيقول :

والصحيح أن هذه الواردات والمنازل لها أسماء باعتبار أحوالها فتكون لوامع وبوارق ولوائح عند ظهورها وبدوها كما يلمع البارق ويلوح على بعد ، فإذا نازلته وباشرها فهى أحوال ، فإذا تمكنت منه وثبتت له من غير انتقال فهى مقامات ، وهى لوامع ولوائح فى أولها ، وأحوال فى أوسطها ، ومقامات فى نهايتها ، فالذى كان بارقا هو بعينه الحال ، والذى كان حالا هو بعينه المقام ، وهذه الأسماء له باعتبار تعلقه بالقلب وظهوره له وثباته فيه[٥٨]

أما الهجويرى[٥٩] فيقول :

" اعلم أن كل ماهو من المقام يعتبر من الأعمال وكل ما هو من الحال يعد من الأفضال وأن المقام من جملة المكاسب والحال من جملة المواهب ، فصاحب المقام إنما هو قائم بمجاهدته ، وصاحب الحال إنما هو فان عن نفسه ".

ويخلف المشايخ فى دوام الحال أو عدم دوامها فهناك طائفة يمثلها الحارث المحاسبى تقول بجواز دوام الحال . حيث إن المحبة والشوق مثلا أحوال وإذا لم يكن جائزا دوامها فلن يكون المحب حينئذ محبا ولا المشتاق مشتاقا ، وإذا لم تكن هذه الحال صفة للعبد فلا يمكن أن يتسمى بها .

وهناك طائفة أخرى يمثلها الجنيد تقول بعدم دوام الحال لأن الأحوال كالبروق فإن بقيت فحديث النفس ومعنى ذلك أنها كالبورق تلوح ولا تدوم وما بقى منها فليس هو الحال بل هو حديث النفس وهوى الطبع[٦٠] .

ولكل مقام بدء ونهاية وبينهما أحوال متفاوتة .

وأقدم من تحدث عن المقامات والأحوال هو الطوسى[٦١] فى كتابه اللمع حيث ذكر سبعة مقامات وعشر أحوال .

المقامات :

التوبة ـ الورع ـ الزهد ـ الفقر ـ الصبر ـ التوكل ـ الرضا ـ .

الأحوال :

المراقبة ـ القرب ـ المحبة ـ الخوف ـ الرجاء ـ الشوق ـ الأنس ـ الطمأنينة ـ المشاهدة ـ اليقين .

التوبـــة :

التوبة فى اللغة معناها الاعتراف والندم والإقلاع والعزم على ألا يعاود الإنسان ما اقترفه .

ويتفق الصوفية على أن التوبة هى أول مقام فى المقامات الصوفية والمقصود بالتوبة الشعور الذى يطرأ على المرء بفداحة ما ارتكبه من آثام عندما ضل طريقه وابتعد عن خالقه .

كيف تحدث التوبة :

تزخر الكتب الخاصة بتراجم أحوال الصوفية بقصص تتحدث عن حوادث ظهرت لهم فى المنام أو فى عالم اليقظة جعلتهم يسلكون الطريق .

ومن أشهر هذه القصص قصة عن إبراهيم بن أدهم فيروى أنه بينما كان مستلقيا على سريره ذات ليلة سمع ضجة على سطح قصره فسأل عن السبب فقالوا له : إنا فقدنا بعيرا نبحث عنه على سطح القصر فقال متعجبا كيف تبحثون عن البعير الضال فوق سطح قصرى ؟ فأجابوه قائلين وأنت كيف تبحث عن طريق الوصول إلى الله وأنت على سرير الملك ؟

وكانت هذه الكلمات هى السبب فى تركه الملك وسيره فى الطريق[٦٢] . ويروى أيضا عن الفضيل بن عياض أحد أعلام الصوفية فى عصر هارون الرشيد أنه كان فى شبابه لصا يقطع الطريق على قوافل المسافرين وكان يحب جارية يتسلل إليها ليلا ، وذات ليلة بينما كان يتسلق إليها الجدار سمع هاتفا من السماء يقول : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) فتوقف اللص عن الصعود وتاب وسار فى طريق الله[٦٣] .

والتوبة هى نتيجة لفضل الله ورحمته دون سبب أو واسطة ، وقد عبرت عن هذا المعنى رابعة العدوية عندما سألها رجل عاص قائلا : لقد أكثرت من الذنوب والمعاصى فلو تبت هل يتوب الله على ؟ فكانت إجابتها : لا بل لو تاب عليك لتبت[٦٤] .

ومقام التوبة ـ مثل كافة المقامات والأحوال الصوفية يستند إلى الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة :

ومن الآيات :

(ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا)[٦٥]

(وتوبوا إلى الله جميعا)[٦٦]

(إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)[٦٧]

ومن الأحاديث :

- ما من شيء أحب إلى الله من شاب تائب .

- التائب من الذنب كمن لا ذنب له .

- توبوا إلى الله فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة .

ومن شروط التوبة :

١ - الندم على ما عمل من المخالفات .

٢ - العزم على عدم تكرار المعصية .

٣ - تطهير النفس وترك الزلة فى الحال [٦٨] .

التائب ونسيان الذنب :

يرى بعض الصوفية وجوب نسيان التائب لذنوبه بينما يرى آخرون العكس .

فوجوب عدم نسيان المرء لذنوبه حتى لا يكون معجبا بحسناته ، أما وجوب النسيان فلأن التوبة تتحقق بنسيان الذنوب ولأنه يجب على التائب ألا يذكر نفسه بعد التوبة وبالتالى لا يذكرون ذنوبهم.

مقامات التوبة[٦٩] :

١ - **التوبة :** وهى الخوف من العقاب وهو مقام عام للمؤمنين ، وتتمثل فى الرجوع من الكبائر إلى الطاعة ومن الخطأ إلى الصواب مصداقا لقوله تعالى : (يأ يها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا)[٧٠] .

الإنابة : وهى مقام الأولياء والمقربين وتتمثل فى طلب التواب والرجوع من الصغائر إلى المحبة ومن الصواب إلى الأصوب . مصداقا لقوله تعالى : (من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب)[٧١] .

الأوبة : وهى مقام الأنبياء والمرسلين ، وهى مراعاة الأمر والطمع فى رضاء الله وحبه والرجوع من النفس إلى الله ومن الصواب إلى الحق . مصداقا لقوله تعالى : (نعم العبد إنه أواب)[٧٢] .

تعريفات التوبة :

توجد تعريفات كثيرة للتوبة فقد عرفها كل صوفى بطريقته ومنها :

سهل بن عبد الله : التوبة أن لا تنسى ذنبك .

الجنيد : التوبة هى نسيان ذنبك .

ذو النون المصرى : توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة .

أبو الحسن النورى : التوبة أن تتوب من كل شيء سوى الله تعالى.[٧٣]

من أشعار التوبة :

ـ سمع ذلك التقى وهو فوق سريره ليلا ، جلبة وضجة صادرة من السقف

ـ وخطوات متسارعة فوق سطح القصر . فقال فى سريرته : من يجرؤ عل فعل ذلك !؟

ـ ونادى من نافذة القصر قائلا : من ؟ إن هذا ليس بشرا مثلنا ، إنه من الجان

ـ فأطل قوم برؤوسهم ـ وياللعجب ـ قائلين : نحن نتجول ليلا نبحث عن بغيتنا

ـ فقال لهم : ويحكم عما تبحثون ؟ قالوا : بعير قال : ومن ذا الذى يبحث عن بعير فوق سطح !؟

ـ قالوا له : وأنت كيف تبحث عن لقاء الله وأنت فوق سرير الملك والجاه .

ـ اسلك طريق الطلب على أية حال تكون عليها ، وابحث عن الماء دائما أيها العطش

ـ إن شفتيك الظمآنتين تشيران إلى أنهما ستتجهان فى النهاية إلى أصل المنبع

ـ الشفة العطشى رسالة من الماء تقول : إن هذه المعاناة سوف تحضرك إلينا يقينا

ـ إن هذا الطلب جهاد مبارك فهو يزيل العقبات فى الطريق إلى الحق

ـ هذا الطلب مفتاح آمالك ، وهو جيش نصرك ورياتك .

ـ للتوبة باب من ناحية الغرب ، مفتوح أمامك حتى يوم القيامة

ـ ويظل مفتوحا حتى تشرق الشمس من الغرب ، فلا تحد عنه

ـ وللجنة ثمانية أبواب للرحمة ، باب التوبة واحد منها يا بنى

ـ والأبواب الثمانية تفتح أحيانا وتغلق أحيانا أخرى ، إلا باب التوبة لا يكون إلا مفتوحا

ـ فاغتنم الفرصة وسارع ، فالباب مفتوح ، واحمل متاعك إليه ، ولتكف عين الحسود [٧٤] .

الـــورع

المقصود بالورع الابتعاد عن الشبهات وقد استندوا إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبويـة للتدليل على أهمية هذا المقام ومنها :

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم)[٧٥]

ومن أقوال الرسول (ص) :

- "إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، الحـلال بـين والحـرام بـين وبينهمـا أمـور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومـن وقـع فـى الشـبهات وقع فى الحرام" .

- دع ما يريبك إلى ما لايريبك .

- ملاك دينكم الورع .

- الإثم ما حاك فى صدرك .

- استفت قلبك وإن أفتاك المفتون .

وروى عن الحارث المحاسبى[٧٦] أنه كان لا يمد يده إلى طعـام فيـه شـبهة وأنـه كـان علـى طرف إصبعه الوسطى عرق إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك العرق .

وحكى عن بشر الحافى[٧٧] أنه حمل إلى دعوة فوضع بين يديه طعام فجهد أن يمد يده إليـه فلم تمتد ، ثم جهد فلم تمتد ثلاث مرات فقال رجل ممن كان يعرفـه : إن يـده لا تمتـد إلى طعام حرام أو فيه شبهة ما كان أغنى صاحب هذه الدعوى أن يدعو هذا الرجـل إلى بيتـه وأمثال هذه القصص كثيرة فى كتب التصوف .

درجات الورع : وقد قسم صاحب كتاب اللمع[٧٨] أهل الورع إلى ثلاث طبقات :

١ - التورع عن الشبهات وهي الأشياء التى تقع بين الحرام البين والحلال البين ، وبمجرد أن يشعر الإنسان الورع بشبهة أو شك فى شىء يتركه فورا . وهو ورع العموم .

٢ - ورع أهل القلب أى ورع شخص يترك شيئا بمجرد شعوره بعدم رغبة قلبه فى ذلك الأمر . وهو ورع الخصوص .

٣ - ورع العارف الواصل وهو كما قال أبو سليمان الدارانى : كل ما شغلك عن الله فهو مشئوم عليك .

وكما قال سهل بن عبد الله حين سئل عن الحلال الصافى فقال : الحلال الذى لا يعصى الله فيه والحلال الصافى الذى لا ينسى الله فيه .

وقال الشبلى عن الورع :

أن تتورع ألا يتشتت قلبك عن الله عز وجل طرفة عين .

والورع بهذه المعانى هو ورع خصوصى الخصوص.

من أشعار الورع عند العطـار :

ـ يا بنى كن ثابت القدم فى الورع ، إن أردت أن يعلو شأنك

ـ منزل الدين يعمر بالورع ، لكنه يخرب بالطمع

ـ كل من يبرز فى علم الورع ، يجب أن يبتعد عن كل ما سوى الله

ـ كل من أخذ نفسه بالورع تكون حركاته وسكناته من أجل الله

ـ كل من يطمع فى حب الله اعتبره كاذبا إن لم يتحل بالورع

ـ يتأتى الزهد من الورع ومن لا يتصف بالورع ، يفتضح أمره

ـ ماهى التقوى ؟ إنها الابتعاد عن المحرمات : من اللباس والشراب والطعام

ـ وكل زائد وإن كان حلالا وبال عند أهل الورع

ـ عندما يقترن الورع بالعلم والعمل ، يجب ألا يشوب إخلاصك خلل[٧٩] .

الزهـــد

يذكر صاحب اللمع[٨٠] أن من لم يحكم أساسه فى الزهد لم يصبح له شىء مما بعده لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة والزهد فى الدنيا رأس كل خير وطاعة .

وكما سبق فقد اعتصم الصوفية الأوائل بما يتضمنه الدين الإسلامى من معان تفيد معنى الزهد فكان الزهاد هم رواد التصوف الإسلامى .

ومن الآيات البينات التى استشهدوا بها فى هذا الصدد :

قوله تعالى : (قل متاع الدنيا قليل) النساء (٧٧)،

وقوله عز وجل : (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب) العنكبوت ٦٤.

وقوله سبحانه : (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) الحديد ٢٣ .

ومن أقوال الرسول (ص) : " إذا رأيتم الرجل قد أوتى زهدا فى الدنيا ومنطقا فاقتربوا منه فإنه يلقن الحكمة " .

والزهاد على ثلاث طبقات :

١ - المتدئون : وهم الذين خلت أيديهم من الأملاك ، وخلت قلوبهم مما خلت منه أيديهم .

وكما قال الجنيد : تخلى الأيدى من الأملاك وتخلى القلوب من الطمع .

٢ - ترك حظوظ النفس من جميع ما فى الدنيا وهذا زهد المتحققين .

٣ - وهم الذين زهدوا فى زهدهم وتابوا عن زهدهم وقد عبر الشبلى عن هذا المعنى بقوله : الزهد غفلة لأن الدنيا لا شىء والزهد فى لا شىء غفلة .

تعريفات الزهد : وقد تعددت تعريفات الزهد بتعدد الصوفية ومنها :

قال مالك بن دينار : سألت الحسن ما هى عقوبة العالم ؟ قال : موت القلب قلت ما هو موت القلب ؟ قال حب الدنيا .

الفضيل بن عياض : زهد العبد فى الدنيا على قدر رغبته فى الآخرة .

ذو النون المصرى : الزهاد ملوك الآخرة .

سفيان الثورى : الزاهد هو الذى يحقق الزهد بفعله فى الدنيا والمتزهد من كان زهده بلسانه وقال : ليس الزهد فى الدنيا ارتداء الخرقة وأكل خبز الشعير ولكنه عدم تعلق القلب بالدنيا وتقصير الأمل .

وربما يكون فى تعبير على بن أبى طالب رضى الله عنه ما يشير إلى جوهر الزهد كما يتفق مع روح الإسلام حيث قال : إن الزهد ليس فى عدم تملك الأشياء وإنما هو ألا تتملكك الأشياء .

من أشعار الزهد عند العطار :

ـ الدنيا تشبه الحية التى تنفث سما ، وإن بدا لك ظاهرها جميلا مزركشا .

ـ تبدو جميلة بهية للعيون ، لكن سمها مهلك للأرواح .

ـ سم هذه الحية المزينة قاتل ، والعاقل من يعرض عنها .

ـ لا تنشغل بالأحمر والأصفر مثل الأطفال ، ولا تغتر باللون والرائحة مثل النساء .

ـ تعلق القلب بهذه الدنيا الوضيعة خطأ ، الأجدر بك أن تعرض عنها .

ـ عمر الحياة خمسة أيام لا أكثر ، وغافل من يأمل فى المزيد ، فلا خلود .

ـ يجب ترك لذات الحياة ، واقتفاء أثر العارفين .

ـ لا تتبع أهواء النفس ، ولا تتعلق بالعالم الفانى .

ـ أليس محصلة الحياة هى اقتناصك

والعاقبة الحتمية هى موتك[٨١] .

الفقـــر

تمتلىء كتب التصوف بعبارات كثيرة فى مدح الفقر وفائدته وقد استشهدوا فيما ذهبوا إليه بما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

أمثلة :

(واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم)[٨٢] .

(الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا)[٨٣] .

(والله الغنى وأنتم الفقراء)[٨٤] .

أحاديث :

" إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتى المال "

" يدخل فقراء أمتى الجنة قبيل أغنيائهم بخمسمائة عام "

" ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس "

كذلك تأسى الصوفية بحياة الرسول (ص) وسيرته ، واعتبروا الفقر المحمدى نبراسا لهم .

الفقر والزهد : كل فاقد للمال يسمى فقيرا وانزواء الدنيا عن العبد تسمى فقرا والفقر عند الصوفية مقام يلى مقام الزهد .

أما الغزالى[٨٥] فقد اعتبر الزهد درجة من درجات الفقر فالزاهد لو أتاه المال كرهه وتأذى به ويحدد الفرق بين الفقر والزهد كما يلى :

"لا مطمع فى النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد عنها لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرا وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا ولكل منهما درجة فى نيل السعادات "

وقد حدد الغزالى خمس درجات للفقر هى :

١ ـ الزاهد الراضى وهو الذى لا يفرح بالمال ولا يكرهه .

٢ ـ القانع وهو الذى إن أتاه المال عفوا أخذه وفرح به .

٣ ـ الحريص وهو من يطلب المال .

٤ ـ المضطر مثل الجائع .

٥ ـ المستغنى وهو أعلى درجة منهم جميعا وهو الفقير الحقيقى .

ولم يشترط البعض الفقر فى الزهد فقالوا إن الزهد لا يعنى قلة المال وأنه من الممكن أن يوجد فقر بغير زهد كما يمكن أن يوجد زهد بدون فقر وأهمية الزهد تنحصر فى ترك الأسباب والتوجه إلى مسبب الأسباب[٨٦] . أما الطوسى[٨٧] فقد رأى وجوب ارتباط الزهد بالفقر فيقول : إن الزهد يقتضى معانقة الفقر واختياره .

فضيلة الفقر : أجمع أغلب شيوخ الصوفية على تفضيل الفقر على الغنى واستندوا فى ذلك إلى الآيات والأحاديث وسيرة الرسول (ص) ، والفقر لديهم يهذب النفس ويعود المرء على خشونة الحياة ولم يكن الصوفية كارهين للمال لأنهم ليسوا أغنياء بل إن منهم من ترك ماله وأصبح فقيرا كإبراهيم بن أدهم مثلا .

فالمال يورث الأنس بهذا العالم ويجعل المرء يستوحش من الآخرة[٨٨] واعتبروا الفقراء صفوة الله عز وجل من عباده ومواضع أسراره بين خلقه بهم يصون الحق الخلق وببركاتهم يبسط عليهم الرزق والفقراء الصبر جلساء الله تعالى يوم القيامة[٨٩] .

ومقام الفقر هام فى طى مراحل الطريق الصوفى ، يقول القشيرى[٩٠] ضمن رسالة ترتيب السلوك : ويشترط الأستاذ على المريد أن يختار الفقر على الغنى والذل على العز ....." ويقول الغزالى[٩١] الفقر هو الأشرف والأفضل والأصلح لكافة الخلق إلا فى موضعين :

١ ـ غنى مثل غنى عائشة رضى الله عنها ـ إذ أتاها مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها من يومها والمرء فى هذه الحالة يسمى "المستغنى" يرى الأموال فى خزانة الله تعالى إن وجده لم يفرح به ويكون الوجود مزيدا له إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين

وفى هذا المعنى يقول الجنيد : إذا صح الافتقار إلى الله عز وجل فقد صح الاستغناء بالله تعالى وإذا صح الاستغناء بالله تعالى كمل الغنى به .

٢ ـ الفقر إلى حد لا يستطيع الفقير معه التغلب على الكفر والمعاصى فإن ذلك يكاد يكون كفرا .

فضيلة الغنى : اتفق بعض شيوخ الصوفية على أن الغنى أفضل من الفقر .

يقول ابن عطاء : الغنى الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر ويقول إن الغنى أفضل لأنه وصف الحق .

ويرى أصحاب هذا الرأى أن الغنى خلقه الله تعالى سعيدا فى الدارين ومن عليه بالغنى كما أن الله أمر بالشكر على الغنى والصبر فى الفقر فالصبر يكون فى البلاء والشكر فى النعماء والنعماء أفضل من البلاء .

وقد رفض من قالوا بفضيلة الفقر هذه الآراء وقالوا إن صفات الربوبية لا ينبغى على الإنسان أن ينازع فيها والفقر اسم لائق بالخلق ولا يجوز على الحق وغنانا يكون بوجود الأسباب وهو مسبب الأسباب وليس لغناه سبب .

أما الغزالى فقد وافق على اتصاف الخلق بالغنى ولكن بشرط وهو أن يكون العبد غنيا عن وجود المال و عدمه (المستغنى) ، كما أجاز اتصاف العبد بصفات الحق وحجته فى ذلك :

١ـ أن العلم من صفات الله عزوجل وهو أفضل شئ للعبد .

٢ـ سمع من بعض المشايخ أن سالك الطريق قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أو صافاله أى يكون له من كل واحد نصيب

٣- بالنسبة للتكبر وعدم لياقته للعبد يرى أن التكبر كصفة لله تعالى ليس الصلف والزهو بل هو القدرة والتفوق كتكبر المؤمن على الكافر مثلا. كذلك ذكر الهجويرى أن الصبر أفضل من الشكر فصبر الفقير يزيده تقربا من الله تعالى مصداقا لقوله :(إن الله مع الصابرين) (٩٢) .

آداب الفقر :

قسم الصوفية آداب الفقر إلى آداب الباطن وآداب الظاهر وآداب الأعمال وآداب السؤال.

آداب الباطن :

١- الدرجة الرفيعة هى أن يكون الفقير طالبا للفقر وفرحا به لعلمه بغوائل الغنى ويكون متوكلا فى باطنه على الله . مثل إبراهيم بن أدهم .

٢- آلايكون الفقير كارها للفقر بل راضيا به وصابرا عليه

٣- لايكون كارها فعل الله من حيث إنه فعله وأن كان كارها للفقر .

أما آداب الظاهر .

فهى أن يظهر الفقير التعفف والتجمل ولايظهر الشكوى والفقر بل يسترفقره .

آداب الأعمال :

عدم التواضع لغنى لأجل غناه بل التكبر عليه والدرجة الأقل هى عدم مخالطة الأغنياء لأن ذلك من مبادئ الطمع كذلك الالتزام بالعبادات وبذل القليل الذى يفيض عن حاجته أما إذا أراد أن يدخر بعض المال فقد وضعوا قواعد لذلك وهى :

(أ) ألا يدخر إلا ليومه و ليلته وهى درجة الصديقين .

(ب) أن يدخر لمدة أربعين يوما فإن ما زاد عليه داخل فى طول الأمل وهى درجة المتقين .(ج) أن يدخر لسنته وهو غاية الغنى وهى رتبة الصالح الضعيف ومن زاد فى الادخار خرج من زمرة الخصوص .

آداب السؤال :

حرم الصوفية السؤال لأنه يعبر عن الشكوى من الله كما أن فيه إذلالا للسائل إلاأنهم أباحوه لضرورة ووضعوا لذلك شروطا أيضا [٩٣] .

من أشعار الفقر عند المولوى

ـ للدراويش بعيدا عن الملك والمال ، رزق واسع من ذى الجلال .

ـ الحق تعالى عادل ، ومتى يظلم العادل رجال الطريق ؟

ـ حاشا لله أن أسئ الظن بالفقراء ، تعظيما للملوك .

ـ هؤلاء الفقراء الأ طهار الأتقياء ، الذين نزلت عبس تعظيما لهم .

ـ ليس العدم هو نصيب الفقير، بل هو لايسعى لشئ سوى الحق .

ـ دعك من ذلك الفقير الذى يقتضى أثر الطعام ، ما يلزمنا فقير حقيقى مثل أبى يزيد .

ـ ليس للعشاق شأن بالوجود ، نفع العشاق فى عدم الإملاك

ـ الفقير الذى أدرك هذا المعنى ، كف يده واكتفى بنسج السلال .

ويقول العطـــار :

ـ ماتا أعجب ما يتأتى من الفقر ، فقد طبق صيته الآفاق ووصل حتى العرش والعرش .

ـ وأى خوف من الفقر فالفقر فخر ،إنه خال الوجه فى الدارين[٩٤] .

الصـــــبر

لمقام الصبر فضيلة كبرى عند الصوفية فقد ذكره الله جل شأنه في نيف وسبعين موضعا في القرآن الكريم أضاف فيها أكثر الخيرات و الدرجات إلى الصبر وجعلها ثمرة له كما جمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم[٩٥]

يقول تعالى :(ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)[٩٦]

ويقول عز من قائل : (واصبروا إن الله مع الصابرين)[٩٧].

ويقول جل وعلا : (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)[٩٨]

والحق تعالى أمر جميع أنبيائه بالصبر و خص الرسول (ص) بأعلى درجاته فقال له :(واصبر وما صبرك إلا بالله)[٩٩] . ولابد للصوفي من مقام الصبر لأنه من مقامات النبوة فما من نبي إلا ووصف بهذه الصفة . والسير في مقامات السلوك يقتضي الصبر فكما قال بعض الصوفية الصبر نصف الإيمان بل الإيمان كله فأداء كل فريضة وترك كل معصية لايتم إلابالصبر[١٠٠]

ويشرح الغزالي[١٠١] أنواع الصبر فيقول : اعلم أن الصبر ضربان أحدهما ضرب بدني كتحمل المشاق سواء بالأعمال الشاقة من العبادات أوغيرها أوبالاحتمال مثل المرض الشديد وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر النفسي عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى والصبر علىمقتضيات الهوى يشتمل على أخلاقيات كثيرة مصداقا لقوله تعالى :(والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس)[١٠٢] فالصابر هنا صابر في صبره ولاينتظر الفرج.

وللصبر أهمية كبرى ليس فقط في الضراء ولكن في السراء أيضا فما أحوج العبد إلى الصبر مع وجود الصحة والسلامة والمال والجاه ويقال إنه لما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا و ابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر لذلك حذر الله عباده من فتنة المال و الزوج والولد .

لذلك على الإنسان ألايركن إلى النعماء وأن يعلم أن كل ذلك مستودع عند ينهمك فى التنعم وأن يرعى حقوق الله فى ماله بالإنفاق وفى بدنه ببذل المعونة لل وفى لسانه ببذل الصدق وكذلك فى سائر ما أنعم الله تعالى به عليه فلا يتم الصبر و السراء إلابالشكر و القيام بحق الشكر [١٠٣] وطاعة الله وأوامره كلها تحتاج إلى ال فالطاعات تنقسم إلى فرض ونفل وقد جمعها الله تعالى فى قوله :(إن الله يأمربال والإحسان وإيتاء ذى القربى)[١٠٤] فالعدل هو الفرض والإحسان هو النفل وإيتاء القربى هو المروءة وصلة الرحم وكل ذلك يحتاج إلى صبر[١٠٥] .

كذلك يحتاج الصابر المطيع لله إلى الصبر عن إفشاء عمله و التظاهر به للسمعة والر مصداقا لقوله تعالى : (ولاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى)[١٠٦] فمن لم يصبر بعد الص عن المن والأذى فقد أبطل عمله .

والصبر واجب على كل ما نهى الله عنه من معاص سواء معاصى اللسان أو بق الجوارح ، والصبر واجب كذلك على المصائب مثل موت الأحبة و هلاك الأمو وغيرها.

ومن الأحاديث التى وردت فى هذا الصدد :إن الصبر عند الصدمة الأولى . وقد قس الطوسى[١٠٧] الصبر على ثلاثة أوجه متصبر و صابر و صبار .

فالمتصبر من صبر فى الله تعالى فمرة يصبر على المكاره ومرة يعجز .

والصابر من يصبر فى الله و لله ولايجزع ولايتمكن منه الجزع كما حكى عن ذو النو المصرى : دخلت على مريض أعوده فبينما كان يكلمنى أن أنة فقلت له ليس بصادق فى حبه من لم يصبر على ضربه فقال : بل ليس بصادق فى حبه من لم يتلذذ بضربه .

أما الصبار فذاك الذى صبره فى الله و لله وبالله فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لايعج ولا يتغير وتزخر الكتب بتعريفات كثيرة للصبر يحمل كل تعريف منها بعدا معينا من أبعا الصبر أو يوضح أهميته و من هذه التعريفات :

على بن أبى طالب : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

أبو على الدقاق : فاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من الله تعالى معية قال الله تعالى: إن الله مع الصابرين[١٠٨] ومن أقوالهم أيضا ما قيل عن المصابرة إنها هى الصبر على الصبر حتى يستغرق الصبر فى الصبر فيعجز الصبر عن الصبر[١٠٩] .

من أشعار الصبرعند المولوى :

ـ إن التأنى يقينا يكون من الرحمن ، أما تسرعك فهو من الشيطان اللعين .

ـ وهذا التأنى نفحات من الرحمن ، وتلك العجلة من وساوس الشيطان

ـ لأن من يخيفه الشيطان بالفقر ، يسقط دعائم صبره إلى القاع

ـ العجلة والسرعة من مكر الشيطان ، والصبر والأحتساب من لطف الرحمن

ـ بالتأنى ظهر الوجود بقدرة الله ، فتكونت الأرض والأفلاك فى ستة أيام

ـ وإلافإنه كان قادرا بكن فيكون ، أن يخلق مائة أرض وفلك

ـ وذلك القادر يخلق الإنسان متدرجا ،حتى يجعله رجلا كاملا فى الأربعين

ـ مع أنه يستطيع فى لحظة واحدة، أن يخلق خمسين شخصا من العدم .

ـ خلق الحق مئات الآلاف من الإكسيرات ، و لم يرأحد كيمياء مثل الصبر .

ـ اجعل الصبر قرينا للحق يافلان ، ثم اقرأ آخر سورة (والعصر)

ـ الصبر يحقق الآمال وليست العجلة ، فاصبر والله أعلم بالصواب .

ـ قال الرسول (ص) : لم ينعم الله بالإيمان ، على من لايتحلى بالصبر[١١٠]

التوكـــــل

التوكل مقام رفيع عند الصوفية لا يدركه سـوى الخـواص مـن العـارفين لأنـه كلمـا ازد الإنسان معرفة بربه ازداد اعتماده عليه ، فيرى كل شئ صادرا منه ،ولافاعل سواه ، وق أمر الله تعالى بالتوكل وجعله مقرونا بالإيمان .

يقول تعالى : (وعلى الله فليتوكل المؤمنون)[١١١]

ويقول عزوجل : (و من يتوكل على الله فهو حسبه)[١١٢]

ويقول جل وعلا : (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين)[١١٣]

ويقول عز من قائل : (وعلى الله فليتوكل المتوكلون)[١١٤]

وغيرها من الآيات البينات

والتوكل عند الصوفية درجات :

١ـ الدرجة الأولى منها أن يكون حال المتوكل فى الثقة بالله كحاله فى الثقة بالوكيل وهـ ما اعتبروه توكل المؤمنين وقد عبر عنه أبو تراب النخشبى حين سئل عن التوكل بقوله إنـ طرح البدن فى العبودية و وتعلق القلب بالربوبية و الطمأنينة إلى الكفاية فإن أعطى شـك وإن منع صبر راضيا موافقا للقدر

٢ـ الدرجة الثانية وهى أقوى أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مـع أمـه لايفـز إلى أحد سواها وهو توكل أهل الخصوص وقد عبروا عنه بأن من توكـل علـى الله لغيـ الله لم يتوكل على الله فى توكله حتى يتوكل على الله بالله لله و يكون متوكـلا علـى الله فى توكله لا لسبب آخر .

٣ـ والدرجة الثالثة وهى أعلاها أن يكون بين يدى الله تعالى فـى حركاتـه وسـكناته مثـل الميت بين يدى الغاسل لايفارقه إلافى أنه يرى نفسه ميتا تحركه القدر الأزلية .وهو توكـل خصوص الخصوص وقد عبر الشبلى بقوله أن تكون لله كمـا لم تكـن ويكـون الله تعـالى لك كما لم يزل . وفى قول آخر . هو الإيواء لله وحده فى جميع الأحوال[١١٥] .

وتزخر كتب التصوف بقصص و حكايات لا حصر لها عن التوكل بالغوا فى أغلبها أيما مبالغة وربما كان التوكل ومبالغات الصوفية فيه والفهم الخاطئ له من قبل البعض هو ما أضفى على التصوف سلبيات مثل وجود عدد كبير من الزهاد أقوياء الأجسام اتخذوا من التوكل ذريعة للعيش عن طريق الصدقات إلا أن المعتدلين من الصوفية قالوا إن التوكل لايعنى ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة فإن ذلك حرام فى الشرع فالشرط فى التوكل هو الاعتماد على فضل الله تعالى لاعلى الأسباب[١١٦] .وفى هذا الصدد يذكرون حديث الرسول (ص) : (جاء رجل على ناقة له فقال : يا رسول الله أدعها وأتوكل ؟ فقال اعقلها و توكل)[١١٧]

وسعى الإنسان لايتنافى مع توكله وفى هذا يقول القشيرى : التوكل محله القلب والحركة بالظاهر لاتنافى التوكيل بالقلب بعدما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى فإن تعسر شئ فبتقديره وإن اتفق شئ فبتيسيره .

وتتعدد وتتنوع تعريفات التوكل حيث يعبر كل تعريف عن تجربة خاصة أو عن رؤية عامة : أبو على الدقاق : للمتوكل ثلاث درجات : التوكل ثم التسليم ثم التفويض فالمتوكل يسكن إلى وعده (أى بلا تعلق بغيره) وصاحب التسليم يكتفى بعلمه وصاحب التعويض يرضى بحكمه والتوكل بداية والتسليم واسطة والتفويض نهاية والتوكل صفة المؤمنين والعوام والتسليم صفة الأولياء والخواص والتفويض صفة الموحدين و خواص الخواص[١١٨] .

أبوبكر الدقاق : التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد

رويم : التوكل الثقة بالوعد

ذو النون : التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع من الحلول والقوة

الجنيد : التوكل اعتماد القلب على الله تعالى[١١٩].

من أشعار المولوى عن التوكل :

ـ قال الجميع أيها الحكيم المطلع ، دع الحذر فليس يغنى عن قدر

ـ المبالغة فى الحذر أمر سيئ و شر ، فاذهب وتوكل فالتوكل أفضل

ـ لاتصارع القضاء أيها المتسرع المحتد حتى لا يعاندك القضاء أيضا

ـ يجب أن تستسلم تماما لأمر الحق حتى لايلحق بك غضبه

ـ قال : نعم إن كان التوكل مرشدا فالأخذ بالأسباب من سنة الرسول أيضا

ـ فقد قال الرسول بصوت مرتفع اعقلها وتوكل

ـ فاصغ إلى ماساقه الكاسب حبيب ا لله من رمز ولا تتوان عن الكسب بسبب التوكل

ـ اذهب وتوكل مع الأخذ بالأسباب ياعماه وجاهد واسع فى الكسب لحظة بلحظة

ـ جاهد وابذل السعى لتتحرر وإذا تقاعست عن السعى فأنت أبله

ـ لايوجد كسب أفضل من التوكل وأى شيء أحب من التسليم

ـ ذلك الذى ينزل المطر من السماء يمكنه برحمته منح الخبز أيضا

ـ إن توكلت فاقرن التوكل بالعمل واسع فى الكسب ثم توكل على الجبار

ـ هذه الدنيا سجن لنا ونحن المساجين فاحفر السجن وحرر نفسك

ـ ما هى الدنيا ؟ إنها الغفلة عن ا لله أليست هى الأقمشة والفضة والابن والزوج؟

ـ فإن اهتممت بالمال من أجل الدين فنعم المال الصالح كما قال الرسول[١٢٠] .

المحبـــة

من أكثر الألفاظ التى تتردد فى الشعر الصوفى الفارسى ، المحبة والعشق .

والمحبة حال يهبها الرحمن لعباده المخلصين ، وقد ذكر الله تعالى المحبة فى عدة آيات

يقول الله تعالى : (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه)[١٢١]

ويقول عز وجل : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله)[١٢٢]

ويقول عز من قائل : (يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله)[١٢٣]

فذكر فى الآية الأولى محبته قبل محبتهم وفى الآية الثانية ذكر محبتهم له ومحبته لهم وفى الآية الثالثة ذكر محبتهم له .

وقد قسم الطوسى [١٢٤] أهل المحبة إلى :

١ ـ محبة العامة ويتولد ذلك من إحسان الله تعالى إليهم وعطفه عليهم .

وقد روى عن النبى (ص) أنه قال : " جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها "

٢ ـ حب الصادقين والمتحققين وهو يتولد من نظر القلب إلى غناء الله وجلاله وعظمته وعلمه وقدرته .

وقد عبر عن هذا المعنى أبو الحسين النورى فى تعريفه للمحبة فقال : المحبة هى هتك الأستار وكشف الأسرار .

٣ ـ محبة الصديقين والعارفين ، تولدت من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله تعالى بلا علة فكذلك أحبوه بلا علة .

وعن هذا المعنى يقول ذو النون المصرى عندما سئل ما المحبة الصافية التى لا كدورة فيها ؟ قال : حب الله الصافى الذى لا كدورة فيه . وسقوط المحبة عن القلب والجوارح حتى لا يكون فيها المحبة وتكون الأشياء با لله و لله فذلك المحب لله .

وعندما يصل العبد إلى الدرجة الثالثة يصبغه الحب بصفات محبوبه والتى يجوز للعبد التخلق بها كالرحمة والحلم والصبر ... وفى الحديث القدسى يقول الله تعالى :

ما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه .. فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها .. وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه ، وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إذا أحب الله عز وجل العبد قال لجبريل : يا جبريل إنى أحب فلانا ، فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى أهل السماء : إن الله تعالى قد أحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ثم يضع له القبول فى الأرض[١٢٥].

ويرى الغزالى[١٢٦] أن أسعد الخلق حالا فى الآخرة أقواهم حبا لله .

أما العشق فهو فرط الحب والمحبة وللمشايخ فيه كلام كثير .

وقد رفضه البعض بالنسبة لله سبحانه وتعالى وللعبد على السواء وينقل القشيرى[١٢٧] عن أبى على الدقاق قوله :

العشق بجاوزة الحد فى المحبة والحق سبحانه لا يوصف بأنه يجاوز الحد فلا يوصف بالعشق ، فلا يوصف الحق سبحانه بأنه يعشق ولا العبد بأنه يعشق ولا سبيل إلى ذلك لا من الحق للعبد ولا من العبد للحق سبحانه ".

وفريق من هذه الطائفة رأوا أنه يجوز على الحق تعالى ولا يجوز منه تعالى لأن العشق صفة المنع عن المحبوب والعبد ممنوع عن الحق والحق تعالى ليس ممنوعا ، فعشق العبد له جائز ولا يجوز منه للعبد[١٢٨] .

وكانت رابعة العدوية - كما مر - أول من تكلم عن الحب والمحبة بالمعنى الصوفى ثم بدأ استعمال كلمة العشق وترددت كثيرا مع ظهور المنظومات الصوفية الفارسية الطويلة .

وقد استخدم الصوفية قصص الحب الإنسانى وأسماء المحبين والمشاعر الإنسانية وأخضعوها لمعانيهم ورموزهم واستخدموا نفس اللغة العادية فى الحب الإنسانى ، وقد أحدث هذا نوعا من الاختلاف فى تفسير هذه الأشعار من الناحية الصوفية كما اعتبرها البعض أنها تعكس ميلا مكبوتا للنفس التى تريد أن تتخطى الحواجز تحت شعار من التسامى[١٢٩] .

ومن أشعار المولوى عن المحبة :

ـ بالمحبة يصير المر حلوا ، بالمحبة يصبح النحاس ذهبا

ـ بالمحبة تصفو الشمالة ، بالمحبة تشفى الآلام

ـ بالمحبة تصير الأشواك ورودا ، بالمحبة يضحى الخل خمرا

ـ بالمحبة تصبح المنشقة عرشا ، بالمحبة تصير التعاسة سعدا

ـ بالمحبة يصير السجن روضة ، وبدون المحبة تصير الروضة جحيما

ـ بالمحبة تصير النار نورا ، بالمحبة يصبح الشيطان حورا

ـ بالمحبة يلين الحجر ، وبلا محبة يصير الشمع حديدا

ـ بالمحبة يصبح الحزن سرورا ، بالمحبة يصير الغول مرشدا

ـ بالمحبة يصير السم شهدا ، بالمحبة يصبح الأسد فأرا

ـ بالمحبة يصبح السقم صحة ، بالمحبة يصير القهر رحمة

ـ بالمحبة يصير الميت حيا ، بالمحبة يصبح الملك عبدا

ـ وهذه المحبة تتولد عن العلم أيضا ، فمتى تم اعتلاء مثل هذا العرش جزافا .

ـ وكيف تأتى من العلم عشق غير مكتمل ، إنه يتأتى ولكن للجماد .

ـ وعندما شاهد طيف الحبيب على الجماد ، سمع من أنينه نداءه للمحبوب[١٣٠] .

الخـــوف

الخوف عند الصوفية حال يمر به السالك له أهمية قصوى فى تجلية مرآة قلبه وفيه ت
الشهوات وتتأدب الجوارح ويحصل فى القلب الذبول والخشوع والذلة والاست
ويفارقه الكبر والحقد والحسد ويكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه لا .
فيه لغيره[١٣١] .

وقد استند الصوفية إلى الآيات القرآنية لإثبات فضيلة الخوف وقد ذكر الله تعالى الخ
وقرنه بالإيمان فى قوله :

(فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين)[١٣٢] .

(ولمن خاف مقام ربه جنتان)[١٣٣] .

(يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار)[١٣٤] .

وقد اعتبر الطوسى[١٣٥] الآية الأولى تعبر عن خوف الأجلة والثانية تعبر عن خو
الأوساط وخوفهم من القطيعة واعتراض الكدورة فى صفاء المعرفة أما الآية الثالثة فتص
خوف العامة واضطراب قلوبهم مما علموا من سطوة معبودهم .

ومن الأحاديث النبوية التى تحدثت عن الخوف :

"رأس الحكمة مخافة الله "

والخوف نوعان :

- أن يخاف الإنسان لنفسه .

أن يخاف إجلالا لله ومقامه .

والنوع الثانى كخوف الملائكة فلا جنة لهم ولا نار ومع ذلك يقول تعالى : (ويسب
الرعد بحمده والملائكة من خيفته)[١٣٧]

وكلما ازداد السالك معرفة بالله ازداد خوفه منه لأن حال الخوف متولدة من المعرفة .

إلا أن الخوف إذا تجاوز حدا معينا يقود إلى القنـوط واليـأس والخـوف المعتـدل ينهى عـن المعاصى ويحض على الطاعة . لذلك فالخوف يلزمه الرجاء كما قـال الرسـول (ص) : لـو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لا عتدلا .

وقال بعض الصوفية : الخوف والرجاء جناحا العمل لا يطير إلا بهما .

وقال أبو بكر الوراق : الرجاء ترويح من الله تعالى لقلـوب الخـائفين ولـولا ذلـك لتلفـت نفوسهم وذهلت عقولهم[١٣٨] .

الرجـــاء

يقول الله تعالى

(لقـــد كـان لكـم فـى رسـول الله أسـوة حسنـة لـمن كـان يـرجـوا الله واليو الآخر)[١٣٩]

وفى آية أخرى :

(يرجون رحمته ويخافون عذابه)[١٤٠]

ويقول عز من قائل :

(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا)[١٤١]

يقول أبو نصر السراج فى كتابه اللمع :[١٤٢]

الرجاء على ثلاثة أقسام :

رجاء فى الله ورجاء فى سعة رحمة الله ورجاء فى ثواب الله .

فالرجاء فى ثواب الله وفى سعة رحمته لعبد مريد قد سمع من الله ذكر المنن فرجاه وعل أن الكرم والفضل والجود من صفات الله فارتاح قلبه إلى المرجو من كرمه وفضله .

وأما الرجاء فى سعة رحمة الله فيمثله دعاء . (ذو النون المصرى) :

اللهم إن سعة رحمتك أرجأ لنا من أعمالنا عندنا واعتمادنا على عفوك أرجأ عندنا م عقابك لنا .

والراجى فى الله تعالى هو عبد تحقق فى الرجاء فلا يرجو من الله شيئا سوى الله .

وقال ذو النون : بينما أنا أسير فى بعض البوادى إذا لقيتنى امرأة فقالت لى : من أنت قلت : رجل غريب . فقالت : وهل يوجد مع الله تعالى أحزان الغربة .

والرجاء فى الله هو رجاء العارف الواصل وكما يقال إن خلاف الطريقة أن يتمن الأولياء من الله شيئا سوى الله .

والرجاء تعلق القلب بمحبوب سيحصل فى المستقبل والفرق بين الرجاء وبين التمنى أن التمنى يورث صاحبه الكسل ولا يسلك طريق الجهد والجد ، وبعكسه صاحب الرجاء ، فالرجاء محمود والتمن معلول [١٤٣] .

بعض تعريفات الخوف والرجاء :

شفيق البلخى : أصل الطاعة هو الخوف والرجاء والمحبة .

لقمان لابنه : اخش الله خشية لا تقنط معها من رحمته وارج الله رجاء لا تكون معه آمنا من مكره .

سهل التسترى : الخوف ذكر والرجاء أنثى ووليدهما الإيمان .

سهل التسترى : الخوف هو الابتعاد عن المنهيات والرجاء الإسراع بأداء الأوامر [١٤٤] .

من أشعار الخوف والرجاء عند المولوى :

- إن الزاهد دائم االفكر فى النهاية ، وعلى أى نحو يكون حاله يوم الحساب .
- والعارفون يدركون البداية ، لكن لا شأن لهم بأحوال الآخرة وأهوالها .
- وتردد العارف بين الخوف والرجاء ، يزول بسابق معرفته
- فالعارف هو من تجاوز الخوف والرجاء وشطر فزعه بسيف الحق .
- كان يتردد بين الخوف من الله والرجاء فيه فزال الخوف وثبت الرجاء .
- تجاوز الخوف وصار كله رجاء ، غمرته الأنوار وصار تابعا للشمس .
- قال الأنبياء : إن اليأس أمرسيء ، ففضل الله ورحمته بدون حصر .
- لا يليق بكم اليأس من مثل هذا المحسن ، فتعلقوا بأهداب رحمته .
- ما أكثر الأمور التى تعقدت فى البداية ، ثم تيسرت بعد ذلك .
- بعد اليأس تتواتر الآمال ، وخلف الظلام توجد شموس كثيرة . [١٤٥]

القسم الثانى

قراءة فى منظومة الهى نامه *

ـ أولا : موضوع المنظومة .

ـ ثانيا : الملامح العامة للقصص الواردة فى المنظومة .

ـ ثالثا : آراء العطار فى المنظومة

قراءة فى منظومة الهى نامه

أولا : موضوع المنظومة

تبدأ منظومة الهى نامه بحديث يوجهه العطار إلى روح الإنسان الكامل ، ويرى العطار أن هذه الروح هى نائبة دار الخلافة وصاحبة الأمر الربانى ، والعالم كله منوط بها ، ومع ذلك يصعب إدراك كنهها : " إنك لست فى السماء ولا فى الأرض فأين أنت ؟ إنك عند رب العالمين " .

ويحدد العطار للروح الخليفة ستة أولاد على النحو التالى :

" واحد نفس مكانه الماديات ، وواحد شيطان ينحو رأيه إلى الخرافات ، وواحد عقل يناقش المعقولات ، وواحد علم يبحث عن المعلومات ، وواحد فقر يطلب الأشياء الوهمية ، وواحد توحيد يبحث عن الذات الواحدة وبعد أن ينتهى العطار من حديثه إلى الروح ، تأخذ الروح فى رقيها إلى الله عز وجل ، وذلك فى صورة قصة رمزية تتمثل فى أحد الخلفاء وله ستة أبناء ، وهم يقابلون الروح بمراتبها الست

وتبدأ المنظومة بأن يجمع الأب أولاده الستة ، ويطلب إليهم أن يفضوا إليه بمكنون قلوبهم وما يجيش فى صدورهم من رغبات وأمان ، ليحققها لهم على الفور .

الولد الأول (أو المرحلة الأولى : عدم التعلق بالماديات):

يبدأ الابن الأول الحديث ، ويطلب من أبيه الزواج من ابنة ملك الجان ، ويلح عليه فى ذلك ، إلا أن الأب يرفض طلب ابنه ، لأنه يرى أن الشهوة هى المحرك الأول وراء هذه الرغبة فيقول : " كل شخص يتمتع بالرجولة والشهامة ، عليه أن يبتعد عن هذه الشهوة كلية ".

وبعد أن يقبح لابنه الشهوة ، يقص عليه المرأة العفيفة كمثال على مقاومة النفس الإنسانية للشهوات ، فهذه المرأة بعد أن سافر زوجها إلى الحج تعرضت لمحن كثير من رجم بالحجارة إلى بيع لتجار ، إلى اتهام بالقتل ، وعلى الرغم من ذلك صمدت حتى قابلت زوجها فى نهاية الأمر ، وجعلت كل من أساء إليها يتوب إلى الله توب نصوح ، ووضعت بذلك أساسا مفعما بالسعادة وانشغلت بعد ذلك بالعبادة .

وبعد انتهاء الأب من قصته ، يمسك الولد بأطراف الحديث ، ويثير نقطة جديد وهى أهمية الزواج من أجل دوام العالم ، ويجيبه الأب بأنه لا يرفض ذلك على وج التحديد ، لكنه يريد من ابنه أن يتطلع إلى عوالم الأسرار الأخرى ، وأن تهفو نفس إلى السير فى طريق الله .

ويوضح الأب لابنه أن الشهوة مرحلة تصل بالإنسان إلى غايات اسمى وأهداف رفيعة فيقول : " ولكن عندما تصل الشهوة إلى ذروتها يتولد منها عشق لا حد له وعندما يتزايد العشق تظهر المحبة ، وعندما تصل المحبة إلى نهايتها تفنى روحك فى المحبوب ".

ثم يبدأ الأب فى سرد القصص المختلفة ليدعم بها آراءه فنرى مثلا تلك المرأة التى عشقت أحد الأمراء وتدلهت فى عشقه ، وكانت تلاحقه أينما ذهب وتتحمل كل ألوان العذاب والهوان فى سبيل ذلك ، نراها تطلب من الملك عندما أمر بقتلها وهى مقيدة فى ساق مهرة ـ أن يأمر بتقييدها فى ساق جواد الأمير ، لتكون حية دائما فى هذا الطريق . وهذا هو العشق الحقيقى ، فيقول العطار : " تعال أيها الرجل إ كنت رفيقنا وتعلم العشق الحقيقى من امرأة " .

والمقياس الحقيقى للعشق الصادق هو الثبات والاحتمال ، مثل المخنث الذى لم يقبل بالسجود للصنم فى بلاد الروم ، بينما قبل العلوى اعتمادا على الشفاعة ، والعا اعتمادا على علمه الدينى .

والعشق يمنح قوة هائلة تجعل كل الصعاب تهون أمام تحقيق الهدف المنشود ، كما عبرت عن ذلك نملة فى حديث لها مع سليمان ، فهى تحمل التراب من تل كبير على الرغم من ضعفها وتقول لسليمان : " لا تنظر إلى أساسى وبنيتى ولكن انظر إلى كمال نيتى "

وبعد أن ينتهى الأب من حكاياته ، يطرح الولد قضية أخرى وهى : أهمية الأولاد فى الحياة ، وبخاصة الولد الصالح ، ويجيبه الأب ويوضح له أن الأمر ليس بهذه البساطة التى يتصورها ، فقبل أن يفكر الإنسان فى أن يصبح أبا ، يجب عليه فى البداية أن يتخلص من نقائصه : ""إن أردت اتباع دين إبراهيم يجب أن تسلم ولدك قربانا"

ويورد الأب عددة حكايات ، ليدلل لابنه على صحة آرائه فالأب يرى أن البنوة عائق فى حياة الدرويش المبتدئ "إن كنت زاهدا مخلصا ، عندما ترزق بابن فأنت عربيد كامل" .

وللابن مطالب واحتياجات جمة ، وكثيرا ما يحدث فى تلبيتها خروج عن مبادئ الطريق مثل القطة التى سرقت اللحم من إحدى الخانقاهات من أجل صغارها الثلاثة ، على الرغم من حرصها على الأمانة طوال حياتها .

وهكذا فالبنوة أكبر وأثقل قيد فى الحياة أو كما يقول العطار : "لو تقيدت بمائة عالم لن يكون كقيد ولد واحد" ، "نمن الصعب على الأب تحمل موت ولده"

والبنوة قيد دنيوى ثقيل، فالابن وإن كان لائقا كيوسف يبتلى بالسجن والأسر ، وإن كان جميلا مثله يدمى قلب أبيه عليه كيعقوب

وعلاقة الأبوة والبنوة تكتنفها صعوبات جمة "إن تكن ولدا روحك تحترق فى الاهتمام بأبيك ، وإن تكن أبا فأفكارك وآمالك متعلقة بولدك"

والجدير بالانسان هو العمل فى طريق الله ، حتى يهبه الله معرفته ، ويدخله حجاب الأسرار ويخفيه عن أعين الناس أجمعين : "ويصله بمقر أسراره وإلى خلوة مشاهدته".

وهذه المرتبة العظيمة لا تتأتى إلا عن طريق القلب المفعم بالخوف والوجل من الله عز وجل : " يجب أن يكون القلب باكيا محترقا من الحق ، وأن يكون اللسان سائلا عن طريقه خائفا " .

والقلب الوجل هو الذى يستطيع أن ينعم بعناية الله ويتمتع بقربه. وعندئذ يبدأ عمر الحقيقى ، مثل المجنون الذى اعتبر اللحظة التى رأى فيها ليلى ، تساوى ألف عام واعتبرها هى عمره الحقيقى .

وبعد أن يتوقف الأب عن سرد حكاياته ، يبدأ الولد فى الحديث ، ويسأل أباه عن ماهية ابنة ملك الجان ، وعن سبب حيرته وشوقه إليها .

يبدأ الأب على الفور فى تفسير رمزية ابنة ملك الجان ، فيقص على ابنه قصة الغلام الذى شغف قلبه بعلم التنجيم ، لأن فيه وصفا لابنه ملك الجان ، وقد استطاع هذا الولد بعد أن ادعى الصمم والبكم أن يجد سبيله إلى منزل حكيم مشهور فى التنجيم والطب ، لم يستطع أحد الوصول إليه أو الوقوف على علمه ومعرفته من قبل ، واستطاع الغلام أن يحفظ كتب الحكيم كلها فى عشر سنوات ، وصار أستاذا فى كل علم . وحدث أن خرج الحكيم لمعالجة أمير المدينة ، إلا أنه فشل فى نزع ما أصاب رأس الأمير ، وفجأة اكتشف أن الغلام يراقبه وأنه قد نهل علمه كله فمات على الفور . وبعد أن عالج الولد الأمير وتقلد منصب الحكيم ، استطاع فتح صندوق كان الحكيم حريصا على إخفائه ، ورسم خطا وجلس فى منتصفه ، وقرأ العزيمة ، وبعد أربعين يوما ظهرت معشوقته الفاتنة ، ثم اتخذت مكانها داخل صدره ، فسألها الولد : كيف وجدت السبيل داخلى أجابته الشبيهة بالقمر الحسناء : لقد كنت معك منذ اليوم الأول ، أنا نفسك وأنت تبحث عن نفسك فلماذا لا تنير عقلك ؟

قال لها الولد : ان للنفس شرورا فتلك الشوم حية وكلب وخنزير ، وأنت جمال الأرض والسماء لا تشبهين بهذا الحسن نفس أى شخص .

والنفس الإنسانية تنقسم إلى صورتين ، كما تقول ابنة ملك الجان : إن كنت أمارة بالسوء أكن أسوأ من الخنزير والكلب مائة مرة ، ولكن عندما أصير مطمئنة فليس لأحد أن يظن بى تلك الظنون .

ويوضح الأب لابنه أن إسلام شيطان النفس ، لا يكون إلا بمجاهدة النفس وكف رعوناتها : " ما أكثر الآلام التى يراها من يريد معرفة سر الروح من الحبيب فى هذا السبيل " .

والله قريب من عباده أجمعين ، ولكن معرفته تتطلب لياقة خاصة ، كما يقول العطار على لسان الصوفى الذى عميت عيناه الاثنتان من كثرة بكائه بسبب عشقه لابن الوزير : فما يلزمنى عينان لا معشوق فأمام الأعمى يستوى الخالق والمخلوق ، كل العالم جمال فى جمال ، ولكنى الأعمى يقول : محال .

والسالك تتعدد أمامه الحجب والستر ، حتى يستطيع الوصول إلىمعرفة الله :

لاتخطئ الطريق واعلم يقينا مثل الرجال أن للملك دائما أثوابا متغيرة .

ثم يوضح الأب لابنه أن الله يريد من عبده أن يصل إلى معرفته ، مثل السلطان محمود الذى أعطى الشيخ حامل الحطب كيسا به مائة دينار من الذهب وطلب منه أن يذهب إلى المدينة حيث يوجد ميزان ، ويأخذ ثمن الحطب الذى اشتراه منه ، ثم يعيد الباقى إلى حاجب السلطان ، وفى اليوم التالى عندما ذهب الشيخ إلى البلاط ، منحه محمود الذهب كله ، فلما سأله الشيخ لماذا لم يهبه له بالأمس قال : " لأنك ناديتنى أميرا و لم تعلم أننى السلطان أيها الشيخ فود قلبى أن تعرف أننى ملك العالم .

وعندما يصل العبد إلى معرفة ربه ، يبدأ عمره الحقيقى ، وتصبح اللحظة آنذاك تساوى آلاف القرون ، لذلك يقول الأب :

ولأنه لا يجوز ترك تلك اللحظة ، لذلك فآلاف القرون لا توازى شعرة واحدة منها. إن مت منهكا هنا عن زمانك تفز بالذوق والعمر الخالد .

الولد الثانى (أو المرحلة الثانية : تخلص الروح من النوازع الشيطانية) :

يبدأ الولد الثانى يأخذ دوره فى المناظرة ، ويطلب من أبيه تعلم السحر ، حتى يستطيع أن يفعل كل ما يخطر له ، وأن ينفذ كل ما يتمناه قلبه ، وهو يعتبر تعلم السحر أسمى هدف يتمناه الإنسان .

ويدرك الأب على الفور أن ابنه واقع تحت تأثير الشيطان فيقول له : " غلبك الشيطان فرغب قلبك السحر ، ولو لم يحدث لك هذا لما ظهرت هذه الرغبة فى قلبك " .

فيتحدث الأب عن أهمية البحث عن جوهر الحياة ، لا عن المظهر والقدرة على التخفى والظهور بصور متعددة كما يتمنى الولد ، وجوهر الحياة هو طريق الدين ثم الإخلاص فى ذلك الطريق إلى أقصى درجة ممكنة وإلا فإن عبادته تذهب هباء مثل الخباز الذى هام بشبلى حبا ، رغم أنه لم يره قط ، وذات يوم مر شبلى وأخذ رغيفا ، فسحبه الخباز منه ، وعندما علم بشخصيته لحق به ، إلا أن شبلى اشترط عليه كى يقبل اعتذاره أن يستضيفه مع جمع من الناس . ونفذ الخباز ذلك وأنفق مائة دينار . وعندما تحلق الجميع الخوان سأل شخص شبلى عن ماهية النار والجنة فأجاب شبلى ذلك الرفيق : " إن أردت أن تشاهد الجحيم ، انظر إلى صاحب ضيافتنا الذى دعانا من أجل الشهرة لم يهب رغيفا من أجل الله ، ولكنه أنفق علينا مائة دينار .

وهذه الرغبة فى التظاهر توجد فى العبادات أيضا مثل ذلك المصلى الذى ظل ليلة كاملة يؤدى الصلاة فى المسجد ، وهو يعتقد أن هناك شخصا يرقب صلاته ، وفى الصباح ، وجده كلبا نائما .

وهذا التظاهر والرياء والدجل تمارسه الدنيا أيضا ، فهى عجوز شمطاء ، ترتدى حجابا ، حتى لا يبتعد الناس عنها ، وتلبس ثوبا متعدد الألوان حتى تأسر الناس بحبها ، ويدها ملوثة بالدماء من كثرة الأزواج الذين قتلتهم على مر العصور ، ويدها الأخرى مخضبة بالألوان حتى تخدع الأزواج ، وهى تريق الدماء كذلك ، ولا شفقة عندها .

ويوجد داخل النفس البشرية كلب مسعور ، يجب على الإنسان القضاء عليه ، ولا يتم ذلك إلا بالسير فى الطريق ، ولا يتأتى ذلك إلا باتباع شيخ مرشد : وكل من يرعاه شيخ ، يتحول كل تقصيره إلى كمال وتوقير :

ثم يتوقف الأب عن الكلام ، ويبدأ الولد بإثارة نقطة جديدة فى مناظرته مع أبيه ، وهى فكرة انتهاز الفرص فى الحياة الدنيا وتحقيق جميع الرغبات ، ثم التوبة فى نهاية العمر .

يرفض الأب هذه الفكرة كلية ، لأن دوام الحياة للغد أمر غير مؤكد فيقول له : " أيها المغرور البعيد عن أسرار الحقيقة ، لا تضع الحياة اليوم فأنت تعلم أنك لن تبقى غدا .

ويستطرد الأب فى حديثه عن السحر ، وعدم جدواه ، ويوضح لابنه أنه عبث لا طائل تحته ، ويمثل له بقصة هاروت وماروت ، ويثبت له أن السحر لا يمكنه إبطال قضاء الله وقدره ، مثل الشاب الذى طلب من سليمان أن يأمر الريح بحمله إلى بلاد الهند ، خوفا من عزرائيل ، ولم يفده ذلك لأن عزرائيل كان لديه أمر بقبض روح ذلك الشاب فى بلاد الهند .

وكما شخص الأب الداء ، فهو يصف الدواء ، والدواء هو الصبر فيقول لابنه إنه مع شروق الشمس تظهر سبعون سحابة في السبع سيارات : " وكل قلب يمتلئ بالوجد من الحق تمطر عليه تسع وستون من هذه السحب الآلام والمحن ، ولكن كل قلب يمتلئ بالصبر من الحق ، تتنزل عليه كل السعادة من سحابة واحدة .

وهذه الآلام يجب أن يمر بها السالك ، ويجب أن يمتلئ قلبه بالوجد : " كل واجد في الطريق يموت من حب المعشوق فجأة فلا عجب ، بل الغريب هو أن ذلك الوجد يترك العاشق حيا يوما واحدا .

والعاشق الحقيقي هو الذي يتحمل الآلام الفعلية في الطريق ، كما تحمل فخر الدين الجرجاني الآلام المبرحة ، بعد احتراق غلامه ، وكان يجوب الصحراء ليل نهار ويتحدث إلى نفسه .

ويفيض الأب وصف العاشق الحق ، ويمثل لابنه بالحلاج الذي مسح بالدم وجهه وساعديه، عندما قطعوا يده فوق المشنقة وقال : " من عرف سر العشق يجب أن يتوضأ لصلاته بالدماء ، وإن لم تتوضأ بالدم فصلاتك باطلة " .

وهدف العاشق الحقيقي هو الفناء في الله تماما ، مثل الشخص الذي دخل معبد الأصنام وسئل عن هويته فقال : أنا صديق للإله ، فأجلسوه فوق كرسي ذهبي وصبوا فوق مفرق زيتا مغليا ، ثم أحرقوه ، ويقول الأب لابنه : " التراب الذي تبقى من رماده دواء لكل داء " .

وبعد أن يتوقف الأب عن سرد حكاياته ، يجذب الولد أطراف الحديث ، ويبدو من كلامه أنه اقتنع بأهمية العشق ، ولكنه يرى أن طريقه وعر وشاق والوصول إليه وإدراكه غير مؤكد ، والمؤكد هو تعلم السحر ، فلما لا يتعلمه ؟ يرفض الأب هذه المرة أيضا ، لأن ما يطلبه الإنسان يجب أن يتفق مع قدراته ، لذلك لا يجب أن يتطلع الإنسان إلى شئ ، إلا بعد اكتساب لياقة تناسب هذا الشئ ، وإلا فلن يسبب له هذا الأمر سوى الضياع والهلاك مثل الشخص الذي طلب من عيسى تعلم الاسم

الأعظم ، ثم دعا الله به ليحيى له بعض العظام الملقاة فى الفلاة ، فظهر أسد ضخم ألتهم الرجل على الفور .

ويقول الأب لابنه : " لا يمكن طلب كل شئ طيب من الحق ، فلا يمكن طلب شئ إلا على قدر الطالب " .

ويشرح الأب أن الله جعل فيض عطائه لا حد له ، وهو مستغن عن عباده ولكنه ـ تعالى ـ يمنح كل فرد على قدر استعداده وليس على قدر دعائه ، مثل النمرود الذى عرض على الخليل أخذ كنوزه مقابل أن يدعو الله له ليخرج البعوضة من أنفه ، فجاء الهاتف من الحضرة إلى إبراهيم قائلا : " الإيمان بنا لا يقوم بأى ثمن ، وإنما جوهر الإيمان هو العطاء والبذل . "

والله هو صاحب القرار ، ومجرى الأقدار ومسير الأعمال ، ونهاية الإنسان فى علمه وحده كما قال أبو يزيد وهو يبكى : " لو يعقد هذا الزنار على وسطى ، فماذا أفعل ، وكيف أتصرف ؟ لذلك أبكى .

ومهما فعل الإنسان فلن يغير إرادة الله ولن يبدلها ، وذلك من منطلق استغناء الله تعالى ، مثل ذلك المجذوب الذى ظل ليلته أمام الكعبة يهدد بتحطيم رأسه ان لم يفتح له الباب فجاءه الهاتف : " كانت هذه الكعبة ممتلئة بالأصنام ، فتحطمت كلها داخل الكعبة ، فلتحطم أنت صنما خارجها " .

والإنسان كمن ألقى داخل بحر ، ومطلوب منه عدم الابتلال ، وهذا الصراع هو سبب الآلام المضنية التى يقاسيها السالك فى مجاهدته لذلك البحر الهادر ، وهذه المجاهدة واجبة حتى يعرف الإنسان حقيقة نفسه فيقول الأب لابنه : " وأنت أيضا لا تعرف نفسك حتى هذه اللحظة ، ولكن عندما تقبض روحك ، سوف يتضح لك بكل نفس فيك أنك كنت ميتا فى الحياة " .

وبداية المجاهدة تكون بتصفية الباطن من جميع العلائق الدنيوية ، بما فى ذلك الشغ
بتناول الطعام وأكل اللحم ، فيكفى تناول تمرة واحدة فى اليوم : " إن تتناول ك
يوم تمرة واحدة تسلم من ديدان التابوت " .

وحرمة الباطن لها الأولوية فى تناول الطعام والسفر والحديث وما إلى ذلك .

وبعد ذلك يجب على الإنسان أن يثق فى الله ولا يفكر فى أمسه أو غده ، ويعب
مستغرق فى ذكر الله تعالى : " إن انتهيت من ذكر نفسك جاز لك أن تذكره
ولكن طالما بقى وجودك أمامك وذكرته فأنت تذكر نفسك .

ووجود العاشق مهم للمعشوق : " إذا لم يكن للمعشوق عاشق لما كان جدير
بالعشق" . و نهاية العشق هى اتحاد العاشق والمعشوق .

وبهذا ينتهى الأب من حديثه ، ويبدأ الولد بالكلام ، فيبدو من حديثه أنه اقتنع بآر
أبيه ، ومع هذا فما زال متشوقا إلى معرفة أمر السحر .

وهنا يفسر الأب السحر على النحو التالى : بعد هبوط آدم وحواء من الفردو
أودع إبليس ابنه الخناس إلى حواء مرتين ، وفى كل مرة يقتله آدم ويأتى إبليس
وينادى عليه فيتجمع شتاته . وفى المرة الثالثة صنع آدم كلية من الخناس وأكلها ه
وحواء ، وعندما جاء إبليس ونادى على الخناس أجابه الخناس من داخل صا
حواء ، فقال إبليس : "كان هدفى دائما أن أستقر فى دخيلة آدم ولأننى نجحت ف
هذا فسوف يصير ابن آدم محتاجا إلى ، فأثير حينا فى صدور الناس مئآت النزوا
بوسواس الخناس وأجرى حينا فى عروقه كالدم ، مثيرا فى باطنه ألوانا م
الشهوات ، وفى بعض الأوقات أوجهه إلى الطاعة ولكن بالرياء لا بالإخلاص وأز
آلاف الأنواع من السحر حتى أحيد بالناس عن جادة الطريق.

وإبليس بتسلطه على النفس البشرية يؤدى مهمة نبيلة للبارى تعالى ، وتتمثل حكم
الله فى عصيانه : " يقف إبليس على باب الحضرة بصفة دائمة ممسكا فى يده حر

من القهر ، وطالما لا تعوذ منه فى البداية لا يمكنك الخطو فى الطريق الإلهى ، وهو على هذا المنوال ليل نهار ليضرب على أيدى المذنبين " .

وإبليس مثال للعاشق الصادق ، فهو سعيد باللعنة التى اختص بها ، لأنها من عند الله .

وينهى الأب حديثه بأن السحر الحقيقى هو إسلام شيطان النفس ويقول لابنه : " أوضحت لك الآن السحر الحلال ، ومنه يتحقق الخلود الكامل لك، ولإمكان الوصول إلى مثل هذا السحر يجب الارتقاء على هذا النحو لا الإدبار بتلك الطريقة .

وهكذا ينتهى دور الولد الثانى فى المنظومة .

الولد الثالث : المرحلة الثالثة : تهذيب العقل :

يتقدم الولد الثالث ، ويشرح لأبيه الرغبة التى تجتاحه فى الحصول على كأس جمشيد ليظهر له العالم عيانا فى تلك الكأس ، ويستطيع أن يصل إلى المعرفة التى يتوق إليها.

يرفض الأب على الفور فكرة ابنه ، لأنه أدرك أن رغبته هذه قائمة على حب الجاه فيقول له : " لقد تغلب عليك حب الجاه فرغب قلبك فى تلك الكأس ، حتى إذا ما علمت جميع الأسرار صرت مهيمنا على العالم بأسره " .

والجاه يجعل الإنسان يضل الطريق ، ويسقط داخل الجب ، كما سقط محمود الغزنوى ، داخله فى المنام ، عندما انطلق فى طريقه دون أن يلتفت إلى العجوز صاحبة المظلمة .

لذلك فالتعلق بالجاه والمال خطأ كبير : " لماذا تأسر نفسك بالجاه والمال ، وتجعلهما رفيقين لك إلى آخر لحظة ، إنهما لن يحققا لك شيئا ، فلماذا تخفيهما داخل نفسك كالكفن .

ولماذا يتعلق الإنسان بالجاه ، وهو لن يأخذ شيئا معه ، وكل شئ ملك لله وح
والرغبات الدنوية البحتة لا بد أن تصل بصاحبها إلى الهلاك مثل ذلك الملك المنح
الذى علم أنه سيصاب ببلاء فى وقت ما ، فأقام منزلا محكما سد جميع منافذ
فكانت النتيجة أن لفظ أنفاسه مختنقا فى ذات الوقت .

ولا بد للإنسان أن يسلم أمره للخالق وأن يتخلص من اعوجاجه ، ليستطيع أن يص
إلى هدفه ، فالطريق الصوفى يقوم على الاستقامة : " كما تستقيم الألف فى الخ
الكوفى ، هكذا يجب أن يبدو للعين الصوفى " ويعتبر ترك الأسباب كذلك م
الأمور الهامة ، فيجب أن يتكل الإنسان على الله تماما ، مثل شقيق البلخى الذ
سافر إلى البادية وفى جيبه درهم واحد .

وعلى الإنسان أن يتجرد من العلائق الدنيوية حتى يشمله الله بعطفه ورعايت
فالله هو المقدر لكل شئ ، وكل ما يجرى على الإنسان من خير وشر إنما هو م
عند الله : " كل شئ هنا نابع من هناك ، الحسن والقبح والإقبال والإدبار م
عنده ، وقلوبنا أيضا تنبض من هناك ، ليست القلوب فقط بل كل شئ " .

والقدرة على معرفة الله لا تتأتى إلا بقلب عارف وجل ، يستطيع أن يحترق بد
العشق فى الدنيا حتى ينجو فى الآخرة : " وإن أضأت أنت أيضا من هذا العش
واحترقت هنا لن تحترق هناك ".

فالعاشق الصادق سوف يشمله الحق تعالى بحسن رعايته وواسع رحمته يوم القيامة
يأتى الهاتف : إننى لا أسجل سيئات عشاقى وحسناتهم فى الصحائف ، لقد
الجبار سيئاتك وحسناتك ، فلا تفكر كثيرا فى الجنة والنار " .

وبين الله وعشاقه سر لا يعلم به أحد سواه .

وبعد أن يتوقف الأب عن الكلام ، يبدأ الولد فى جذب أطراف الحديث ويبدو
لم يقتنع بآراء أبيه ، فهو يرى حب الجاه من الأمور الحتمية فى الحياة فيقول : من

الذى غض طرفه عن المنصب وعن الجاه ؟ ومن رأيته وقد أشاح بوجهه للجاه ؟ ألم تر يوسف وقد اعتلى عرش السلطنة وتمتع بالجاه بعد الجب ..!!

يرفض الأب وجهة نظر ابنه ، لأن الجاه يحيد بالإنسان عن جادة الصواب ، والعظمة لا تتحق إلا بطاعة الله فيقول لابنه : " فى هذا السجن المضطرب يمكن أن يصير الإنسان بين العظماء بطاعة الله ، وإن أردت رفعة تعلو القمر ، تدركها بالطاعة وليس بحب الجاه ".

ويوضح الأب لابنه أن حب الجاه شئ طبيعى ، ولكن من يريد أن يكون من خواص الخواص فى طريق الحق ، يجب عليه التخلص من الجاه ، لأن الجاه له سطوة عظيمة فى الحياة الدنيا ، كما قالت عباسة الطوسية عندما جلست مع السلطان سنجر : " رأيت عالما مليئا بالأغصان الحادة ، وشاهدت فى يدى منجلا لقطعها ، ولم أستطع اقتلاعها بذلك المنجل ، فلم أر وسيلة سوى الصمت ".

ولذلك فنعيم الدنيا يحرم الإنسان من نعيم الآخرة ، ولن يستطيع الإنسان التوبة فى الآخرة : " لن تفوز بسعادة أيها الدرويش هناك إلا بما تحمله معك من الدنيا "

وطريق السالك وعر شائك متعدد الدروب ، ولكى يجتازه السالك بنجاح عليه أن يجعل الله صوب عينيه دائما ، ولا يخطئ هدفه ، مثل الرجل الذى وهب حياته لعشق الله ، ورآه موسى يضع رأسه على نصف آجر ويرتدى خرقة ، ويتحلقه آلاف من النمل والنحل والذباب ، وعندما سأله موسى إن كان يريد شيئا ، طلب الرجل منه شربة ماء ، وعندما عاد إليه موسى بالماء وجده قد لفظ أنفاسه فذهب موسى ليعد له قبره ، وعند عودته كان أسد قد مزقه وأكل قلبه ، فدمى قلب موسى وسأل الله عن السر فيما حدث ، فجاء الهاتف بأنه كان من الأفضل أن يشرب الماء منا هذه المرة مثل كل مرة ,

ويقول الأب لابنه : يا عزيزى " ليس الأمر سهلا معه ، إذ لا يكون الكلام معه إلا بالقلب والروح " .

ولن تدرك كل روح هذا الجاه أيضا : " ليس لكل روح سبيل إلى السر ، ولا يسد كل شخص ذلك الجاه يا بنى ، فآلاف الأرواح تأتى إلى العالم ، ولكن لن تطل على ذلك السر إلا روح واحدة " .

والأرواح القريبة من الحق تعالى ، اختارت ذلك قبل خلق الأجساد ، فقد جرد تسع أرواح من كل عشر صوب الدنيا ، ثم اختارت الجنة تسع أرواح من كل عشر ، وبعد ذلك فرت من الجحيم تسع أرواح من كل عشر ، واختار العدد الضئيل الباقى الحق تعالى فجاءهم الهاتف : " إن إردتمونا فأنتم تطلبون أنواعا من البلاء ، كثيرة كثرة شعر المخلوقات جميعها ، متلاحقة كتراب الصحراء غزير كقطرات الوابل ، وفيرة كورق الشجر " ولكن هذه الأرواح سعدت بذلك وتمنت أن تكون فداء لذلك البلاء .

والحق له سر مع كل روح من هذه الأرواح ، وكل روح تعتقد أنها المتفردة بسر الحضرة : " على هذا النحو توقن الأرواح ، ولكن قربه مختص بروح واحدة " .

ويمثل الأب لقرب الروح المحمدى من الله ، بقرب السيدة عائشة من الرسول (ص).

وعلى السالك إن أراد أن يكون له شأن داخل حجاب الأسرار ، أن يدع عن قلبه حب الدنيا ، لأن حب الدنيا والآخرة لا يجتمعان ، مثل رابعة التى لزمت الصلاة والصوم أسبوعا كاملاً ، وعندما أقعدها الجوع عن الحركة ، وهمت بتناول طعامها ، قلب القط وعاء الطعام ، وخبا نور المصباح ، ووقع كوز الماء ، وجاءها الهاتف : " إن أردت وهبنا لك الآن العالم بأسره على أن تخرج من قلبك معانا السنوات العديدة ".

وعلى السالك أن يتحمل المشاق فى سبيل هدفه ، والله قادر على حفظه من الشرور مثل بهلول الذى اتهم بالقتل وتحدث إلى الله وهو فوق المشنقة : " لقد أعددت أنت كل هذا وإن كانوا يقتلوننى الآن بذلة ، فسوف أطلب منك الدية ولن أطلبها منهم إذ كيف أتعقب مجموعة من البائسين ؟

وفى الحال رأى القاتل الحقيقى حيات تخرج من أفواههـا النيران ، تطلب منه قول الحقيقة ، فاعترف على نفسه فى الحال .

ويجب على السالك أن يرى الخير والشر من عند الله كما قال الشيخ بوشنجى عندما اعتذر له التركى عن صفعه إياه : " إن رأيت هذا الفعل صادرا عنك ، فهذه سقطة منى ، ولكننى أراها صادرة من هناك حيث لا يوجد خطأ ".

وعلى الرغم من مسئولية الله عن الأفعال ، لا يجب أن يترك الإنسان العبادة : " اعلم أن كل شئ مقدر منذ الأزل ، ولكن لا تتوقف عن العبادة لحظة واحدة " .

والتمسك بالعبادة قد يغير من مصير الإنسان مثل العابد الذى أمضى عمره فى عبادة الله وعندما علم من موسى أن اسمه مكتوب مع الأشقياء ، لم يضعف من عبادته ، بل ضاعف منها ، فمحا الله اسمه من بين الأشقياء ، وأدخله فى زمرة المؤمنين .

ولذلك لا يمكن الحكم على الإنسان فى الحياة الدنيا ، كما قال رجل لأحد شيوخ بخارى : يا شيخ بخارى لم تظهر أعمالى من أعمالك بعد ، فلا تغتر بأعمالك اليوم فغدا ستتضح الأعمال .

والسبيل الوحيد أمام الإنسان هو الإخلاص ، وكل شئ بعد ذلك فى يد الله ، مثل الحياة والموت كما قال كوشهدى للغزالى عندما قبع فى منزله لا يبرحه ، خوفا من أحد الكفار الذى ينوى قتله .

وعندما يخلص الإنسان يفيض الله عليه بالسعادة الإلهية ويبدأ عمر السالك الحقيقى .

وعند هذا الحد يتوقف الأب عن الحديث ، ويبدو أن الولد بدأ يسلم قليلا أمام حجج أبيه لذلك فهو يفكر فى البحث عن الجاه باعتدال فيقول : " لو ضؤلت رغبتى فى الجاه فلن يجرفنى غروره كالسيل " .

يرفض الأب طلب ابنه للمرة الثالثة ، لأنه يرى أن الرغبة فى الجاه وإن كانت ضئيلة تفضى بابنه إلى الهلاك ، ويتنافى مع سلوك الطريق ، مثل ذلك الرجل الذى هام على

وجهه فى الصحراء ولا يحمل شيئا معه سوى قطعة من الخبز ليكفر عن غف
وغروره .

وقطع كل العلائق هام للغاية خاصة وأنه وعلى الإنسان أن يوقن بحتمية الموت
مهما بلغت قدرته ، كما قال مجذوب عندما رأى نعشا لمصارع شاب : " الشا
وإن كان قويا فى المصارعة ، إلا أن المسكين لم يكن يعلم مع من يدخل حا
المصارعة اليوم " .

والحياة الحقيقية هى الآخرة والعمل من أجلها يكون بتصفية الروح ، لابتغي
الملابس : مارس رياضتك مرتديا الحرير لا النمد ، فذلك عمل الحمار ، وليس م
العقل فى شئ وليس من الجائز أن تبدل ثيابك ، فأمر الله ليس بالعما
والقباء . وعندما يدرأ الأنسان الصدأ عن روحه ، يمنحه الله كرامات مثل حبي
العجمى الذى عبر جيحون فى لحظة واحدة .و العارف الحقيقى هو الذي لايتوق
عند حال أو يتقيد بمقام : يجب رؤية الحسن والقبح وإدراك مقامات الصحو
السكر على حد سواء ، ولكن إن رأيتها كلها متصلة فأنت ترى القبح والحسن كا
فى ترابط ، وإن رأيت سوءا فهو حسن لأنه من الله .

وعندما يدرك الإنسان هذه المرحلة ، لايعنى بأى شئ آخر سوى محبوبه ، ولاحت
بايذاء الخلق له ، مثل المحتال الذى أقاموا عليه الحد ،وكان يضحك وهم يضربو
والدماء تنزف منه ، وعندما سأله أبويزيد عن سر ضحكه قال :كان المعشوق واقا
من أجلى فكيف لا أثبت أنا. وقلب العارف يخجل مما اقترفه من ذنوب مثل الحبش
الذى تاب أمام الرسول (ص) وعندما علم أن الله عالم بما اقترفه من ذنوب، لف
أنفاسه على الفور . وطريق الله هو الطريق السليم، ولكن على الإنسان إن امتلأ
نفسه بالشكوك أن يخطو فى الطريق ، ويصير مريدا لأحد الشيوخ : عندما يتحق
لك شيخ مرشد ، كن مريدا فأصل الرجل هو الشيخ ، واذا ما انمحى الشيخ فى الح
محوا مطلقا أصبح أمره هوأمر الحق بعينه .

والمرشد يصل بالمريد إلى برالأمان ، كما فعل الحسن البصرى مع جاره اليهودى وجعله يسلم فى آخر لحظة ، ورآه فى المنام متنعما بجنات الخلد . وعند هذا الحد ينتهى الأب من تحديثه ، ويبدأ الولد يطلب من أبيه شرح كنه تلك الكأس التى عشقها إلى ذلك الحد . يقص الأب على ابنه قصة كيخسرو عندما وضع الكأس أمام الشمس ، وشاهد فيها الأقاليم السبعة ، وحاول أن يشاهد الكأس ، لكنه لم يوفق ، وفى النهاية ظهر رسم قال له: متى تستطيع أن ترانا داخلنا . لأننا فنينا عن أنفسنا الطاهرة فمن يرى صورتنا فى عالم الأرض .

وماهية الإنسان لاتتحقق إلابالفناء وهو كمال الحياة وعندمايغرق الإنسان فى بحر الفناء لايعلم من يجلس على الشاطئ شيئا عنه وتنمحى ذاته وتفنى أوصافه وأساس الفناء هو تصفية الباطن والزهد فى الدنيا : ما الطريقة ؟ إنها تصفية الباطن، لانه لايمكن المجازفة بالنفس فى الخطأ وبعد المجاهدة والرياضة ينعم السالك بقرب الله : الزم هذا الباب فربما يخصك الملك بقربة فى التو و الحال . وبعد أن يتحدث الأب عن أهمية الفناء ، يعود ليشرح لولده كأس جمشيد الحقيقة التى يجب عليه أن يسعى للحصول عليها فيقول له (إن أردت الجام لتصل إلى المعرفة افن عن نفسك فى الحياة) ثم يوضح له أن كأس جمشيد هى عقله : اعلم أيها الصديق ، أن كأس جمشيد هى العقل إنها اللب والإدراك الدئم ، كل ذرة فى العالمين واضحة فى كأس عقلك حيث الآلاف من الصنائع ولأسرار والمعارف والآف الأوامر والنواهى والأحكام والتكاليف ، كلها نتيجة لعقلك ، فأى كأس تكون أوضح لك من تلك الكأس . وبعد أن يقنع الأب ابنه الثالث بأن بحثه عن الكأس ، يجب أن يتجه نحو الفناء ، يبدأ الولد الرابع فى الظهور .

الولد الرابع (أو المرحلة الرابعة : طلب العلم الحقيقى) :

يطلب الولد الرابع من أبيه الحصول على ماء الحياة حتى ينجو . ويرفض الأب قائلا : إن الأمل قد تغلب عليك ، لذا طلب قلبك العمر الأبدى . ويبدأ الأب فى سرد حكاياته لعل ابنه يتراجع عن طلبه . ويبدأ بالإسكندر الرومى الذى ذهب إلى مكان ما طلب المعرفة فقال له حكيم هناك إن بحثك عن ماء الحياة هو الأمل وجمعك لمئات الجيوش هو الحرص ، والأمل والحرص عبدان لى .ويعظ الأب ابنه قائلا : لقد بحث الإسكندر عن ماء الحياة خوفا من الموت، فمات فى شبابه . والموت أمر محقق والآخرة لاريب فيها ، لذلك يجب أن نعتبر الحياة وسيلة للفوز بالآخرة .

وعلى الإنسان أن يغتنم الوجود فى الحياة ، ليعمل عملا حقيقا مجردا من الوهم والخيال فقد رأى الرسول(ص) فى ليلة المعراج أعدادا غفيرة من الملائكة تبكى ولما سألهم عن سبب بكائهم قالوا : إننا نبكى على قوم من أمتك يعتقدون أنهم يعملون وهم لايعملون . ولايستطيع أحد أن يشترى لحظة واحدة من العمر ، مثل الرجل الحريص الذى ادخر مبلغا كبيرا من المال ، وعندما جاءه عزرائيل ليقبض روحه ، أخذ يساوم عزرائيل حتى يمهله مقابل أمواله ، وفى النهاية أمهلة عزرائيل لحظة واحدة كتب فيها : انتبهوا أيها الناس فقد كنت أريد شراء عمرى وحياتى لمدة ساعة واحدة بثلاثمائة ألف ، ولم أوفق من جدالى . وعلى الإنسان أن يغتنم كل لحظة فى ذكر الله ، ولايمضيها فى شئ آخر حتى وإن كان ذلك فى القصاص من قاتل ابنه ، مثل الحكيم مرزبان الذى رفض القصاص من قاتل ابنه . ويجب أن يسرع الإنسان فى اتخاذ القرار بالسير فى الطريق ، ولايعتمد على التوبة وحدها . فربما لم يتمكن الإنسان من التوبة فى نهاية الأمر . والآخرة هى موطن الإنسان الحقيقى والعارف بالله يدرك طريقه فتهفو إليه نفسه ، وينجذب إليه ، وتطير روحه إليه ، مثل قصة الطائر الذى كان يضع بيضه خلال أربعين يوما ويختفى ثم يجئ طائر غريب

يرقد على البيض حتى يفقس ، إلا أن الصغار تنجة إلى الأم الحقيقية فوق الجبل بمجرد سماع صوتها .

والإنسان ماهو الإ حفنة تراب ، ويجب أن يعتبر بذلك فى تصرفاته لاتتعال أيها التراب مثل النار ، لأنك حفنة تراب ، فلا تحتدم مثل النار . وكيف يتأتى الغرور من حفنة تراب ، كما قال بهلول عندما رأى أحد العظماء يمتطى جواده فى بغداد فى خيلاء ، ويحيط به الحراس من كل جانب وتصم أصواتهم الآذان وهم يطالبون باخلاء الطريق والابتعاد عن موكب العظيم ، فرفع بهلول حفنة من التراب وقال : لايجوز كل هذا الكبر من حفنة تراب ، فهو وإن صار فرعون أليس عبد الله ؟ ويقول الأب لابنه : خذ العبرة من أهل السوق ، فقد ألقوا جميعا بشباكهم من أجل جيفة ، وعندما يكون هدف الإنسان مينة فأنى له أن يتصل بسر القدس .

والغرور يؤدى إلى الغفلة عن حقيقة الحياة ،فيقول الأب لابنه أذا ما استولى الغرور على أعضائك السبعة ، افتضحت الدنيا منك ، والأشخاص الذين يتخلصون من هذه الصفة ،يفوزون بالآخرة . ثم يتوقف الأب عن الحديث ، ويبدوأن الولد الرابع أسرع تسليما من إخوته وأقلهم قدرة على الجدل فقد اقتنع تماما بآراء أبيه ، وسأله عن كنه ماء الحياة . يبدأ الأب فى شرح ماء الحياة الحقيقى ، من خلال قصة الإسكندر و موته وهى : عندما قرأ الإسكندر فى كتاب أن من يشرب من ماء الحياة يخلد كالشمس ، وأنه موجود هو وطبل ومكحلة ، وأن المريض بالقولون إذا دق على الطبل بيده زال مرضه ، وإن تكحل شخص من الكحل ، انكشفت له المسافة من القمر حتى العرش ، جاب الإسكندر العالم ليحصل على هذه الأشياء وعندما وصل إلى جبل شقه عند العلامة التى قرأ عنها ، وبعد عشرة أيام وجد منزلا ففتح بابه ووجد الطبل و المكحلة ، فتكحل بالكحل وفى الحال ظهر أمامه العرش ، ودق أمير بجانبه على الطبل فصدر عنه صوت كالريح ، ومن خجل الأمير مزق الطبل . وبعد أن وصل الإسكندر إلى أرض بابل مرض (بالقولون) وأدرك حتمية

موته ، فاستولى عليه البكاء ، وكان لذى القرنين نديم حكيم من تلامذة أفلاطو قال للأسكندر إن ملكه لم يكن سوى قبضة ريح ، وأن ماء الحياة الذى أقتفى أث هو العلم الدائم .

وبعد هذه القصة يقول الأب لابنه : لاتحزن كثيرا أنت أيضا يابنى فماء العل وكشف الأسرار موجود ، وكلما سطع ضياؤه عليك ينكشف العالمان لقلبك والله حكيم ، وحكمته بعيدة عن نطاق فهمنا، ولاتعرف حكمته مع عباده وكم فعل مع النمرود ، الذى وضعته أمه بعد أن غرقت السفينة ، وقذفت به الأمواج إلى الشاطئ ، وبعد أن شب عن الطوق ، وجد ياقوته ومكحلة وظهر له العرش والكرسى والأفلاك عيانا كما شاهد كنوز العالم .

وعندما سأل الملائكة الله تعالى عن العبد الجدير بكل هذا الإدراك ، جاءهم الهاتف إنه النمرود الذى سيدعى الألوهية ويحاربنا . ثم يقول الأب لابنه إن العلم الحقيقى هو معرفة الله أما العلماء الذين يبحثون عن العناصر ودوران الليل والنهار فهم غافلون . وبدلا من البحث فى مظاهر الحياة ، يجدربنا أن ندرك عبث الحياة بنا ، وأن يعتبر الإنسان الفناء هو الهدف الأساسى من هذه الحياة فلايشعر بوجوده ، وإن منح صدقة لفقير فلايراها صادرة عنه ، ولايعتبر نفسه أفضل من اليهودى دافع الجزية والإ فهو كالشيخ الذى طردته العجوز من أمام المحراب وقالت له : إنك هالك لا محالة ، تأتى الفواحش وتدعى الطهر . والمعرفة الحقيقية لله تعالى تتطلب الاحتراق بنار العشق : احرق نفسك بنار العشق أيها العزيز ، والإ فأنت زاهد مبتدئ .والعاشق يرضى ويسعد بكل ما يفعله به معشوقه ، ونور العشق يشع ويسطع فى قلوب أولياء الله وعباده . ويوضح الأب لابنه أهمية القلب الذى ينعكس عليه النور الإلهى فيورد له قصة الثعلب الذى وقع فى شباك جماعة من الصيادين ، فادعى الموت خشية أن يحمله الصيادون وينزعون جلده ، فجاء صياد وقطع أذنه ، ثم أقبل آخر واجتث لسانه ، وجاء ثالث وخلع أسنانه ، ولكن عندما جاء صياد رابع وهم

بنزع قلبه ، قفز من الشباك كما يقفز السهم من القوس .والقلب له أهمية كبرى ، لذلك عندما سأل محمود إياز اذات يوم عن أحد يكون أعظم من محمود ملكا قال إياز : إننى أكثر منك ملكا .

فلو أن الملك قد تحقق لك إلا أن ملكك هو قلبك ، وقلبك أسير فى يد الغلام ، وكفانى هذا من ملك . ولأهمية القلب ، يجب العمل على جلو الصدأ عن مرآته ، فالسيادة الحقيقية هى كف النفس عن نوازعها الشيطانية فعندما لا تستطيع التحكم فى نفسك فكيف يمكنك التحكم فى آخر . والسبيل الوحيد للخلاص يبدأ بالتمسك بالشريعة ، فيقول الأب لابنه : قيد أعضاءك بقيد الدين ،وافعل ما يمليه عليك ، إن أردت أن تكون على النحو المطلوب ، لاتنظر ولاتسمع ولا تقل ، إلامما يقتضيه الدين حتى لاتموت كافرا أيها المسلم . ويجب ألا يغفل الإنسان لحظة عن ذكر الله ، فهو وإن كان لايرى الله ،إلاأن الله يراه دائما ، كما قالت المرأة التى كانت تطوف بالكعبة ، للرجل الذى اختلس النظر إلى وجهها . ومن يبتعد عن طريق الله ، تكن نهايته الندم والأسى ، والخجل من مواجهة الحق تعالى .

ثم يقول الأب لابنه : "إن الله يراك دائما ، فكن مثل الشمعة تحترق دائما فى عشقه ، ولا تخرج نفسا من قلبك دون شكره ، ولا تصدر نفسا وأنت غافل عن ذكره ".

والإنسان عندما ينبض قلبه بذكر الله ، يرى الأشياء جميعها من فيض الله لذلك يشكر الله على كل ما ينعم به عليه ، كما فعل محمود عندما أحصى له ابنه عدد أفياله ثم يقول الأب لابنه : " إن فاضت عليك نعمة الحق ، فلا مندوحة عن شكر المنعم ، وعندما تدوم نعمة الله عليك ، فقضاء لحظة دون شكر الحق جرم وأى جرم !! "

ومن لا يعتبر بالآخرة ويعمل من أجلها ، فهو هالك لا محالة ، مهما أحاط نفسه بقلاع وأسوار عالية ، كما قال مجذوب لقائد شيد قلعة عالية لإحكام الأمن وتشديد

الحراسة : عندما يحل البلاء من السماء وتحتمى فى القلعة ، تجد نفسك تواجه البـ
أيضا .

والبلاء الحقيقى هو وجود الإنســـــان ، فعليه أن يتخلص منه ، ويتجشم متاع
الطريق : " إن كنت من سالكى الطريق فمن المحتم أن يحدث لك كثير من هـ
الأمور دون إرادتك ". كما وصف المجنون حاله لأحد الأشخاص فقال : إننى مث
حمار مسن يمتلئ بدنه بالجراح من أثر الأحمال الثقيلة ، وإن ركنت إلى الراحة بعـ
الوقت ، هاجمنى الذباب المؤذى لينهش جراحى .

وبعد هذه الآلام المضنية يستطيع السالك أن يحصل على الدر من بحر العشق ، كـ
حصل عليه الشاب بائع الملح الذى بز السلطان محمود فى مناظرة حول العشق .

وبهذا ينتهى دون الولد الرابع ، ليبدأ الولد الخامس دوره .

الولد الخامس : (المرحلة الخامسة : طريق الفقر الصوفى) :

يبدأ الولد الخامس فى التعبير عن الرغبة التى تملك عليه جوارحه فقال لأبيه : " أريـ
مخلصا ذلك الخاتم الذى اختص به سليمان ، فخضع له الجان والشيطان وسير
بساط الملك".

ويرفض الأب على الفور طلب ابنه الخامس ، لأن رغبته فى الحصول على خـ
سليمان ، إنما هى فى حقيقة الأمر رغبة فى التحكم والملك ، والملك شئ فـان
كذلك فللملك مساوئ عديدة .

ثم يبدأ الأب فى ذكر الحكايات المختلفة حتى ينزع تلك الأمنية من قلب ولـده
فيروى له كيف رفضت العجوز أن تمنح محمود الغزنوى ملكها المتمثل فى إنـاء فـو
النار وقالت له : إننى لا أشترى ملكك أبدا ، فملكى أفضل من ملكك كثيرا ،

ملكك يقبع وراءه عالم من العداء ، أما ملكى فلا تكتنفه أى أحزان ، فكفانى هذا من ملك .

ومسئولية الحاكم كبيرة ، لأن كل شئ سوف يخضع لحساب عسير يوم القيامة : وكيف يتعلق الولد بالملك ، وأساس الطريقة هو البعد كلية عن الحكم والملك ، فيقول الأب : ما هى الطريقة : " إنها إدراك مخاطر الطريق والسير بخفة لتجنب المشقة ، والشبع باليسير ، وغض الطرف عن الملك والحشم " .

وكل الأنام إلى زوال بما فيهم الملك والحاكم ، وكما قال أحد الشيوخ الواصلين لطائر العنقاء : " لا يدوم ظلك لأحد فشيمتك الزوال ، وإن كنت تحقق الخلود للحياة لما كنت تخطر على العقل وتلوح للروح "

والملك مثل السراب ، وكما قال الغزالى لسنجر إن حالك لا يخرج عن أمرين : " إن كنت يقظا فأنت لا ترى شيئا مما أمامك حتى تغمض عينيك ، وإن كنت نائما فأنت لن ترى شيئا من هذا الملك حتى تفتح عينيك " .

والملك قيد على حرية الإنسان الشخصية : " لن يمكنك المضى فى الطريق وحيدا ، ولا يستقيم لك أمر دون جند ، ولا تتجرع الماء دون التذوق ، ولا تنام ملء جفونك دون حراسة " .

ولماذا يتكالب الناس على الملك وهو نوع من التسول فقد قال ركن الدين اكاف للسلطان سنجر :" تطلب جزية عن وعول المراعى واحدا واحدا لذلك فالفقر أفضل كثيرا من هذا الملك ".

والسبيل الوحيد للنجاة هو سلوك طريق الفقر ، كما قالت العجوز لمحمود : " لا تسرع اليوم أيها الملك لأننا سوف نكون سويا غدا فى الطريق " .

ويتوقف الأب عن الحديث ، إلا أن الولد ـ يظهر عدم اقتناعه بكلام أبيه ، فهو يرى أن الرغبة فى الملك تراود كل إنسان على وجه الأرض .

يرفض الأب وجهة نظر ابنه ، ويرى أن اتجاه فكره ينبع أساسا من عدم معرفته بالمل
الذى ينتظر المؤمن ، وكم من إنسان ضحى بالدنيا فى سبيل الآخرة ، مثل اب
هارون الرشيد الذى أبعدته والدته زبيدة عن العالم ، حتى رغب قلبه فى طلب المعر
، فأرسلته إلى الصحراء للفرجة والمشاهدة ، وفى الطريق شاهد تابوتا يحمله بعض
الناس ، وعندما علم أن الموت حق على الجميع قال : " لأن الحجر سوف يذود
بالموت ، يجب الذهاب والعمل من أجل هذا الأمر الحق .

وبعد أن عاد الولد إلى القصر ، هرب فى الصباح ، وظل يجوب الفلاة والبيادى
وعمل أجيرا ، وذات يوم رآه رجل تقى وهو ملقى فى ضعف وعجز شديدين
فأخذه إلى منزله ، وهناك أوصاه الولد بثلاثة أشياء : أن يربط حبلا فى عنقه ويسحب
على وجهه بعد وفاته ويقول : هذا هو جزاء من عصى الجبار ، والشى الثانى هو أن
يكفنه بكليم قديم طاهر ، والثالث هو أن يسلم المصحف الذى يحمله معه إلى هارون
ويقول له : "إن من سلمنى هذا المصحف يقرؤك السلام ويقول لك : اصغ ، لا تمت
وأنت غافل مثل الجيفة".

ويكفى الإنسان عبرة زيارة القبور : " إن أردت الحصول على صفاء الآخرة ، اجلس
فى القبور متى استطعت "

ثم يقول الأب لابنه : " ماذا أقول عنك وعنى ، وأسفاه على مجيئنا وذهابنا !
وأسفاه !

وعند هذا الحد يتوقف الأب عن الحديث ، ولكن الولد لم يقتنع بعد ، فهو ما يزال
يرى أن الملك هو الهدف الأسمى ، سواء أكان محمودا أم مذموما ، ويرى العظماء
كذلك يجتمعون فى بلاط الملوك ، ويعيشون على عطاياهم .

يرفض الأب هذه الفكرة كذلك ، فمسئولية الإنسان فى الحياة صعبة للغاية فيقول
لابنه : " إنك لن تستطيع أن تحمل حملك فقط ، فكيف تسرع بتحمل أحمال أهل
العالم ؟ "

والدنيـــا عجوز شمطاء تربى الإنســان لتلتهمه كمـا يربـى الإنسـان الطيـور المنزليـة ليذبحها . وكما قال أحد الطيور المنزلية عن وفاء الناس له : " إن اعتـبرت هـذا وفـاء فالجفاء أفضل منه ، وكثير من الكراهية أفضل من هذا الحب وذلك الوفاء .

والمعرفة الحقيقية لا تتحقق إلا بمعرفة الله تعالى ، لذلك يقص الأب على ابنه مـا قالـه أحد العرافين عندما مر على قبر عمـر الخيـام ، فقـد قـال : " عندمـا توجـه إلى تلـك الحضرة كان يدعى العلم ، والآن وقد صار جهله عيانا فإنه يتصبب عرقا من خجـل روحه ".

ويجب على الإنسان أن يعمل لآخرته ، وبخاصة أن حسن العاقبة غـير مؤكـد ، كمـا قال أستاذ سفيان الثورى له ، وهو يلفظ أنفاسه : " أدميت قلبى مـدة خمسين عامـا والآن وقد سلط على سيف الموت جاء الهاتف : إنك مرفـوض لدينـا ، فـابتعد عـن هذا الباب لأنك غير جدير بنا " .

ولا سبيل أمام الإنسان سوى سلوك الطريق وزاده العشق ، مثل اليهودى الذى جـاء من بلاد الشام لرؤية الرسول (ص) ، وكان الرسول (ص) قد ترك له ثوبـه مـن قبـل وفاته ، فارتداه الرجل وأسلم ، وذهب إلى قـبر الرسـول (ص) وهنـاك أسـلم الـروح ووجهه فوق تراب قبر الرسول . وينهـى الأب حكاياتـه فيقـول لابنـه : " إن كنـت عاشقا فاسلك على هذا النحو فـى المذهـب ، ومـت هكـذا مثـل الشـمع شوقا إلى المعشوق " .

ثم يتحدث الولد وقد بدا أنه مقتنع بما ساقه له أبوه مـن حجـج ، ولكنـه يريـد فقـط معرفة سر الاهتمام بخاتم سليمان .

يقص الأب عليه قصة بلقيا وعفـان ، عندمـا ذهبـا للحصـول علـى خـاتم سـليمان ، وعندما هم بلقيا بنزع الخاتم من يد الشاب النائم أمام الغار ، تحـول الخـاتم إلى ثعبـان أسود . وجاء الهاتف إلى عفان يخبره بأن ملك سليمان هو القناعة " اقنـع فذلـك هـو الملك الخالد الذى يحويه قرص الشمس تحت ظلاله ".

وسليمان كان يحفظ ملكه بقوة القناعة ، وعندما جال الملك لحظة واحدة فى خاطر وهو فوق البساط ، اهتزت ناحية من البساط بشدة ، وقالت له الريح : " لدى أمر من الحضرة يقول عندما يحفظ سليمان قلبه احفظى بساطة ، وإذا لم يحفظ لا تطيعى أمره " .

ثم ينصح الأب ابنه : " الفقر أساس القناعة ، فأنت إن افتخرت بفقرك وإن أردت ملك العالم أيضا ، فلاتتكبر ، واقنع فى الحياة " .

والله لم يخلق الإنسان عبثا وإنما خلقه ليعبده ، والحياة ابتلاء للإنسان ربما اجتازها العبد بنجاح ، وربما أخفق مثل غلام المأمون ، وكان ذلك عندما أراد المأمون أن يختبر مكنون قلبه ، فجعل جماعة تعرض عليه إمارة البصرة ، فقبل ، وكان جزاؤه سفك دمه فى مدينة البصرة .

ولكى يستطيع أن يدرك الإنسان رسالة الغيب ، يجب عليه أن يخلص قلبه من علائقه ، ويجلو مرآته ، وينزع عنه شوائبه ، ويكون ذلك بالسفر داخل نفسه وإدراك عيوبه : " لأن أمرك متعلق بنفسك دائما سافر داخل نفسك وأنت غائب عنها ، فإن طفت لحظة داخلها كأنما طفت فى العالم بمائة قلب " .

وبعد أن يتطهر الإنسان يسلك طريق العشق ، ويقول الأب لابنه : " اتجه اليه وانظر جيدا ، واحترس فهنا يمطر البلاء فاحذر ، إن امتلكت رأسا جد بها وسلم جسدك لفناء روحك ، فيسلم لك هذا المذهب ، وإلا فأنت ناقص ولا صلاة لك " .

والعشق الحقيقى يتطلب ترك الإنسان لكل المتعلقات الدنيوية ، لذلك غضبت ليلى عندما علمت أن المجنون يحمل إبرة ليخرج بها الشوك الذى يجرح قدميه عندما يهيم على وجهه فى الصحراء من أجلها ، وقالت للمجنون : " لو كنت صادقا فى العشق لما كانت بك حاجة إلى هذه الإبرة " .

وبهذا يقتنع الولد الخامس ، ويبدأ دور الولد السادس .

الولد السادس : (المرحلة السادسة : مرحلة التوحيد) :

يشرح الولد السادس ما يلح على خاطره ، فيقول لأبيه إنه يريد لدينه الاكتمال ، ويرى أن تعلم الكيمياء هو الوسيلة المناسبة لتحقيق رغبته ، لأنه عن طريقها يحول الفقراء إلى أغنياء .

يرفض الأب طلب ابنه ، لأنه يريد تعلم الكيمياء لأغراض دنيوية بحتة ، تدل على حرصه ، ويقص الأب على ابنه الحكايات المختلفة التى تقتل نزعة الحرص عنده ، فيقص عليه قصة ذلك الحيوان الضخم الذى كان يأتى على أعشاب سبع صحراوات ثم ينهل الماء من سبعة بحار دفعة واحدة ، ولا يهدأ فى الليل خشية ألا يجد طعاما فى غده .

وينصح الأب ابنه بعدم الجشع ، فقد سمع عيسى ـ عليه السلام ـ صوت أنات تصدر من أحد القبور ، فدعا عيسى الله ، أن يحيى صاحب الصوت ، وعلى الفور ظهر شخص علم منه المسيح ، أنه يعذب من ألف وثمانمائة عام ، من أجل دانق من مال يتيم.

والدنيا لا تستحق هذا التكالب ، لأنها جيفة يجتمع عليها الدود ، بل إنها لا تستحق مجرد الحديث عنها ، وكما قيل إن كل من يتحدث بحديث عن الدنيا ، يبعد عن الجنة بمسافة خمسمائة سنة .

ويقول الأب لابنه : " ماذا ينتج عن الدنيا سوى الندم ، وأنت لاتعلم ماذا يتأتى منها ، وذلك مما بك من جهل " .

والدنيا ـ كما قال جعفر الصادق ـ خرابة وأكثر منها خرابا مائة مرة ذلك القلب الذى يختار عمار الدنيا .

والسبيل الوحيد للخلاص ، هو ترك كل شئ سوى الله ، كما فعل إبراهيم عل السلام - عندما ترك أغنامه كلها فى سبيل أن يسمع من جبريل كلمة " القدوس وقال له : اذكر اسم الحق مرة أخرى ، فليس هناك شئ يفضله " .

ويقول الأب : " إن لم تتحقق لك القدوة من دين الخليل ، فليس أمامك سو طريق آزر " .

والسلوك فى الطريق يقتضى التخلص من آفات اللسان مثل الغيبة والنميمة ، وفى هذا الطريق يفضل الصمت الكلام . لأن الإنسان لا يلتفت إلى شئ سوى الح تعالى . فيقول الأب : " طالما يتنازعك الطيب والسئ ، فقلبك ليس بصيرا وروحك بعيدة عن المعرفة ، ولكن اذا ما تلاشى لديك هذا وذاك شغلت روحك عندئذ بالس القدسى " .

وعند هذه النقطة يتوقف الأب عن الكلام ، ويجذب الولد أطراف الحديث لينتقل إل نقطة جديدة ، وهى صلة الفقر بالكفر فيقول : " إن الفقر الزائد كثيرا ما يتسبب فى الكفر ، وعندما يستقيم الدين والدنيا بالذهب ، يمكن طلب الكيمياء من الحق والذهب أيضا " .

يعترض الأب على نظرة ابنه للحياة ، لأنه يرى أن الدنيا والآخرة لا يجتمعان فيقول : " عندما يلقى الذهب بظلاله عليك ، يسلبك جوهرك وخصالك ، الدين والدنيا لايستقيمان سويا ، واعلم أنه لا يمكن طلب الاثنين من الحق " .

ثم يبدأ الأب فى تأييد رأيه بالحكايات المختلفة ، فيقص على ابنه قصة شيخ من أهل الأسرار خرج إلى السوق ليلا ، ليلتقط بعض الأشياء يحفظ بها أوده ، فشاهد رجلا لا يدين بالإسلام يمتطى جوادا بسرج مرصع ، ويحيط به غلمان كثيرون .

وفى الحال أخذ الرجل يخاطب الحق تعالى قائلا : " يا إلهى أتريدنى على هذا النحو ولا تريده هو ، وأنا من أحبائك وهو من أعدائك ، أتريدنى أن أكون على هذه الحال وهو على تلك ".

وبعد أن انتهى الرجل من حديثه جاءه الهاتف يطلب منه تبديل وضعه مع ذلك الشخص ، إن أراد ، ولكن سرعان ماتنبه الشيخ إلى سوء تفكيره ، ورفض أن يتبدل حاله :

والشخص الذى يفيض الله عليه بمعرفته ، لا يلتفت إلى شىء آخر سواه . كما قال أحد شيوخ الطريقة يصف حالته : " ليس لدى إحساس بأمان ولا بخوف ، وليست لى صداقة بأحد ولا عداء " .

والله يمتحن عباده ليختبر صدقهم وثباتهم فى عشقه ، كما فعلت زبيدة عندما أرسلت الخادم ليعرض على أحد الصوفية ذهبا ، حتى يكف عن صياحه بعشقها ، فصمت بعد أن أخذ عشرة أكياس من الذهب . وعندما رأته زبيدة قالت له : " ياعاشق نفسك ، ماذا تريد أن تفعل أيها الكاذب أكثر من هذا " .

وعندما يربط الإنسان قلبه بالحق ويترك الخلق ، يشع عليه نور المعرفة .

ونور المعرفة له دور كبير فى إدراك الأسرار العليا ، كما عرف أردشير ولده من بين مجموعة كبيرة من الأطفال من نظرة واحدة ولم يكن قد رآه من قبل ، لأنه كان قد سلم زوجته للموبذ حتى يقتلها ، وكانت حاملاً .

ونور المعرفة هذا هو الذى جعل إياز يتعرف على محمود ، على الرغم من أنه كان فاقد الوعى فوق فراشه .

يقول الأب لابنه : " عندما تكتسب رائحة المعرفة يشع نورك على الآفاق فى العالمين لأن ذرة واحدة من نور المعرفة تحوى ضياء مائة شمس . وأى سعادة أن يحب الله عبده ، ويفيض عليه بنوره ، لذلك يجود السالكون بأرواحهم ، عسى أن يدركوا

نقطة من بحر محبته ، مثل جرجيس الذى قتله الكفار ثلاث مرات وفى كل مرة كان يأتيه الهاتف : إن كل من يدعى حبنا لن يتجرع خمراً صافية دون ثمالة جزاء الأحباء يكون على هذا النحو . وعندما يسئل عما يريده يقول بـ" رغبتى الآن أن أصير تحت العربة مرة أخرى وأن يمزقونني إرباً إرباً فى العذاب حتى يأتينى الهاتف مرة أخرى .

والطريق صعب ووعر ، ولا يجب الغرور فى هذا السبيل ، كما أصيب بعض الصوفية بالغرور عندما قابلهم الخضر ، فماتوا جميعاً فى الطريق .

ويقول الأب : أى قيمة لدماء الرجال فى هذا الطريق ، فهنا طاحونة تدور على الدماء " . والسالك يظل فى حرقة دائمة ، يعانى من الشوق إلى لقاء ربه ، مثل شعيب الذى ظل يبكى حتى فقد بصره وكلما رد الله إليه بصره ، بكى مرة ثانية . ثم قال للحق تعالى : " يا عالم الأسرار لا ترد إلى بصرى بعد الآن ، فطالما لم يتحقق اللقاء ، لا شأن لى برؤية نفسى " .

وبعد السير والسلوك يستطيع الإنسان أن يصل إلى المعرفة الحقيقية لله تعالى ، ويدرك وصاله .

ثم يتحدث الولد ، ويبدو من حديثه أنه اقتنع بأهمية سلوك طريق العشق ، ولكنه يرى إمكانية سلوكه ، وإدراك معشوقه بالحصول على الذهب أيضاً فيقول : " وعندما تجتمع الدنيا مع الدين يتحقق لى وصال المعشوق .

يدرك الأب ابنه لم يفهم كيفية سلوك طريق العشق فقال له : " طالما لا تتغاضى عن الطيب والسيء ، فلن تكون إلا عاشقا مجازاً " .

ثم يورد الأب قصة " رابعة بنت كعب " وكان أبوها أميرا يقيم على حدود بلخ ، وبعد وفاته خلفه ابنه الحارث ، وكان للحارث غلاما اسمه بكتاش يقوم على أمر خزانته ، وكان أعجوبة الدنيا فى الجمال . وحدث أن أقام الحارث حفلا مجللا ،

وصعدت رابعة إلى السطح ووقعت عيناها على بكتاش ، فاجتاحتها نار هواه ، وسلبت كل إحساسها ، ومرضت رابعة ولكن الطبيب لم يستطع لها شيئا .

باحت رابعة لوصيفتها بسرها ، ثم رقمت رسالة وأرسلتها معها إلى بكتاش قالت فيها : " ألا أيها الغائب الحاضر ، أين أنت ؟ لماذا أنت بعيد عنى فى نهاية الأمر ؟ عيناى تستمدان ضياءهما منك ، وقلبى يأتلف بك أيضا ، تعال وضيف العين و القلب، وإلا أستل السيف وأزهق روحى ... " .

ثم رسمت صورة جميلة لنفسها وأرفقتها بالرسالة . وعندما قرأ بكتاش الرسالة ورأى صورتها ، أسلم قلبه لها ، وأوصى الوصيفة أن تبلغها عشقه فابتهج قلب رابعة وأصبح شغلها الشاغل نظم الشعر .

وذات يوم خرجت رابعة إلى " دهليز " ، فرآها بكتاش ، وتشبث بأذيالها ، فقالت رابعة : " انتبه أيها الوقح ما هذه الجرأة ، إنك تلعب فأى عرين للأسد تقتحم " !

فقال لها الغلام : يا من أنا تراب محلتك ، كيف تخفين وجهك عنى ؟ وإلا فلماذا أرسلت الشعر إلى ليل نهار وأسرت قلبى بتلك الصورة الفاتنة " .

وردت عليه رابعة : إنك لا تعلم ذرة من هذا السر ، لقد وقع أمر فى صدرى ولكنه انكشف !

وحدثت معركة بين الحارث وأحد الجيوش المعتدية حيث جرح بكتاش فى هذه المعركة ، فأرسلت له رابعة رسالة نظمتها شعرا ، ورد عليها بالمثل .

وتقابل الرودكى والحارث فى بلاط ملك بخارى ، وهناك ترنم الرودكى بأشعار رابعة فعرف الحارث سرها من حديث الرودكى عنها . وبعد عودته أمر بإلقاء بكتاش فى غيابة الجب ، وبإيقاد نار الحمام من أجل رابعة كما أمر بفصد عروق يديها وبأن تسد مخارج الحمام بالجص والآجر .

ظلت رابعة تكتب الأشعار على جدار الحمام ، حتى لفظت أنفاسها .

بكتاش فقد استطاع الهرب من البئر ، ثم قطع رأس سيده الحارث ، وذهب إلى رابعة حيث قتل نفسه بخنجر ، ولحق بها .

عد أن انتهى الأب من قصته ، يأتى دور الولد ، ونراه قد اقتنع بأهمية سلوك طريق شق ، وبعدم جدوى الحياة الدنيا ، ولكنه يريد فقط أن يعرف كنه الكيمياء .

أ الأب على الفور يقص لابنه قصة " أفلاطون " الذى قبع فى مكان ما خمسين ما ، واستطاع أن يصنع إكسيرا قويا من قشر البيض وشعر الناس ، فجمع بذلك با وفيرا .

ذات يوم فكر فى صنع إكسير من جوهره ، لينكشف له العالمان معا ، فاعتزل ما لم ألف عام وصنع كيمياء من جوهره ، فانكشف له الأسرار الإلهية ، وكان لديه راء يغنيه عن تناول الطعام وارتداء الملابس ،وعندما ذهب إليه أرسطو والإسكندر فاه جالسا فى صمت عميق ، وعندما طلب منه الإسكندر أن يتحدث عن الحكمة ال له : إن الصمت شيء خالد .

رفض كذلك تناول الطعام أو الخلود إلى الراحة ، ثم دخل الغار .

م يوجه الأب الحديث إلى ابنه : " إن لم تكن تعلم ما هى الكيمياء التى تنير العالم تعلمها من أفلاطون ، لماذا تصنع كيمياء الفضة والذهب من قشر البيض وشعر لناس أيضا ، اجعل جسدك قلبا ثم احله إلى ألم ومعاناة فعلى هذا النحو يصنع . الرجال الكيمياء " .

والألم لا يمكن تعريفه وكما قال مجذوب : إنه شيء لازم كما تلزم اليد لمبتور اليد أو كما يلزم الماء لشخص اشتد به العطش عشرة أيام .

والألم هام جدا للوصول إلى مرحلة الفناء فيقول الأب : " لا تقض على وجودك ولا تنم ولا تظل مستيقظا ، لا تكن فى الأصل ، تذكر هذا جيدا ، فأنت تملك ما تبحث عنه فى الآفاق ، فافن عن نفسك حتى تدركه مثل العشاق .

ومن يدرك هذه الحال لا يهتم بشيء قط ، لا يسعد بالإقبال ، ولا يحزن من الخسران والإدبار .

وعندما يصل الإنسان إلى حال الفناء ، تمحى الثنائية ، كما يختلط اللبن والخمر ، ويتخلصان من نقص الثنائية .

ثم يتحدث الأب عن الكيمياء الحقيقية : " ولكن الكيمياء أبدا هى نور الله يقذفه داخل قلوب السالكين ، فإذا ما ومض نوره على كافر ولو للحظة ، تفيض أنواره على الدنيا .... وعندما ما يحيل ذلك النور روحك إلى المحو المطلق يصدر عنها " سبحانى " " وأنا الحق " .

ثم يقول الأب لابنه : وإذا ما أدركت الروح هذه الدرجة ، تكون جديرة بتلقى الأمر الإلهى ، وتكتسب خواص الحضرة وتصير جزءا منها : " ولأننا نرتدى ثوب خاصيتها ، فالرسالة من القدوس إلى القدوس " .

ثم يشرح الأب حقيقة الكيمياء مرة أخرى فيقول : " نعم عندما يحل نور الحق فى روحك ، يكتسب جسدك لون الروح فى الحال .

ويطلب الأب من ابنه بعد ذلك أن يصنع الكيمياء على هذا النحو ، ويقول له توجد بعد ذلك أسرار لا يمكن التحدث عنها إلا فوق المشنقة ، وهو ولا يملك أن يتحدث بأكثر من هذا .

وعلى هذا النحو تنتهى المناظرة بين الأب وأولاده الستة .

ثانياً : الملامح العامة للقصص الواردة في الهي نامه

١- فن المناظرة : -

يعتمد البناء الفني في منظومة الهي نامة على فن المناظرة ، والمناظرة فن سابق على العطار ، عرف في النثر منذ القدم ، ثم ظهر في الشعر وغزا القصيدة في بداية الأمر ، ثم تحول إلى المثنوية في منظومات قصصية ، ويعتبر العطار أول من استخدم هذا الفن في المنظومات الصوفية ، وظهر ذلك في منظومة الهي نامة .

وفن المناظرة يساعد الشاعر على الاستعانة بالحكايات والقصص المختلفة ، وهو ما استفاد منه العطار في منظوماته المختلفة ، ولكنه يتضح أكثر في الهي نامه .

و إيراد الحكايات وسيلة ناجحة للوصول إلى العامة ، وكما يرى الأستاذ فروزانفر[٢] فإن عامة الناس تميل إلى سماع الحكايات والقصص ، وتصغي إليها بعناية واهتمام ، وعن طريقها يمكن إيصال المعارف الحقيقية إليهم ، كما أن شرح أحوال السلك والمريد في ثوب التمثيل والحكاية يكون أكثر تأثيراً ، هذا بالإضافة إلى أن الموضوعات الصوفية لا تتيسر بالإفصاح والعلانية .

المناظرة في الهي نامة :-

تدور المناظرة في الهي نامة بين أب وأولاده الستة على النحو التالي :

يجمع الخليفة أولاده الستة ويطلب من كل واحد منهم أن يفضي إليه بأعز أمانيه وأغلى رغباته حتى يحققها له في التو .

فيبدأ الولد الأول في طرح أمنيته ومدى تعلقه بها في أبيات قليلة ثم يتبعه الأب بتقبيح هذه الرغبة في عدة أبيات أيضاً ، وبعد ذلك يبدأ العطار في سرد الحكايات المختلفة التي يدعم بها آراءه ، ومع بداية المقالة التالية يبدأ الولد في جذب أطراف الحديث ويثير نقطة جديدة حول رغبته في أبيات قليلة ، ثم يعقبه الأب في عدة أبيات ويبدأ بعد ذلك في سرد الحكايات والقصص ، وتستمر المناظرة على هذا المنوال حتى يقتنع

الولد الأول بخطئه ويقلع عن أمنيته . وتسير المناظرة مع بقية الأولاد على نفس هذا المنوال .

وهكذا نجد أنفسنا في تردد لقبول الرأي القائل بأن الحوار هو العنصر الأصلي للمنظومة[٣] لأن الحوار القصير بين الأب والأولاد في بداية كل مقالة هو بمثابة إطار عام للمنظومة أما الحكايات فهي أساس المنظومة ولبها وقد حرص العطار على التدخل بعد كل حكاية ليدلي برأيه فيها ويعلق عليها ، وكان التعليق في أغلب الأحيان يتسم بالإيجاز باستثناء المواضع الخاصة بالحديث عن المعشوق والعشق وطريقه الوعرة ، حينئذ يترك العطار العنان لخياله ولقريحته الشعرية فيتحول أسلوبه من أسلوب سهل سلس إلى أسلوب متكلف مليء بالمحسنات البديعية .

كما ظهرت مهارة العطار في استخدام الحوار ، فجعل الحوار في مستوى الشخصيات ، كما أنه أجرى الحوار على ألسنة جميع الكائنات والمخلوقات ، بل والملائكة والشيطان أيضاً ، مما أضفى حركة وحيوية على الحكايات .

كذلك يتميز الحوار عند العطار بسهولة تحديد أطرافه فلا نلحظ عنده ظاهرة الالتفات التي تميز الحوار عند جلال الدين الرومي أي انتقال الشاعر من صيغة المتكلم إلى الخطاب إلى الغيبة عدة مرات .

٢- ثراء شخصيات القصص:-

أورد العطار مائتين وست وسبعين حكاية في منظومة الهي نامة ، وقد أجراها كلها على لسان الأب في جو يعيد إلى الأذهان ليالى ألف ليلة وليلة[٣] ويمكن تقسيم هذه الحكايات كالآتي :-

أ - حكايات دينية : ذكر العطار كثيراً من الأنبياء والرسل ضمن حكايات الهي نامة فقد ذكر آدم و إبراهيم وإسماعيل ويعقوب ويوسف وشعيب وموسى وسليمان وأيوب ويونس ويحي وعيسى "عليهم السلام" - وقد استفاد العطار من قصصهم في

القران الكريم ، هذا بالإضافة إلى الحكايات الدينية التي أشار وحشدها في ديباج المنظومة .

ب ـ حكايات تاريخية : استفاد العطار من تاريخ إيران القديم وأساطيره ، فذكر حكايات عديدة عن تلك الحقبة مثل حكاية بيزن ، وكأس جمشيد ، واكوان ديو ورستم وسهراب ، والعلم الكابياني ، وسياوس ، ورستم واسفنديار ، وافراسياب واردشير ، وانوشيران ، وبزرجهمر . كذلك ذكر قصصاً من التاريخ الإسلامي فقد أورد قصصاً عن خلفائه وملوكه وسلاطينه ، وتعددت قصصه عنهم فذكر على سبيل المثال زبيدة ، سنجر ، ملكشاه ، هارون الرشيد ، المأمون ، أما محمود الغزنو فقد حصل على النصيب الأكبر في حكايات الهي نامة ، حيث ذكره العطار في خمس عشر حكاية .

ج ـ حكايات عن رجال الصوفية : كان من الطبيعي أن تكثر حكايات الصوفي وقصصهم في منظومة صوفية مثل الهي نامة ، فقد ذكر العطار أكثر من خمس وثلاثين شخصاً من رجال الصوفية ، ضمن حكاياته في الهي نامة ، وتحدث عنهم باحترام تام ، إلا أنه أظهر إجلاله الكبير ، إلى كل من الحلاج وأبي يزيد بصف خاصة ، وأعتبر الأول مثلاً أعلى لحالة العشق ، وأتخذ من الثاني صورة مثالية لحال الفناء ، كذلك فقد ذكر العطار عدة حكايات في الهي نامة كان قد ذكرها من قبل في كتابه تذكرة الأولياء ضمن ترجمته لسير رجال الصوفية .

د ـ حكايات عن الشعراء : أورد العطار حكايات عن ثلاثة من شعراء إيران وهم مهستي وفخر الدين الجرجاني ورابعة بنت كعب ، وكانت هذه الحكايات ذات أث كبير في التعريف بأحوال هؤلاء الشعراء الثلاثة[٥] لقلة ما ورد عنهم في كتب التذاكر

كذلك دارت القصص حول حيوانات وطيور وحشرات وجماد بحيث احتوت على نماذج متعددة للكون كله ، بكل ما يزخر به من مخلوقات وكائنات ، وقد أخضـ

العطار كل قصصه بشخصياتها ورموزها وعناصرها لحديثه الصوفي فجاءت كلها محملة بالمعاني الدينية والصوفية .

٣ ـ تعدد الشكل القصصي :

ظهرت مقدرة العطار الفائقة كقصاص بوضوح في منظومة "الهي نامه" خاصة في قصتي " المرأة الزاهدة " " ورابعة بنت كعب " .

وقد امتازت القصة الأولى ، بتعدد الشخصيات ، فالمرأة بطلة القصة ، تقابل شخصيات عديدة ، وهذه الشخصيات تساهم كلها في تفاعل الأحداث ، كما يتوفر عنصر الصراع بين هذه الشخصيات وبين بطلة القصة ، كذلك تتنقل المرأة إلى أماكن عديدة وبذلك تتعدد مشاهد القصة وتجرى أحداثها في أماكن متفرقة ، وتتطور الأحداث وتتصاعد ، ثم تحل مشكلة المرأة في النهاية ، وربما تصلح هذه القصة كنواة لقصة روائية طويلة .

والقصة الثانية تظهر فيها مقدرة العطار على نظم القصة أيضا ، إلا أن القصة الثانية من نوع آخر ، فهي قصة عاطفية تعتمد على وصف المشاعر وإن كانت لاتخلو من الأحداث أيضا ، وتغيير مشاهد الحدث القصصي ، ويكثر في هذه القصة الحديث عن الرسائل المتبادلة بين رابعة وبكتاش ووصف الأحوال النفسية والوجدانية للعاشقين .

وبالإضافة إلى مقدرة العطار كناظم لقصص طويلة ، بدت مقدرته أيضا على توضيح فكرته من خلال بيتين أو ثلاثة أبيات ، تحت عنوان حكاية ، وبالطبع فهذه الأبيات القصيرة لاتحمل مقومات الحكاية ، لكنها توضح مقدرة العطار على تبيان هدفه في بيتين أو ثلاثة فقط ، فقد استطاع مثلا أن يوضح أن معرفة الله موهبة وليست كسبا ، في ثلاثة أبيات فقط على هيئة سؤال وجواب بين شخصين (٦) ، كما قال إن صفاء قلب الرجل لايكون إلا بالإعراض عن الدنيا وحطامها ، في ثلاثة أبيات

أيضا وبنفس طريقة السؤال والجواب[٧] كذلك صور المظالم التى تجتاح العالم وأهله على لسان أحد الأشخاص فى بيتين[٨] .

٤- الوحدة الموضعية

تتميز الحكايات فى (الهى نامه) بالوحدة الموضوعية بين أبياتها ، فالأفكار مرتبة ترتيبا دقيقا ، وكل بيت فى الحكاية يضيف جديدا إلى معنى القصة ويؤدى بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل فى التفكير والمشاعر ، ونستطيع أن نقول إن أغلب القصص فى (الهى نامه) تتميز بعدم التكرار الممل بين أبياتها ، فقد مال العطار إلى البساطة التامة فى عرض قصصه ، بحيث أننا إذا تجاوزنا عن تعليق العطار ،والذى كان يطول أحيانا خاصة فى المواضع الخاصة بالحديث عن العشق وأردنا أن نقص أحدث القصة ، فأننا فى أغلب الأحيان - لانستطيع أن نترك بيتا واجدا من الأبيات المتعلقة بأحداث القصة . وتعتبر هذه ميزة كبيرة تضاف إلى مميزات العطار .

٥ - الرمز الصوفى فى الهى نامه :

تعتبر الهى نامه من منظومات العطار الواضحة المعالم ، الجلية الرمز ، فهو لم يكلف القارئ أية مشقة أويحمله أى عناء لفهم هذه المنظومة .

فقد شرح العطار ما يقصده بالخليفة والأولاد الستة من خلال حديثه إلى الروح، فالروح هى خليفة الله على الأرض ، منه أتت وإليه تعود ، وفى قوس صعودها من الأرض إلى السماء تترقى فى ستة مقامات هى :

الحس - الوهم - العقل - العلم - الفقر - التوحيد

وكل ولد يمثل بالرغبة - التى يطلبها - مرحلة من هذه المراحل . فالولد الأول يريد الزواج من ابنة ملك الجان ، وينتهى الأب من مناظرته معه بأهمية عدم التعلق بالماديات والقضاء على النفس الأمارة. والتعرف على القوى الالهية داخل النفس الإنسانية وتنميتها ، والسلوك فى طريق الله .

والولد الثانى يطلب تعلم السحر ، فيوضح له الأب أنه يتجه إلى أشياء وهمية يصورها له الشيطان ، وعليه أن يجعل شيطانه يسلم ، ويسلك طريق السحر الحقيقى وهو طريق الإيمان الذى يصل به إلى الخلود .

أما الولد الثالث فيرغب فى الحصول على (كأس جمشيد) ، ويوضح له الأب أن إدراك العوالم الخفية والأسرار العليا لايتأتى إلا بالنفس الفانية التى تسقط من أمامها الحجب أما الكأس فلا تؤدى إلا إلى الهلاك ، وكأسه الحقيقية التى تصل به إلى العوالم العليا هى عقله الذى يحمل كثيرا من الأسرار والمعارف وعليه توجيهه إلى طريق الله .

ثم يأتى المقام الرابع وهو طلب الولد لماء الحياة ، وقد استطاع الأب أن يدل ابنه على ماء الحياة الحقيقى وهو المعرفة الإلهية التى تنير الطريق أمام السالك فيرى العالمين .

- وفى المرحلة الخامسة يطلب الولد خاتم سليمان . ليتحقق له ملك سليمان ، ويتحدث الأب ويوضح لابنه تفاهة مطلبه ، وفى النهاية يقتنع الولد بأن خاتم سليمان ليس إلا القناعة ، وسلوك طريق الفقر الصوفى هو أساسها ، والقناعة هى الملك الحقيقى . لأنها تصل بالسالك إلى نهاية الطريق ، وتجعله يتحمل مشاقة .

- وتأتى المرحلة السادسة وهى اسمى المراحل وأرفعها ، وفيها يتشوق الولد للوصول إلى طريق الدين ، ولكنه يتصور أن السبيل إليه يكون بتعلم الكيمياء . لكن الأب يفند له آراءه حتى يصل معه إلى كنه الكيمياء الحقيقية ، فنجد أنها نور الله يقذفه داخل قلوب عباده فأذا بهم يدركون سر الحياة الحقيقى ويفنون عن أنفسهم .

والروح التى تطوى هذه المقامات هى روح الإنسان الكامل ، الذى هو خليفة لله تعالى .

ويتضح من هذا أن رموز العطار واضحة لأنه صرح بها فى بداية منظومته ، كذلك فقد اختار رموزا قوية ، فالزواج من فتاة جميلة رمز قوى على تمكن الجوانب الحسية

من النفس الإنسانية ، كذلك تعلم السحر ، وخاتم سليمان وماء الحياة وكأس جمشيد ، وتعلم اليكمياء كلها رموز على أحلام الإنسان وأمانيه فى الحياة الدنيا ، ورغبته فى تقلد أحسن المناصب ، والفوز بعمر طويل ، والسياحة فى العالم ، والحصول على الذهب والمال ، وإحكام سيطرته على الغير.

كذلك فقد مال العطار فى أغلب حكاياته إلى شرح الرمز الذى يقصده إذا كانت القصة رمزية .

وبالإضافة إلى هذا امتازت بعض الحكايات باستعمال هذا الأسلوب الرمزى ومن أمثلة ذلك :

يتحدث العطار عن سلوك الطريق ووعورته ، ففى هذا الطريق لايصل كل إنسان إلى نهاية المطاف وهو الفناء فى الله ، بل كثيرا مايهلك سالك فى هذا السبيل ويصل آخر ، ويمثل العطار لذلك بالحجر والطوبة ، فالاثنان يسقطان داخل البحر ، والحجر يغرق ، أما الطوبة فتفنى عن نفسها ، وتكتسب صفات البحر[٩]

كذلك رمز لحالة الفناء بالقمر و الشمس ، فالقمر عندما يختفى يكون قد فنى فى الشمس ، وعندما يظهر هلالا ، يسرع الناس إلى مشاهدته أو مشاهدة من فنى فى حبيبه[١٠] والإنسان الجشع الحريص المتكالب على الدنيا ، مثله العطار بالحيوان النهم الذى يأتى كل يوم على سبع صحراوات ، وينهل سبع بحار ، وعلى الرغم من ذلك لايهدأ له بال ، ولايغمض له جفن[١١]

أما الدنيا فقد رمز لها العطار بلعبه الشطرنج ، تنتظم صفوفها ، ويحمل شخص من منزله ، ويأتى آخر بدلا منه ، ويعزل الملك ، ويطرد من مكانه ، ويستمر الوضع على هذا المنوال حتى يفض اللعب[١٢] .

وقد أضفى العطار على رموزه قوة فى التعبير وأظهر مقدرة فى التصوير ، فجاءت معانيه قوية ، ورموزه موحيه .

كما لجأ العطار إلى السحرية والتهكم، فجعل للمعانى صورا ناطقة أقرب إلى صور (الكاريكاتير) منها إلى الشعر ، ولعل أقرب مثال على ذلك وصف العطار للدنيا ، عندما تجسمت للسيد المسيح على هيئة عجوز شعرها أبيض ، وظهرها مقوس ، وبدون أسنان ووجهها أسود ، ترتدى ثوبا من مائة لون ولون ، إحدى يديها مخضبة بألوان عديدة ، واليد الأخرى غارقة فى الدماء ويتدلى من كل شعرةمن شعرها منقار صقر ، ويغطى وجهها حجاب .

ثم يفسر العطار هذه الهيئة الغريبة ويمزجها بطريقة جميلة للغاية بصفات الدنيا وهى كلها أمور معنوية ، وهو بذلك يجمع بين الماديات والمعنويات ، ويخلط بينهما بمنتهى المهارة ، فالحجاب يحجب حقيقة الدنيا عن الخلق ، والثوب المتعدد الألوان يجعل قلوب الناس تميل إلى حبها ، ويدها ملوثة بالدماء من كثرة الناس الذين قتلتهم ، ويدها الأخرى مخضبة لتخدع الأزواج وتجعلهم يبتعدون عن ذكر الله[١٣] .

وعلى الرغم من الصورة المنفرة للدنيا ، إلا أنها صورة قوية تترك فى نفس القارئ الأثر الذى أراده لها الشاعر ، وعرض الصور القبيحة لا يتنافى مع الشاعرية ، وفى هذا يقول الدكتور غنيمى هلال[١٤] ، عرض الأمور القبيحة عرضا فنيا لا غبار عليه متى أجيد التصوير .

كذلك جعل للمعانى صورا ناطقة ، وأوضح مثال لذلك تصويره للدنيا وأهلها ، فالدنيا جيفة ملقاة والملوك كالأسود أول من يأكلون من هذه الجيفة ، ثم يأتى دور الأمراء ، وبعد ذلك عمالهم ورجال بلاطهم ... الخ[١٥].

وقد استطاع العطار أن يجسد هذه الصورة تجسيدا جميلا ، وأن يزاوج بين النفس الإنسانية وبين الحياة وبين الحيوان فى صورة واحدة . وأن يأتى بصور متتالية كلها موحية .

كذلك ظهرت بعض الصور الشعرية التى تعتمد على الخيال ، مثل حديثه عن يوم القيامة ، عندما يسرع الملائكة بشاب صوب الجحيم ، فيأتيهم الهاتف يأمرهم

بتركه ، ثم يخفيه الله فى حجاب أسراره ، ويبحث عنه الملائكة ، فيقول لهم الله - تعالى - إنه فى دار عصمته[١٦] ، والعطار يشرح بهذا مدى عناية الله ورعايته لعباده ، ويدلل على أن رحمة الله واسعة لا نهاية لها .

وفى حكاية أخرى يصف لنا قصرا من قصور الجنة ، حيث نزل شاب ، وفى هذا القصر آلاف النوافذ من كل صوب ، وحيثما نظر الشاب وجد الله تعالى أمامه ، وينتهى العطار من هذه الصورة إلى أن هذه المكانة الرفيعة لا يدركها أى إنسان بسهولة ، بل بعد مجاهدة وبقلب مفعم بالوجل والخوف من الله[١٧] .

كذلك ظهر فى "الهى نامه" بعض حكايات متفرقة مما يسمى بـ " شعر اللا وعى " ويعتبر الصوفية هم أول من قال بأدب اللا وعى ، فقد أثر عن الكثيرين منهم نظم الشعر فى حالات الوجد الصوفى ، التى كانوا يخرجون فيها عن العقل الواعى[١٨].

ومن أمثلة ذلك ما جرى على لسان المجذوب فى حديثه إلى الله ، عندما طلب منه "الكرباس" لأنه لا يصبر على حاله هذا ويريد ثوبا ، ويجيبه الحق - تعالى - بأنه سيمنحه الكرباس ولكن من أجل كفنه[١٩] . ويشير العطار بذلك إلى أهمية موت الإنسان فى الحياة أى ضرورة فنائه عن نفسه .

كذلك حديث مجذوب آخر عن قلب الله - تعالى - الذى يتسع لكل قلوب أهل العالم ، ورغبة فى أن يشعر به قلب الله ويتألم لحاله[٢٠] .

ويجرى العطار حديثا آخر ، على لسان أحد المجاذيب الذى يسر إلى الله برغبته فى الفناء عن نفسه ، لأن وجوده لا يتسع له و لله معا[٢١] .

وقد اتخذ شعر العطار صبغة الحكم والنصائح العامة ، حينما تحدث عن النواحى الأخلاقية مثل ذم الغيبة[٢٢] ، وتفضيل الصمت على الكلام[٢٣] ، وذم أكل اللحوم وتناول الطعام بكثرة[٢٤] .

كما استخدم العطار مثل أغلب الصوفية الرمز بأسماء المعشوقات الحسية مثل ليلى والمجنون ، وأكثر من القصص التى تدور حول محمود الغزنوى وغلامه إياز ، ومن الغريب أن هذه القصص قد استعملت كطراز فى كل آثار التصوف الفارسى[٢٥]

٦ ـ إخضاع الشخصيات المشهورة وكافة الكائنات للمعانى الصوفية :

٨) تمثلت الحياة بكافة ألوان الصراع الكامنة فى النفس البشرية فى شعر العطار ، كما ظهر فى شعره الصدق فى تجربته الشعرية إلى أبعد مدى ، فقد غاص فى أعماق النفوس البشرية ، وصور جوانبها المختلفة ، وشرح ما يعتمل فى روح الإنسان من صراع بين الخير والشر ، واستعان فى ذلك بكل مظاهر الوجود . وكما يقول الدكتور غنيمى هلال[٢٦] ، فالشاعر يستطيع أن يجد موضوعات للتجارب الشعرية الصادقة فى كل ما حوله ، متى خلع عليها من إحساسه أو فاض عليها من خياله ، وفي هذه لابد من قدرة شعرية تفوق المألوف لتنقل هذه المشاهد اليومية إلى عالم الشعر بقوة الإحساس والتصوير الفنى .

وقد استطاع العطار أن يتناول الموضوعات العادية فى الحياة اليومية ، وأن يوجهها وجهة صوفية صرفة ، ومن أمثلة ذلك

وقف العطار أمام مناظر عادية ، ربما تمر على الإنسان العادى ، دون أن تترك أثرا يذكر فى نفسه ، أولا يكاد يلحظها بالعين المجردة ، إذا كانت غير قريبة منه ، أما العطار فقد أثارت هذه المناظر فكره ، وشحذت خاطره ، وألهبت خياله ، فنراه وقد صور النملة الضعيفة الواهية ، وهى تحمل التراب ذرة ذرة من تل كبير أمام منزلها ، من أجل إدراك رضا المحبوب ، ويقارن بين هذه النملة وبين السالك الذى يجب عليه تحمل آفات الطريق وصعوبته ووعورته ، فهو بضعفه البشرى يمثل النملة ، ومطمحه فى الوصول إلى معرفة الله يمثل رغبة النملة فى حمل هذا التل الكبير ، وربما هلك أثناء الطريق ، وربما فشلت النملة فى مهمتها ، ولكن الأمر الهام هو توفر النية والعزم[٢٧]

وهكذا استطاع العطار أن ينتهى إلى نتائج هامة ، من منظر عادى مألوف وهو سعى النملة ودأبها على حمل الأشياء .

وكم من إنسان وطأ نملة بقدمه ، دون أن يحرك ذلك ساكنا فيه ، لكن العطار حول هذا الأمر العادى إلى مثال يدل على صفاء الباطن وجلاء مرآة القلب ، فالإنسان الذى يشعر بخطورة فعل كهذا الفعل ، هو رجل الطريق الحق[٢٨]

كذلك جعل العطار موضوع قذف كلب بطوبة[٢٩] أو ضربه بعصا[٣٠] ، جريمة إنسانية تبعد الإنسان عن كونه أفضل مخلوقات الله ، وتحيد به عن سلوك طريق الحق تعالى . وتدل على الشرور التى تعتمل فى نفسه . ومن الأمثلة الجديرة بالتنوية فى هذا الصدد ، المناظرة بين طائر منزلى وباز حول عدم وفاء الإنسان ، فهو يربى الطيور ليذبحها فى النهاية ، وينتقل العطار من ذلك إلى الدنيا فهى أيضا تربى الإنسان لتقضى عليه فى نهاية الأمر[٣١] وعلى هذا النحو مزج العطار بين خصال الإنسان وصفات الدنيا ، ليثبت أن الإنسان لاحول له ولاقوة ، وأن الآخرة أبقى له وأنفع .

ويبدو أن ذبح الإنسان للطيور والحيوانات يثير مشاعر العطار ، فها هو يرى القصاب وهو يذبح الخراف ، وعلى الرغم من أنه أمر عادى للغاية بالنسبة لأغلبية الناس ، إلا أنه يجعل العطار يتحدث عن الموت وحتميته ، وعن هذا القصاب اللاهى الذى لايفكر فى حتمية موته هو ، ولايعمل من أجل آخرته[٣٢]

كذلك فقط حمل العطار الشخصيات المشهورة المعانى والمضامين الصوفية فاتخذ من الخلفاء والملوك والأمراء والحكام والقادة والوزراء فى كثير من قصصه رمزا للغفلة عن الآخرة والتكالب على الحياة والبعد عن الطريق القويم ، وربما يكون السلطان محمود الغزنوى من أبرز الشخصيات المشهورة التى دارت حولها القصص فى الهى نامه .

ويبدو من هذه القصص التى تدور حول محمود أن صورته كسلطان عظيم فاتح للهند كانت ما تزال ماثلة للأذهان ، فالعطار يذكره على نحو حفظ له صفات الملك

والعظمة مثل : الملك المؤمن ، الملك المعظم ، الملك المظفر ، شيخ الملوك ، ملك الدين ، سلطان العالم .

كذلك يطالعنا السلطان محمود الغزنوى غالبا فى الهى نامه وهو فى الطريق قائدا للجيش أو خارجا للصيد وفى طريقه يقابل إما عجوزا أو شيخا أو مجذوبا أو غلاما حيث تدور بينهما القصة .

كما يجرى ذكر ضخامة جيشه وفتوحاته للهند وكثرة أفياله وتحطيمه لمعبد سومنات الذى كان يضم أعظم أصنام الهند .

كما يشير العطار إلى ما حدث بين محمود الغزنوى والفردوسى بعد تأليف الأخير للشاهنامه وغضب الفردوسى لعدم تقدير محمود له .

ومن الواضح أن صفات السلطان محمود الغزنوى ٣٨٧ - ٤٢١هـ كمؤسس للحكم الإسلامى فى الهند حيث أمضى محمود ما يقرب من خمسة وعشرين عاما فى حروب وفتوحات متفرقة فى بلاد الهند ، ووضع أساسا قويا للدولة الإسلامية هناك فاستمر الحكم الإسلامى بعده حوالى ثمانية قرون ونصف قرن ، من الواضح أن هذه الصفات كانت قد استقرت تاريخيا فى الحكايات المتداولة عن محمود الغزنوى وصارت ماثلة للأذهان فأضحى محمود مثالا على الشجاعة والغزو والجرأة كما أنه صار رمزا للغنى والمكنة .

وعلى الرغم من إثبات هذه الصفات من الإيمان والقوة والمكنة للسلطان محمود الغزنوى فى بدايات الحكايات إلا أن مضمون هذه الحكايات فى مجملها استخدمت داخل إطارها العام بحيث أخضعها العطار للمعنى الصوفى الذى يقصده فى موضع حديثه لذلك نرى محمود الغزنوى فى كثير من الحكايات يمثل الملك الغافل عن سر الحياة والذى يدرك حكمة الوجود من عجوز أو شيخ أو مجذوب ، كما أنه يعد مثالا على ظلم الحكام واستغراقهم فى الماديات ، واستمرائهم للحرام . أو كرجل ذى حسن صوفى يتمتع ببعض الروحانيات كما يظهر أحيانا كمثال للملك العادل ويمكننا القول إن القصص التى تدور حول الشخصيات التاريخية حافظت فقط على

الإطار التاريخى للشخصية وإن المعانى التى وردت داخل هذا الإطار تعددت بحيث أنصفت تلك الشخصيات حينا ، بينما جاء الرمز الصوفى على حسابها حينا آخر وإن الأولوية كانت للمعانى والرموز الصوفية ، حيث خضعت صورة هذه الشخصيات فى الحكايات لمقتضى الموقف والرمز .

فقد جعل الإسكندر مثلا يكلل قوته الهائلة بموت ذليلا لأنه لم يدرك الطريق السليم فى حياته .

٧ ـ الأبعاد الاجتماعية والحضارية :

حفلت القصص الواردة فى الهى نامه بلمحات من الحياة الاجتماعية والحضارية مثل :

١ ـ نقد القضاء : تشير أول قصص المنظومة وهى قصة المرأة الزاهدة إلى تدهور أوضاع القضاء حيث يشير العطار إلى شهادة الزور والمعروف أن القاضى كان يتخذ الشهود ليعاونوه فى عمله القضائى وذلك لأن أساس الحكم فى الإسلام هو البينة أى الشهادة ، وكان أى فرد يقوم بالشهادة فى خضر القاضى ، فمن عرف عنه خير قبلت شهادته ومن عرف فيه غير ذلك لم تقبل منه ، حتى كثرت شهادة الزور وتفشت ثم ظهر نظام الشهود العدول فى عهد الخليفة المنصور ١٣٦ ـ ١٥٨ هـ فكان القاضى يختار بنفسه بعض الشهود ممن اختصوا بالأمانة والتفقه فى الدين ، وكان القاضى لا يفتأ يراقب تصرفاتهم ويعاقب من يسئ منهم ، وكان الشهود العدول يكونون فى القرن الرابع الهجرى طائفة هامة وكانوا أشبه بالعمال الدائمين[٣٣] .

وفى العصر العباسى الثانى لم يقتصر الفساد على حالة الدولة المدنية والحربية ، بل تعدى ذلك إلى القضاء أيضا[٣٤] . ويبدو أن شهادة الزور كانت تتبع ضعف القضاء وهو أمر منطقى .

٢ ـ الخراج : كما تحتوى القصة نفسها على مشهد يعبر عن تعسف الحكام فى جمع الخراج تعسفا يصل إلى حد الحكم بالإعدام .

وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قد رأى عندما فتح بلاد العراق والشام ألا تقسم هذه الأراضى المفتوحة بين الغانمين ولكن تترك لأهلها مع وضع الخراج عليها لينفق منه على مصالح المسلمين[٣٥] .

والخراج مقدار معين من المال أو الحاصلات يدفع سنويا وفى العصر العباسى جعلت الأرض فى ملكية الدولة ، وأصبح لها حق الإقطاع فيها ، وكان الأتراك يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغا من المال عدا الهدايا والطرف .

وكان المقطع أو الملتزم يعمل على الإثراء وجمع الأموال الضخمة ولا يتردد فى إرهاق الأهالى وإثقالهم بأنواع الضرائب المختلفة ليستطيع أن يؤدى إلى الحكومة ما عليه من مال الخراج ويحفظ ما زاد لنفسه ، وكان الجباة يسلكون فى سبيل ذلك وسائل التعذيب المختلفة[٣٦] . وقد وصلت فى بعض العصور إلى إلحاق أصناف العذاب والمكاره بالناس حتى كانوا يموتون تحتها أشنع موت[٣٧] .

٣ - الرقيق : تتعدد صور بيع الرقيق وشرائه فى المنظومة وكان هذا الأمر شائعا فى العصر العباسى ، فقد توسع العباسيون فى جلب الرقيق واستخدامهم فى قصور الخلفاء والأمراء والوزراء واكتظت هذه القصور بالآلاف من الجوارى من كل جنس ، وكانت بغداد نفسها من أعظم أسواق الرقيق[٣٨] .

٤ - الغلمان :

تحتوى قصص الهى نامه على أربع عشرة قصة أبطالها من الغلمان حيث يفيض العطار فى وصف جمال الغلام بطل القصة إفاضة كبيرة كما يسهب فى وصف آلام العشق وكانت هذه القصص انعكاسا للأحوال السياسية والاجتماعية التى مرت بها الدولة الإسلامية بعد أن فقدت الروح العربية سيادتها ، وعرف الغزل فى الغلمان وشهدت قصور الخلفاء أيضا ظاهرة الغلاميات منذ عهد الأمين ، فيقال إن أم جعفر عندما رأت شدة شغف الأمين بالخدم اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه ، وعممت رؤوسهن وألبستهن الأقبية والمناطق ، فاستحسنهن وأبرزهن للناس من

الخاصة والعامة ، فاتخذ الناس الجوارى المطمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق وسموهن الغلاميات[٣٩] .

وقد انعكست هذه الظاهرة فى الشعر بصورة واضحة[٤٠] وانتقلت إلى التصوف مثلما انتقل الغزل بأسماء المعشوقات الحسية ، وإن كان شعراء التصوف بالطبع قد أخضعوها لمفهومهم الصوفى .

وهذه الأشعار فى الحقيقة تعبر بجلاء عن ذوق العصر آنذاك ، ومن العسير تقبلها الآن ، وهى تلقى بلا شك ظلالا سلبية على الأدب الصوفى .

وهناك نسبة ضئيلة من قصص الهى نامه ، تمثل هذه النوعية من الشعر وهى :

رقم المقالة	رقم القصة	اسم القصة
المقالة الرابعة	٢	قصة عشق أحد الصوفية
المقالة الرابعة	٤	قصة الأمير والبطل
المقالة السادسة	٤	قصة فخر الدين الجرجانى و
المقالة السادسة	٧	قصة غلام ودرويش
المقالة السابعة	١٧	قصة السلطان محمود وإياز
المقالة الثامنة	٤	قصة السلطان محمود وإياز
المقالة الثامنة	٥	قصة غلام جميل وعاشقه
المقالة الثامنة	٦	قصة السلطان محمود وإياز
المقالة التاسعة	١٣	قصة السلطان محمود وعرض
المقالة الحادية عشرة	٦	قصة السلطان محمود وإياز فى
المقالة الرابعة عشر ة	٨	قصة الشاب منقطف الملابس
المقالة الرابعة عشرة	١١	قصة السلطان محمود وإياز
المقالة الرابعة عشرة	٢٤	قصة الشاب بائع الملح
المقالة الثامنة عشرة	٨	قصة الشيخ أبى على الرودبار

وأهم الملامح التى تميز هذه النوعية من القصص فى منظومة الهى نامه هى :

١ ـ الإفاضة فى وصف جمال الغلام مثل وجهه يشبه القمر عندما يتوسط السماء ، باسق كسرو البستان ، طرته تلامس أقدامه ووجهه يتدفق حياة ، إذا ما أشرقت شمس وجهه أخفت إشراق السماء ، تجاعيد طرته تصل إلى مئآت الآلاف ، فقد القمر قراره تدلها به ، وختم جماله العشق .

٢ ـ العاشق فى هذه القصص إما صوفى أو شيخ أو شاب وهناك ست قصص من بين هذه القصص تدور بين محمود وإياز وقصة بين الشاعر فخر الدين الجرجانى وغلام الملك .

٣ ـ استخدم العطار عبارات صريحة وواضحة ومباشرة مثل : وحدث أن شقى أحد الصوفية بعشقه وتدله إلى حد لا يمكننى شرحه ، ولم تكن لديه قدرة مطلقا على البوح بسر عشقه ، فكان يكتوى بنار العشق ليل نهار ، وقل سلبه العشق وجوده .

٤ ـ بعد أن يأتى العطار بصورة مغرقة فى المادية وممجوجة ، ينتقل إلى معان سامية ولأسباب لا تخفى على فطنة القارئ ، لم يكن أمامى إلا حذف هذه القصص من الترجمة خاصة وأنها لا تؤثر على السياق العام لتعدد القصص الواردة بالمناظرة في كل موضع من مواضع المناظرة وقد اكتفيت بالإشارة إلى هذه القصص عند عرض موضوع المنظومة .

ثالثا : آراء العطار فى الهى نامه

تحدث العطار فى الهى نامه عن كثير من المفاهيم والآراء الصوفية والأخلاقية ، يدخل بعضها فى باب الرسوم والآداب ، والبعض الآخر فى باب الأسس والمفاهيم الصوفية ، ولن يتسع المجال للحديث عن كل ما تناوله العطار من أفكار وآراء لكثرتها وتنوعها ، ولذلك فسأركز على أبرز هذه الأفكار ، مصنفة إياها فى بعض المجموعات المتقاربة ، وأول هذه المجموعات :

١) الآداب والرسوم الصوفية :

للصوفية آداب فى حياتهم اليومية مثل آداب السفر وآداب الصحبة وآداب الأكل وما إلى ذلك وقد جاء ذكر بعض من هذه الآداب فى "الهى نامه" مثل :

١ - آداب الأكل : كان الرسول (ص) ينهى عن تناول الطعام بكثرة لأنه يبعد الإنسان عن الإيمان بالحق والخشوع لله تعالى. وقد أخذ الصوفية بهذا المبدأ وبالغوا فيه ، فتحدثوا عن فضيلة الجوع ومن ذلك قول الغزالى : أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن ، فيها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الذل .

ويقول الهجويرى : أما ثمرة الجوع فالمشاهدة ، لأن المجاهدة فائدته. أما صاحب اللمع فقد اعتبر الجوع هاما أيضا فى وقت الشبع : يكون الفقير معانقا للجوع فى وقت الشبع حتى إذا جاع يكون الجوع أنيسه [٤٣]

وقد ذكر الهجويرى [٤٤] آدابا كثيرة للصوفية فى الأكل منها أنهم لا يأكلون بمفردهم ويؤثرون بعضهم البعض ، وحين يجلسون على السفرة لا يصمتون .

كذلك ذكر السهروردى [٤٥] بعضا من هذه الآداب مثل : الإمساك عن الطعام قبل الشبع .

وقد ذم الصوفية تناول الطعام بكثرة ، كما ذموا أكل اللحم ، ويذكر ابن الجوزى[٤٦] أنه كان بين الصوفية قوم لا يأكلون اللحم حتى قال بعضهم : أكل درهم من اللحم يقسى القلب أربعين صباحا

وتابعهم العطار فى هذا الرأى حيث أورد قصة رابعة مع الحسن البصرى ، حينما فرت الوعول والغزلان التى كانت تتحلق رابعة بمجرد مشاهدتها للحسن ، فقالت رابعة :

- لقد أكلت من شحم هذا القطيع المسكين ، فكيف لا يهرب منك

ويعلق العطار على قصة رابعة مع الحسن ، فيقول :

- ها أنت تتقوى بالماء والخبز ، وتملأ بطنك فى نهم

- تلازم الخلاء والمطبخ أيها الرجل ، ولا يضيق قلبك بهذين الجحيمين

- لأنك لم تسترح لحظة عن أنواع الطعام المختلفة ، مهما اجتهدت فهو خيال

- قيل لك طهر روحك ، ولكنك دائب على تعمير جسدك

- قيل : اشعل النار فى نفسك ، وان أكلت لقمة اجلس واضرب جسدك [٤٧]

كذلك أورد العطار قول الحق لموسى - عليه السلام :

- إن دعاك الناس لطعام ، احذر حلقك

- ففى الشغف بالطعام ، نقص كبير لك [٤٨]

٢ ـ آداب السير والسفر : يقول القشيرى [٤٩] اعلم أن السفر على قسمين : سفر بالبدن وهو الانتقال من بقعة إلى بقعة ، وسفر بالقلب : وهو الارتقاء من صفة إلى صفة .

ولم يتحدث العطار عن السفر إلى في بيت واحد ، عندما قال الحق تعالى لموسى :

- وإن سرت في الطريق لا تنظر خلفك ، وانظر موضع قدميك [٥٠]

٣- آداب الصحبة : يعتبر الهجويرى [٥١] حق الصحبة أهم الأشياء للمريد ويقول لا محالة أن تكون رعاية الصحبة فريضة .

وقد ذكر العطار هذا المبدأ عندما تحدث الله إلى موسى وقال له : "إن اجتمعت بالناس كن عطوفا ، واحفظ لسانك" [٥٢]

٤ - السماع : ومن الرسوم الصوفية التي ورد ذكرها في "الهي نامه" السماع والسماع في الاصطلاح بمعنى الموسيقى والغناء والرقص ، وعند أصحاب الحال من الصوفية بمعنى الاستماع بآذان القلب إلى الأصوات والألحان في حال من الوجد والغيبة عن النفس ، والتصفيق والرقص على انفراد أو في جماعة بآدب ورسوم خاصة [٥٣]

ويقسم صاحب اللمع المستمعين إلى طبقتين : طبقة اختارت سماع القرآن ، منهم من صعق وبكى ومنهم من مات ومن انفصلت بعض اعضائه ، وطبقة اختارت سماع القصائد [٥٤]

وقد وضع الصوفية شروطا للسماع فقال أبو سعيد [٥٥] بأهمية الإيمان القوى للسالك في السماع.

كذلك اشترط الهجويرى [٥٦] استقامة الطبع فقال : الشخص الذى يكون طبعه الفساد يكون كل ما يسمعه فسادا .

وقد وافق الغزالى [٥٧] أيضا على السماع وأتى بدلائل له من النص والقياس ، إلا أنه وضع عليه أيضا بعد القيود فتحدث عن العوارض المحرمة للسماع .

أما العطار فقد أورد القصة المعروفة عن الشيخ نورى وهى أنه عندما سمع الشيخ نورى اسم الحق يجرى على لسان شخص ضرير ، قال له : ماذا تعلم عنه ؟ وإن

كنت تعلم فلم تبقى سجينا ؟ ثم غاب عن وعيه واستبد به الوجد فانطلق إلى الصحراء ووجد فى طريقه مزرعة قصب ، فأخذ يضرب جسده على القصب حتى مزقه إربا إربا من الجروح ، وفى النهاية فاضت روحه من كثرة نزفه ، وعندما نظروا إليه وجدوه ميتا ومكتوب بدم فوق كل عود قصب "الله" .

ويعلق العطار على القصة مبديا إعجابه بالمبالغة فى السماع فيقول :

- هكذا يجب سماع الناى

- والقتل بالقصب والراحة فى الدماء

- عندما تستمع إلى اسم الحبيب ، كن بحرا ناريا بكل ذرة فيك .

- فإن لم تفن فى العشق ، فذلك العشق ليس إلا مجازا[٥٨]

ثانيا الأفكار الأخلاقية :

يقيم الصوفية طريقهم على أساس من رياضة النفس ومجاهدتها ، والمجاهدة الصوفية لها جانبان : جانب بدنى وجانب نفسى ، والجانب البدنى يتمثل فى العبادات كالصوم والصلاة والذكر والدعاء وما شاكل ذلك ، والجانب النفسى يتمثل فى كف النفس عن المعاصى ، والاخلاق والصفات المذمومة [٥٩]

ويقول القشيرى : [٦٠] محل الأوصاف الحميدة : القلب والروح ، ومحل الأوصاف المذمومة : النفس

ويقول الهجويرى [٦١] ، مخالفة النفس رأس جميع العبادات ، وكمال كل المجاهدات . ولا يجد العبد الطريق إلى الحق إلا بذلك .

ومن المبادئ الأخلاقية التى تحدث عنها العطار فى منظومة "الهى نامه" ما يلى :

١) ذم الغيبة :

تحدث الصوفية عن ذم الغيبة وتقبيح النميمة والكذب وغيرها ، وقد أفرد الغزالى بابا فى الإحياء للحديث عن آفات اللسان ، ومما قاله فى بيان معنى الغيبة : "أعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه سواء ذكرته بنقص فى بدنه أو نسبه أو فى خلقه أو فى فعله أو فى قوله أو فى دينه أو فى دنياه [٦٢]

ويشارك العطار الغزالى وغيره من مشايخ الصوفية فى ذم الغيبة والمغتابين فقد قال فى حق المغتاب :

- لو يشبع هذا الكلب لحظة ، فالعجيب أنه يصبح أسدا
- فعندما تمتلئ بطنه ، يشتاق لسانه للغيبة
- فيطيل لسانه كسيف حاد ، ويغتاب أهل العالم
- وإن نصح كثيرا ، لا يمكن إسكاته لحظة واحدة
- وكل من يتطاول بلسانه للغيبة ، يحل به الأذى كل ساعة من الغيب[٦٣]

ويقول :

- ذكر فى التوراة أن الشخص ، الذى يغتاب ثم يتوب
- يكون آخر شخص ، يفسح له الطريق إلى ساحة الخلد
- وإن لم يتب يكن أول شخص ، يدخل النار بمفرده[٦٤]

ولم يقف الصوفية عند ذم الغيبة والنميمة ، وإنما تحدثوا أيضا عن تفضيل السكوت على الكلام ، يقول الغزالى : [٦٥] اعلم أن خطر اللسان عظيم ، ولا نجاة من خطره إلا بالصمت .

أما الهجويرى [٦٦] فقد ذكر أن الكلام على نوعين ، والسكوت على نوعين ، فالكلام منه الحق ومنه الباطل ، والسكوت منه حصول المقصود ، ومنه الغفلة .

وقد تحدث العطار عن الكلام والسكوت ، ويبدو من حديثه أنه أميل إلى رأى الغزالى ، فقد روى أن عظيما طاف بالعالم كثيرا ، فسأله شخص ذات يوم : من ذا الذى يستحق الحديث عنه ممن رأيت ؟ فقال

- لقد طفت الأقاليم السبعة ، ولم أر فى العالم إلا شخصا ونصف شخص

- أما الشخص فهو من لا يتحدث فى أغلب أوقاته ، بطيب ولا بسوء عن أحد

- أما نصف الشخص فكان من العزة ، بحيث لم يتحدث عن الخلق إلا بالطيب فقط [٦٧] .

٢) ذم الحرص والغرور :

ذم العطار الحرص على الدنيا والتكالب على حطامها ، والغرور بمباهجها الزائفة فيقول :

- تجرعت كأس الدنيا الطافح ، فماذا ستفعل بأمواها الوفيرة

- بالله لا يساوى متاع الدنيا بأسرها ، فى عين السالك شعيرة واحدة [٦٨]

ويقول :

- إن كان لديك ذرة من حرص اليوم ، فسيكون مصيرك فى النهاية الاحتراق بها

- إن كنت تعرف حق المعرفة ، لصببت الماء فوق النار المتأججة

- وإلا فستخلد فى النار ، سواء كنت فى سكر أو يقظة

– وإن كان لك قدر حبة من حرام ، فسينتظرك عذاب خالد جزاء كل حبة [٦٩]

ويقول :

– ألا تعلم يا من تجتهد لجمع الفضة ، إنك تبيع عمرك الذهبى بالغفلة .

– لا تجمع الذهب فهو مثل الزئبق فى ميزان الحرارة ، وسرعان ما يختفى مثله [٧٠]

ويقول :

أيها الصديق الدنيا كلها جيفة ، من يتعقبها جيفة أنتن منها [٧١]

ويقول :

– لقد انقضى عمرك فماذا أنت فاعل فى النهاية ، ومع هذا فقد جلست تزيد من ذهبك [٧٢]

ويقول :

– هذه الدنيا الغادرة مثل الجيفة ، وأنت مثل الكلب صرت مشغولا بها

– ولأنك أسير الكلب والجيفة ، فأنت أسوأ منهما مائة مرة

– وما دام هذا الكلب لا يشبع مطلقا من تلك الجيفة ، فأنت لن تشبع من هذا الكلب أبدا [٧٣]

ويذم العطار أيضا الغرور بالحياة الدنيا ، ويعتبره سبب الاخفاق وكما قالت النملة ، وهى تسحب النحلة المغرورة ، بعد أن شطرها القصاب بالساطور مع اللحم :

– الشخص الذى يعيش لتحقيق أهوائه ، يموت مثلك فانظرى ما هى آخرتك

– ولأنك ابتعدت عن حدودك ، فقد وضعت قدمك فى الدماء بجهل

– يجب الخطو داخل الحدود ، والسير وفق الأمر

– ويجب القضاء على الغرور والكبر ، وسلوك طريق الأخلاق والكرم [٧٤]

وقد قال مجذوب بعد مرور جماعة ترتدى أفخر الثياب ، وكانوا يزهون بأنفسهم تيها وعجبا ويتبخترون مثل الحجلة :

- قال أحنيت رأسى ، من شدة الغرور الذى شاهدته

- وذلك لأننى خشيت أن يخطفنى ريحه ، وعندما مروا ، رفعت رأسى [٧٥]

ويقول العطار :

- إذا ما استولى الغرور على أعضائك السبعة ، افتضحت الدنيا منك

- والأشخاص الذين يتخلصون من هذه الصفة ، يفوزون بالآخرة فى الدنيا[٧٦]

ثالثا : الأسس والمفاهيم الصوفية :

١- المحبة :

تحدث العطار عن المحبة والعشق فقال :

- ولكن إذا ما وصلت الشهوة إلى غايتها ، يتولد عنها عشق لا حد له

- وعندما يفيض العشق ، تظهر المحبة

- وعندما تصل المحبة إلى حدها أيضا ، تفنى روحك فى المحبوب (٧٧)

أى أن الإنسان عندما يتخلى عن الشهوات والماديات يدرك العشق الذى يبتعد به عن تلك الشهوات تماما .

ويتضح من هذا أن العطار قد اعتبر المحبة مرحلة تلى العشق وتؤدى إلى الفناء .

وقد حفلت منظومة الهى نامه بقصص العشق ، ويرى المستشرق الفرنسى لويس ماسينيون[٧٨] أن آثار العطار تقوم على ثلاثة أركان هى الجمال والعشق والألم ويعتبر الألم الركن الأساسى فيها ومجال ابتكار العطار .

وربما يمكننا أن نضيف إلى قول ماسينيون أن بعض هذه القصص يجرى فى جو يفيض بالميلودراما العنيفة مما أضفى عليها قتامة وسوداوية ، وجعل الإيمان يتلازم مع الآلام والحزن والبلاء .

وقد اهتم العطار بوصف جمال المعشوق حيثما ورد ذكر له ، كذلك صور العطار آلام العشق وطريقه المحفوف بالمخاطر الذى يتطلب اجتيازه تحمل آلام مبرحة وجروح متعددة ومعاناة لا حد لها.

وقد حدد العطار لهذا الطريق ثلاثة دروب :

– لدينا العشق الآن ثلاثة طرق هى ، النار والدمع والدم [٧٩]

وطريق العشق ليس له معالم واضحة :

– ليس لدينا العشق بداية ولا نهاية ، وليس هناك مرشد سوى دم القلب

– الشخص العاشق يغرق فى الدماء من مفرق رأسه حتى أخمص قدميه من أول خطوة يخطوها مثل الورد[٨٠] .

ومن يسير فى طريق العشق عليه أن يتحمل آلامه ، مثل المرأة التى عشقت الأمير ولاحقته أينما ذهب ، فقرر الملك أن يسفك دمها وهى مقيدة فى ساق جواد .

ولم تطلب المرأة العفو من الملك ، بل طلبت منه أن تقيد فى ساق جواد الأمير وقالت :

_ إن كنت تريد اليوم ، أن تسفك دمى تحت أقدام أى جواد

– فما أريده يا مولاى ، أن تقيد شعرى فى ساق جواد الأمير

- وعندما يقود الأمير الجواد ، ليسفك دمى

- أصبح قتيلة ذلك القمر ، وأظل حية دائما فى هذا الطريق[٨١]

والعشق يمنح قوة هائلة تجعل كل الصعاب تهون أمام الوصول إلى الهدف المنشود ، مثل النملة التى رآها سليمان تخرج التراب ذرة ذرة ، من تل كبير أمام منزلها ،

وقالت له : هناك نملة غائبة عنى القتنى فى شراك عشقها وقالت لى :

- إن نقلت هذا التل المملوء بالتراب من هنا ، ونظفت الطريق

- حينئذ ألقى بصخرة هجرك ، من الطريق ، وأجالسك

- والآن أهتم بهذا العمل ، ولا أعرف شيئا سوى حمل التراب

- فلو تلاشى هذا التراب ، أستطيع تحقيق وصالها

- وإن هلكت روحى فى هذا الصدد ، لا أكن مدعية وكاذبة[٨٢]

وقد اعتبر العطار الحلاج إمام العاشقين وقدوتهم ، فعندما قطعوا يديه فوق المشنقة ، مسح وجهه وساعده وقال :

- من عرف سر العشق ، يجب أن يتوضأ لصلاته بالدماء

- وإن لم تتوضأ بالدم ، فصلاتك باطلة[٨٣]

ويظهر العطار إعجابه بالحلاج فيقول :

- اخط فى جادة المعشوق مثل الرجال ، ولا تخش وصمة أو عارا من أى مخلوق

- فكل قلب قائم بالقيوم ، لا يخاف قدر ذرة واحدة من لومة لائم[٨٤]

والعاشق الحق هو الذى تستغرقه هيبة العشق تماما ، وتظهر علامتها على هيئته ولون وجهه بسبب الخشوع الذى يتملكه ، مثل المجنون الذى لم يكن يتحمل مشاهدة ديار

ليلى ، فكان وجهه يصير أصفر كالزعفران ، ويصبح شعره كالسنان وتستولى الرجفة على أعضائه ، ولما سئل عن سبب ذلك قال :

- انظر إلى قوة ساعد الأسد ، وكيف ألقى به العشق تحت قدميه كنملة[٨٥]

والعاشق يظل يعانى من الآلام المختلفة ، حتى يدركه معشوقه الخالد ، ولكن بعد أن يتخطى الاختبارات المختلفة ، كما اجتاز الدرويش الاختبار الذى اجراه له معشوقه عندما أخذه إلى الصحراء ثم وضع حبلا حول عنقه ، وقاد جواده ، وجرى بالدرويش فى كل صوب وامتلأت قدماه بآلاف الأشواك ، وعندئذ أدرك المعشوق إخلاص العاشق وبعده عن الشهوة ، فترجل وانتحى بالدرويش جانبا ، وظل يخرج الشوك من قدميه شوكة شوكة طوال اليوم .

- كان العاشق المتيم يقول فى سريرته ، ليت كل شوكة كانت مائة شوكة

- فلو أنها للجسد جرح كبير ، إلا أنها للقلب روح جديدة وراحة كبيرة[٨٦]

وكان يقول :

- لو لم يصب هذا الشوك قدمى ، لما تحقق لى وصال هذا الغلام

- إذا ما أصاب الشوك قدمك فى سبيل الحبيب ، فكل شوكة روضة لا شوكة[٨٧] .

والقدرة على رؤية المعشوق لا تتيسر إلا بكحل الرياضة والمعاملة ، وعندئذ تستطيع العين أن تدرك المعشوق ، وبدون هذه العين ، لا فائدة من وجود المعشوق كما حدث لأحد الصوفية ، عندما عشق ابن الوزير ، ثم فقد عينيه من كثرة البكاء ولم تعد هناك فائدة من مجئ معشوقه أو عدم مجيئه ، لذلك عندما أحضر الوزير ابنه وأجلسه أمام الدرويش ، قال الدرويش :

- إن عادت لى عيناى ، أحقق وصال المعشوق بروحى

- وإن لم تعد لى ، فماذا أفعل بالمعشوق الأوحد

- إن يكن العالم كله معبودا ، ولا توجد العين فما هو الهدف ؟

- فما يلزمنى عينان لا معشوق ، فأمام الأعمى يستوى الخالق والمخلوق[٨٨]

والحال بين العاشق والمعشوق يصعب وصفها :

- يلزم العاشق معشوقا دائما ، يجعله حينا فى الصحو وحينا فى الفناء

- بين العاشق والمعشوق حال ، شرحها غير لائق بنا[٨٩]

ووجود العاشق ضرورى للمعشوق :

- إن لم يكن للمعشوق عاشق ، لما كان جديرا بالعشق[٩٠]

ونهاية العشق هى اتحاد العاشق والمعشوق :

- إذا ما ارتفع المعشوق إلى العيوق ، لن ترى أى عاشق غير المعشوق

- ولأن المعشوق يختار عاشقه ، فلا يوجد عاشق ايضا سوى المعشوق[٩١]

وقد خصص العطار قصة رابعة بنت كعب للحديث عن بحار العشق الثلاثة النار والدمع والدم ، ومما قاله فى هذا الصدد ، ما رقمته رابعة بدمائها على جدار الحمام :

- والآن أنا فوق النار ، لأننى أريق الدماء حينا وأذرف الدمع حينا آخر

- أردت أن تحترق روحى بالنار ، ولأنك كامن فيها لا أقدر على احتراقها

- إننى أغسل بدمعى قدم الحبيب ، وأودع الحياة بدمائى

- بهذه النار التى أشعلها من روحى ، أحرق كل أهل الغفلة فى العالم

- وبما يراق على وجهى من هذا الدمع ، أغسل وجوه كل من لم يغسلوا وجوههم

- ومن هذه الدماء لو انفتح أمامى الطريق ، أجعل كل العشاق فى لون الورد

- ومن هذه النار التى أعانيها فى هذه الحرقة ، يظهر لى كيفية الاحتراق فى سبع من جهنم

- ومن دمعى هذا وهو طوفان متدفق بالدماء ، أعلم المطر كيفية الإمطار

- ومن دمى هذا وهو كالبحر ، أعلم الشفق الإحمرار

- ومن هذه النار التى أقامها لى الزمان ، كانت جهنم تطلب منى شعلة

- ومن دمعى هذا جعلت العالمين بأكملهما ، طينا فى الماء حتى يوم القيامة

- ومن هذه الدماء سددت طريق الفلك حتى ، صارت طاحونة الفلك تغرق فى الدماء

- أحرق بتلك النار كل رسم ، سوى رسم خيال قلبى السعيد

- ومن هذا الألم الذى عاناه ذلك الجميل ، أغرق الأرض بالمياه من الدموع

- ولأن معشوقى يسعد بحزنى ، فما أجمل أن تمتلئ الدنيا من دمائى[٩٢]

٢) الفناء :

يعتبر الهدف الأساسى للصوفية هو إدراك حال الفناء ويقول القشيرى[٩٣] : أشار القوم بالفناء إلى سقوط الأوصاف المذمومة وأشاروا بالبقاء : إلى قيام الأوصاف المحمودة .

ولا يعنى هذا فناء البشرية فكما يقول الطوسى[٩٤] : أما القوم الذين غلطوا فى فناء البشرية سمعوا كلام المتحققين فى الفناء ، فظنوا أنه فناء البشرية ، فوقعوا فى الوسوسة ، فمنهم من ترك الطعام والشراب وتوهم أن البشرية هى القالب والجثة إذا ضعفت زالت بشريتها فيجوز أن يكون موصوفا بصفات الإلهية . والذى أشار إلى

الفناء أراد به فناء رؤيا الأعمال والطاعات ببقاء رؤية العبد لقيام الحق للعبد بذلك وكذلك فناء الجهل بالعلم وفناء الغفلة بالذكر .

ويتفق الهجويرى [٩٥] مع الطوسى فى هذا الصدد ، فيقول ، وقد أخطأت جماعة فى هذا المعنى ، وهم يظنون أن الفناء بمعنى فقد الذات وانعدام الشخص ، وأن البقاء هو أن يلحق بقاء الحق بالعبد وهذان كلاهما محال .

وبعد فناء العبد عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق يفنى عن صفات الحق بشهوده ، ثم يفنى عن شهود فنائه باستهلاكه فى وجود الحق[٩٦]

ويفصل الهجويرى[٩٧] هذا الأمر فيقول : وفناء العبد عن وجوده يكون برؤية جلال الحق وكشف عظمته ، حتى ينسى الدنيا والعقبى فى غلبة جلاله ، وتبدو الأحوال والمقامات حقيرة فى نظر همته ، وتتلاشى الكرامات فى حاله ، فيفنى عن العقل والنفس ويفنى أيضا فى عين الفناء عن الفناء ، فينطق لسانه بالحق ، ويخشع جسده ويخضع .

وقد تحدث العطار عن الفناء بإفاضة فى منظومة إلهى نامه ، ودعا إلى العمل على إدراك حال الفناء أو إدراك الخلود :

- إن أردت الحياة فى الموت ، فاعلم أن كمال الحياة هو الموت

- وإن أردت إدراك الخلود ، يمكنك ذلك بالمحو[٩٨]

وعندما يغرق الإنسان فى بحر الفناء ، تنمحى ذاتيته وتفنى أوصافه مثل الطوبة التى كانت تسير مع حجر ، وفجأة سقطا فى بحر ، فقال الحجر : لقد غرقت لكن الطوبة فنيت عن نفسها ولا أعلم أين ذهبت فتحدثت الطوبة وقالت :

- لم يبق منى أثر فى العالمين ، ولم يبق من وجودى قدر رأس إبرة

- ولا يمكن مشاهدة شئ منى لا روحى ولا جسدى ، ولكن يمكن مشاهدة البحر المضئ كله[٩٩]

وإن لم يفن الإنسان عن نفسه فمصيره الهلاك مثل الشاب الذى رآه شبلى فى طريق البادية يرتدى أفخر الثياب ويسير فى عزة وخيلاء ثم شاهده شبلى عند الحرم فى غاية الضعف والعوز وقال له :

- لا أعلم أنا الغافل هذا اللغز ، فهو (سبحانه) يقول اما أن تكون أنت أم نحن[١٠٠] .

والفناء هو الوسيلة الواحدة لإدراك المراد ، والوصول إلى المعشوق ، كما فعل الكلب الذى ظل يعانى من شدة العطش خوفا من الكلب الآخر فى جدول الماء ، وعندما طال انتظاره عن الحد ألقى بنفسه داخل الماء فاختفى الكلب الآخر . وهكذا يجب أن يفعل الإنسان :

- إن لزمك حضوره دائما ، فلا تأت مع نفسك ثانية وهذا كاف لك

- لا تأت مع نفسك تعال بدونها ، وابتعد عنها ، فهذا الفناء نور على نور[١٠١]

ويجب أن يتخلص الإنسان من قيد وجوده تماما كما فعل محمود ، عندما ظل ينظر إلى إياز النائم على أنغام البلبل وتحت ظلال الورد ، وأخذ ينثر الورد تارة على جماله ويجرى الدمع حينا فوق وجهه ، وعندما استيقظ إياز ، قال له محمود : أنا ذاهب الآن :

- ففى تلك الساعة عندما كنت غائبا عن الوعى ، كنت أعظم من كل صفة أصفك بها

- ومن تلك الساعة التى رأيت فيها روحك الممتدة ، لم تكن أنت لأننى كنت موجودا

- ولانك عدت إلى وعيك فقد فنى المحبوب ، ولأنك صرت طالبا فقد اختفى المطلوب[١٠٢]

وإدراك حال الفناء يتطلب معاناة طويلة ، فعندما قال القمر ، إننى فى عشق الشمس سوف أجعل الدنيا مفعمة بالنور خالدة ، قالوا له : إن كنت بهذا الصدق تلزمك الحركة ليل نهار حتى تصل إليها وتفنى فيها ، وعندما تخرج من تحت أشعتها يتلهف الخلق على مشاهدة جمالك ، وعندما تختفى مرة واحدة يدرك الناس حينئذ أن واحدا متيما قد فنى دون خوف . وهذا هوسر شغف الناس برؤية الهلال :

- فى الليلة الرابعة عشر وبالرغم من جماله الفائق ، يطلب العون بسبب نقصان هلاله فيما بعد

- وعندما يزدان فى تلك الليلة لا يلحظه أحد لأنه يكون ذايتا

- ولكن إن شاهدته وقت تكونه ، تجد الناس يضحكون له وهو هلال[١٠٣]

والفناء حال رفيع لذلك يفرق العطار بين الفناء والسكر :

- كل ما يبعدك عن نفسك ، يكون خمرا وليس نبيذا

- إن علمت الفناء من السكر ، تكن قد وقفت على حجاب الأسرار

- عندما يستبد السكر بشخص ، يعرف أنه أدرك الفناء لا السكر

- ولأنك لا تعلم الفناء من السكر ، تفتخر بالفناء فى السكر[١٠٤]

وبهذا فالعطار يعتبر الفناء حال لعبد سكر من حب الله ، وهو حال أرفع من السكر ، وقد عرف القشيرى السكر بأنه غيبة بوارد قوى ، وهو لا يكون إلا لأصحاب المواجيد ، والعبد فى حال سكر يشاهد الحال[١٠٥]

ويمثل العطار للسكر بقول يحيى بن المعاذ الذى أرسل رسالة لأبى يزيد وقال له :

ماذا يقول شيخ الدين فى ذلك الشخص الذى شرب شربة طاهرة ومقدسة فاستولى الخمار على رأسه لمدة ثلاثين عاما ليل نهار[١٠٦]

فوصله الرد من أبى يزيد وهو يصف حال الفناء : "يوجد هنا رجل شرب البحر والأرض والعرش والكرسى دفعة واحدة ، فماذا تسأله ثانية ، وإلى الآن يصيح "هل من مزيد" وإن كنت لا تعرفه فهو أبو يزيد[١٠٧]

وعندما يدرك الصوفى حال الفناء ، تمحى الاثنينية ، ويصير هو ومعشوقه شخص واحد ، كما قال المجنون وهو يتحدث عن بعده عن ليلى :

- لقد مضى ذلك الآن ، فالمجنون هو ليلى وليلى هى المجنون

- ارتفعت الثنائية الآن ، وأصبح الكل ليلى وتنحى المجنون

- مثل اللبن والخمر عندما يختلطان سويا ، ويتخلصان من نقص الثنائية[١٠٨]

ويقول العطار :

- عندما تظهر الأحدية ، تنمحى الثنائية فقد حل الحبيب

- فإن تمنيت وصاله بروحك ، اذهب وافن عن نفسك حتى يظهر هو ، افن بحيث لا تستطيع أن تجد نفسك فى الحياة مرة أخرى[١٠٩]

مثل أبى يزيد الذى دق أحد الأشخاص بابه ، وكان أبو يزيد واقفا مستغرقا فى التفكير ، فقال للزائر : من أين أتيت ؟ قال : رجل حال جئت لمقابلة أبى يزيد فأجابه الشيخ قائلا : أيها الدرويش مضى اليوم ثلاثون عاما وأنا أريد رؤية أبى يزيد ، بحثت عنه كثيرا ولكن لم أر له أثرا ، لا أعلم ماذا حدث وأين مضى فقد انفصل عنى منذ ثلاثين عاما[١١٠]

ويرى نيكولسون[١١١] أن تعريف الصوفية للفناء من الناحية الخلقية بأنه محو للصفات الذميمة ، والتخلق بكل خلق حميد ، ووصفهم لوسائل قمع الهوى والشهوات يدل على وجود أثر للفلسفة البوذية فيهم مما لا يدع مجالا للشك .وعلى الرغم من الاعتراف بمثل هذا الأثر ، إلا أن هناك ثمة اختلاف بين الفناء الهندى والفناء الإسلامى ، فبينما نجد تحقيق الغاية العليا لدى صوفية المسلمين يتطلب الغوث الإلهى

نرى أن الاتحاد الذى يرنو إليه المتنسك الهندى لا يفتقر إلى أية معونة خارجية ، بل يتلخص فى الرغبة فى عودة روحه إلى المطلق حيث السكون والخمود (النرفانا) ، أى الفناء فى المطلق .

والتنسك الهندى فى جوهره ينحصر فى تحقيق الوحدة مع المبدأ الاسمى وليس اتصالا بإله مفارق للعالم ، ولكى يصل المتنسك إلى هذه المرتبة يجب أن يتخطى عددا من الطرق المتباينة وهى منصوص عليها فى القسم المسمى باليوجا من الكتاب المقدس الهندى ومعناها الاتحاد النهائى ، وهى طريقة روحية قبل كل شئ[١١٢]

الاختلاف الثانى هو أن الفناء الهندى عبارة عن حاله من السعادة يبلغها الإنسان فى هذه الحياة لا بعد الموت ويتحقق ذلك باقتلاعه عن شهواته تماما ، ويجئ الموت والإنسان مطلق من دواعى الحياة ، فلا يشعر به ولا تنزع به نوازعه إلى الحياة وهو يستقبل الموت[١١٣]

أما الفناء الاسلامى والذى يمثله الفناء فى الهى نامه فهو مقدمة لحياة جديدة وهى حياة الخلود فمعه يبدأ سير السالك فى الله وهو سيرا أبدى خالد .

ويقول :

- داخل حجاب روحك معرفة ، كنت على صلة بها قبل ذلك
- فإن عدت إلى معرفتها ثانية لحظة واحدة ، لسبقت بذلك أهل العالم[١١٤]

ويقول :

- ما هما العالمان أنهما بحر اسمه القلب ، وأنت باق فى البحر وقد ماك فى الطين
- فغص داخل بحر صدرك لحظة ، لتتعرف على عالم مجهول داخل نفسك
- ولأن قلبك يحتوى على مئات من العوالم الخفية ، فمتى تستطيع عيناك أن تراها
- وهناك ترى الأرض والسماء ، فأنت صورة للدنيا والآخرة أيضا[١١٥]

وعندما تصل الروح إلى الفناء تكون جديرة بتلقى الأمر الإلهى ، لأنها عادت إلى أصلها :

- عندما تجئ إلى ساحة الخلد بإخلاص ، يصلها الخطاب من الحضرة الخاصة

- فتكون هذه الرسالة من الملك الأوحد ، إلى الملك الخالد[١١٦]

ويقول :

- ولأننا نرتدى ثوب خاصيتها ، فالرسالة من القدوس إلى القدوس

- ولأنه يمكنك أن تخلد مثل القدوس ، فاحل جسدك إلى قلب وصير قلبك روحا أيضا[١١٧]

ويقول العطار :

- كل شئ أيها الحبيب هو أنت الوجود والعدم ، فأنا لم أر سواك فى العالمين دائما [١١٨]

٤) وحدة الأديان :

يقترب العطار أيضا فى هذه المنظومة من نظرية وحدة الأديان . وقد اتضح هذا المعنى فى "الهى نامه" فى قصة المجوسى الذى شيد جسرا من أمواله الخاصة ، وذات يوم طلب منه السلطان محمود أن يأخذ من الذهب مقابل ما أنفقه فى تشييد الجسر ، فرفض المجوسى وقال : "لن أبيعه ولن آخذ ذهبا فى مقابله ، لقد شيدته من أجل الدين[١١٩] .

سجن محمود المجوسى وأذاقه ألوان العذاب ، وعندما تجاوز العذاب حده ، أرسل المجوسى رسالة إلى السلطان وطلب منه المجئ إلى الجسر ، ومعه خبير ليحدد قيمته ، وعندما اعتلوا جميعا الجسر ، قال المجوسى :

- أيها الملك ، اطلب منى الآن ثمن هذا الجسر

- فسوف أنهى حياتى عليه ، وبذلك أكون قد أجبتك

- انظرها هو الثمن أيها الملك العظيم ، قال هذا ، وقفز فى الماء على الفور(١٢٠)

وأساس العبادة الصحيح هو التفانى فى حب الله والإخلاص فى ذلك إلى أقصى درجة ممكنة ، كما قالت الأم للشاب الذى أسلم ، وفى اليوم التالى احتسى الخمر ، فقالت له :

- لقد أغضبت عيسى منك سريعا ، ولم تسعد محمدا(١٢١)

وكذلك عندما وقع بصر الرسول (ص) على عمر ، وهو يقرأ جزءا من التوراة نهاه عن ذلك وقال له:

- لا يمكن لك العبث بالتوراة ، إلا إذا تحولت كلية إلى اليهودية(١٢٢)

والدين الحقيقى يقوم على الثبات فى عشق الله ، لا على تأويل الأحكام الدينية والاعتماد على الأدلة النقلية أو التقوى الظاهرية ، وقد أوضح العطار هذا فى قصة العلوى والعالم والمخنث ، عندما سافروا إلى بلاد الروم ، وأسروا هناك وطلبوا منهم السجود لصنم وإلا أراقوا دماءهم ، فطلبوا مهلة ليلة واحدة لتدبر الأمر :

- تحدث العلوى وقال لا مفر ، يجب التمنطق بالزنار أمام الصنم

- وجدى يستطيع تماما ، أن يشفع لى يوم القيامة

- وتحدث العالم وقال أنا أيضا ، لا أستطيع التضحية بروحى وجسدى

- وإذا ما سجدت للصنم ، ينهض لى شفيع من علمى الدينى

- وقال المخنث إننى حائر ، فلا عون لى ولا شفيع

- لكما شفيع وليس لدى ، فلا يليق منى هذا السجود

-إن قطعوا رأسى كالشمع فأى خوف ؟ ، لذا لن أستطيع السجود للصنم ففى هذا هلاكى[١٢٣]

رابعا : أفكار صوفية أخرى

إلى جانب تلك الأفكار التى سبق الحديث عنها ، فقد حفلت منظومة "الهى نامه" بالعديد من الآراء والأفكار الصوفية التى تعرض لها العطار تعرضا سريعا ، لذا اكتفى بمناقشة فكرتين من هذه الأفكار ، وهما :

١ - الله والعالم والإنسان :

يرى العطار أن الذات الإلهية هى أساس الحياة ، وأصل الوجود كله ، وأن العالم كله صادر عن الله تعالى ، فيقول :

- الله الذى مهما تعددت مظاهر الوجود ، فكلها بجانب ذاته عين الضعة[١٢٤]

وذات الله من العظمة بحيث لا يستطيع أحد أن يصل إلى كنهها :

- لأن ذاته أعلى من كل شئ نعرفه ، فكيف يتأتى لنا شرحها[١٢٥]

وإدراك ذات الله تخرج عن نطاق العقل ، إلا أن العالم كله جاء دليلا على ذاته ، ومظهرا له ، لذلك فالسبيل إلى معرفته هو رؤيته عن طريق صفاته :

- لا يعلم أحد كنه ذاته ، إلا عن طريق صفاته[١٢٦]

وصفاته مضاءة من نور ذاته :

- الحياة مزدانة من نور ذاته ، فالصفات مظهر لذاته دائما[١٢٧]

- أنت ذات ظهرت فى الصفات ، وكل الأرواح تتطلع إليك[١٢٨]

والصفات لا تنفصل عن الذات :

- صفاته هى ذاته وذاته هى صفاته ، عندما تدقق النظر تجدها كلها ذاته

- كل الوجود ظل لحضرته ، وكل الآثار من صنع قدرته[١٢٩]

والعطار فى هذا يقترب جدا من ابن عربى الذى يقول : فما وصفناه بوصف إلا كنا نحن أى المحدثات ذلك الوصف ، فالحق عين الخلق أو عين الصفات الظاهرة فى مجال الوجود ، وهى ليست شيئا زائد على الذات بل هى نسب وإضافات لها[١٣٠]

ولأن الوجود كله قد انبثق عن الله تعالى ، وكله ظل لذاته ، فيجب على الإنسان العودة إلى الأصل ، وإسقاط كل الإضافات بما فى ذلك وجود الإنسان نفسه ، وبذلك تعود القطرة إلى بحرها وتتصل به :

- إنك تقول قولا طيبا ذلك الذى تقوله فى الذات ، إن التوحيد إسقاط الإضافات [١٣١] وما يقصده العطار ربما يتضح أكثر فيما قاله الغزال[١٣٢] عن التوحيد :

"للتوحيد أربع مراتب : الأولى أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه ، الثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه وهو اعتقاد العوام ، الثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف وهو مقام المقربين فيرى الأشياء على كثرتها صادرة عن الواحد القهار ، الرابعة أن لا يرى فى الوجود إلا واحدا وهى مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية بالفناء فى التوحيد ، لأنه من حيث لا يرى إلا واحدا ، فلا يرى نفسه أيضا ، والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر فى شهوده غير الواحد فلا يرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث أنه واحد ، وهذه هى الغاية القصوى فى التوحيد .

واعلم أن أسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر فى كتاب فقد قال العارفون إفشاء سر الربوبية كفر .

وحقيقة الحياة هى التوصل إلى معرفة الله :

- تظهر منك أيها الحبيب كل الأرواح ، فأنت اللب والحقيقة والجميع قشور [١٣٣]

وروح الإنسان الكامل هى التى تستطيع أن تصل إلى هذا الهدف السامى ، وتدرك معرفة الله تعالى وتصبح مرآة لله تعالى ، يتجلى عليها كمال صفاته :

- أنت ترى الأرض والسماء هناك ، لأنك الدنيا والآخرة كلاهما

- وبسما أنك تعلم أن الآخرة تظهر فيك عيانا ، فلا تنظر إلى أى مكان لحظة واحدة [١٣٤]

- إن كنت جميلا اعتبره هو الجميل : ولأنك صورة منه فاعتبر الصورة كلها هو [١٣٥]

٢ ـ الجبر والاختيار

تعرض العطار لمناقشة فكرة الجبر والاختيار ، والإنسان عنده مجبر تماما ، فهو مثل كرة يقذف فيها فى خضم الحياة ، وإن أخطأت الكرة مسارها خلدت فى النار والعذاب ، على الرغم من أنها ليست مسئولة عن خطئها :

- انتبهى أيتها الكرة المسرعة ، اذهبى إلى هناك حتى لا تسقطى فى أعماق الارض

- وإن اعوج مسارك أيتها الكرة فى الطريق ، فإنك تخلدين فى النار وفى غياهب الجب

- رغما أن سير الكرة ليس بدون رام ، فالذنب ليس ذنب الكرة الطائشة

- وعلى الرغم من أن ذلك الذنب ليس من عملك ، إلا أنه فى عنقك[١٣٦]

ويشبه العطار الأزل بالقوس الذى تنطلق منه آلاف الأسهم كل لحظة ، والأبد بمكان الإصابة ، ولا يمكن للإنسان الهرب من هذا ولا من ذاك :

- كل سهم يصوب من القوس بنجاح ، يتطلب عناية قاذف السهم

- وكل سهم يخطئ طريقه ، تنصب اللعنة على السهم حينئذ[١٣٧]

والإنسان لا حيلة له ولا وسيلة ، فهو كمن ألقى به داخل بحر ، وقالوا له :

لا تبتل أبدا أيها العاجز :

- وعلى الرغم من أنك غارق ، ولكن إن ابتللت تكن من المذنبين

- لا تبتل وإن وجدت فى الماء دائما ، وفى هذا الصدد ماذا يساوى أسد الغابة [١٣٨]

وقد نتج عن قول العطار بالجبر ، قوله بتبرئة إبليس ، فهو يرى أن الله قد خص إبليس بلعنته وكانت هذه مشيئته تعالى ، ولا دخل لإبليس فيها ، بل هو يريق الدمع دوما لحاله ، وقد تتبع أحد الأتقياء جدولى ماء أسود ، وفى النهاية وجدهما ينبعان من عينى إبليس ووجده ، يقول "إن هذه القصة لم تحدث لوجه قمرى ، ولكن لان حظى أسود ، لا يريدون طاعتى ثم يلقون بالذنب فى عنقى[١٣٩]

والله هو المقدر لكل شئ ، وله -سبحانه- حكمة فيما يقدره على عباده ، وكذلك عصيان إبليس ، فقد خصه الله باللعنة ، ليقف على باب الحضرة ويبعد المذنبين كما فعل يوسف عندما أراد أن يحقق وصال أخيه ابن يامين فوضع له الصواع فى رحله واتهمه بالسرقة[١٤٠]

وقد سعد إبليس باللعنة لأنها من عند الله :

- لأن اللعنة كانت لخدمة حضرة الله ، سعد بها إبليس[١٤١]

ولذلك طلب إبليس عمرا خالدا :

- عندما سعد بتلك اللعنة طلب الأمان ، واختارها بروحه وطلب عمرا خالدا [١٤٢]

وبذلك صار إبليس العاشق الأوحد فى الحضرة الإلهية ، فهو لم ينس رضاء الله أبدا :

- الشخص الذى تذوق الصفاء آلاف الأعوام ولم يتجرع كأسا طافحة أبدا ، أنى له أن ينسى ذلك الصفاء بقطرة يشربها فى النهاية

- وعلى الرغـــم من أنه تجرع ثمالـــة اللعنة ، إلا أنـه لم يـر بتلـك الثمالـة سوى الساقي[١٤٣]

وإبليس أراد أن يكون وحيدا فى عشق الله تعالى ، لذلك سعد باللعنة ، لأنه اختـص هو فقط بها :

- حتى لا يرى هو ولا أهل العالم ، ذلك الباب وتلك الأعتاب

- ولا يتلوث شعاع من حجاب العزة ، من المشاهدة أبدا[١٤٤]

وقد سئل إبليس عن سبب سعادته باللعنة فقال :

- إن اللعنة هى سهم الملك ، والملك يصوب نظره فى البداية إلى الهدف[١٤٥]

وإبليس عاشق صادق :

- عندما أصيب بجرح من الحبيب لم يهرب ، لكنه جعل من جراحه مائة مرهم

- وطلب من الحق أن يمهله بجرحه حتى يوم القيامة[١٤٦]

وعلى الرغم من لعنة إبليس إلا أنه موجود فى حضرة الحق دائما :

- ولو أن إبليس مطرود وملعون ، إلا أنه موجود دائما فى حضور الملك

- عندمـــا تلعنه ليل نهار ؟ ، تعلـــم الإسلام منه مرة واحدة[١٤٧]

وإبليس يفكر فى الحق دائما ويمضى وقته فى تسبيحه وذكره فعندمـا سأله موسى : هل تذكر الله قال له :

وهل ينساه لحظة قط عطوف مثلى[١٤٨]

والأمـل فى رحمة الله وغفرانه يحدو إبليس دائما فقد قال لشبلى :

- بما أنـــه ليـس هناك علة وكيفية فى إرادة الله ، فلا يجـوز إذن قطـع الأمـل من الحق [١٤٩]

القسم الثالث

ترجمة منظومة الهي نامه من الفارسية إلى العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

فى مدح الله عز وجل (١ : ١١٢)

باسم من يخلد ملكه ولايزول ، ويخرس أمام وصفه نطق الفصيح ، اسمه مفرح لكتاب الأرواح ، وذكره يتصدر فهرست الدواوين ، فاضت حلوق الأرواح بحلاوة ذكره ، وانتشرت اللآلئ على الألسن بوصفه ، إن وحدت رائحة دون ذكره فهى لون لارائحة فيه ، وإن ذكر اسم دون اسمه ، فهو عار، الله الذى مهما تعددت مظاهر الوجود ، فكلها بجانب ذاته عين الضعة ، لأن ذاته أعلى من كل شيء نعرفه فكيف يتأتى لنا شرحها .

ألقى بيد قدرته الكرة الأرضية ، فى قبضة صولجان الأفلاك ، ولأن عقل أى إنسان لايسمو إليه ، فلاأحد يعرف كنهه ، فناء العالم إثبات لوجوده ، وخلق العالم دليل على ذاته ، صفاته هى ذاته وذاته هى صفاته ، عندما تدقق النظر ، تجدها كلها ذاته ، كل الوجود ظل لحضرته وكل الآثار من صنع قدرته ، أصاب القول فى الذات من قال هذا القول الحق : إن التوحيد إسقاط الإضافات .

ما أرفعها من مكانة ، فمن الأرض حتى السماء ، مثل شعرة سوداء أمامه ! ماأجلها من عزة فأمام استغنائه الذى لاحدود له ، تفقد الكثير من العقول وتضل العديد من الأرواح! ما أعظمها من رهبة إذا ماحلت فى الروح ، صدر عن كل ذرة فيها مائة طوفان !، ما أجملها من وحدة لا انفصام لها ، ولاتساوى الدنيا قبالها شعرة واحدة ما أطيبها من رحمة إذا ما حصل إبليس على ذرة منها ، سرق الكرة من إدريس ! ما أشرفها من غيرة ، إن وقعت على العالم ، انطبقت السماء على الأرض فى ساعة واحدة ! ما أحسنها من هيبة ، إن اكتسبت الشمس ذرة واحدة منها ، تلاشت فى أفق الوجود! ما أقدسها من حرمة ، ممن عظمة جاهه ، لايجد أحد مخرجاً بدونه! ما أعزه من ملك ساد ، فلا غرو أنه غير قابل للزيادة والنقصان! ما أعجبها من قوة ، إذا شاء تصير الأرض كالشمع وتمحى الأفلاك أيضاً فى لحظة! ما ألذه من شراب يجرى فى عروقهم ، على أمل سقاهم ربهم[1] ، ما أفسحها من ساحة ، فلو لم يظهر العالم ، لما نقصت معالمها شيء ! ما أنبلها من غاية ، تبقى عين العقل والإدراك ، شاخصة للأرض بعد إدراكها ! ما أقصرها من مهلة ، فإذا ما حان الأجل[2] يقبض العالم فى لحظة ! ما أرهبها من شدة ، فبسبب

القبض ، لامجال هناك للصمت ولاسبب للكلام ! ما أقبح العزلة التى أحاطت بالعديد من النساء والرجال الذين اجتهدوا ولم يروا أثرا من طريقه ! ما أسوأ الغفلة التى قيدتنا ، فيدونها ما صدر عنا أى تقصير ! وويل للحسرة التى سوف تلفنا ، لكنها لن تنفعنا بشيء ، ما أجمل القدرة التى تجعلنا نترك هذه الأمانة[٣] ، دون ارتكاب خيانة !

دنيا العشق لابداية لها ولانهاية ، ولا مرشد هناك سوى المعاناة الشخص العاشق يغرق فى الدماء من مفرق رأسه حتى أخمص قدميه ، من أول خطوة يخطوها مثل الورد ، يا إلهى تحدثت كثيراً بما لاطائل تحته ، وأوردت كثيرا مما كان وما لم يكن، لو أن جرم العاصى يماثل مائة عالم ، فإن ذرة واحدة من فضلك تمحوه ولأنه ليس لنا سوى التقصير فى الطاعة ، فماذا نساوى سوى حفنة وضيعة ، والآن وقد تداعت أعمالنا ، لاتتركنا يا إلهى لأنفسنا ، أنت مبرأ من النقص والكيفية ، أنت عالم وراء هذا العالم وخلفه .

يا إلهى رحمتك بحر عام ، تكفينا قطرة واحدة منه ، إن غسلت ذنوب الخلق الآثمين ، فى ذلك البحر مرة واحدة ، لن يتعكر ذلك البحر لحظة ، بل سيعم الضياء الدنيا ، فماذا يضير بحر الرحمة ، إن قسمت قطرة واحدة منه على الخلق ، ما أجمل النداء من الحق والتلبية من العبد ، فبين العبد والحق نداء وتلبية .

ليس لك أحد فى العالم بأسره ، فلماذا لاتبكى على نفسك بحرقة ، إذا كان لك مائة صديق فى المنزل ، فكلهم أغراب عنك ، عندما تموت ، لن تمنح هذه المعاناة بسهولة ، فلا يوهب الجبل لقشة . إن لزمك ذرة من هذه المعاناة ، لزمك صفاء البحر وصبر الجبل ، إن تمت قبل الأجل بلحظة واحدة ، تفز بالعالم كله فى هذا الوقت إن تحققت أيها الرجل البائس ، عمن ابتعدت هذا الوقت لأحرقت صدرك من الحسرة ، ووضعت رأس الندم فوق قدميك إن كنت جديراً بطريق الله ، اسمل عين أهوائك تماماً ، وعندما تكف عين أهوائك ، تبصر عين ألوهيتك بالحق ، لاتوجد للحيرة نهاية واضحة ، فمن يمكنه استعادة إبرة وسط الأمواج ، اعتبر الدنيا مثل رباط ذى بابين ، عندما تدخل من هذا الباب تعبر من الآخر ، استغرقك نوم الغفلة وليس لديك خبر عن شيء ، إنك سوف تموت إن أردت أو لم ترد ، إن كنت شحاذا أو ملكا ، لن يصحبك أكثر من ذراعين من الكرباس وعشر آجرات، كثيرا ما صدر عن الفلك أفعال ، لن يكون لأحد

نجاة منها ، فى نهاية الأمر لابد لك من الفراق عن كل ما تملك أردت أم لم ترد ، إذا كان ملكك من الأرض حتى السماء ، فنهايتك هى العبور من هذه البوابة ، إذا كنت الإسكندر فدنياك فانية ، تصنع لك ذات يوم كفن الإسكندر .

يا عزيزى أنت بدون علائقك الدنيوية كنز ملكى ، أخفاه الله داخلك ، إن أراد أظهر ذلك الكنز ، وإلا ظل مخفيا كما هو ، ويجب أن تعلم على أية حال ، لما يخفى ذلك الكنز ولما يظهره ؟، الحياة خادعة لابريق لها ، هى لحظة بلا معز ولا مواس ، إن وهبتك الأموال فهى حجر ، وإن اعتذرت لك فهى خرساء ، لم يقسم لأحد وصال دون فراق ولاورد دون شوك ولا سكر دون ذباب ، لا أعرف لأحد سبيلا سوى المعاناة ، حتى أمسح عنه أحزانه للحظة ، فاذهب ، واجعل جسدك يعانى ، وجد بروحك وافن عنها كما يطلب منك ، لا أرى لك تلك الرجولة والقوة ، طالما تتجول فى العالم دون دخول القبر، ألم يبق آدم ستمائة عام حزينا ، وأراق دمه على الأرض من أجل حبة قمح ،ولأنه لم يحصل على القمحة إلا ببلاء عظيم ، لايجوز لك أيضا الحصول على لقمة دون بلاء ، كل نفعى ونفعك باء بالفشل ، أواه من ميلادنا ووجودنا ، أيتها الحياة من هو الشخص السعيد بظلمك ، إن كل ظلمك وترديك هباء .

ولأن الحياة لا تعبأ بك ، فلماذا تهيل التراب على رأسك بسببها ، الدنيا لها أصهار كثيرون مثلك ، وتموج ذاكرتها بذكرى الأعياد والأعراس ، طالما أنا على قيد الحياة فسوف أسوق الرمز دوما لجلسائى ، لا أرى جليسا مخلصا ، فالغوث من هؤلاء الرفاق المنافقين لأن مصيرك هو التراب ، فأى قصر وإيوان تقيمه فى هذه الضعة ، ولأن عينيك سوف تمحى فى التراب ، فلماذا تعلو بالقصور إلى الأفلاك ، إن كنزت الأموال من الفضة والذهب ، لن تتجرع الماء لحظة دون عناء اهتم بنفسك فلن يهتم بك أحد ، ماذا أقول لك أليس الأمر على هذا النحو !؟ على الرغم من أن أصلك من التراب ، إلا أن روحك الطاهرة من جوهر طاهر ، ألم يسجد الملائكة لجوهرك ؟ ألا تتقلد تاج الخلافة ؟، إنك ابن خليفة فحرر جسدك ، وتخلص من العجز فى تلك الرياض ، لك ملك فى مصر وأنت مثل يوسف ، فلماذا تظل فى غيابة الجب ، لايصدر لك الأمر بملكك هذا ، طالما أن الشيطان يقبع داخلك بدلا من سليمان ، أنت ملك فى البداية والنهاية ، لكن بصرك

أحـول ، ترى الواحد اثنين والاثنـين مائـة ، وسـواء واحـد أو اثنين أو مائـة الكـل أنـت نفسك ، لك قلب واحد أيها المسكين ومائة صديق ، فكيف يتأتى لك مائـة عمـل بقلب واحد ، إلى متى تظل فى هم الخبز والثوب ، وإلى متى تظل فسى خـزى العـوام وعـارهم ، لك عادة عجيبة فى الأصل ، ترتدى الخرقة ، لتحصل على ثوب خلـق ، وإن تجتهـد كـل لحظـة فى الحضور ، تفز منه بخلعة اسـجد واقـترب[٤] ، مـن كـثرة الأفكـار العابثـة التى رددتها ، فسدت فطرتك.

ألا أيها النائم إن كنت عاقلاً ، يجب أن تغوص داخل أعماقك ، ما أبشع الحرص فى قلب ابن آدم ، وما أعجبه مـن حـائر وضـال فـى العـالم، ألا يـاصاحـب القـلب الأعمـى مـن الحرص ، إنك مقيد بالحرص حتى تصل إلى حافة القـبر ، لـن يقـل حرصـك مـالم تمـت ، فجرح الحرص لامرهم له سوى الموت ، تجرعـت كـأس الدنيـا الطافحة ، فمـاذا سـتفعل بأموالها الوفيرة ؟ با لله لايساوى متاع الدنيا بأسرها ، شعيرة واحـدة فـى عـين السـالك آه من هذه العناكب الآكلة للذبـاب ، كلهـا مثـل النسـور تبحـث عـن الجيفـة ، ويـلاه مـن المتكالبين النمامين ، كلهم مثل النمل لا قائد لهم ولامرشد ، واحسرتاه من حرص البعـض وتكالبهم وراء العظام ، فهم جميعا يتمثلون بالكلاب ويشبهون الفئران .

ألا يامن بقيت مهموما ليل نهار ، وأصبحت مسـكينا بسبب الحـرص ، جعلـت الحـرص رسناً فوقك ، الحرص يعلوك والرسن يعلو الجمل ، آمن بالرزاق فى نهايـة الأمـر ، واصبر واهدأ ، فهو لايستعيد الرزق من الكافر ، فكيـف يستعيده مـن الرجـل العـاقل ، لاتـتردد ياصديقى عندما يحين الصباح ، وأنـت تتمتـع بـالأمن والسلامة ، عندمـا تستيقظ وقـت الصباح ، أقبل دون أى شىء فى الساعة التى تريدها ، كل خلعة تمنح من ذلـك البـلاط ، ترتدى إذا ما حان الصبـاح ، حيـث يُفتـح بـاب الروضـة وقـت السـحر ، ويظهـر جمالـه للمشتاقين ، وإن لزمك فى تلك اللحظة ملك ، قف على باب محمد سائلا .

فى نعت الرسول (١١٣ : ٤٥٢)

محمـد قـدوة العـالمين ، ومهـدى آل آدم ،محمـد شمس الخلق ، وقمـر الأفـلاك أى عينهـا البصيرة ، محمد مصباح المعرفة وشمع النبوة ، سراج الأمة ومنهاج الملـة [٥] ، قـائد ميـدان الشـريعة، وأمـير جيـش السـيرة العطـرة ، ملـك العـالم وفخـر لـولاك [٦] ، سـلطان

الأرض والأفلاك، أمين الأنبياء وبرهان المنهاج ، ملك بلا خاتم ، وسلطان بلا تاج ، تأهب لملك الدنيا ، لكنه التزم بالفقر فخرى [٧] ، آيته من ناحية إنا فتحنا [٨] ، ورايته من ناحية أخرى نصر من الله [٩] ، لعمرك[١٠] تاج مفرقه الذكى، وألم نشرح [١١] لك طراز عهده ، هو حقا تاج القادة ، وهو قطعا سيد الأنبياء ، لايوجد قطعا أفضل منه على الإطلاق ، ولايوجد حقا أبين للحق سواه ، هو الهدف من الدنيا والآخرة ، هو سراج للعيون وبصيرتها ، هو مفاتيح الهدى للعالمين ، ومصابيح الدجى للدنيا والآخرة ، لسانه ترجمان الملك ، وقلبه كاتب الوحى الإلهى ، الأرض والسماء فى ملته ، والعالمان عهد دولته ، حامل لأمانة رب العالمين .

لأنه كان أمينا فى العالم قبل الوحى ، صار الفلك مفعما بالنور من جماله ، وأصبحت الأرض مهبطا للوحى من كماله ، لم يكن له غير الله فى طريق الشرع ، فتمكن بواد غير ذى زرع [١٢] ، انتهت مشاكل الخلق بفكره ، لأن فكره ممتد فى الأزل ، ظهر من الأزل حتى يمكن للأرواح المضطربة أن ترتوى من بحر شرعه كل لحظة ، كان متقدما على جميع الأنبياء ، ختم الأنبياء ووجد قبلهم ، حينما رفع آدم بصره لأول مرة ، رأى اسم محمد مكتوبا فوق العرش ، فسجد أمام اسم محمد الذى خلق من التراب الطاهر[١٣] ، عند ميلاد محمد ، أصاب الطوفان عبدة النار ، وفى كل معبد نار وبسببه ، انطفأت النيران فى الحال ، إن كانت النار قد خمدت عن إبراهيم ، فقد خمدت عن العالم بأسره بسببه وهو طفل ، ألا ترى عندما تشعل النيران ، كيف أنها تحاول الهرب من وسط ألسنتها

وما أن ارتفع خفه بالخطو فى طريق الدين ، حتى سقط التاج عن رأس كسرى [١٤]، ثنايا ذؤابته أسقطت تاج قيصر ، وأطاحت بخاقان الصين ، فى البداية عندما تدثر ، نزل عليه روح القدس ، قال له هناك خير عظيم للغاية ، ينطوى تحت هذا الغطاء ، هناك مقدار لبنة خالية ، فى بناء النبوة العالى [١٥] ، قال الرسول هذا البناء السامى ، منح بى الخلود الكامل ، بلى كان هو المقصود بكل الأنبياء، وعندما بعث ختمت به النبوة ، ألم تر الجند يأتون فى البداية ، ثم يتبعهم الملك العظيم بعد ذلك ، الأنبياء مثل الجند والهدف من وجودهم هو الملك ، عندما ظهر سلطان الأنبياء ، ختمت به النبوة لأنه

المراد، وعندما أضاء دينه العالم ، نسخت الشرائع والله أعلم ، فكيف تبقى الحياة بنجومها ، وقد ظهرت الشمس المضيئة واضحة .

فى تلك الساعة التى شبه نفسه فيها باللبنة ، كأنما أصبحت كل لبنة جنة ، هو قالب لبنة النبوة منذ آدم ، فهو أساس العالمين ، ولأن إطار اللبنة فى الدنيا أربعة ، يحيط بلبنة النبوة أربعة من الصحابة ، عندما توجه معه صديق الغار ، امتلأت الدنيا نورا بهما ، وعندما دخل محمد إلى خيمة أم معبد ، رأى عنزة عجفاء ووحيدة ، فرق لحال هذه العنزة ، فأشرقت الشمس فى عينيها ، وعندما مسح بيديه على ضرعها ، انساب اللبن منها كالأمطار ، ابيضت يده من اللبن ، ومنح اليد البيضاء من القدر[١٦] ، ما أجمل الرسول البالغ شاربا اللبن ، وهو الذى يبدو آدم أمامه طفلا ، عند الهجرة عندما دخل الغار مع الصديق ، ظهر العنكبوت المشهور ، ونسج على بابه خيوطه المتشابكة ، كان ينسج السداة ويصلها باللحمة ، وعندما تماسكت تلك الخيوط وكونت حجابا ، جاء العدو وأراد اختراق الحجاب ، وتقدم أمام العنكبوت متكبراً وهو يقول : ارفع الحجاب عن عاشقى الدين ، لماذا تصنع حجابا للعشاق ، اخرج الصقرين من وراء الحجاب المسدل ، الصقران هما ما أريد من وراء هذا الحجاب ، فلتتحدث إلى الحجاب بهذا الأمر ، علم العنكبوت ما يدور بخلد العدو ، فتحدث فى الحال مستنكراً ، لايخترق خيوط العنكبوت أبدا لاجمشيد ولا أفريدون البطل ، ليس لديك ذرة من عقل ، عندما تبحث عن السيمرغ فى مخلفات الذباب ، يكفينى قديد ذبابة واحدة ، فكيف يقع الشاهين فى شراكى ، طلسم من نسج العنكبوت ، كيف يتسع لمخلوق الحى الذى لايموت ، إذا كان السر الذى ذكرته ليس على هذا النحو ، فكيف ظلت خيوطى المتشابكة قائمة ؟ ، لو أن خصمه فى سابع أرض ، فالفلك السابع مترصد به ، ومستعد دائما لقتال الأعداء ، وشمس سيفه تتلألأ فى العيون ، لم يخط الفلك أبدا دون حبه ، ولم يتنفس الملك يوما دون الشوق إليه ، لم يفعل أمرا لايمليه عليه الدين ، ولم تر عين تقطيبه لجبينه ، كان يسوده الرضا دون الغضب ، فلم تر عين تقطيبه بين حاجبيه قط ، ولأن تجعد جديلته صار حلقات حلقات ، فقد نتج عنه اثنتان وسبعون فرقة ، عندما ظهرت حلقاته المجعدة ، ظهرت السبعون هذه من تلك الحلقات الستون ، وأخذ كل قوم فى المجاهدة طويلا ، للتشبث بحلقة منها ، لم تستطع يد أن تحوز الخلود الأبدى إلا

يده ، لأن تلك اليد قد استمسكت بالعروة الوثقى[١٧] .

لم يفن أحد عن نفسه فى حضرة العزة المؤيدة إلا محمد ، عندما فنى عن نفسه كلية ، أصبح الجميع ينتظرون الشفاعة هناك إلا هو ، محمد شمس الخلود ، وهو الصبح الأحمدى لروح الله (عيسى) عندما بشر روح الله (عيسى) بالمختار[١٨] ظهر فى لحظة واحدة بلا أب ، نعم كان مبشرا سباقا ، ليبشر الخلق به ، لأن ظهوره كان فى البداية مبشرا به من الحق ، كان ظهوره أيضا فى آخر الزمان ، لن تكون عودته إلا لغرض حميد ، فالعود أحمد ، لأن قلب محمد الطاهر كان كقلب الجيش ، فروحه ملك بين جنبات قلبه ، كان جناح قلبه عند نزول الوحى ، يتكون من ستمائة ألف جناح لجبريل ، بينما اصطف على ناحيتى قلبه ، عالم مختار من القدوس ، كانت سترته من الصبر وسيفه من الصدق ، وقد قلبت ظلال رمحه القلك ، فى يده قوس قاب قوسين[١٩] ، ومستعدا بسهام إذ رميت[٢٠] .

نبى السيف معه تاج لعمرك[٢١] ، امتطى البراق من التبرك ، ولو أن روحه سلطان دار الملك ، إلا أن الجهاد حرفته الوحيدة ، لأنه كان يريد العبودية فى النبوة ، كان يطلب من الحق عينين دامعتين ، لأنه أطلق على نفسه ابن الذبيحين ، أيقنت روحه وعقله بهذا القول ، فلم ينشغل بشىء قط فى الغيب عن الله عز وجل ، لأنه لم يبق له فى الوجود أى أمل ، قفل سجله إلى الأبد من مازاغ[٢٢] ، عندما كانت روحه تضطرب شوقا إليه ، كان يجرى أحيانا على لسانه قوله : ليت الله العالم لم يخلق محمدا ، وما أن قال ذلك ، حتى جعل الجبار الدنيا مصباحا منيرا خالدا له ، ولو أن ضياء المصباح يغمر الشمع ، إلا أنه بعيدا عن العسل فى ألم وعذاب ، فى البداية كان الشمع غارقا فى العسل ، متحدا به لا يفكر فى هذا أو ذاك ، وفى النهاية عندما ابتعد عن وصال العسل كان يقول أى شأن لى بالشمع ، كنت متحدا مع جمعى فماذا حدث ؟ ماذا كان يحدث لو لم أتحد مع الشمع ، وظللت جليسا للعسل ؟ ، عندما ابتعد شمعى عن محبوبى ، أمر الحق مصباحى حتى أضىء ، ولو كنت موجودا مع العسل لكنت فنيت من حرقتى المتواصلة .

كان جلوسه على الحصى من التجرد ، وربطه للحجر فوق البطن بسبب الجوع كمال الفقر دليله ، فالفقر للحق مقام جليل للغاية ، إذا كان هو لايرغب إلا فى القليل ،

فأنى للفقـــراء أن يميلوا إلى الكثير ، كانت راحته في الفقـر فلـم يكـن مـن آدابـه تجزئـة هباته ، لم يطلب مـــالا وملكا ولا متاعا وزادا ، فكان يوما شبعانا ويومـا جائعـا ، ولـو أن الأفلاك قد خلقت من أجله من الدخان [٢٣] ، فما أكثر الشهور التـى أمضاهـا ، ولم ير أحد دخانا من حجرات منزله التسع ، حتى صار من المـألوف عـدم تصـاعد الدخـان من حجراته التسع ، عندما عاد من المعراج معززا ، لم يسود وجهـه قـط ، هكـذا قـال نجومه عندما كان جالسا كالقمر وسط الجمع : أى أطياف نورانيـة للشـمع وقـد أفـاض القمـر بضيائه على الجمع ، كل أصحابه بجانبه ، مشدهوين من هيبته ، نعم فالمكان الذى يواجـه البحر ، كيف يمكن أن تثبت فطرة فيه ، من شدة هيبته فـى حضـوره ، وقـع خـلاف فـى جمع نوره ، هل كان صـــدر العـالمين مستيقظا أم نائمـا ؟ ألم ير وجهـه خلـق للعـالمين ، وكيف لاتتيسر الرؤية وقد كان قاب قوسين ، ومدت الأرض مثل سماط ، ووضعت كلها أمام عينيه ، حتى صارت أسرار العالم عيانا له ، ووقف علـى العـالمين ، عندمـا تجلـت لـه الأسرار الإلهية قال : لا أحصى ثناء عليك ، لأنه كان يرى من عين الأسرار ، كان يشاهد الجنة والنار من وراء حجاب .

توارت الجنة والنار أمامه ، تسأل كل منهما الأخرى أتعلمين من يكون خلف الحجـاب ؟ وابتعدا عن الآخرة وراء الحجاب ، حتى يشاهدا شمس وجهه ، ضل كلاهما عن الآخرة ، عندما نظرا إليه هكذا باشتياق.

وعندما وجد الحق قريبا من الأحبة ، أسرع أمامه ، اتجه نحـو الحـق عـارى الـرأس ، لأنـه يمكـــن السير فـى طـــريق الحـق دون رأس ، لا يجـرؤ الشـيطان الرجيـم أن يظهـر فـى صورته [٢٤] ، عندما تنضج حبة القمح تشق السنبلة ، وقد شق صدر القمر مثـل القمـح ، لأن قوة روحه كانت مستمدة من خوان الفقر ، لذلك كان فقره فخرا له .

عندما تلألأ نور فقره ، أضاءت أفعاله كسليمان ، كان أحيانا يكنس المنزل وأحيانا أخرى ينام فوق الأرض مطمئنا ، وتارة يسرع مع عائشة لأداء بعض الأعمال وتارة أخرى يرفع الآجر والطين لبناء المسجد ، وفى بعض الأوقات يرتق نعليه ، وفى أوقات أخـرى يجـالس الأطفال ، يذهب حينا لتشييع جنازة ، وحينا آخر يذهب لعيادة المرضى ، وكثيرا ما كـان يعلف الجمال ، وفـى بعـض الأحيـان كـان يدير الطاحونة اليدوية ، وأحيانا كان يحمل

الأقداح لأصحابه ، ويقف مضيفا لهم ، ومن حلمه كان يفعل كالجمل أحيانا ، للتسرية عن الطفلين الحكيمين (الحسن والحسين) .

عندما ولد ذلك الصدر العالى ، خرج إلى الحياة ساجداً ، خرج إلى الحياة مقطوع السرة ، كما ولد من أمه مختونا لو وجد وسط خلق العالم ، لفاق الجميع طولا ، لم ير شخص قط ما يخرج منه ، كانت الأرض تبتلعها مثل العنبر ، لم تقف عليه أبدا ذبابة من الأمام أو من الخلف أيضا ، لأن ظلاله انعكست على الأفلاك ، فكيف يقع ظل له فى الأرض ؟ لأن ظله اقترب من العرش ، فكيف يستقر على الأرض .

ذات ليلة توجه إلى العرش والسماء ، واعتلى العالمين ، كان البراق ملتاعا شوقا إليه ، وهو مقيد بطوبى منذ القدم ، فسلك الطريق على سيرة المصطفى ، وذهب صائحا وحمل لجامه وانطلق جاريا ، دخل جبريل وقال : أيها الطاهر لماذا تلازم الأرض ؟ توجه إلى الأفلاك ، لأن الحق شرفك بملك العرش ، فتقدم من الأرض إلى إيوان العرش ، لأن ذاتك رحمة للعالمين ، فهى مضيفة للعالمين بالرحمة [٢٥] ، لأنك كنت مضيفا للأرض لفترة ، فقد حل الدور الآن على الأفلاك ، فاصنع الكيمياء بفقرك للممالك ، وجهز النوتيا للملائكة من ترابك .

وما أن انطلق براق صدر العالم ، حتى وصل إلى السماء السابعة كالبرق ، دخل حتى الكرسى ممتطيا ، وهو صاحب البراق والمنبر ، وعن يمينه حملة العرش ، وعن يساره حفظة الأرض ، والفلك تحت براقة كالأرض ، وغلام بلاطه الروح الأمين ، انكشف له عالم العرش ، ووضع قدمه فى مقعد صدق [٢٦] ، انطلقت الصيحات من سكان السماوات قائلين : لقد جاء سيد العالم إلى الميقات ، جاء اليتيم من سلالة أبى طالب ، جاء الآن دُرا يتيما طالبا (للحق) ، فخرج من الحضرة فى الحال مئات الآلاف من الأرواح العلية لاستقباله .

كان فى عبوره على المسيح مثل يوسف ، فجعله فى شيخوخته فى شباب زليخا ، وكأن روح روح الله الطاهر (عيسى) قد بعثت مرة أخرى فوق الأفلاك ، تقدم سليمان وتخلى عن الإكليل ، ووضع السلة لتلقى الصدقات ، وانطلق الكليم من هيبته ، على أمل أن يكون من أمته ، وأحضر الخليل ما عنده ، حتى يضحى بابنه أمامه ،

وعاد نوح أمامه من السفينة ، وتحققت له العظمة بوجوده ومن جوده ، ودخل آدم فطرب ، وطلب منه جوهرا ، وأحضر الرضوان الشراب ، وسأله كثيرا عن طريقه الطويل ، وإذا ما كان العطش قد نال منه أثناء الطريق ، فيحضر له الشراب السلسبيل [٢٧] في الحال ، وإذا ما كانت حرارة العشق قد أنهكته ، فمزاج شرابه كافور [٢٨] ، وإذا ما كانت برودة اليقين قد وصلت إلى الذروة ، فشراب الزنجبيل إيثار له [٢٩] ، وعندما مال إلى الاعتدال في النهاية ، مزج له العسل باللبن ، عندما أقسم طاهيه بالإخلاص ، خصص له الشراب الطهور ، كان شرابه رحيقا مختوما [٣٠] ، ولا يعلم هذا الحب سوى الحق .

وسُخرت شمس الفلك له ، وكانت لجام براقه في تلك الليلة ، كانت الشمس الذهبية مقبض سرجه ، والهلال ركابه يقبل قدميه ، والقمر بيدر خاص لبراقه ، يُمنح القمح من الجوزاء والعشب من المجرة ، ألم يكن في تلك الليلة يسرع بالعدو في تلك الطريق ، وبراقه يخطو به فوق الأفلاك والهلال نعل براقه الذي ارتدى الفلك كقرطين في أذنيه وأحكم قوسه ، وصنع له السماك [٣١] هدية من الرماح ، وطهر له الطريق من رأس الغول ، وتوجهت الحور جميعا صوبه ، من الأرض حتى السماء مباشرة ، وأنار الليل المظلم لهذه الروضة المباركة بنور وجهه كثيرا من الأعين ، وأحكم العرش محرابه بسرور ، وجعل الوجود ، طوع أمره واكتسبت طوبى منزلتها من ذؤابتيه ، فألقت بظلها على رأس الفردوس .

وعندما أمد الذنب رأسه أمامه ، سحب ذيله كالعقرب رهبة منه ، وكنس الفلك السنبلة [٣٢] وعندئذ انحنى حتى يفسح له الطريق ، وعندما تعرف السرطان على حبيبته ، ألقى بجيشيه إلى الماء ، ووقفت الجوزاء ممتثلة لأمره ، وجاء الميزان وقيد يديه ، وخفض القوس وتره أمامه، وأوقف منزليه فداء لروحه ، وأقام له الحمل والجدى مائدة من الشواء ، وبسط الخوان من الأرض حتى السماء ، وصار الأسد مثل ليث يحميه ، وصار مثل الدلو مندلها به ، وعندما شاهدت الأختان وجهه ، رفعتا القناع عن وجهيهما شوقا إليه ، وحضر النسران [٣٣] الواقع والطائر ، حتى لا يقع أى مكروه ، وكانت السماوات السبع السيارة [٣٤]، حول القطب مثل الرجال السبعة [٣٥] ، عندما رأوا رحولته

وعرفوا حياته ، حملتهم بنات النعش كالموتى ، ودخل كل ملك بمجمر خاص ، ليحرق بخور عشقه بإخلاص ، وفتح الرضوان ثمانية أبواب من الخلد ، وأجرى الماء من الكوثر مدرارا فى تسعة اتجاهات ، وأسعد خازن الفردوس العالم ، فأهداه حور العين، عندما علم نوح قدر تراب قدمه ، صنع لوحا من الطين للسجود عليه مثل الشيعة ، عندما فاض عالم النور بجماله ، تدلله البيت المعمور[٣٦] بعشقه ، جعل الحق الفلك نثارا له بحق ، وقدمه له كله فوق طبق، أحضر كل فلك مائة كيس من الذهب كهدية، حلالا لأنها جاءت[٣٧] من السدرة ، وطلب الفلك من الحق استضافته ، ليتحقق لكل نجم مصاحبته ليلة .

ومنذ ذلك الحين الذى ضيفه فيه الفلك، مثل أصحابه الطاهرين بالنجوم ، لأنه فى تلك الليلة كان مثل شمس ساطعة ، انعكس نوره على كل نجم بطريقة مختلفة ، فمنح ضيعة السماء لزحل ، وأفتى بمنح الطيلسان للمشترى ، ورفع المريخ رأسه بصلابة ، وألقى بظلال ذؤابته على الشمس ، وأجاب على الزهرة بحنان ، وأرسل إلى عطارد خطاب الحكمة ، وظهر أمام القمر مثل يوسف ، فقطع القمر يديه والبرتقال[٣٨] ، هكذا تحول شمس الشرع ، على ستمائة ألف جناح لجبريل ، لم تستغرق جولته لحظة ، ولم يترك أى أثر أو علامة .

عندما اصطفت الملائكة حوله ، رأى الدنيا مثل قاع صفصف [٣٩] ، دنيا لاأثر فيها للحياة ، ولا أثر فيها لصفصف ولا رفرف [٤٠] ، عالم خال من قريب ومن بعيد ، وهو من نور النور ، نور على نور [٤١] ، كان يرى أرض الآخرة كحلم ، ويرى أنهارها الجارية عيانا ، السماء معظمة من جلاله ، والشمس مضيئة بجماله ، عندما اضطربت روحه شوقا إلى الحق ، شق ذلك الصدر ملابس صداره ، بلى لأن السماء كانت صداره ، فقد اخترقها فى تلك الليلة ، وعلامة ذلك الاختراق فى المجرة ، تضاؤل الفلك أمامه إلى ذرات ، ولأنه كان دائما حجابا خاصا للحق ، شُق الفلك بسبب معراجه .

جاء الخطاب من الحق : ياسيد الخلق ، ماذا تطلب فى مجيئك هذا ؟ ، إن قلبك مع أمتك المليئة بالذنوب يقول لهم : سيروا سير أضعفكم فى الطريق ، قال الرسول : يا إلهى علمك بحالى ، يغنى عن سؤالى إن إنعاماتك قد وصلتنى متلاحقة ، وقد انعقد لسانى فلا أحصى ثناء عليك ، امحى وجودى فى الكل ، فالشمس باقية ، والظلال

تنمحى ، عندما شعر صدر الكونين بضعفه ، قوى عضده من قاب قوسين ، لأن محمداً هو سيد العالم ، مُنح عضده ذلك القوس، قوس مبارك عصبه وتر هندى العين ، من قوس قاب قوسين .

فى تلك الساعة التى انكشفت له فيها المعرفة ، بدا كأنه يشبه السهم فى صفتين :

الأولى فى استقامة الوقوف والثانية فى سيره ولأنه كان يشبه السهم بهاتين الصفتين شبهت مكانته بالقوسين فى البداية عندما انطلق صوب الحق كان مثل سهم اطلق من قوس وفى النهاية عندما أعيد إلى قومه كان مثل سهم صوب من قوس ولأن هاتين الرحلتين انطلقتا من القوس شبه بقاب قوسين ، ولأن للقوس بيتين دائما ، فهما خالدان ، الأول بيت الأحدية إن كنت تعرفه ، والثانى بيت أحمد الخالد ، عندما أسرع السهم بجذبة من الحق ، اختفت الميم من أحمد مثل شعرة ، وانمحت ميم أحمد من المنتصف ، وصارت أحدا ، وصار الاثنان واحداً .

فى تلك الليلة كان طاووس الملائكة [٤٢] ، يفدى فتنة طرته بمائة روح ، كان يرى من ذؤابتيه وترىّ القوس ، ويشاهد من عينيه ما زاغ البصر [٤٣] ، قوس قاب قوسين [٤٤] بين حاجبيه ، ووترى ذلك القوس ذؤابتيه على الدوام نعم فلأن طرته كلها نور ، فهى تمنح مثل هذين القوسين الروحانيين ، إننى لا أرى قوس قاب قوسينه ، برهة فى عضد العالم ، فعندما تصبح فتنة طرته لاقرار لها ، يليق بطاووس الفلك اقتناصها ما أجمل القوس ، وما أحسن الوطد ، فمنه ما كان وما أوحى وما زاغ [٤٥] .

وبسبب الحسد الذى تملك الفلك من الرسول ، احدودب حول المحور الله علم آدم الأسماء [٤٦] ، عن طريق الوحى تعظيما لمحمد وأسمى محمدا منذ القدم ، فأصبح الأمى الفقير ، ولأنه خلق دون معرفة الأسماء ، لم يعرف القراءة وكان أمياً [٤٧] ، ولأنه جاء فى طريق الحق مجردا ، أصبح لتجرده فقيرا مطلقا ، وبسبب تجرده وفقره ، تلقب بالأمى من أم الكتاب [٤٨] ، فى البداية كلف بخمسين صلاة ، ثم جعلها الحق خمساً من أجله ، إن كان قد فاز تلك الليلة جزئيا وكليا ، إلا أنه عندما تجرد من ذاته فاز بالكل بحق .

أيها القلب ، اجعل إقبال الروح متصلا ، وقيد نفسك بسرج براقه ، واخضع له فى عبودية ، حتى تصبح سيدا عزيزا ، ماذا أقول يارسول الله أكثر من هذا ،فأنا عاجز

ولا أعلم أكثر من هذا ما أفضل جبريل رسول بلاطك ، فكل عمله التردد فى طريقك!، وعندما أبصر ميكائيل عين ملكك ، أصبح أجيراً لجند جيشك ، ونتيجة لشجاعتك ، ظل عزرائيل مستعداً دائماً بسيفه ، وأصبح إسرافيل الأمين ، حارسا لأعتابك ، والملائكة حجابا على بابك ، وكرام الكاتبين حارسيك ، وآدم الطاعن فى السن والذى كثيرا ما سجل أسماء ذاتك ، كاتبا لبلاطك ، وإدريس أمامك بمثابة منجم ، بشر بالجنة بسببك ، وعندما اكتسبت الدنيا سلطانك ، اختار نوح سفينتك ، وجعل صالح نفسه جمالا لك بروحه ، وضيفك بلبن ناقته ، وعندما صار بناؤك مثل إبراهيم صارت الكعبة كلها حرما لك [٤٩] ، وما أن سمع إسماعيل عن مذهبك حتى صبر على أمر الله بذبحه وهو حى ، واشتاق إليك يعقوب الحزين فجلس فى الخلوة على أمل رائحة منك ، ونجا يوسف من السجن ومن البئر يبحث عن جمالك فى مائة جمال ونثر الخضر الجليل الأنساب الماء ، على محلتك كل ليلة من ماء العين ، وتعلم إلياس التضحية منك ، فاختار الفداء حتى يوم الحشر ، وعلمت يونس المعرفة فى الطريق ، فظل حتى اختفائه فى البحر يقتفى أثرها ، وكثيرا ما شعر داود بالشوق إليك ، فافتدى لوعة عشقك بمائة روح ، وعندما رآك أيوب طبيبا لعشقه ، تغلب بجسده على المرض ، وما أن شاهدك سليمان ملكا على العالم ، حتى وقف لخدمتك مثل الخاتم ، وبمجرد أن تقلد يحى تاجك ، صار هارون حاجبا على بابك ، وأصبح موسى ممسكا بالعصى على دربك ، وبارك عيسى اسمك الهندى ، ولأن لك مؤنسا مثل قل هو الله[٥٠] فقد محموت كل ما سوى الله ، زوج أبى لهب التى احترقت كمداً ، إذا ما ألقت لك شوكة فى الطريق ، فليسعد ورد غيبك فى مكانه ، حيث لاتزدهر وردة دون شوك ، فى كل لحظة يظهر فيها وجهك الجميل ، يكفيك بخور قل أعوذ [٥١] لعين السوء .

كل إصبع من أصابع الفلك السبعة ، أمسك بمصباح من النجوم ، تناديك من الألم والعذاب ، أيبحث أحد عن الشمس بمصباح ؟ أنت سلطان الأرض والسماء ، سراج الدنيا والآخرة ، والفلك فى حركة دائبة مثل كرة ، لعله يدرك رائحة من قدرك ، فى ذلك المجمع الذى تتجلى فيه القدرة الإلهية ، يبدو ارتفاع السماء تحت قدميك ، ومن هذه القدرة ، والتى لا حصر لها ، يوجد خارج الأفلاك التسعة تسعمائة حجاب وبسبب البعد من قدرة هذه القبة المنيرة ، يتعاقب الليل والنهار ، عندما أشعت ذرة من القدرة

على السماء ، اكتسبت الشمس الحياة وفاز القمر بالضياء من تلك الذرة .

ماذا أقول وصفاتك على هذا النحو ، حيث مائة عالم تعلو على الفهم والإدراك ، إن اعتبرت العالم كله لعبة ، فاقبل منه مادحا لأعتابك ، لاأعلم كيف يتأتى ثناؤك ، وإن قيل ، فهل تقبله ؟ ، أنت تعلم أنه من بين المتحدثين ، لم يقل أحد مثل هذا المدح ، إلا أنا فقط ، هذه الأشعار عروس ، وجودك ظلها ، وقبولك لها زينتها وحليتها ، إن قبلتها منى يرتفع شأنى ، وإلا زهقت روحى الحزينة ، إن تقبل منى هذا الكلام ، أجدد الفلك العتيق بصنعتى ، لو أن حضرتك بحر عظيم ، إلا أن القطرة منه در يتيم ، ولو أن البحر زاخر بالمياه ، إلا أن للقطرة الواحدة تأثيراً ، ألاترى البحر لابداية له ولانهاية ، وقد أفسح الله بلطفه لكل قطرة مكان ، ماذا أقول يارسول الله بعد ذلك ، لقد تحدثت بهذا القدر على قدر استطاعتى ، أنت كريم مطلق وتعلم أيضا أنك تستطيع منحى مائة خلعة .

قصـــة (٤١٤ : ٤٥٢)

جاءت امراة ساقطة إلى مكة ، حيث ذاع صيت فسقها وفسادها ، فإذا ما عزم شخص على اللهو والعبث ، كانت هى شريكته الثانية ، كان صوتها جميلا وتتقن فن الحديث ، وليس لها من عمل سوى الغناء .

وعندما دخل الرسول مكة ، وحل الحب والوئام محل الحرب والحقد ، قوى شأن الإسلام ، واستقر الإيمان وزال الكفر ، وخلت مكة من المفسدين ، وتفرقوا عنها ، وأصبحت تلك المراة معدمة ، فذهبت إلى الرسول بائسة .

قال لها الرسول : ويحك كيف جئت ؟ كيف ؟ أجئت مهاجرة الآن أم تاجرة ؟ ، أجئت إلى هنا من أجل الإيمان ؟ أم حضرت من أجل التكسب ؟ ، عندئذ قالت المرأة لصدر العالم ، لم أحضر من أجل هذا ولا ذاك ، لكننى جئت إلى هنا ، عندما سمعت وصف جودك من الخلق ، طويت مراحل الطريق على أمل عطائك ، أنا المسكينة البائسة ، فقال الرسول : مكة تزخر بالشباب ، فابحثى عنهم فهذا ما يلائمك ، عندئذ قالت المراة : بسبب حروبك ومعارك ، وخشية من خنجرك ورمحك ، ولصيت قدرتك وذيوع مكنتك ، ولفضل معجزتك وبسبب شهرتك ، انتهت نزوات فرسان العرب ، فكيف

يرغب شخص فى مطربة.

استحسن الرسول ذلك القول فمنحها بردته ، وقال لصحابته : ليمنحها كل منكم اليوم شيئا مما تيسر له ، فمنحها الصحابة هبات كثيرة ، وصارت تلك المرأة من الأثرياء .

يارسول الله إن المرأة الغريبة المشركة ، الغارقة فى الفسق والفجور ، عندما مدحتك بكلمات مرة واحدة ، فازت من جودك بالمال الوفير ، ولم تجعلها تيأس من جودك ، ولم تعدم إنعامك ، وأنت تعلم أن العطار فى وصفك ، يهيم حول نفسه كالفرجار ، فإذا ما أدرك تراب محلتك ، لوجد من كل ذرة فيه شمسا مختلفة ، ولأنه تراب محلتك ، فقد وصفك بروحه ، فاقبله بهذا إن أمكن ، ولاترده يائسا يا من لامفر له عنك ، وخذ بيده ، لأنه عاجز ، ومثلما منحت المرأة بردتك ، فليصلنى منك فى النهاية عطاء ، لك الملك فى العالمين ، ويمنكك منح التشريف الإلهى ، فشرف جسد العطار بخلعة ، لأنه لم يعد يشعر حتى بثيابه ، وزين قلبه بالتوحيد ، كما لم يزين قلب من قبل ، ليس لى هدف من هذا سوى المحو ، ماذا أقول فأنت تعلم وتقدر ، العبودية تملأ جوانحى دوما ، لأن قلبى دائما غلامك ، ليست لى القدرة فى طريقك ، أن أقول : أشفع لهذا المسكين ، السائر إن كان مسكينا ومحتاجا ، يصبح لاحول له ولاقوة فى طريق الحج ، وعندما يراه القادر مضطرب الحال ، أنى له أن يحرمه من الماء ، ولأنك سيد العالمين ، فمن الجائز أن تقطر على شفتى بعض الماء ، إن صدرى منقبض فى هذه الحرارة والاحتراق ، فأحيى كبدى بقطرة ماء ، وإن كنت لاأستحق ماءك ، فلا تمنحنى إياه ، والله أعلم .

فى مناقب أمير المؤمنين أبى بكر (٤٥٣ : ٤٨٣)

قائد رجال الدين ، الصديق الأكبر ، والإمام الصادق لأصحاب المحشر ، كان أعظم رحمة مهداة للرسول ، لأنه كان سابقا بالخيرات فى الدين [٥٢] ، قرين الخلوة ليلا وصديق الغار ، هبته فى اليوم الأول أربعون ألفا[٥٣] ، الشخص الذى سن سنة حسنة ، يصله أجرها دائما ، ولان أبا بكر بدأ على هذا النحو ، منح أجر الدنيا كلها ، ولأن إيمانه منذ الخليقة ، فهو يعلو كل إيمان لقدمه ، ألم يعان من آلام الأسنان عشر سنوات ، ولم يخبر الرسول بهذا الأمر ، وعندما كشف الحق للرسول أمر رفيقه ، قال الرسول له : أيها الصديق لماذا لم تخبرنى بهذا الأمر ، من المستغرب معرفة ذلك من الحق ، الشخص

الذى حفظ سر جسده على هذا النحو ، ليس له من سبيل لحفظ سره سوى الحق ، لقد أحكم غلق فمه بحجر ، حتى لاينثر لسانه الدرر ، سمعت عن وجود الجوهر وسط الحجر ، لكننى لم أشاهد الحجر بين الجواهر ، ولأن روحه كانت مستغرقة فى الحق تماما ، فقلما كان يجرى كلام على لسانه ، ولأن روحه انشغلت بالمعرفة ، فقد روى عنه ثمانية عشر حديثا فقط ، يجمل بالعالم حتى مع معرفته بثمانية عشر ألف حديثا ، أن يروى أحاديثه الثمانية عشر .

لأن أحاديثه اعتبرت أساس المعرفة ، وأحكمت أسانيدها ، فانظر أى عقل وأى بصيرة كانت له ، بحيث كشفت له أسرار الحمل والطفولة ، عندما دعا للضرير العاجز ، حقق الله دعاءه وأعاد للضرير بصره ، لم يكن يتزيد فى شىء قط ، فلم يتحدث إلا بأقيلونى [٥٤] ، عندما حانت منيته ، حملوه إلى المصطفى ثانية [٥٥] ، ومن صدقه فتح مفتاح عالم الأسرار ، الباب له ، وانفصل القفل عن محبسه ، فتح القفل لاستقباله ، دون أن يمسسه أحد ، الشخص الذى لان الحديد له ، كيف يقسو قلب عدوه عليه ، ولأن القفل فتح بسبب صدقه ، فلماذا لم يفتح قفل قلب عدوه ، وما أن شاهد أصحابه ذلك المشهد ، ورأوا قبره يفتح حتى أوروه الثرى ، ثم عادوا ، وقد أطلعوا على مكانته عند الأحد .

الشخص الذى عانى من أذى الحيات هو الصديق ، وهو الذى يمكن تسميته بصديق الغار [٥٦] فقد تصدى ذلك الصديق لأذى الحيات السامة ، حتى يكف أذاها عن الرسول ، لذلك شبه الرسول أبا بكر وعمر ، الأول بالبصر والثانى بالسمع ، ولأن النبى أطلق عليهما السمع والبصر ، فالشخص الذى لايؤمن بهما أعمى وأصم .

فى مناقب أمير المؤمنين عمر (٤٨٤ - ٥١٤)

الإمام المطلق وشمع العالمين ، أمير المؤمنين الفاروق الأعظم ، الصدق ينطق على لسانه ، بالكمال الذى تحقق له من الفرقان ، عندما أيقن قلبه بالحق فى الحرم ، اتصل قلبه بعين العدل فى الحال ، وما اقترنت عين العدل بالقلب ، حتى شاع عدله فى العالمين ، عندما قفل باب الظلم إلى الأبد ، فتح بعدله مائة باب للعجم ، قوى أمر العرب به منذ البداية ، وأعتق كل العجم الدين بسببه ، والشخص الذى لم ينقد له ، فبسبب عدائه للعجم

والعرب ، لأن الحديد لان أمام صلابته ، فقد فتح القفل الرومى [٥٧] فى بلاد الروم ، وقد خاصم الثوبان جسده ، فبعد إسلامه ، كان له ثوب واحد ، ولأنه عندما اعتنق الإسلام كان له ثوب واحد ، فعندما خلعه ، كان الثانى هو كفنه ، ومن كثرة مارتق ثوبه ، أحاطه سبعين مرة ، وأمام ثوبه المخاط ، تمزق ثوب العالم إلى ثمانية عشر ألف قطعة إحتراما له ، ولأن أنحاء العالم قد خضعت له ، ارتدى الكرباس المرقع ، ولأن عدته كانت ثوبا واحدا ، فلا جرم أنه فاز بحلاوة الإيمان ، لم يجرؤ منكر ونكير على الإقتراب من قبره ، بسبب رجولته وقوته ، ولأنه الفاروق المحتسب العظيم [٥٨] لم يظهر أى منكر فى الآفاق ، لأنه محتسب يأمر بالمعروف ، فقد وصف أيضا بالنهى عن المنكر .

اعتبره الرسول عينيه فيالها من مكانة ، وقال عنه سراج الخلد أيضا ، فيالها من مرتبة ، هو سراج أضاء الشرق والغرب ، زيته لاشرقى ولا غربى [٥٩] لأنه بمثابة العين والمصباح من الحضرة ، فأنت عندما تسلك بدونه لاعين لك ولا مصباح ، وإن لم يكن لك عين ولا مصباح ، لايمكنك التفرقة بين الحمام والحديقة ، تلزمك عينك دائما ، كما يلزمك المصباح أمامك بصفة دائمة ، فإن لم يرافقك المصباح والعين فى الطريق ، لن تفرق بين البئر وبين الطريق ، وإن زلت بك قدمك فى الطريق بدونهما ، سقطت فى البئر فى النهاية بسبب العمى ، ولأنه فاز من المصطفى بمثل هذه العين ، فقد اكتسب لسانه نطق جبار العالم ، إن لم تكن من العميان ، فانتبه ، وتتبع تلك البصيرة ، واصغ لتلك الأقوال ، ومن لايشع ذلك النور فى رأسه ، لن تكون الجنة سراجا له ، إن مصباح الفلك هو الشمس المنيرة ، وسراج الخلد هو الفاروق العظيم ، وغداً ينطفىء مصباح السماء إلى الأبد [٦٠] ، عند نفخ الصور [٦١] ، لكن سراج الخلد هذا ، سيظل متلألأ كل صباح ومساء .

فى مناقب أمير المؤمنين عثمان (٥١٥-٥٤٥)

أمير المؤمنين عثمان ، وضع للإيمان أساسا من الحياء [٦٢] ، الفلك من بحر علمه بخار ، والأرض من جبل حلمه غبار ، هو الروح المصورة لدينا المعرفة ، صاحب اللبين من نورى الرسول [٦٣] ، ماذا أقول فقد أصبحت ثلاثة من الأنوار من نورى الرسول ، ومن القرآن فما أجمل الأمر ، الشخص الذى يعيش فى رحاب هذه الأنوار الثلاثة ، إن

لم يره العدو جيدا فهو أعمى ، إن كانت للشمس عين شاخصة ، فقد استمدت المدد من نور ذى النورين، لم يتحقق هذا الكمال لأحد سواه ، فاقترن بابنتى الرسول الجليلتين.

لأنه كان مهتما بالحفاظ على القرآن ، كان برهانا على عجز الآخرين ، فابتعد عن الدنيا ، مهتما بهذا الأمر ، هكذا كان ذلك الشمس ذا النورين ، الشخص الذى مُنح هذه الكرامة من الله ، فحاز على عينى وسراج المصطفى ، ولأن ذا النورين من الأسرة أيضا ، فكيف يمكن إنكار صدقة ، الشخص الذى توجد فى سمائه هذه الأنوار ، يكون القمر والشمس حاضرين معه.

إن نزعت بغضة للحظة من قلبك ، تشرق شمسك ويضئ قمرك ، الشخص الذى كسر عصا عثمان على ركبته ، أصيبت قدمه بجذام دائم[٦٤] ، وهكذا أصبحت عصاه رمزا ، وصارت مثل عصا موسى خصما للأعداء ، إن وجد له عدو فى الحياة ، يكون كنائب فرعون ، هكذا قال عند بيعته : لى يد متصلة دائما بيد النبى ، ومن أجل حرمة يده ، لم يتسلل فساد أو مكروه إلى تلك اليد ، الشخص الذى رعى حرمة يده على هذا النحو ، ضحى من أجله كل صاحب دين ، كان قلبه بحر عظيم من العلم ، وكان جسده جبل راسخ من الحلم، كان قلبه فى الحقيقة جامعا للقرآن ، وقد تجمع بين حناياه كل أسرار العالم ، كان الخلق يتجمعون حوله داخل الجامع ، ليفسر القرآن للخاصة والعامة ، ولأنه كان إماما للخاصة والعامة فى شئون القرآن ، فكيف يجانبه الصواب مع أقاربه[٦٥] ، لم يغف أو يتناول طعاما طوال حياته ، إلا بعد ختم القرآن كل ليلة .

فى تلك الغوغاء أشهر غلمانه السلاح ، مرة واحدة من أجل الحرب ، فقال لهم : كل عبد يلقى اليوم بسلاحه ، فهو حر مظفر ، لأن القرآن كان شاهده دائما ، كان جمع القرآن هو شاغله الشاغل ، فى نهاية الأمر ، صار شهيدا ، وهو فى حضرة الحبيب وأصبح القرآن وعاء لدمائه[٦٦] ، لأن القرآن كان معشوقه فى الآفاق ، فقد مُحى فى النهاية شمع عشاق القرآن ، وإن كان شمع الجنة هو الفاروق ، فقد فنى هو فى سبيل المعشوق مثل الشمع .

فى مناقب أمير المؤمنين على (٥٤٦ : ٥٧٦)

إن وجد إمام للدنيا من مشرقها إلى مغربها ، فهو أمير المؤمنين حيدر ، ملك الدنيا بضرب أسنة رماحه ، وفاز بالآخرة بوصف جوده ، لأن عطاءه استقام فى السر بإخلاص ، فقد تحقق لأبنائه الثلاثة سبعون آية خاصة ، أقماره الثلاثة مثل قرصى الشمس والقمر ، وضعهم على الخوان للعالمين إلى الأبد .

إن أمطرتك السهام دوما ، لكفاك أن عليا حبه جنة [٦٧] ، قال له الرسول : يا نور عينى ، لقد خلق كلانا من نور واحد ، ولأن عليا من نور واحد مع النبى ، فهما شخص واحد ، بعيدا عن الثنائية ، عندما أصبح على ، باباً فى مدينة العلم[٦٨] صار بواب الجنة بحق ، وما أن تحرر فى الفقر والفاقة ، حتى هجر الذهب والفضة بلا رجعة ، وعلى الرغم أنه حرم الذهب والفضة ، إلا أنهما صارا عجل هذا الأمة [٦٩] ، وأنى للعجل أن يؤذى ، وقد نشب مثل هذا الأسد مخالبه فيه ، روى أنه كان له درع ، وجهه وظهره غاية فى الضياء ، ظهره مضيئ مثل وجهه ، لأنه كان يحمى به ظهر النبى ، هكذا قال : إن أرادوا قتلى ، فلن يرى أحد فى المعركة ظهرى ، إن كان مآله حسن المآب [٧٠] ، فهو أيضا أبو الحسن وأبو تراب وقد قال : إن رفعونى إلى المنبر ، فسوف أقضى بأمر الله ، وأحكم بين أهل العالم ، بالكتب الأربعة .

ولأن كل ما قاله ، قاله من بحر اليقين ، فقد تحدث ذات يوم وقال : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا [٧١] كيف لا أعبد رباً حتى أراه ؟ ، ما أجملها من بصيرة ، وما أطيبه من علم ، وما أعظمه من عمل، وما أزهاها شمس الشرع وبحرها الزاخر ، كانت أنفاس أسد الله تصل حتى الصين، فاختزن الغزال المسك من علمه ، لهذا قالوا : كن رجل العدل والدين ، وابحث عن العلم من بئرب حتى الصين ، الأسد وهو نافجة منزل الشمس ، صار كالمسك الصافى من أنفاس ذلك الغزال ، أخطأت القول فهو ليس على هذا النحو بسبب الخطأ ، ولكن بسبب اشتراكه فى الاسم مع أسد الله ، لو أن علمه صار بحرا مصورا ، تصبح القطرة الواحدة منه بحرا أخضر .

ولأنه لم تكن لديه أية قدرة على السؤال أبدا ، فقد صار أجيرا ليهودى ذات يوم ، وعندما سئل لماذا فعلت هذا ؟ ثار ، وانطلق لسانه كالسيف قائلا : لنقل الصخر من

قلل الجبال ، أحب إلى من منن الرجال ، يقول الناس لى فى الكسب عار ، فقلت العار فى ذل السؤال [٧٢] ، تدعمت أركان الشرع الأربعة دائما ، بسعى الحمومين والصهرين واجتهادهم [٧٣] .

خطاب إلى الروح(٥٧٧ : ٦٢٤)

ألا أيتهـا الروح المسكية انثرى أريجـك ، فـأنت نائبـة دار الخلافـة [٧٤] ، وقـد منحت الأمر الربانى ، ووهبت سرير الملك الروحانى [٧٥] ، العالمان معـا حفنـة تـراب ، وفضاء قدسى لدار ملكك الطاهر ، العالم بأسره منوط بـك كليـة ، والأرض والسماء يهيمان حولك ، أنت كائنة دائما وجائحة عنا ، بعيدة عن العـين ومتجليـة بهـا ، الخلد والسعير ويوم القيامة ، كلها علامـات علـى وجـودك ، أنـت ماثحـة المعرفـة للملائكـة بـالرمز ، وواصفة الخلق بمئات الصور ، أنت مثل مائة شمس ، إن أشرقت ، أضاءت كل ذرة منك مائة شمس ، لأن نور شمسك فى تزايد ، لك عرش مجيد من ذراتـك ، أنـت رفيقـة خاصة للقيوم دائما ، بماذا أتحدث ، فأنت معروفة دوما ، أنت طـائر عجيـب لا أعلـم كنهـك ، فأنت بعيدة عن نطاق فهمنا ، إنك لست فى السماء ولا فى الأرض ، فـأين أنـت ؟ إنـك عند رب العالمين ، إنك كل شئ ، ولا شئ أيضا ، مـاذا أقـول ، فـأنت واضحـة ومبهمـة أيضا ، أخرجى من القلب نفسا مسـكيا بإخلاص ، فـالعرش صـار مـن أنفاسـك مجمـرا خاصا .

أنت ملك وخليفة خالد، لك ستة أولاد كل منهم فريد فى صفاته ، فكل ولد من أولادك ميمون الطالع ، وكل واحد منهم عظيم فى فنه ، واحد نفس مكانـه الماديـات ، وواحـد شيطان ينحو رأيه إلى الخرافات ، وواحد عقل ينـاقش المعقـولات ، وواحـد علـم يتلمس طريقه إلى المعلومات ، وواحد فقر يطلب الأشياء الوهمية ، وواحـد توحيـد يبحـث عـن الذات الإلهية .

وعندما يسلك هؤلاء الستة الطريق بناء على الأمر ، يكتسبون آنـذاك الحضـور الخـالد ، ولأنك خليفة خالد إلى الأبد ، فالعالم مفعم بلطائفك ، فارتدى زى الخلافة الأسود مثـل آدم [٧٦] ، وسافرى داخل أعماقك مثل العالم ، اخطى مثل الخضر فـى طريـق الرجـال ، حتى لا يدركـك الفلـك الـدوار ، مكـانك سـفينة نوح[٧٧] أيتهـا الصـابر ، وزمـانك

والضحى [٧٨] وليلة القدر [٧٩] ، اتكئ على المسند مثل سليمان ، ولكن وأنت واضعة الخاتم فى إصبعك ، كونى صورة من جمال يوسف ، وسبعة أعضاء مبصرة مثل إبراهيم، لاطفى هذه السماء مثل النبى داود ، وتنفسى مثل عيسى فى العشق وائتنسى به، ولصداقتك بموسى بن عمران ، تجرعى ماء الحياة من كأس الروح ، حلقى بجناحيك فى ظل العنقاء ، واجلسى إلى إدريس اصنعى الكيمياء ، فإذا ما قمت بجهد وجد لا حصر لهما ، تجدين المدد من روح المصطفى.

عندما يتم لك هذا الكمال فى الدين ، يكون الكلام حلالا لك الآن ، لا تنظرى إلى الكلام بعين العقل فلايخلو العالمان من كن مطلقاً [٨٠] ، أساس العالمين ليس سوى الكلام ، فقد صار الوجود من كن ولم يظهر من لاتكن أنزل الكلام من الحق تعالى ، وأرسل إلى فخر الإنبياء لو أن موسى كليم الزمان ، فكليمه هو كلام الله ولو لم يكن عيسى كلمة الحق ، ماكان ليظهر من عزة الروح المطلق ، محمد (ص) أيضاً كان هو المقصود بـ" كن" ، وكان سلطان ليلة المعراج بكلام الله .

الكلام أساس العالمين فى كل شىء كبيراً أو صغيراً ، فى الزواج والطلاق والبيع أيضاً عند عرض ذرية العشاق ، كان الكلام هو أصل العهد والميثاق [٨١] ، فكل ما كان مرئياً أو مسموعاً ، أو مطعوماً أو ممنوعاً إن لمسته أو شممته ، أو عقلته أو وهمته و إن كان فكراً أو خيالاً ، أو شيئاً ممكناً أم محالاً فكله محدود سوى كلام الله ، الذى صدر عنه اللوح المحفوظ و إن وجد أو لم يوجد فهو كالشمع بين أصابع الكلام و لكل قسم منه ذوق واشارات ، يمكن التعبير عنها بطرق شتى وقد ثبت للعقل من هذه البراهين أن الكلام هو أساس كل الأشياء ، الآن وقد اتضح ذلك تحدثى أنت واسألى واستقصى وابحثى .

بداية القصة والمقالة الأولى (٦٢٥ : ٩٥٨)

الولد الأول(٦٢٥ : ٩٥٨)

حكى شخص محنك ووحيد وصاحب وجد ومجذوب عن شخص قوله : إنه فى سالف العصر والأوان كان لأحد الخلفاء ستة أبناء كانوا جميعاً أصحاب همة عالية ، ويتميزون بالطاعة الكاملة ، وفى كل علم عرف فى ذلك الزمان ، كانوا جميعاً لانظير لهم فيه بين

الأنام ولأن كل واحد منهم كان عالماً ماهراً ، نادراً ماظهر لهم أشباه فى العالمين .

جمعهم والدهم ذات يوم قائلاً : كل واحد منكم متمكن فى العلوم السائدة ، أنتم أبناء خليفة وملوك ، فماذا تتمنون من الحياة إن كانت لكم مائة أمنية أو واحدة ، فليقل كل منكم ماهى وعندما أعلم رغبة كل منكم ، أحقق له مايتمناه ويرضاه .

فأباح الولد الأول بسره قائلاً : نقلاً عن الأكابر العظماء يوجد لملك الجان بنت بكر ، لا يمكن أن يوجد لها مثيل جمالها وعقلها بلسمان للروح ، فهى مظهر لجمال الأرضى وصورة لحسن السماء إن تنحق لى هذه الرغبة ، تكفينى حتى يوم القيامة فمن يفز بمثل هذه الفاتنة ، كيف يبحث عن كمال بعد ذلك ومن يتمتع بوصال الشمس ، كيف يأمل فى قرب ذرة ؟ هذا هو مرادى وإن لم يتحقق لى ، فلن يكون لى دين سوى الجنون .

إجابة الأب (٦٤٣ : ٦٤٧)

قال له أبوه : ويل لك ياعابد الشهوة ، إنك ثمل من عبادتك لها ، إن قلب الرجل عندما تأسره الشهوة ، تسلبه وجوده كله ولكن كل من يتمنع بالرجولة والشهامة ، عليه أن يبتعد عن هذه الشهوة تماماً ، مثل تلك الزوجة التى قمعت الشهوة ، فتفوقت على رجال حضرة البارى .

المرأة الزاهدة (٦٤٨ : ٩٥٨)

كانت امرأة ذات حسن وجمال ، الليل والنهار مثالان لوجهها وغدائرها الحسان ، كان حسنها وبهاؤها لاحد لهما ، وكان الصلاح والزهد قرينين بهما ، ذاع صيت جمالها فى العالم قاطبة ، فهى ذات ملاحة وفتنة طاغية ، فى كل شعرة من جدائل تلك الدمية ، ثنايا تزيد عن الخمسين وتقل عن الستين ثنية ، عيناها وحاجباها مثل الصاد والنون ، ودليلها هو النون ، كانت إذا مافتحت فمها الناثر للعقيق ، تقتل العصاة بماء الخضر العتيد ، شفتها الضاحكة مثل الصدف ، ولؤلؤها هو أسنانها ، ولأن لؤلؤها تحت شفتها الضاحكة ، كان الدرر المكنون يظهر فى أسنانها ، وكان طابع حسنها مثل تفاحة من الفضة ، ونصيب الناس منها هو الابتلاء ، كان الفلك من رسم وجهها ، حائراً بائساً مثل عشاقها ، الأشخاص الذين كانوا ينثرون الدر بأقوالهم ، كانوا

يطلقون عليها "مرحومة" ، كانت امرأة اعتبرها دوران الفلك الدائر ، فى عداد الرجال الأقوياء .

وحدث أن توجه زوجها فجأة ، فى طريقه إلى الحج ، وكان لزوجها أخ أصغر ، لكنه كان وضيعاً ، أوصاه أخوه من أجل عياله ، وطلب منه أن يشرف على أمواله ، وبعد أن أفضى إليه بهذا القول ، ورضى أخوه بالأمر ، نفذ ما أوصاه به ، فكان يراعى الزوجة ويعتنى بها ، وأوقف نفسه على خدمتها ليل نهار ، فكانت تطلب منه كل ساعة أمراً مختلفاً ، حتى كان يوم ذهب إلى تلك المرأة ، فبدا وجهها الفاتن من خلف الحجاب .

ففقد قلبه وانقلب حاله ، اخطأت ماذا أقول ؟ لقد ذاب دماً ، هكذا وقع فى شباك تلك المعشوقة ، وأصبحت لحظة واحدة معها تساوى مائة عمر ، كثيراً ما حاول أن يحكم عقله ، لكن عشقه كان يزداد فى كل لحظة ، ولأن أمره لم يستقم إلا بوصال الزوجة ، فإنه لم يهدأ هنيهة ، وعندما تغلب العشق وتراجع العقل ، سرعان ما فاتح المرأة فى الأمر أغراها بريق الذهب وقوة التضرع ، فطردته المرأة من أمامها بتمنع ، وقالت له : ألا تخجل من الله ، أهكذا تراعى شرف أخيك وحماه ، أهذا هو دينك وديانتك ، وهكذا تراعى الأمانة لأخيك وملتك ، أذهب وتب وعد إلى الله ، وابتعد عن هذا الخاطر المشين ، قال لها : لا فائدة من إبعادى ، فيجب أن تسرعى فى إسعادى ، وإلا فإنى لن أقيم لك وزناً ، وأفضحك وأهون من شأنك ، والآن أيضاً سوف ألقى بك إلى الهلاك وأفضى بك إلى أمر مخيف فتاك ، قالت له المرأة : لست أخشى انتقامك ، فهلاك الدنيا أفضل من بلائك .

ربما خاف ذلك الرجل الحقير ، أن تتحدث الزوجة لأخيه بالأمر المشين ، فذهب ذلك الشؤم ليدفع التهمة عن نفسه ، واستأجر فى الحال أربعة شهود لشخصه ، فشهد هؤلاء الشؤم ، بأن المرأة قد ارتكبت الزنا والفحش ، عندما صدق القاضى دعواه ، حكم برجمها فى الحال ، حملوها إلى الصحراء على قارعة الطريق ، وأطلقوا عليها الحجارة من كل صوب ودرب ، عندما تطايرت الحجارة المتلاحقة على المرأة ، واعتقدوا أن روحها قد فاضت ، تركوها هناك على ذلك النحو ، ليعتبر أهل العالم .

ظلت المرأة المسكينة فى الصحراء ، مضرجة فى دمائها وسط التراب ، وعندما انقضى

الليل وبزغ النهار ، بدأت المرأة تفيق مع طلوع الصباح ، وأخذت تنوح بذل ومسكنة ، فكانت تملأ الزعفران بندى عينيها ، وكان أعرابى قادم فى الطريق صباح ذلك اليوم ، يعتلى جملا ، فسمع ذلك النواح فاضطرب ، ونزل عن الجمل ، وتقدم من المرأة ، وسألها قائلا : أيتها المرأة من أنت ؟ إنك تشبهين الموتى وأنت على قيد الحياة ، قالت له المرأة : إننى مريضة وبائسة ، قال الأعرابى : يمكننى العناية بك ، أجلسها فوق الجمل ومضى بها مسرعا ، وشد الرحال صوب خيمته ، تعهدها كثيراً أناء الليل وأطراف النهار ، حتى استردت تلك الفاتنة صحتها ، ومالبث أن بدأ حبها يحيك فى صدره ، وبدأ حديث الحب والوفاق يراود فكره وعقله ، فقد ازدهر جلنار وجهها ، وتموج زنار شعرها فوق رأسها ، وبدأ لعل وجهها ينبت من بين الحجر الصلد بعد رجمها بالحجارة ، وعندما شاهد الأعرابى جمالها على هذا النحو ، افتداها بروحه ، صار متدلها بعشق وجهها ، وأصبح ثوبه كفنا على جسده من تباريح عشقها ، قال للمرأة : لتصبحى زوجتى شرعاً ، وتسعدى الناس بوصالى جهراً ، قالت له المرأة : إن لى زوجاً ، فكيف يصير لى زوج آخر .

وعندمـا بلغ به الحب كـل مبلغ ، راود الزوجة عن نفسها ، فقالت له المرأة : أيها المنحرف عن جادة الدين ألا تخشى غضب العادل وقهره ، لقد عنيت بى من أجل الحق ، والآن اتبعت الشيطان ، ولأنك فعلت خيراً فلا تفسده ، ولاتنفذ الخلل إلى كعبة الإيمان وتزلزله ، لأننى لم ألب مثل هذا الطلب ، عانيت كثيراً من البلاء ورجمت بالحجارة ، والآن أنت أيضاً تدعونى إلى هذا الأمر ، ولاتعلم أننى طاهرة تقية الصدر ، إن مزقتنى إربا إربا ، لن يجد الفساد إلى جسدى الطاهر سبيلا ولا مأوى ، فامض ولاتشتر بالشهوة التى تدعو لها ، عذابا أبديا لروحك ، ومن صدق تلك المرأة التقية ، اتخذها الأعرابى أختاً له فى الله ، وندم على ذلك التفكير ، وعلى اتباع أمر الشيطان اللعين .

وكان للأعرابى غلام أسود ، حضر إليهم فجأة ، وعندما شاهد وجه المرأة منحها قلبه ، وسلبه عشقها قلبه وروحه ، وتمنى قلبه وصال المرأة ، ولكن لم يتيسر له تحقيق مناه ، قال للمرأة : أنا ليل وأنت تشبهين القمر ، فلماذا لاتودين أن تحققى وصالى ؟ ، قالت له المرأة : هذا لن يتحقق لك أبداً ، فكثيراً ما طلب منى سيدك هذا ، ولأن وصالى لم يتحقق لقمرى الوجه ، فكيف يتحقق لك ياأسود الوجه ؟ قال لها الغلام : حققى لى

الوصال ، حتى تفوزى منى بالحرية والخلاص ، وإلا فسوف أدبر حيلة بمهارة ، بحيث أطردك من هنا بحقارة ، قالت له المرأة : افعل ما تريد فلا شيء يهم ، ولن أهتم وإن كان نصيبى هو الهلاك والهم ، غضب منها الغلام للغاية ، ولم يهدأ له بال من عشقها ، نهض الغلام ذات ليلة وقلبه مفعم بالحقد ، وكان لزوجة سيده طفل جميل غض ، فقتل الطفل فى المهد ، ثم حمل السكين الملطخة بالدماء والذنب ، وأخفاها تحت وسادة المرأة ، لتبدو قاسية قاتلة.

وفى وقت السحر استيقظت أم القتيل المسكين ، من أجل إرضاع الطفل الصغير ، فشاهدت الطفل المقتول ، وأطلقت صرخة من القلب المكلوم ، وأطبق الصراخ والعويل الدنيا ، وقطعت الأم شعرها وربطت وسطها ، وبحثوا عمن يكون قد فعل ذلك الأمر ، وقضى على مثل ذلك الغض ، وتحت وسادة المرأة التقية ، خرج السكين المضرج فى الدماء برهانا جليا ، فقال الجميع : المرأة هى التى ارتكبت هذا الأمر ، وهذه الفاجرة هى التى غدرت به ، وأخذ الغلام ووالدة الطفل يضربون المرأة ، إلى حد لا يمكن ذكره ، وتقدم الأعرابى وقال : أيتها المرأة بماذا أسأت إليك ؟ لتقتلى طفلاً كالقمر ، ألا تخشين دم البريء !؟ قالت المرأة : ياأخى ، لقد منحك الله خالق العالم العقل ، حتى تعمل العقل وتمعن الفكر ، وتستفيد من وجوده ، انظر بعين العقل أيها التقى ، تجد أنك أحسنت إلى كثيراً ، واتخذتنى أختاً فى الله ، وأنعمت على بالكثير ، فهل تعتقد أن يكون هذا هو جزاؤك !؟ فكر تجدنى بريئة من هذا القتل .

ولأن الأعرابى كان حكيماً مفوهاً ، فقد صدق كلام المرأة ، وأيقن أن تلك المرأة بريئة ، لكن إقامتها هناك جريرة ، فقال للمرأة : بعد أن وقعت هذه الأمور ، تضايقت منك الصدور ، ولأن زوجتى تتهمك ، فسوف تتذكر ابنها كل لحظة بمشاهدة وجهك ، فيتجدد حزنها على الدوام ، وتعظم المصيبة ويعم البلاء ، وتسيء لك القول ولا تحسنه ، وإن أعززتك أنا فلن تفعل مثلى ، فيجب أن تنصرفى من هنا ، وأعطاها فورا ثلاثمائة درهم سراً قائلاً : لتنفقى من هذه أثناء الطريق ، فأخذت المرأة الدراهم ومضت .

وما أن سارت تلك البائسة وحيدة ، حتى تراءت لها قرية من بعيد ، ورأت مشنقة معدة على جانب الطريق ، وقد تجمع حولها الناس من كل حدب وصوب ، ويقف شاب

بقلب دام وكبد محترم ، كانوا يعدون لشنقه فى ذلك اليوم ، فسألت المرأة أحد الرجال : من يكون ؟ أخبرنى ما هى جريمته ؟ قال لها : هذه قرية تابعة لأمير ، لانظير له فى الظلم والجور ، وجرت العادة هنا أيتها العاقلة ، أن كل من يعجز عن أداء الخراج ، يسوقه هذا الظالم إلى المشنقة ، وسوف يقتل هذا الآن فوقها ، سألت المرأة : ما مقدار الخراج الواجب عليه ؟ وكم مطلوب منه الآن ؟ ، قالوا لها : مانعرفه أنه فى كل عام ، يستحق عليه ثلاثمائة درهم بالتمام والكمال ، قالت المرأة فى نفسها العطوفة ، فلتنقذى روحه الآن ، لأنك نجوت من الرجم ومن الموت ، فلتنجيه الآن من المشنقة ، فقالت لهم : لو دفعت أنا هذا المال ، أتبيعونه لى ؟ قالوا فى الحال ، فأسرعت بإعطائهم الثلاثمائة درهم ، حتى يتخلص الشاب من محنته ويتحرر .

وبعد أن دفعت المرأة النقود انطلقت على الفور ، وانطلق فى إثرها الشاب مثل السهم ، وما أن وقع بصره على وجه المرأة ، حتى كادت روحه تفيض من العشق وارتفع أنينه حتى السماء ، سلب قراره وكان يصيح قائلاً : لماذا حررتنى من المشنقة ، لو كنت فقدت حياتى فوق المشنقة فجأة ، لما بليت بعشق تلك القمرية قط ، تحدث مع المرأة كثيراً دون فائدة ، لم تكن المرأة ناراً فكيف يصل إلى دخانها ؟ تكلم إلى المرأة كثيراً وتضرع لها ، ولم يجن من ذلك إلا الخجل والمهانة ، قالت له المرأة : أتكون رعايتى لك هكذا ! فعلت ذلك إلا فهل يكون جزائى على هذا النحو ؟ قال لها الشاب : سلبت قلبى وروحى ، فكيف أطيق فراقك لحظة ، قالت المرأة : وإن لم تبتعد عنى ، فلن يتحقق لك أبداً وصالى ، سارا طويلاً وتحدثا وتناقشا ، حتى انتهى بهما المطاف إلى البحر ، حيث ترسو سفينة على الشاطىء محملة بالبضائع والتجار ، وعندما يأس الشاب من المرأة نادى على أحد التجار وهو يقول ، لى جارية تشبه القمر ، ليس بها عيب سوى التمنع : لم أر أحدا فى عصيانها ، وإلى متى أتحمل هجرانها ، ولو أنه لا يوجد لها مثيل ، فأنا لا أتحمل طبعها الرذيل ، سعيت كثيرا فإلى متى ؟ والآن أردت أن أبيعها .

قالت المرأة للتاجر حذار ، لا تشترينى منه أبدا ، فلى زوج وأنا حرة ، وأنا أستغيث بك من أجله ، لم يصغ التاجر إلى حديثها ، وأعطاه مائة دينار ثمنا لها أدخلوها السفينة بصعوبة بالغة ، وتحركوا من هناك بالسفينة فى الحال عندما شاهد المشترى ذلك القد

ورأى الوجه الفتان تدله فى عشقها فى الحال .

وبينما تتقاذفهم أمواج البحر فتن قلبه وتغلبت عليه الشهوة ، فهم بالمرأة فسقطت صائحة : أيها الناس أغيثوني ، الغوث ، إنكم مسلمون وأنا مسلمة ومؤمنون وأنا مؤمنة ، إننى حرة وزوجى على قيد الحياة والله شاهد على صدقى الآن ، لكم أمهات وأخوات أيضا ولكم كذلك بنات أبكار ، لو أن شخصاً أراد بهن مثل هذا السوء لاضطرب حالكم دون شك ، إذا لم ترضوا عن هذا الأمر فلماذا ترضونه لعاجزة مثلى !؟ إننى غريبة وسيدة فقيرة وذليلة ضعيفة وعاجزة بائسة ومسكينة ، فلا ترهقوا هذه الروح المحترقة أكثر من هذا فلليوم غد منتظر .

ولأن تلك المرأة كانت طيبة القلب حسنة الكلام فقد احترق قلب أهل السفينة عليها ، واتفق أهل السفينة جميعاً ، وراعوا المرأة ورقوا لحالها ، لكن كل شخص كان يرى وجهها ، كان يتمنى عشقها بمائة قلب ، حتى صار أهل السفينة مرة واحدة ، عاشقين ولهانين لها ، تحدثوا عنها كثيراً مع بعضهم البعض ، وأخفوا عنها ذلك العشق طويلاً ، ولأن كل قلب كان مفعماً بالشوق إليها ، فقد عقدوا جميعاً اتفاقا ، بأن يقبضوا على المرأة فجأة ، ةوأن ينالوها جميعاً عنوة ، عندما علمت المرأة بأمر هؤلاء الأشرار ، امتلأ البحر بدماء كبدها ، وتحدثت قائلة : ياعالم الأسرار ، احفظنى من شر هؤلاء الأشرار ، ليس لى فى العالمين أحد سواك ، فانزع عن رؤوسهم هذا الهوس ، إن كنت ستميتنى ذات يوم ، فالموت أفضل من هذه الحياة ، خلصنى أو أمتنى اليوم ، فلاطاقة لى فى هذا الاحتراق ، ومهما عذبتنى ، لن تجد منى تبديلاً ، عندما قالت ذلك غابت عن الوعى ، وتلاطم عباب البحر بسببها ، اشتعلت النيران من تلك المياه المحترقة ، فأضاءت البحر ، وفى لحظة انقلب أهل السفينة ، دفعة واحدة بين النيران ، وصاروا جميعاً رماداً فى الحال ، ولم يبق عنهم جميعاً إلا المال ، وهبت ريح عاتية ، أوصلت السفينة إلى إحدى المدن .

ألقت المرأة الرماد من السفينة ، وصنعت لنفسها ثوباً مثل أثواب الرجال ، حتى تتخلص من العشق ، وتصبح قوية الشكيمة كالرجال ، تجمع كثير من أهل المدينة ، فرأوا غلاماً مثل القمر ، جالس فى تلك السفينة ومعه أموال طائلة ، فسألوا الشمسى الوجه عن حاله قائلين : هل جئت بكل هذه الأموال بمفردك ، قال لهم : إذا لم يحضر الملك لدى،

فلن أروى قصتى لأى شخص ، فأخبروا الملك بأمره قائلين : وصل اليوم غلام فاتن فى الحقيقة ، أحضر بمفرده سفينة مملوءة بالأموال ، ولايبوح بسره ، وهو يريدك لكى يشرح لك حاله ، ويقص عليك قصة السفينة وأمواله ، تعجب الملك وتوجه إليه ، وجاء إلى قمر زمانه .

سألـه الملك اللبيب عن أمره ، فقال : كان عددنا كبيراً ، جلسنا فى السفينة وقطعنا طريقاً طويلاً ، وطوينا الليل والنهار ، وعندما رآنى أهل السفينة ، استبدت بهم الشهوة ، فمالوا إلى عشقى ، فرجوت الحق أن ينجينى ، فحقق لى رجائى ، ودفع عنى شر زمرة الأشرار ، اشتعلت النيران وأحرقت الجميع ، ونجانى الله وأنقذ روحى ، انظر فهذا علامة على ماحدث ، اختفى الناس وبقى الرماد ، ولقد اعتبرت مما حدث ، ألا اهتم بأموال الدنيا ، فخذ هذا المال الطائل ، ولكن لى عندك طلب واحد ، أن تقيم لى اليوم على شاطىء البحر ، معبداً مهيباً للعبادة ، وأن تقول للصالح والطالح ، ألا يكون لأحد شأن بى ، أقبع هنا مابقى لى من عمر ، وأعبد الله آناء الليل وأطراف النهار بصدق ، عندما سمع الملك والجند حديثه ، ظهرت لهم كراماته ومقاماته ، فأيقنوا جميعاً ، بضرورة تنفيذ طلبه فورا وأقاموا له معبداً ، يماثل الكعبة فى بنائه ، دخلته المرأة وانشغلت بطاعة الله ، وقضت عمرها قانعة بالحياة ، وعندما اقتربت منية الملك ، استدعى الوزراء والجند ، وقال لهم : أرى أنه من الصواب ، أنه عندما أودع الحياة ، يكون هذا الشاب الزاهد عندئذ ملكا عليكم وقائدا من بعدى ، وحتى تستقر أحوال الرعية بحكمه ، نفذوا أيها القوم هذه الوصية ، قال هذا ثم فاضت روحه الطاهرة ، وورى جسده تحت التراب .

اتفق كل الوزراء ، واجتمع الرعايا والأمراء ، وتوجهوا إلى الشاب واطلعوه على السر ، وباحوا له بوصية ملكهم وبالأمر ، قالوا له : أى أمر تريده ، تستطيعه لأن الملك قد تحقق لك جميعه ، لاشك أن المرأة لم ترغب فى ذلك الأمر فقالت : كيف يمكن للزاهد أن يصير ملكاً ؟ قالوا : لتكن أنت أيها الزاهد ، فاخترالملك ولاتتذرع بالحجج ، قالت لهم المرأة عندما أعيتها الحيلة ، يلزمنى زوجة جميلة كالقمر ، حتى تكون شريكتى فى الحلال ، لأننى أعانى من الملل بسبب الوحدة ، قال العظماء : أيها الملك ، اطلب فتاة من أى واحد منا ، قالت المرأة : أرسلوا لى مائة فتاة ، ولكن أرسلوهن جميعاً بصحبة أمهاتهن ،

حتى أشاهد كل واحدة منهن ، وأختار من أريد من بينهن .

وفى اليوم نفسه أرسل العظماء برغبة تامة ، مائة فتاة فاتنة ، ذهبن جميعا مع أمهاتهن ، وهن يتوارين من خجلهن ، وبينما الجميع ينتظرن اللحظة التى يحدد فيها الملك ، من التى يريدها أو يتمناها ، كشفت لهن المرأة عن نفسها قائلة : كيف يليق الملك لامرأة ؟ اروا هذا الكلام لأزواجكن ، وخلصونى من هذا العبء الثقيل ، توجهت النساء إلى الطريق حائرات ، وأخبرن كبار القوم بالأمر المراد ، كل شخص كان يسمع بالأمر كبيرا وصغيرا ، كان يتعجب من أمر المرأة كثيرا ، أرسلوا لها امرأة مرة أخرى قائلة : لأنك الخليفة والعظيمة ، فعينى ملكا علينا ، وإلا فاحكمى مثل الرجال ، فاختارت واحدا وافق عليه الجميع ، ثم انشغلت بأمرها ، تنازلت عن الملك برغبتها ، ولم تحرك ساكنا من أجله.

وأنت يا بنى من أجل الخبز ، تطوف الآفاق ، لم تتحرك امرأة من أجل الملك ، فابحث عن مثيل لها بين الرجال ، طبقت شهرة المرأة الآفاق ، وعلا نجمها ، لم يكن لها مثيل فى إجابة دعوتها ، امرأة ليس لها قدرة الرجال ، كثير من المقعدين استعادوا بدعوانها ، القدرة على المشى وتحركت أقدامهم ، ذاع صيتها فى العالم، ولم يعلم أحد حقيقتها .

عندما عاد زوجها من الحج ، لم يجد لها أثرا ، وألف القرية خربة ، ووجد أخاه قد صار ضريرا بائسا ، لا تتحرك له يد ولا قدم ، فقد أصبح مقعدا كسيحا ، استولى عليه ذنب المرأة ليل نهار ، وأرقه عذاب الجحيم والنار ، كانت روحه حينا تحترق من حق أخيه عليه ، وحينا تلتهب من دائه الذى لا دواء له ، سأله أخوه عن أمر المرأة ، فتحدث أمامه قائلا : لقد زنت المرأة مع زنجى ، وشهد قوم - ويا للعجب - على الذنب ، وعندما سمع القاضى منهم هذا الكلام ، حكم برجمها فى التو والحال ، فرجموها عندئذ بذلة ، فاهتم بنفسك فقد أفضى الأمر بها إلى الهلاك .

عندما سمع الرجل المكلوم هذا الكلام : تألم جدا من فسادها وموتها بامتهان ، فأخذ يبكى ويلطم نفسه ، واعتزل الناس وحزن ونال من جسده ، ولكن عندما لاحظ أخاه على هذا النحو من الذلة والضعف ، لم يجد مفرا من الحديث والبحث ، فقال له : أيها المقعد ، سمعت أنه الآن فى المكان الفلانى ، توجد امرأة مشهورة مثل الشمس ، دعاؤها مستجاب عند الحق ، أبصر كثير من العميان بدعائها ، واستعاد كثير من

المقعدين قدرتهم على السير ، إن أردت أن أحملك إلى هناك ، ربما أعادتك تلك المرأة إلى السير ، سعد قلب الرجل فقال له : أسرع ، لقد ساءت حالتي ، وربما أدركنا النجاة ، وكان لذلك الرجل الطيب حمار ، فثبته فوقه وتوجه به .

وذات ليلة وصلا بالصدفة إلى طريق ، يوجد فيه الأعرابي ، ولأن الأعرابي كريما ، فقد استضافهما في تلك الليلة ، تحدث إليهما الأعرابي قائلا : إلى أين تتجهان ؟ قال الحاج : لقد سمعت أنه في المكان الفلاني ، توجد امرأة زاهدة تدعو الله ، وأن كثيرا من العميان والمبتلين ، نجوا بتعويذها ودعائها الكريم ، وأخي هذا مريض ، ابتلي بالشلل والعمى أيضا ، احمله إلى تلك المرأة ، ربما استطاع السير ثانية ورد إليه بصره ، قال الأعرابي عندئذ : منذ مدة جاءت امرأة تقية إلى هنا ، واتهمها غلامي زورا ، فأصيب بذنبها بالشلل والعمى ، سأحضره الآن معكم ، ربما شفي بفضل الدعاء أيضا .

ساروا وقطعوا منازل عديدة ، ووصلوا إلى تلك القرية البعيدة ، حيث كانوا يعدون المشنقة للشاب ، واختاروا هناك وثاقا ، وثاقا يليق بتلك القافلة ، وكان مِلكا للشاب الظالم ، وكان الشاب ـ يا للعجب ـ قد أصبح مقعدا ، لا يرى ولا يتحرك ، قالوا لبعضهم البعض : حاله مثل حالنا ، فلنا نفس البلاء ، وقد ابتلينا بنفس الداء ، لذا أصبح هذا المكان مناسبا لنا ، وكان للشاب أم على قيد الحياة ، عندما شاهدت هذين المقعدين ، سألت عن عاهاتهما ، فقصوا عليها القصة في الحال ، بكت الأم طويلاً قائلة :أنا أيضاً لي ولد مثل هذين الشخصين ، سوف آتي معكم و نهضت ، و أحكمت وضع ابنها فوق الدابة .

سار الثلاثة معا في الطريق ، حتى وصلوا عند المرأة وقت السحر ، وعندما بزغ الصباح وقت السحر ، وخرجت المرأة الزاهدة من الخلوة ، شاهدت زوجها من بعيد ، فسجدت لله من فرط سرورها ، و بكت المرأة طويلاً و هي تقول :كيف أستطيع الآن أن أخرج من الخجل ؟ ماذا أفعل أو ماذا أقول لزوجي ؟ فأنا لا أستطيع أن أظهر له وجهي ، وعندما لمحت الأشخاص الثلاثة يتقدمون من بعيد ، أدركت انهم أعداؤها الثلاثة ، قالت في سريرتها : يكفيني أن زوجي قد أحضر معه الشهود و اصطحبهم ، هؤلاء الثلاثة المذنبين ، أيديهم و أرجلهم تشهد عليهم ، عندما أقابل الثلاثة ماذا أفعل ، ماذا أقول يا

إلهي و شهادتهم تكفيني تقدمت المرأة و ألقت نظرة على زوجها و لكن بعد أن وضعت برقعاً على وجهها .

قالت لزوجها :قل ماذا تريد ؟فأجابها ذلك الرجل الصالح التقي ، لقد جئت إلى هنا من أجل الدعاء ، فعندي مبتلى بالعمى و الشلل ، قالت له المرأة :هذا الرجل مذنب ، لو أقر بذنبه ، سوف ينجو من هذا الداء العضال ، و إلا سيبقى أعمى و مبتلى إلى ما شاء الجبار ، فسأل الحاج أخاه قائلاً : لأنك عاجز و مضطر ، أقر بذنبك حتى تنجو و تبرأ ، و إلا سوف تظل قريناً للبلاء ، قال أخوه آلام وداء مائة عام ، أفضل عندي من البوح بهذا الأمر .

تجادلا طويلاً و في النهاية ، أقر بما حدث من البداية الى النهاية بخجل ثم قال : لقد تحدثت عن جرمي و أنا منتظر ، إذا أردت فاقتلني الآن ، و إن أردت فاعف عني ، عندما فكر أخوه برهة ، و مع أن ما حدث كان شديد الوقع عليه ، قال في سريرته : ربما أكون قد فقدت زوجتي فلأنقذ أخي الفاسد الآن ، وعفا عنه فدعت له المرأة ، و شفي من بلائه في ساعة واحدة ، عادت إليه القدرة على السير و استطاع الحركة ، ورد له بصره .

عندئذ طلبت من غلام الأعرابي قائلة :افصح عن ذنبك ، قال لها الغلام :لو قتلتني لا أستطيع البوح بجريمتي ، فقال له الأعرابي : افصح فأنت اليوم آمن مني ، لقد عفوت عنك الى الأبد ، فلماذا تخاف و بما تتحجج ؟ فباح بالسر قائلاً : لقد قتلت طفلك في المهد ، لم يكن للمرأة ذنب في هذه الجريمة ، و لقد ابتليت بسبب فعلي الشؤم ، عندما أيقنت المرأة بصدقة ، دعت الله في الحال فتحقق له الإبصار و كل ما يريده ، تقدمت العجوز بولدها ،فأقر بذنبه أيضاً ، و قال للمرأه : كانت هناك امراة أنقذتني ، و نجتني من المشنقة و حررتني ، اشترتني تلك المرأة و أنقذتني ، فبعتها ، دعت له المرأة فصار ذلك الشاب مبصراً في لحظة ، و إستعاد قدرته على السير أيضاً .

بعد ذلك طلبت من الجميع الخروج ، وطلبت من زوجها البقاء ، ثم رفعت النقاب عن وجهها أمامه ، فصدرت عنه صيحة بعد أن عرفها ، وغاب عن وعيه وعندما استعاد وعيه ، تقدمت منه المرأة الطيبة القلب ، وقالت له : ماذا حدث لك ؟ بحيث

صحـــت فجأة وسقطت ، قال لهـا : كـان لى زوجـة ، اعتقـدت الآن أنـك هى ، إنك تشبهينها تماما ، بحيث لا يمكن القول أن هناك فرقـا بينكمـا ، أنـت مثلهـا فـى الحديث والهيئة والطول والسير ، ولو لم تكن ووريت فى التراب ، لقلت أنك هى أيتها التقية .

قالت له المرأة : أبشر أيها الرجل ، فلم تـخطئ تلك المرأة ولم ترتكب الزنـا ، تلـك المرأة هى أنـا وقد سلكت طريق الدين ، ولم أُقتـل مـن الرجـم ولم أمـت نجـانى الله من بلاء شديد ، وألحقنى بفضله بهذه الزاوية والآن نشكر الله مائة مرة كل لحظة ، أن حقـق لنا هذا اللقاء سجد الرجل على الأرض ، وتحدث قـائلا : يـا صـاحب العـزة كيـف يتـأتى للسانى شكرك ، فلن يقوى قلبى ولا روحى على ذلك .

وخرج ونـادى رفاقه ، وقـص الحكايـة بخيرهـا وشـرها ، تلاقـت الصيحـات والآهـات ، وارتفعت حتى عنان السماء على كـل لسـان ، وخجـل الغـلام والأخ والشـاب ، لكنهـم سعدوا أيضا ، لأن المرأة أخجلتهـم فـى البدايـة ، ثـم منحتهـم المـال وتركتهـم وجعلـت زوجها ملكا ، ومنحت الوزارة للأعرابى ، وعندما أرست ذلك الأساس المفعم بالسعادة ، انشغلت هناك أيضا بالعبادة .

المقالـة الثانية (٩٥٩ـ١١٨٢)

قال له الولد : إن لم تكن الشهوة ، ولم تتحقق الخلوة بين الزوج والزوجـة ، مـا تعـاقبت الذرية فى العالم ، ولابقى نظام فى الكون بأسره ، ولو لم تكن هذه الحكمة وهذا النظام ، لما كان هناك ترتيب لبساط الملك ، نعم ، يجب أن يتناسل ألف شخص وشـخص ، حتـى تستقيم لقمة واحدة فى الفم ، وبحكمة مسخر الأمور فـى العـالم ، أجـاز هـذا الأمـر مـن الأرض حتى السماء ، خلق الأرض من دخان وسط الفلك ، وما كـان ليخلـق شـيئاً غـير جديـر بالوجود ، لو لم تعرف الشهوة ، لما وجدت أنا ولا أنت فى الدنيا ، إنـك تعيـب الشهوة على الرجال ، فأخبر قلبى بسر هذا الحال.

إجـابـة الأب (٩٦٨ : ٩٨٢)

قال له الأب : إياك أن تعتقد ، أننى أنكر الشهوة عليك تماماً ، ولكن لأنـك اخترتهـا مـن العالم دون سواها أجبتك علـى هـذا النحـو أيضاً ، أعلم أنه من بين مائة عالم للأسرار ،

لاتعلم أنت شيئاً إلا عن الشهوة ، لذلك أحدثك عنها فى الخلوة ، حتى تبتعد عنها خطوة ، وطالما يمكن الوصول إلى رفقة عيسى ، فمن يستهويه تقليد الحمار ؟ لماذا تشترك مع الحمار فى الشهوة ؟ بينما يمكنك الوجود مع عيسى فى الخلوة ، لأن هذه الشهوة ليست أكثر من لحظة واحدة ، فالأفضل منها خلوة أخرى خالدة ، ولأن السلوك يمنحك الخلود ، ابتعد عن اللذة الفانية أى عن الشهوة ، الخلوه الناتجة عن الشهوة ، ليست مرغوبة مطلقاً ، والشخص الذى لا يدرك هذا السر ناقص .

ولكن إذا ما تجاوزت الشهوة غايتها ، يتولد منها عشق لاحد له ، وعندما يفيض العشق ، تظهر المحبة وعندما تصل المحبة إلى حدها أيضاً ، تفنى روحك فى المحبوب ، فاترك الشهوة فهى ليست مرغوبة ، فأصل كل شىء يتعلق به القلب هو المحبوب . إن قتلت فى طريقه عاجزاً ، أفضل كثيراً من أن تصبح أسيراً للشهوة .

١ ـ قصة المرأة والأمير (٩٨٣ : ١٠٣٣)

كان لأحد الملوك أمير فضى الصدر ، وقع القمر فى الشرك من طرته ، ولم يكن أى شخص يرى وجه ذلك الأمير ، إلا ويتعلق قلبه بوجهه القمرى ، هكذا كان أعجوبة الآفاق ، فا لآفاق كلها عاشقة له ، وكان حاجباه ولهما شكل القوس ، حاجبين على باب سلطان الروح ، إذا ما نظرت عين إلى سهام أهدا به ، اختارت التضحية بقلبها فداء لمذهبه ، من كان يرى حاجبيه الآسرين ، ولا يضحى بقلبه فداء لذلك القوس ؟ ، تنتظم فى فمه ثلاثون جوهرة ، تأسرهم شفتاه الياقوتيتان الناضرتان ، كان عارضه مفتيا للعشاق ، فقد كان فى جماله مثل المحراب ، وقد هوت نونته برؤوس الرجال ، عندما ألقى بالكرة فى الميدان برجولة .

وحدث أن تدلهت امرأة فى عشق ذلك المعشوق ، ودمى قلبها واحترق ، ولأن هجره سلب تلك الحائرة وجودها ، وجعلها مسكينة ، فقد اتخذت مثل النار من الرماد مأوى لها ، وأخذت تنوح على ذلك القمرى طوال الليل ، وتريق دمها تارة وتتأوه تارة أخرى ، وإذا ما ذهب القمرى إلى الصحراء ذات يوم ، كانت المرأة المسكينة تتبعه فى الطريق ، وتجرى أمام جواده مثل الكرة ، وهى تسحب غدائرها كصولجانين ، وتتطلع من الخلف إلى وجه ذلك الفاتن ، وتنثر الدمع فى الطريق كالمطر ، وكانت تنال كثيراً من أذى الحراس ، ولانصيح أو تحتج ، وكان الناس يتجمعون ، لمشاهدة ظهور تلك المرأة أمام الرجال ، وقد احتار كل الرجال من أمرها ، وظلت المرأة المسكينة ضالة بائسة .

وفى النهاية عندما تجاوز هذا الأمر الحدود ، ضاق قلب الأمير بهذا العبء ، فقال لأبيه :حتام يظل هذا الاستجداء ؟، خلصنى من عار هذه المرأة ، عندئذ أمر الملك المعظم قائلاً : اسحبوا هذا الحصان إلى الميدان فوراً ، واربطوا شعر المرأة فى ساقيه وقودوا الجواد فى حركة دائرية سريعة ، حتى تتمزق تلك الشؤم إرباً إرباً ، وينتهى فعلها هذا من العالم ، ليسحبها الحصان فى الطريق مثل الفيل الثمل ، فلا يمكنها النظر إلى الأمير المترحل ، وذهب الملك والأمير إلى الميدان حيث تجمع هناك خلق كثيرون ، ودميت قلوب الجميع ألماً على المرأة ، فصار التراب دامياً مثل الجلنار .

وعندما ألقى بها الجند ، ليربطوا شعرها بساق الحصان ، سقطت المرأة أمام الملك حائرة ، ووقعت على الأرض متوسلة وقالت له : لأنك ستسحلنى أخيراً بذلة ، لى طلب واحد قد تنفذه لى ، قال لها الملك : لو كان طلبك هو ، أن أعفو عنك فهدفى هو القضاء عليك ، وإن قلت لا تسحلنى من غدائرى ، فلن أريق دمك إلا تحت أقدام الحصان ، وإن قلت أمهلنى لحظة ، فلا يمكن أن أمهلك لحظة ، وإن أردت بجالسة الأمير ، فلن ترى وجهه لحظة أيضاً ، قالت له المرأة : إننى لا أريد النجاة ، ولا أطلب الأمان للحظة أيضاً ، ولا أقول أيها الملك التقى ، لا تسحلنى تحت أقدام الحصان ، لى ياملك العالم لو أمكن طلب آخر بعيد عن هذه الرغبات الأربع ، وهو طلب خالد ، وكاف لى ، قال لها الملك : قولى ما هو ؟ إن تجاوزت عن هذه الطلبات الأربعة ، يتحقق لك ماتريدين .

قالت له المرأة : إن كنت تريد اليوم ، أن تسفك دمى تحت أقدام جواد بذلة ، فما أريده يا مولاى هو أن تقيد شعرى فى ساق جواد الأمير ، وعندما يقود الأمير جواده ليسفك دمى ، ويسحلنى ذليلة تحت حوافر جواده ، أصير قتيلة ذلك القمر ، وأظل حية دائماً فى هذا الطريق ، نعم إن أصبح قتيلة المعشوق ، أعل إلى العيوق بنور المعشوق ، إننى امرأة وأنت رجل ولا حيلة لى أمامك ، دمى قلبى وكأن روحى قد فارقتنى ، والآن حقق هذا المطلب اليسير لامرأة بائسة مثلى ، فرق قلب الملك من صدقها وحرقتها ، ماذا أقول فقد صار التراب طيناً بدمعها ، عفا عنها وأرسلها إلى إيوانه ، فوهب روحا جديدة إلى العاشقين ، فتعال أيها الرحل إن كنت رفيقنا ، وتعلم العشق الحقيقى من امرأة ، وإن كنت أقل من النساء فاخفض رأسك ، وإذا لم تكن أقل شأناً من المخنث فاستمع إلى هذه القصة .

٢ ـ قصة العلوى والعالم والمخنث (١٠٣٤ : ١٠٥٣)

كان علوى وعالم ومخنث ، يحملون البضائع المختلفة إلى بلاد الروم ، فقبض القراصنة على هؤلاء الثلاثة فجأة ، وقادوهم بذلة أمام أحد الأصنام حيث قال الكفار للثلاثة : يجب السجود للصنم ، وإلا أرقنا دماءكم جميعا ، ولن نمهلكم بل سنقضى عليكم الآن ، فقال الثلاثة للكفار ، يجب أن تمهلونا ليلة واحدة ، فيجب إمعان الفكر ليلة ، ربما اعتدنا عبادة الأوثان ، منح الثلاثة الأمان تلك الليلة ليعيد كل منهم حساباته . تحدث العلوى وقال : لا مفر ، يجب التمنطق بالزنار أمام الصنم ، فمن اليسير أن يشفع لى جدى يوم القيامة ، وتحدث العالم وقال : أنا أيضاً لا أستطيع التضحية بروحى وجسدى معاً ، إن سجدت للصنم ، ينهض لى شفيع من علمى الدينى ، وقال المخنث : إننى ضال حائر سوف أظل بلا عون وشفاعة ، لكما شفيع وليس لى ، فلا يليق بى هذا السجود ، إن قطعوا رأسى مثل الشمع فأى خوف لن أسجد لصنم ففى هذا هلاكى فلن أسجد أمام صنم ولو فصلوا رأسى عن جسدى دون اكتراث .

بينما هانت روح الاثنين ظهر المخنث رجلا فى الموقف نفسه ، أمر عجيب ففى وقت المحنة استحق المخنث المدح لرجولته ، إن أشباه قارون لا يتضح لهم هذا الطريق بينما الشجعان يتوسلون بالنمل ، إن كنت أقل من المخنث فى عشق المحبوب فلست أقل من نمله فى هذا السبيل.

٣ ـ قصة سليمان مع نملة (١٠٥٤ : ١٠٧٣)

مر سليمان مع ماله من مكانة عظيمة ، على مجموعة من النمل ، كانت قد تقدمت كلها للعمل ، حيث خرج فى لحظة آلاف مؤلفة منها ، وكان من بينهم نملة تؤدى عملها باجتهاد منقطع النظير ، وتعمل فى تل من التراب أمام منزلها ، كانت تحمل التراب ذرة ذرة ، مثل الريح حتى تنتهى من التل ، فناداها سليمان وقال : أيتها النملة ، إننى أراك ضعيفة لا حيلة لك ، إذا تحقق لك عمر نوح وصبر أيوب ، لما انتهى عملك ، لا يتأتى لأحد له مثل ساعدك ، أن يزيل هذا التل فكيف يتأتى لك ؟ تحدثت النملة قائلة :

أيها الملك ، يمكن السير فى هذا الطريق بالهمة ، لا تنظر إلى أساسى وبنيتى ، ولكن انظر إلى كمال نيتى ، هناك نملة غائبة عنى ، ألقت بى فى شباك العشق ، وقالت لى : إن نقلت هذا التل المملؤ بالتراب من هنا ، ونظفت الطريق ؛ حينئذ ألقى بصخرة هجرك من الطريق ، وأحقق لك الوصال ، والآن أنا مشغولة بهذا الأمر ، ولا أعلم شيئاً سوى

حمل التراب ، ولو انمحى هذا التراب ، يمكننى تحقيق وصالها ، وإن هلكت روحى فى هذا السبيل ، لا أكون مدعية وكاذبة ، يا عزيزى تعلم العشق من نملة ، وادرك الإبصار من العمى ، والنمل ولو أنه أسود فاحم ، لكنه من سالكى الطريق ، لا تنظر إلى نملة بعين الاحتقار ، ففى قلبها وجد أيضاً ، فى هذه الطريق لا أعلم أية حال هذه ، التى جعلت الأسد يعاقب بسبب نملة .

٤ . قصة أمير المؤمنين على مع نملة (١٠٧٤ : ١١٠١)

كان على يسير ذات يوم وقت القيلولة ، فألحق الأذى بنملة فى الطريق ، أخذت النملة تضرب بيدها وقدمها ، فأصاب على الهلع بسبب عجزها ، وخاف واضطرب اضطراباً شديداً ، وهكذا انقلب حال الأسد بسبب نملة ، بكى كثيراً وبذل كثيراً من المحاولات ، حتى عادت النملة إلى السير ، وفى الليل رأى المصطفى فى المنام ، يقول له : يا على لا تسرع فى الطريق ، فقد ظلت السماوات تلومك ، يومين كاملين من أجل نملة ، ألا تدرك سلوكك ، فتؤذى نملة فى الطريق إن تلك النملة كانت من أهل المعنى ، وكان حل عملها هو ذكر الله ، فارتعد جسد على ، واسقط فى يدى أسد الحق بسبب نملة ، فقال الرسول : اطمئن ولا تخف ، فقد شفعت لك تلك النملة عند الحق قائلة : يا رب لم يكن حيدر يقصد ، وإذا كان قد أساء إلى فقد تراجع الآن عن ذلك. اعلم أيها الكريم أن معاناة الدين ، هى التى جعلت مثل ذلك الأسد على هذا النحو مع نملة ، كان الحيدر ليثاً قوياً فى الشجاعة ، بحيث كان يلحظ نملة فوق سراج جواده ، ما أسعد روحه التى عرفت الحق ! فخطا وفق أمر الحق والتزم به ، إن كنت تتبع الجهل المطلق فى سلوكك ، فأنت مجرد شحاذ ولو كنت من الملوك ، يجب النظر فى الطريق ، ثم التقدم ، فلا يمكن السير فى الطريق دون نظر ، إن كنت تخطو فى الطريق بلا نظر ، فلن يثمر سلوكك فى النهاية سوى الخسران ، إن خطوت فوق العميان ، فأنت تشبه الحمير ، ولا تتميز عن الآخرين بالعقل .

إن كنت رجل طريق فاخط بحساب ، كمن حسب الطريق من الأرض حتى السماء إن خطوت دون أى أمر ، فسوف يصيبك بلاء شديد لا دواء له ، ولو خطوت هنا لحظة ، يجب عليك التخلص من وجودك ، كل شخص تحقق له السير هنا لحظة ، كأنما ذهب إلى مائة عالم ، إذا ما خطوت بالسير هنا لحظة ، ينكشف لك مائة عالم هناك ، لو خطوت اليوم خطوة طاهرة لما لزمك السير مائة فرسخ فى الأرض ، وأسفاه إنك لا ترى نفعا كبيرا ، فإن رأيت لن تكف عن العمل لحظة ، بكل خطوة تخطوها اليوم ، تدرك نفحة

مفرحة للقلب من الحضرة ، و مثل هذا الأنس يمكن اكتسابه فى كل لحظة ، فلماذا يفقد بالكسل والتوانى .

٥ . قصة أنو شيروان [٨٢] والشيخ زارع الشجرة (١١٠٢ : ١١١٨)

كان أنو شيروان ينطلق بفرسه كالسهم ، ومن الطريق شاهد شيخا أحدب الظهر كالقوس ، كان الشيخ يغرس عدة شجيرات ، فقال له الملك : ماذا تفعل وقد أبيض شعرك مثل اللبن ، و لم يعد لك سوى أيام معدودات ، فلماذا تزرع الشجر هنا ؟ قال الشيخ للملك : يكفيك برهانا ،أن كثيرين قد زرعوا من أجلنا ،ما نستفيد منه إلى اليوم، ونحن نزرع أيضا من أجل الآخرين ، يجب أن يخطو كل شخص خطوة على قدر استطاعته ، فكل عمل يلزمه نظام .

استحسن الملك قول الشيخ ، فملأ يده ذهباً وقال : خذ هذا ، قال له الشيخ : أيها الملك المظفر ، لقد أثمرت شجرتى اليوم أيضا ، ولو أن عمرى قد جاوز السبعين ، إلا أنه لم يسؤك زرعى هذا كما ترى ، و لم يجعلنى هذا الزرع أنتظر عشر سنوات ، وأثمر لى اليوم ذهبا أيضا ، غمرت السعادة الملك بهذه الإجابة ، فوهبه الأرض والضيعة والماء .

يجب أن تفعل اليوم أمراً فلن يكون لك شأن بدون عمل ، يجب الخطو فى طريق الدين والكف عن الرعونة ، إن كنت رجلا صالحا مثل الرجال فلا تأنف من كنس الحمام ، ولا يعتريك الخجل من قوة ساعدك هذه فهى حجر لك فى الميزان ، أنت أقل من كلب فاستمع للكلام يا من تزهو على الكلب .

٦ . قصة الخواجه جندى [٨٢] مع كلب (١١٩ : ١١٢٧)

سأل شخص الخواجه جندى ، أأنت أفضل أم الكلب ؟ قل ولا تخش أحداً ، فجرى مريدوه على الفور ليمزقونه إرباً إرباً ، فمنعهم الشيخ بحزم ، وقال له : إننى لا أعلم الغيب ، و لم يكشف لى الأمر ياروح أبيك ، فكيف يمكننى إجابتك الآن فى كلمات ، إن أفز بالإيمان من بين سالكى الطريق ، يمكننى القول إننى أفضل من الكلب ، وإن لم أفز بالإيمان مع السالكين ، فياليتنى كنت مثل شعرة فوق أحد الكلاب ما لم تسقط الحجب ، فلا تمن على الكلب بشىء ، والكلب ولو أنه يوجد وسط الطريق ، لكنه من مصدر واحد معك .

٧. قصة معشوق الطوسى[٨٤] مع كلب وفارس (١١٢٨ : ١١٣٨)

كان معشوق الطوسى فى طريقه وقت القيلولة ، غائبا عن نفسه ، عندما تقدم أمامه كلب فى الطريق ، فأصابه معشوق بحجر فجأة دون قصد ، ورآه فارس يرتدى ثوبا أخضر من بعيد ، فجاء من خلفه بوجه مفعم بالنور ، وضربه سوطا شديداً ، وقال له : انتبه أيها الجاهل واحترس ، ألا تعلم على من تلقى الحجر لقد كنت معه فى الأصل من مصدر واحد ، ألست مخلوقا مثله ؟ فلماذا تعتبره أقل منك ؟ إن الكلب مخلوق للقدرة الإلهية أيضا فلايجوز تزيدك على كلب ، الكلاب مختفون وراء الحجب أيها الصديق ، فاعتبر إن كان لك فكر سديد ، أكثر من هذا الجلد ، فالكلب ولو أنه فى صورة غير مستحسنة لكن مركزه عال فى الصفات ، وكثير من الأسرار مختفية داخل الكلب لكن ظاهره سد لها .

٨. قصة أبى سعيد[٨٥] مع صوفى وكلب (١١٣٩ : ١١٦٧)

كان صوفى يسير فى الطريق عندما أصاب بعصاه كلبا على قارعة الطريق ، فأصيبت يد الكلب بجرح غائر وأخذ الكلب فى النباح والجرى ، وتقدم من أبى سعيد وهو ينبح ووقع على الأرض وقلبه يموج بالمرارة ، وعندما مد أبو سعيد يده نهض الكلب طالبا القصاص من ذلك الصوفى الغافل ، فقال الشيخ للصوفى : أيها الرجل الغادر ، أيقسو شخص على هذا النحو مع حيوان أعجم ؟ كسرت يده فسقط ذليلاً وأصبح عاجزاً لاحيلة له . تحدث الصوفى وقال : أيها الشيخ لم يكن الخطأ منى بل كان من الكلب ، عندما جعل ثوبى غير صالح للصلاة تلقى عصا منى و لم يكن ذلك عبثا . لم يهدأ الكلب واستمر ينبح ويتحرك ، عندئذ قال الشيخ الفريد للكلب سوف تسعد بما سيلحق به ، سوف أنزل به العقاب أو أحكم عليه أنت بنفسك ، ولا تتنازل عن ذلك حتى يوم القيامة ، وإن أردت أحدد عقوبته وأعاقبه هنا من أجلك ، لا أريد أن تغضب ما أريده هو أن تسعد .

فقال الكلب : أيها الشيخ الفريد عندما رأيت ثوبه صوفيا ، آمنت أنه لن يصيبنى منه أذى كيف كنت أعلم أنه سيصيبنى بالاحتراق ، ولو كان صاحب قباء فى هذه الطريق كنت احترزت منه آنذاك ، عندما شاهدت ثوب أهل السلامة شعرت بالأمان و لم أعلم حقيقة الأمر ، إن عاقبته فعاقبه الآن وانزع عنه ثوب الرجال هذا ، حتى يمكن إتقاء شره فلم أر مثل هذا الأذى من الغوغاء ، وانزع عنه خرقة أهل السلامة وهذا عقاب كاف حتى القيامة .

لأن الكلب له فى طريقه هذا المقام فزهوك على الكلب حرام وإن اعتبرت نفسك أفضل من الكلب فأيقن أن هذا بسبب نقصك وإن ألقوا بك وسط التراب بمثل هذه الذلة يجب عليك السقوط مقلوبا ، و طالما تتمسك بالعصيان فأنت بلا شك تتشبث بالخسران ، فأى فخر لك بحفنة تراب إنهم يقطعون سرتك عند ميلادك من أجل دفنك عند مماتك ، وكل شخص يبدو أكثر حقارة فى الدنيا ، اعلم يقينا أنه أكثر طهارة هناك ، لذا جعل الرجال أنفسهم ترابا فطهروا أجسامهم وأرواحهم برجولة و عظماء هذا الطريق ، على قدر عال لأنهم تخلوا نهائيا عن العناد .

٩ . قصة أبى الفضل الحسن[٨٦] عند النزع (١١٦٨ : ١١٨٢)

عندما حانت منية أبى الفضل حسن ، قال له شخص : يامن عمر الشرع بك ، عندما يحرر يوسف روحك من البئر ، ندفنك عندئذ فى المكان الفلانى . تحدث الشيخ وقال : حذار ، فذلك المكان مثوى العظماء والأبرار ، ليكن مثواى فى مكان ، يوجد فيه مئات الضالين من أمثالى . قالوا له : أيها الطيب الطاهر ، أين تريد أن يكون مثواك الأخير .

قال بروح مفعمة بالوجد يجب أن يكون قبرى فوق ذلك التل ، حيث يوجد هناك كثيرون من أهل الحانات ولصوص لا حصر لهم أيضا ، كما يوجد مقامرون كثيرون هناك أيضا والكل آثمون ، ادفنونى هناك معهم وضعوا رأسى عند أقدامهم ، أنا جدير بهم على الدوام أتلمس المعانى مثلهم ، شأنى بين هؤلاء الآثمين ، ولا طاقة لى مع هؤلاء الكبار ولو أن هؤلاء القوم فى غاية العصيان ، إلا أنهم قريبون من نور رحمته وعندما يجد العطشان غايته فى مكان ، ينهل من الماء نهلا ، وكلما تتردى به الحال تتجه عين الرحمة إليه أكثر .

المقالة الثالثة (١١٨٣ : ١٤٣٣)

قال له الولد إن الهدف من الزواج هو الفوز بالابن الصالح ، فمتى يتحقق للإنسان ابن صالح ، يبقى ذكره الطيب خالداً ، ولو أن ابنى صاحب علم ، يكون شفيعى يوم القيامة ، وعندما يرزق المرء بالابن الصالح يفتديه بوجوده ، وكل شخص يلزمه مثل هذا الابن وتجدر به صلة البنوة هذه .

إجابة الأب (١١٨٩ : ١١٩٣)

قال له الأب : إن الابن مرغوب ، ولكن عندما لا يكون الرجل ناقصا ، والشخص الحديث العهد بهذا الأمر ، إذا ما رزق بأبناء ، يصير ناقصا ولا إرادة له ، ويعزل

عن سر المعرفة ، إن أردت اتباع دين إبراهيم ، يجب أن تسلم ولدك قربانا .

١. قصة إبراهيم بن أدهم[٨٧] والدرويش (١١٩٤ : ١٢٠٢)

ذات يوم سأل إبراهيم بن أدهم درويشا صاحب وجد : ألم تتزوج وتنجب قط ؟ قال : لا . قال إبراهيم : ياله من عز ! فقال له الدرويش : يارجل الرجال لماذا تقول هذا ؟ وضح لى ، هكذا قال إبراهيم عندئذ : أيها الرجل كل درويش تزوج تخلف ، جلس فى سفينة دون زاد ولا نوم وإذا ما رزق بابن غرق . إن آسر قلبك بابن كان ابنك عدوا جميلا لك ، وإن كنت صاحب حظوة فى الأدب عندما ترزق بابن لن تظل هكذا ، إن كنت زاهداً مخلصا عندما ترزق بابن فأنت عربيد كامل .

٢. قصة قطة الشيخ الجرجانى[٨٨] (١٢٠٣ : ١٢٣٨)

كانت توجد قطة فى خانقاه العالم الصادق الشيخ الجرجانى ، الذى كان قطب زمانه فى المعانى وكان الشيخ يصادفها فى طريقه عدة مرات فى اليوم ، وقد غطوا يديها وقدميها بقطعة من الجلد بصفة دائمة ، حتى إذا ما تحركت فى أى وقت لا تلوث يديها ولا قدميها ، لأنها كانت تارة تقضى بعض الوقت بجانب الشيخ وتنام فوق السجادة تارة أخرى ، وكانت القطة تموء أحيانا فيأتى الخادم إليها ، ويفك وثاقها ثم يطلق سراحها ، وقد اتخذت من المطبخ مأوى لها و لم يكن اللحم بعيداً عن منالها ، فهى لا تخطف أى طعام مطبوخ أو طازج إلا ما يقدمونه لها فى حينه ، وكانت أمينة على الخانقاه وعلى السفرة و لم يشاهدها أحد تخطف شيئاً ، وفى أحد الأيام وذات ليلة فى المطبخ خطفت قطعة لحم من المقلاة فجأة ، وفى النهاية وبعد أن تعقبها الخادم ، عاقبها بشدة وأدبها ، فلم تأت القطة إلى الشيخ ثانية وجلست غاضبة فى زاوية مجاورة .

وسأل الشيخ الخادم عنها فروى له ما صدر منها ، فطلب الشيخ الوفى القطة وسألها عن سبب هذه الغلطة ، ويبدو أن القطة كانت حاملا وقت السرقة فذهبت وأحضرت صغارها الثلاثة ، ووضعتهم أمام الشيخ على الأرض باحتجاج ، ورأت شجرة هناك فمضت إليها باستياء ، وقبعت فوقها بجناحها الغضب من الخادم وهى تنظر إليه فى صمت مطبق دائم ، وعندما رآها الشيخ ثائرة على الخادم تعجب وقال لقومه : لقد كانت القطة معذورة دون شك فلم تكن تبحث عن طعام لها بلا ريب ، و لم يكن هذا التصرف منها إساءة أدب وعصيان ولكنه كان تعبيراً عن حاجتها للطعام .

إن تلح لشخص ضرورة تصر مباحة له ولو كانت حراما ، فمن أجل الصغار ينتزع

الكائن الأقل من العنكبوت من فم الأسد القوت ، وما فعلته القطة ليس غريبا لأن التعلق بالصغار كان دائما أمرا عجيبا ، طالما لم ترزق بطفل فلن يجول بخاطرك الاهتمام بصغير ، قال الشيخ المحنك للخادم إن هذه القطة نشأت فى كنف الرعاية ، وقد وقفت فوق الغصن غاضبة منك تستغفر تطاولك عليها ، فرفع الخادم العمامة ووقف أمام القطة مستعطفا للغاية ، إلا أن استعطافه لم يجد شيئا فلم تلتفت إليه القطة أبدا ، وأخيرا توجه إليها الشيخ وناداها بكلمات وتشفع للصوفى وطلب منها النزول للحظات ، فنزلت القطة فجأة وأخذت تتمسح بين قدمى الشيخ ، وعلت الصيحات من وسط الجمع وارتفعت نار من كل قلب مثل الشمع ، وتعاطف الجميع مع القطة وماجت قلوبهم بالثناء عليها ، إن شغلت بمئات الأمور لن يكون كانشغالك بولد واحد ، والشخص الذى ابتعد عن الأبناء صار سيدا طاهرا دون نظير .

٣ . قصة تاجر لا يدين با لإسلام (١٢٣٩ : ١٢٥٦)

كان تاجر غير مسلم واسع الغنى والثراء تحقق له فى إقليمه السيادة والجاه ، وكان له ولد جميل للغاية كأنه شمع للدنيا بأسرها ، اكتسب البنفسج الغدائر المسكية منه ومنح الورد الشفاه الرقيقة الضاحكة منه ، وكان إذا ما وقع النقاب عن وجهه بزغ النهار أثناء الليل فى توه ، وإذا ما عقدت صنارة زلفه المسكية الأوتار ربطت الزنار لكل العشاق ، ومن كثرة ثنايا جدائله ، لم تكن لرأسه استقامة واحدة قط ، وإذا ما حاربت أهدابه بالحراب أوقع العالمين بضربتين ، وإذا ما داعب حاجباه أوتار القوس ظهر الرعب لأرواح الدنيا من سهامه ، وكان مذهبه نثر السكر من شفتيه فحلاوة شفتيه هى دار الملك ، وصار ساحل العشاق من شفته الضاحكة مثل بحر من در أسنانه .

وحدث أن مرض ذلك المتدفق بالحياة خلاصة القول مات فى ريعان الشباب ، وكاد الأب أن يقتل نفسه من فجيعته عليه فهانت عليه روحه وفقد رشده وأخيراً وبعد أن غسله وطهره اعتنق الإسلام ، وحمله إلى مثواه الأخير ، وقال : لقد وضح الدين لنا اليوم بوفاة هذا الولد ، فلا ريب أن الله ليس له ولد ، فهو مبرأ عن الزوجة والنسب فلو كان له ولد واحد ما ارتضى بفجيعتى ، وقد أيقنت أن تردى الكافر ليس لهوا ولا عبثا .

٤ . قصة الأب وموت الابن (١٢٥٧ : ١٢٦٩)

كان لأحد الشيوخ ولد يشبه القمر ، جمع بين الجمال والخلق والفضل ، وكان من الأب بمثابة الروح ، يعلق عليه آمالاً عظاما ، وحدث أن مات الفتى فاحترقت روح الأب

عليه ماذا أقول ؟ فقد أحرق مائة كبد بلهيبه ، كان الأب يسير خلف النعش غائبا عن نفسه ويبدو حائرا بائسا فى حزنه ، وبعد أن نثر التراب ، وناح كثيرا رفع رأسه إلى السماء بقلب مفعم با لألم ، وعلى هذا النحو تحدث : يا من لم يكن لك نسب ، إنك بعيد عن ألمى لأن وجودك منزه عن موت الأولاد .

لو لم يكن استغناؤه لاحدود له لسمع حديث الأحزان ، لو كان لك مثل صلته لكنت مثله بدون شك ، يظل الأب يبحث عن ولده أربعين عاما متصلة فلماذا لا يتيسر سعى الأب للحظة ؟ وإن وجدت الخطوط فهى ليست سوى سرابا وإن ظهرت الحروف فهى ليست إلا أوهاما .

٥ . قصة لقاء يعقوب ويوسف (١٢٧٠ : ١٢٩٤)

فى نهاية الأمر عندما تقابل يعقوب ويوسف هذان الحبيبان مع بعضهما البعض ، قال يعقوب ليوسف : يا عينى وبصيرتى إنك حطمت رأسى بسبب الدمع وأجلستنى فى بيت الأحزان وأضرمت النيران فى روحى بينما سعدت أنت فى هذا الوقت الطويل وكأنك لم تعرفنى يوما ، فلماذا ارتكبت مثل ذلك الظلم ولم ترسل لأبيك رسالة واحدة ، وهو يكابد الآلام طوال هذه الفترة وقلبه لا يعرف شيئا عنك ، فقال يوسف للخادم . أيها الهمام اذهب واحضر لى تلك الرسائل ، فانصرف الرجل لإنجاز مهمته ثم أحضر آلاف الرسائل المتشابهة ، وكلها مكتوب عليها بسم الله ولونها أبيض كالجليد .

قال يوسف لأبيه : يا شمع جنتى لقد رقمتها كلها من أجلك ، ولكن بمجرد ما كنت أنهى الرسالة بما تحمل من شرح للأحوال والسلامات ، حتى ينمحى الخط من أول الرسالة إلى آخرها ولايبقى عليها سوى اسم الله ، وتصبح الرسالة كلها بلون الجليد وتصير بلا خطوط ولا حروف ، عندئذ كان يصل جبريل من عند الجبار قائلا : احترس وإياك أن ترسل إليه الرسالة ، فإن ترسل الرسالة إلى الشيخ يصبح الخط مثل القير وتصير الرسالة مثل اللبن وعذرى الآن أننى أحاولت هذا وعدم إرسال الرسائل كان لهذا السبب ، فعلى الرغم من أننى أردت إلا أن الحق لم يرد لذلك لم يتيسر لى ذلك الأمر .

إن يتملكك حب ولدك تكابد من جراء ذلك كثيرا ، وإن كان الولد كفئا يقع مثل يوسف فى البئر ويكبل فى الأسر ، وإن كان الولد جميلا مثل يوسف تكتنفك الآلام مثل يعقوب ، ومن ذا الذى سيجد ابنا كيوسف الذى حزن عليه يعقوب طويلا ، ولا يوجد أب مثل يعقوب أبدا فقد دمى قلبه طويلا فى غياب يوسف عنه ، إن تكن ولدا يحترق

قلب أبيك فى الاهتمام بك وإن تكن أبا يفز ولدك بجل اهتمامك ، ويكفيك عبرة يا بنى هذه الحكاية التى حدثت فى تلك الولاية العتيقة .

٦ . قصة يوسف وبنيامين (١٢٩٥ : ١٣٦٦)

عندما دخل بنيامين على يوسف أجلسه بجانبه على عرش ذهبى ، وكان يوسف متخفيا بنقاب أخفى شمس وجهه ، فأنى لبنيامين أن يعلم أبدا أن روحه الجميلة قابعة بجانبه ؟ فظن أنه السلطان العزيز وكيف كان يعرف أنه روحه العزيزة ؟ إلا أنه لم يكن العزيز ، ليس هو عزيز مصر الخالد ، وعلى الرغم من أن يوسف أجلسه بجانبه إلا أنه لم يكشف السر من رهبة الموقف ، وتحدث يوسف بكلام طيب ثم سأل عن يعقوب ، فأعطاه بنيامين رسالة من تحت النقاب أخبره فيها عن حرقة يعقوب ، وعندما تسلم يوسف الرسالة ، قرر أمرا ثم توجه إلى أولاده قائلا : تعالوا جميعا وانتبهوا فقد بزغ الصباح ووصلت رسالة من جدكم ، ماذا أقول فقد فضوا الرسالة وتناقلوها كثيرا بينهم ، وحدث هرج ومرج بين الجميع من شوقهم إليه فتعالت الصيحات والصرخات ، وأراقوا الكثير من دموع الحسرة ودمائها ولفتهم الحيرة من الأسى ، وفى نهاية الأمر عاد يوسف إلى مكانه واعتلى عرشه معززا ، وفى لحظات تجمع الناس ومدوا الأخونة بين الصفوف ، وهكذا أمر يوسف الملك المحبوب بأن يحضر أبناء يعقوب جميعا وقال لهم : ليختر كل واحد منكم أخا ولتجلسوا كل اثنين على خوان ، فجلسوا معا كما قال وتركوا بنيامين وحيدا عندئذ تذكر بنيامين يوسف وحزن ، فبكى طويلا حزنا على يوسف وتأسف كثيرا على فراقه ، فسأله يوسف ملك الأحرار أيها الولد لماذا تبكى بحرقة على هذا النحو ، فقال بنيامين : عندما بقيت وحيدا ذرفت دمع حزنى وأساى ، فقد كان لى أيها العزيز أخ من نفس الأب والأم ، والآن هو مفقود منذ مدة طويلة ولا يعرف أحد سبيلا إليه ، ولو كان موجودا مع شخصى الضعيف لكان قد جلس معى على الخوان أيضا ، قال هذا وقد ذرف الدمع مدرارا على الخوان فملأه كله بدمع عينيه ، أراق كثيرا من الدمع مما لم تشاهده أى عين من قبل ، وعندما رآه يوسف يبكى إلى هذا الحد وشعر أن قلبه يشارك روحه الاحتراق ، قال له : لاتبك أيها الشاب اعتبرنى مثل يوسف الآن ، وطالما أنا الملك العزيز شريك قدحك فأى شريك أفضل لك منى ، تحدث القائم على أمر الخوان عندئذ قائلا : أيها الملك : إن هذا القدح يمتلىء بدمعه ، فكيف تشرب هذا الدمع الدموى ؟ أمن الجائز أن تأكل الخبز والدم ، فقال يوسف آنذاك : اصمت فدمى يغلى بسبب هذا الحزن ، كأن قلبى قوى أمره من هذا الدم ويمكن له إيجاد مثل هذا الخوان الممدود

بالدم ، هو يتيم وأنا أرعاه بمشاركته أحزانه .

فقال أولاد يعقوب إنه صغير ، وإن كان محبوبا ، إلا أنه يجهل آداب الملوك ورسومهم فكيف يحسن السلوك معك ؟ إننا نخشى يقينا أن يأتى الصغير سلوكا معيبا أمام الملك ، فأجاب يوسف الطيب إن ابن يعقوب صالح وكفء ، الشخص الذى له أب مثل يعقوب كل ما يصدر عنه يكون طيبا ، ثم قال آنذاك : ويحك يا بنيامين لماذا امتقع وجهك هكذا ؟ فقال بنيامين : إن يوسف قتلنى بفراقه وجعل لونى يمتقع من شوقى إليه ، قال يوسف : إن كان لونك قد امتقع فلماذا اضطربت غدائرك المسكية ، قال بنيامين : لأننى لا أم لى فقد اضطربت غدائرى وحياتى ، فقال يوسف آنذاك : وكيف حال الأب يقولون إنه فقد أحد أولاده قال بنيامين : إنه مازال أعمى وبقى وحيدا بعد غياب يوسف ، واضطرمت النيران فى روحه وجلس فى بيت الأحزان ، ومن كثرة الدمع الدموى الذى أراقه من عينيه بقى فى دوامة من الدماء والماء ، وعندما يتذكر يوسف يحتضننى آنذاك ، ماذا أقول عن كيفية بكائه بحرقة فى تلك الساعة من اللوعة ، فلو أن حجرا كان حاضرا آنذاك لصار مثل الدماء فى التو واللحظة ، وعندما علم يوسف بأمر يعقوب ابتل نقابه بالدمع ، والذى كان يخفيه من حسرته حتى جاء رسول البلاط إلى يوسف قائلا : اظهر وجهك فإلى متى تعذبه وكأنك أسد تنشب مخالبك فى رأسه ، وعندما ابتل النقاب من دمعه سقط فى نهاية الأمر عن وجهه .

الحاصل عندما شاهده بنيامين كأن روحه الطاهرة قد فارقته ، واضطربت بحار قلبه فأطلق صيحة وغاب عن الوعى ، وعندما أفاق بعد محاولات عدة سأله يوسف : أيها التقى ، ماذا حدث لك ففقدت وعيك ؟ ولفك الحزن وشملك الاضطراب ، فقال لا أعلم من تكون ؟ كأنك يوسف ولو أنك العزيز ، لقد اخترتك عوضا عن يوسف وكأنما رأيتك قبل ذلك ، بالله إنك تشبه يوسف فإن كنت هو لماذا تعذبنى ؟ ، أنا وحيد لا حيلة لى ولا أعلم وأنت تعرف ، فلتتحدث فورا .

الشخص الذى يعتبر هذه القصة خرافة لا يعمل فكره ، داخل حجاب روحك معرفة كنت على صلة بها قبل ذلك ، فإن عدت إلى معرفتها ثانية لحظة واحدة سبقت بذلك أهل العالم ، وإن اغترب قلبك عنها فأنت غريب ليس لديك سوى الترهات ، ولو لم يكتسب قلبك المعرفة لما ازدهر عملك قط ، الشخص الذى يشتم ريح المعرفة يعتاد القرب من الحضرة ويظل حاضرا فى تلك الحضرة دائما لايهتم بشىء سوى حضوره ، ولأن الحق معه فهو خالد أيضا وظلاله لا تبعد عن الشمس .

٧ ـ قصة شاب يوم الحشر (١٣٦٧ : ١٣٩٦)

يروى أنه فى يوم القيامة يدخل شاب ويطلب الرحمة من الله ، والشاب ذنوبه لاحدود لها لكن قاضى الفضل رفيقه ويسرع به الملائكة ليلقوا به فى عذاب السعير ؛ فيأتى هاتف من الحضرة فى الحال : لماذا تتجهون به إلى هذه الطريق ؟ يقولون جميعا : نسرع به حتى نلقى به إلى الجحيم ، يأتى الهاتف مرة أخرى ولكن بطريقة غامضة إننا ـ ويا للعجب ـ راضون عنه ، لن يجوز لكم الاستماع إلى هذا فسوف يتحقق له المثول فى حضرتنا ، ولن يكون الملائكة قد سمعوا هذا الكلام ولن يكونوا قد شاهدوا مثل هذه الكرامة أبدا ، فيصمت الجميع من هذه الهيبة ويرتعدون ثم يغيبون عن الوعى ، ويجىء الهاتف للشاب : أيها المضطرب لماذا تقف ؟ اهرب منهم ، يقول الشاب : يا إلهى فى مثل هذا المكان حيث لابداية لهذا الوادى ولانهاية ، أين أستطيع الهروب من القيامة فهنا لا سبيل إلى الهروب ، فيأتى الهاتف : أيها الشمل تعال واهرب لدينا وتحرر من الجميع ، فيقول الشاب : ليست لدى هذه القدرة فوجودى ليس سوى عجز ، إلا إذا تدخلت بفضلك وأدخلتنى حجاب الأسرار ، فيلبسه الله من كرامته ويخفيه عن أهل القيامة ، ويصله بمقر أسراره ويمكنه من خلوة مشاهدته .

وعندما يسترد الملائكة وعيهم لن يجدوا الشاب أمامهم ، ويبحثون عنه طويلا ولايجدونه ويسرعون مهرولين من كل صوب ، يقولون للحق : أين صار خصمنا ؟ أفنى فى العالم الباقى ؟ لقد بحثنا فى الجنة والنار الآن ولا نجد له أثرا ، ويئسنا منه ، يا إلهى أنت تعلم أين صار إذا لم تخبرنا ، فقدنا أرواحنا ، فيأتيهم الهاتف بأن ذلك من حكمتنا وأنه دخل سراى عصمتنا ، ولأنه ماثل فى حضرتنا فلا شأن لكم به ، الآن هو ينعم بالمعرفة الأبدية ويجب عليكم الابتعاد ، عندما تكون العناية رفيقة منذ القدم فلا مجال هناك للأغيار ، إنما تسلط شمس العناية على النبى منذ البداية فى سبيل الهداية ، إن وهبت لك عناية الله تتحول كل عيوبك إلى إخلاص ، وتنكشف لك معرفة نفسك ولا يبقى لك سوى المشاهدة .

٨ ـ قصة أخرى عن يوم الحشر (١٣٩٧ : ١٤١٤)

هكذا روى فى الأخبار أنه فى اليوم الذى تقوم فيه الساعة ، يدخل شاب مزدانا وحوله آلاف من ضاربى السياط ، يفسحون له الطريق من كل صوب فيفسح له الخلق الطريق ، ثم يأتى الأمر الإلهى إلى الخازن من الجبار أن أنزله فى القصر الفلانى ، فينزلونه فى ذلك القصر البهيج والحور جميعهن يصحن شوقا إليه ، ويكون لذلك القصر الجميل طاقة يظهر منها آلاف الأبواب والنوافذ ، وحيثما ينظر الشاب يشاهد ربه ، وتفتح

آلاف الأبواب كل لحظة فيظهر له عالم من وراء كل باب ، ولكن فى كل عالم يغص بالرجال والنساء لايرى سوى ربه .

كل العالم يتمنى وصاله ولكن كل ذلك وهم محال ، فلا تصل لأى شخص رائحة من هناك ولا تفوز كل عصا بكرة من هناك ، يجب أن يكون القلب باكيا محترقا من الحق وأن يكون اللسان سائلا عن طريقه خائفا ، إذا ما أصبح مذهبك وأنت حى أن تخاف وتسأل دائما ، ويستغرقك هذا الفكر تماما ويستولى هذا المذهب على مدينة قلبك بأسرها ، حتى يمكن أن تتنسم رائحته لحظة واحدة ولكن عن طريق مشام الروح ، يكون عمرك الحقيقى هو تلك اللحظة التى تتمتع فيها روحك بحضور الحبيب ، وإن كان عمرك لا حدود له فأمامك مائة حجاب فى كل لحظة .

٩. قصة الدرويش والمجنون (١٤١٥ : ١٤٣٠)

سأل درويش المجنون : كم يبلغ عمرك الآن ياولدى ؟ فأجابه ذلك البائس ، إن عمرى ألف وأربعون عاما ، فقال له : ماذا تقول أيها الغافل ؟ هل ازداد جنونك أيها الجاهل ؟ فقال : الألف عام هى اللحظة التى ظهر لى فيها وجه ليلى ، والأربعون هى عمرى وهى لا قيمة لها ولكن تلك اللحظة هى عمرى كله ، وتقدر بألف عام ، لأننى طوال الأربعين سنة كنت مع نفسى لذلك فهذا العمر لاطائل تحته ، لكن تلك اللحظة تساوى ألف عام ، لأنها انقضت مع ليلى ، بعيداً عن نفسى .

آلاف الأعوام تعتبر لحظة هناك ، ماذا أقول ، فهى تعتبر أقل من هذا هناك ، من يدرك الوجود الخالد ينمحى العالمان فى ولايته ، أنظر أيها الصديق ما هو حال الوجود ؟ إنه ساجد بجميع ذراته ، والوجود ليس الكثير و لا القليل فسوف ينمحى داخله كل شىء ، مرحى بالوجود العظيم ، الذى فنت داخله ذوات كل الموجودات ، وإذا ما انمحى الرجل هنا صارت عيوبه منافعاً ، ولو تشبث خلق العالم جميعاً بأذياله فلن تصل يد إليه لحظة واحدة ، ولأنه لا يوجد هذا الشخص و لا يوجد أثر له فمن يستطيع أن يحيط به برهة .

١٠- قصة المجذوب (١٤٣١ : ١٤٣٣)

سأل شخص مجذوبا يعانى من الحمى أتعانى من الحمى ؟ فتعجب المجذوب الواجد ، و أجابه ، إن مت فمن تأخذه الحمى الآن .

المقالة الرابعة (١٤٣٤ : ١٧٣١)

قال الولد لأبيه : مايزال قلبى حائرا يفتقد أميرة الجان ، ولأن وصال تلك الفتاة عزيز المنال فلتصف لى ماهيتها ، إننى لم أرها وفى فراقها أنصهر كالشمعة شوقا إليها .

إجابة الأب

قص الأب هذه القصة أمامه فأظهر عروسا من حجاب الأسرار .

١ . قصة حكيم هندى (١٤٤٠ : ١٥٣٦)

كان لشخص فى بلاد الهند ولد يجمع بين صغر السن ورجاحة العقل ، وعلى علم واف بكل العلوم بحيث كان يبز الجميع فيها ، ومع ما كان له من باع طويلة فى كل علم إلا أن شغفه بعلم التنجيم كان قد بلغ مداه ، حيث يوجد وصف ملك الجان وإشارة لجمال ابنته ، فهام بفتنة تلك المعشوقة وأى عاشق تيسر له عشق جنية !؟ وكان يوجد حكيم فى مدينة أخرى بعيدة مشهور فى التنجيم والطب ، لم يكن يسمح لأحد بدخول منزله فلم يكن له أنيس أبدا فى بيته ، وكان يقيم بمفرده حتى لايقف شخص آخر على علمه وينفرد هو به ، و ذات يوم قال الولد لأبيه : فلتحملنى إلى ذلك الشيخ المحبوب ، يقولون إن ملك الجان يأتى إليه ومن ثم ابنته أيضا ، وقلبى يود رؤيتها فهناك أشاهد وجه الحبيب ، حتى ألم بمختلف العلوم ، ولا أموت كجيفة مهموما بالدنيا قال الأب : ليس له زوجة ولا ابن ، والناس يتطلعون إلى معرفته وهو لا يسمح لأحد بذلك ، فكيف تأمل فيه كثيرا ؟ إنه يخشى إذا ماوجد شخص سبيلا إليه أن يطلع على علمه وحكمته ، قال الولد : اتركنى هناك وأنا أعلم حيلة لهذا الأمر .

الحاصل توجه الأب مع الولد وأوضح له الولد حيلته قائلا : اذهب إلى ذلك الحكيم الهندى وانزع عنه خوفه واكتسب عطفه ، وقل له : لى ولد أصم وأبكم وأنا فقير يسير الحال ، فاقبله منى ثوابا لآخرتك واحمل عنى هذا الحمل الثقيل ، حتى يعيش فى خدمتك ويفعل ما تأمره به ، يشعل لك النار حينا ويحضر الماء حينا آخر ويعد لك ثوب النوم بأدب ، وإذا ما تركت المنزل يحافظ عليه ويودى لك خدمات متلاحقة ، وهو ماهر للغاية لكنه أصم وأبكم فلا تخيب رجائى على أية حال ، فهو إذا ما قيمته تدرك أن وجوده مثل عدمه ، أطال الأب الحديث أمام الحكيم حتى قبله فى نهاية الأمر ، وامتحنه الحكيم فى الحال حتى يدرك أنه أصم وأبكم ، فأعطاه دواء مخدرا عندما تناوله الولد سقط فى الحال ، وخرج الأستاذ لعمل طبى فقفز الولد من مكانه ووقف ، وأدرك أنه إختبار

له وأن الدواء سوف يفقده الوعي تماما ، فأخذ يتحرك داخل الحجرة مثل الريح ليؤدى مهمته بإحكام : كان يتحرك ويسرع حتى لايبقى شيئا من الدواء يخدره ، وعندما جاء الأستاذ وفتح الباب بدأ الولد فى النوم ثانية ، وأخذ يتصنع ما يصدره النائم من أصوات بحيث لا يبدو مسترخيا ولا مضطربا ، وما أن تقدم الأستاذ وجلس حتى وجه إلى قدم الولد مخزازا بقوة ، فقفز الولد من مكانه ثم وقع ، كان يصرخ ببؤس مثل الأبكم ، وكانت الأصوات التى يصدرها تدل على بكمه ، وأثناء صراخه سأله الأستاذ ولكن على حين غرة : أيها الولد ماذا حدث ؟ لم يحر الولد جوابا فكان أمرا صائبا يدل على ذكائه ، وعندما أتم الأستاذ المحتال الامتحان أيقن أنه أصم وأبكم .

ماذا أقول فقد مكث عشر سنوات متصلة فى ذلك المنزل على هذا النحو ليل نهار : إذا ما خرج الأستاذ من المنزل يتناول كتابه ليحفظه ، وعند وجود الأستاذ فى المنزل يسترق السمع لكل ما يقوله الأستاذ عن كل علم ، أخذ الولد يتعلم تلك الأقوال ويكتبها عندما يوجد فى المنزل بمفرده ، فصار أستاذا فى كل علم بحيث لم يعد فى حاجة لأستاذه ، وكان يوجد صندوق مقفول يخفيه الأستاذ تحت ساتر ، لم ينزع خاتمه ولم يفتح ولم تقع عين شخص عليه ، فقال الولد فى نفسه : من الواضح أن ما أبحث عنه موجود هناك ، ولكن لم تكن لديه الجرأة على فتحه فقرر التذرع بالصبر .

وحدث أن مرض أمير المدينة فجاء شخص إلى الأستاذ المشهور قائلا : لقد عرض شيء لرأس الأمير سقط على أثره ، وذلك الشيء يتحرك أحيانا كحيوان ولم يتيسر لأحد معرفته ، فلو أدركه الأستاذ نجا وإلا فسوف يموت اليوم عاجزا ، ولم يكن الولد على علم بذلك المرض وبمجرد أن انطلق الأستاذ فى الطريق ، انطلق الولد وارتدى عباءة حتى يمكنه مراقبة المشهد ، القصة عندما ذهب الأستاذ إلى الملك وقف الولد فوق مكان عال ، وكان يوجد فى ثنوء خارجى برأس الملك ورم بداخله حيوان ، حلق الأستاذ شعر الملك كله وشق الجلد ووجد بداخله سرطانا متحركا ، وقد نشب مخالبه داخل غشاء آخر فأحضر الحكيم آلة فى الحال ، حتى يفصله عن الغشاء ويبعده بها لآلة الحديدية ، وكلما أدخل الآلة الحديدية أكثر كان السرطان ينشب مخالبه أكثر داخل رأس الأمير ، والأمير يصرخ من الجراح التى تسببها له مخالب السرطان ومن آلام جبهته ، وكان التلميذ يرى كل ذلك من أعلى وعندما نفد صبره ، تكلم قائلا : يا أستاذ العالم إنك تعالج هذا القيد المحكم بالحديد ، ولكن إن عالجته بالكى من الخلف فسوف تخرج المخالب من رأسه ، وما أن علم الأستاذ بحقيقة الأمر حتى أسلم روحه كمدا .

وعندما مات الأستاذ استدعوا الولد وأجلسوه بإعزاز مكانه ، فقضى على الحيوان بالكى وصنع مرهما من الأخلاط اللازمة ، وعندما شفى الملك من الألم أطلق عليه اسم حكيم بالهندية (سرتابك) ، ومنحه ذهبا كثيرا وأنعم عليه بخلعة ومنحه منزل الأستاذ وأدواته ، قدم الصبى وفتح الصندوق وهناك رأى وصف وجه المعشوق ، حيث كان يوجد كتاب فى علم التنجيم قرأه كله فصار أستاذ الإقليم .

وفى النهاية تملكته الرغبة فى تلك الفاتنة التى سلبت قراره آناء الليل وأطراف النهار ، وفى النهاية رسم خطا وجلس فى منتصفه وصار الخط يتحلقه من كل صوب ، قرأ العزيمة وبعد أربعين يوما ظهرت معشوقته الفاتنة ، صنم يخرس لسان الفصيح عن وصفها ماذا أقول فوصفها محال ، عندما تفحصها كلها اتخذت مكانها داخل صدره ، فتعجب من ذلك وقال عندئذ كيف وجدت سبيلا إلى داخلى ؟ أجابته القمر الحسناء لقد كنت معك منذ اليوم الأول ، أنا نفسك وأنت تبحث عن نفسك فلماذا لاتنير عقلك ؟ إن نظرت إلى العالم تجده حافلا بوجودك وتأنس بنفسك فى الداخل والخارج ، قال لها الحكيم : إن للنفس شرورا فتلك الشؤم حية وكلب وخنزير ، وأنت جمال الأرض والسماء لا تشبهين بهذا الحسن نفس أى شخص ، قالت له الجنية : إن كنت أمارة أكن أسوأ من الخنزير والكلب مائة مرة ، ولكن عندما أصير مطمئنة[٨٩] فليس لأحد أن يظن بى تلك الظنون ، فإن صرت مطمئنة ، عندئذ يأتينى خطاب "ارجعى" من الحضرة ، والآن أنا نفسك أيها الفريد إذا أغوانى الشيطان ، يطلق على أهل الإيمان أمارة[٩٠] وربما يسلم شيطانى[٩١] ، فإن أسلم شيطانى تنصلح كل الأمور هنا ، مثل سالك الطريق الذى تحمل كثيرا من الآلام حتى تغلبت روحه على نفسه ، الشخص الذى يريد معرفة سر الروح من الحبيب ما أكثر الآلام التى يراها فى هذا السبيل .

والآن يا ولدى الشيء الذى بحثت عنه كله داخلك وأنت متردد فى الأمر ، إن كنت مجدا ورجلا فى طريق الحق فأنت الكل ومقيم فى نفس المنزل ، لقد ابتعدت عن نفسك فجأة وأنت تبحث عنها فى هذا السبيل ، أنت معشوق نفسك ، فعد إلى نفسك ولا تخرج إلى الصحراء وعد إلى الوطن ، فحب الوطن إيمان طاهر ومعشوقك قابع داخل الروح الطاهرة .

٣ ـ قصة ملك فى ثوب متغير (١٥٧٨ : ١٥٨٥)

هاجم جيش إحدى البلاد ففر الملك سرا من المدينة ، وتوجه إلى مدينة أخرى وبدل ثيابه فلم يتعرف عليه الخاصة ولا العامة ، وصادفه أحد معارفه فقال له : لماذا تبدو

كشحاذ ، فلتقل لهم : إننى ملك لماذا تجلس ذليلا حائرا ، قال له الملك : لى مريدون كثيرون فإن بحت لهم بسرى يمزقوننى إربا إربا ، من لا تتوفر له عين سلطان لا يتيسر ذهابه إلى السلطان ، إذا ما بحثت عن قرب الملك دون بصيرة تنقلب حينئذ داخل دماء روحك .

الأشخاص الذين تحيا قلوبهم بذكر الله يبصرون بعين الآخرة ، إن تحققت لك مثل هذه العين أيضا ترى كل شيء بعين الآخرة ، فعينك الظاهرة من رسوم الغوغاء لأنها لاتتقيد قيد أنملة بالرسام ، لكن الرسام قد دأب على إخفاء رسمه دوما لأن جمال وجهه لا حدود له فضياؤه حجاب لجماله ، ولو أن جمال الشمس جلى إلا أن نور وجهها بعيد ، إن استلت الدنيا سيفها يتجه أصحاب البصيرة إلى السلطان ، أى شأن لك بالسيوف وجلبة الجند لا تنظر إلا إلى الملك ، كل شيء تراه أمامك وخلفك يجب الابتعاد عنه ، وعن نفسك ، عندما يسقط الرسم من أمامك يمنحك الرسام المطلق قربه .

٥ . قصة بائع الحطب والسلطان محمود[٩٢] (١٦٩٢ : ١٧٣١)

عندما كان محمود فى طريق عودته من الصيد وبصحبته خمسون فارسا ، أقاموا خيمة فى الطريق وبينما هم يضعون الصيد فوق النار للشواء ، رأى الملك شيخاً ضعيفا فى الطريق يحمل حملا ثقيلا من الحطب ، فذهب إليه محمود على سبيل الشفقة وقال له : ما ثمن هذا الحطب ؟ تحدث الشيخ قائلا : أيها الأمير أبيعه بوزن شعيرتين من الذهب ، خذه بشعيرتين ، وكان مع محمود كيس به مائة دينار من الذهب كل قطعة فيه أثقل من شعيرتين ، فتح محمود الكيس وجلس أمام الشيخ ووضع له دينارا فى يده قائلا : أيها الشيخ هذه القطعة تساوى وزن شعيرتين إن أردت خذها وامض ، فقال الشيخ : إنها أثقل من وزن شعيرتين ولا يوجد ميزان فكيف يمكن وزنها ؟ فوضع له محمود قطعة أخرى فى يده وقال له : انظر إنها تساوى شعيرتان ، أجابه الشيخ إنها أكثر من شعيرتين ويمكن معرفة ذلك بحكم العادة ، فأعطاه قطعة أخرى وقال : كيف تكون هذه ؟ قال : هذه أيضا أثقل ، وظل على هذا المنوال يعطيه قطعة قطعة والشيخ لا يزال يعتقد أن كل قطعة أثقل من الشعيرتين .

الحاصل ، عندما أعطاه ما بداخل الكيس كله تضايق الملك من هذا الأمر ، فألقى بالكيس إلى الشيخ قائلا : ضع الذهب داخل الكيس فهذا أفضل واحمله إلى المدينة حيث يوجد ميزان ، وخذ ما يوازى الشعيرتين ثم احضر الباقى فى الحال إلى حاجب السلطان ، ولم يكد الشيخ يأخذ الذهب من الملك حتى انطلق الملك بالفرس من أمامه ، وفى اليوم

التالى اعتلى الملك العرش وجاء الشيخ التعس إلى البلاط ، وما أن شاهد الشيخ الملك حتى انقبض قلبه وارتعد جسده من الخوف ، وأيقن أن الملك الذى أمامه ، هو الشخص الذي قابله بالأمس ، وعندما رآه الملك قال : أجلسوه فوق كرسّي أمام الملك ، فجلس وقال له الملك : أيها الشيخ ، قص علي ما فعلت ، قال أيها الملك المفدى ، لقد نمت ليلة أمس جائعاً حتى طلوع النهار ، قال الملك لماذا ؟ قال الشيخ : لأنك لم تتم بيعك لي آنذاك ، إنك اعتقدت أنني سيد ، وتركتني جائعاً ليلة أمس ، قال له الملك : اذهب واحتفظ بهذا الذهب فكله لك .

فتكلم الشيخ قائلاً : أيها الملك ، إنك منحتني الذهب بيسر ، فلماذا لم تمنحه لي بالأمس وكنت تستطيع ذلك ، عندما كنت تضعه في يدي قطعة قطعة ، قال له الملك : لأنك ناديتني أميراً ، ولم تعلم أنني السلطان أيها الشيخ ، فود قلبي ، أن تعرف إنني ملك العالم[٩٣] ، ولأنك علمت أمر ملكي ، فأي طلب لك ، ينفذ فوراً .

يا عزيزي انك الشيخ حامل الحطب في هذه الطريق ، ونور الحق هو حضرة الملك ، وأنت تستمد النفس في الحياة من الحق ، تستمده منه كقطع الذهب واحداً واحداً ، وغداً تفوز بالعمر الخالد ، وتحصل على الكيس أمام الحضرة ، واعلم كذلك إن كنت جديراً بالمعرفة ، أن آلاف القرون من هذا العمر الغالي لا تساوي لحظة هناك ، ولا يجوز ترك هذه اللحظة ، فآلاف القرون لا توازي شعرة واحدة منها ، لو تعاني هنا وتفنى عن وجودك ، تفوز بالذوق والعمر الخالد ، وإن تتقيد بوجودك ، تفز بالوجود فقط ، وتمت وأنت حي .

المقالة الخامسة (١٩٨٠:١٧٣٢)

الابن الثانى

تقدم الولد الثانى وقال لأبيه إننى سوف أنقب عن الدرر بتعلم السحر ، إن السحر هو ما يرغبه قلبى من الدنيا فلو تحقق لى ذلك ، أتجول فى كل بقعة وأعيش فى كل مكان بسعادة ، مسالما حينا ومحاربا حينا آخر أطوف فى جولاتى بالشرق والغرب ، أحول جسدى حينا إلى طائر وأظهر حينا عظيما كا لعظماء ، وفى بعض الأوقات أجعل جسدى فيلا وفى أوقات أخرى أظهر بهيئتى الحقيقة ، وأتخذ الأطواد مأوى لى كا لفهود لبعض الوقت وأعيش فى اليم الهادر كا لتماسيح فى وقت آخر ، وأرى كل صاحب جمال وأحقق وصاله ، ويتيسر لى كل ما أريد وتمتد سيطرتى من الأرض حتى السماء ، تأمل هذا المقام أيها الطيب وقل من يتمنى أفضل من هذا ؟

إجابة الأب (١٧٤٥ : ١٧٥)

قال له الأب : لقد غلبك الشيطان فرغب قلبك فى السحر ، ولو لم يحدث لك هذا بسبب الشيطان لما ظهرت هذه الرغبة فى قلبك ، إن ابتعدت عن الشيطان نجوت وإلا فإنك هالك وللشيطان عابد ، أليس لديك أى علم عن الله قط لتطلب أمر الشيطان ولاشيئا سواه ن إنك لا تعطى كسرة خبز لدرويش من أجل الله بل تستعيده منه بجفاء لنفاقك ، فأنت سخى عند الرياء والتملق بينما تكون من أهل الجحيم إن كان الأمر من أجل الله .

١ . قصة شبلى[٩٤] والخباز (١٧٥١ : ١٧٨١)

كان أحد الخبازين قد سمع عن شبلى أحاديث جمة ، ووصل إلى مسامعه صيته الذائع ولم يكن قد شاهد وجهه المحبوب ، لكنه كثيرا ما استبد به الشوق إلى رؤيته ، وحدث أن دخل شبلى ذات يوم وقت القيلولة ووجهه مكفهرا بسبب الطريق البعيد الذى قطعه ، وتوجه إلى الخباز ليخيره أنه أخذ رغيفا من الخبز من دكانه ، فسحب الخباز الخبز من يده قائلا : لن أعطى لك أيها الفقير خبزا ، ولم يعطه الخبز فتركه شبلى ومضى ، فنبه شخص الخباز قائلا : إنه شبلى ، فإن كنت من مريديه فلماذا تستعيد الخبز منه ؟

قطع الخباز الطريق جريا حتى الصحراء وهو يعض يد الندم ، وألقى بنفسه على قدمى شبلى بذل شديد وظل يأتى بحجج مختلفة كل ساعة ، واعتذر له كثيرا ، وأظهر إعزازه له

متسائلا كيف له أن يتدراك ماوقع منه ، وعندما رآه شبلى عاجزا قال له عندئذ إن أردت تلافى ما حدث ، اذهب وأعد دعوة لنا غداً ورتب الضيافة لجمع من الناس .

الحاصل ذهب الخباز فى الحال وأعد قصرا بهيا ، ورتب ضيافة على مستوى عال أنفق عليها مائة دينار من الذهب ، ووفر فيها كل الأصناف الغالية التى لاتتيسر لأحد سواه ، ثم دعا أناسا كثيرين من جميع الفئات قائلا : إن شبلى سوف يأتى إلينا .

وفى النهاية عندما تحلق الجميع الخوان قرأ شبلى الدعاء ، وبدأ الجميع فى تناول الطعام ، وكان بينهم رفيق صاحب وجد وجه سؤالا إلى شبلى قائلا : إننى لا اعلم الطيب من الخبيث فقل لى من هم أهل السعير ومن هم أهل الجنة ؟ ، أجاب شبلى ذلك الرفيق إن أردت أن تشاهد أهل الجحيم ، انظر إلى صاحب ضيافتنا الذى دعانا من أجل الشهرة ، لم يهب رغيفا من أجل الله لكنه أنفق علينا مائة دينار ، وارتكب ذنوبا كبيرة إلى يوم القيامة من أجل رغيف خبز لم يعطه لشبلى ، ولو كان منحه الخبز دون جفاء لما كان من أهل النار ، بل كان من أهل الجنة ، والآن إن أردت أن تعرف أهل النار فانظر إليه واعتبر كل طعامه وشرابه زيفا ، وأنت إن أردت أن تكون من أهل السعير فافعل كما فعل شبلى حتى تصير رجلا كريما على شاكلته ، ومتى ستعبد الله بإخلاص ؟ إن عابد الكلب صاحب رياء خاص ، فإن أمكنك الحضور من أجل كلب و لم يمكنك من أجل الحق ، فأنت كافر .

٢ . قصة المصلى والكلب (١٧٨٢:٢:١٨٠)

دخل رجل طيب إلى مسجد ذات ليلة وكان ذا حظ يسير من الدين ، وعزم الرجل العابد فى تلك الليلة على ألا يكون له عمل إلا الصلاة حتى الصباح .

وعندما ساد الظلام ارتفع صوت وكأن شخصا قد دخل إلى المسجد ، وهكذا اعتقد المصلى أن من دخل شخص كامل فى العبادة ، فقال فى نفسه فى مثل هذا المكان يأتى مثل هذا الشخص من أجل طاعة الحق فقط ، إن هذا الرجل يلحظنى دون شك ويستمع إلى صلاتى وطاعتى ، فيجب أن احتاط فى صلاتى حتى يوقن هذا الرجل بصلاحى ، وظل طوال الليل حتى الصباح فى طاعة الله و لم يتوقف عن العبادة أية ساعة ، كان يدعو الله ويتضرع إليه كثيرا يستغفر حينا ويتوب حينا آخر ، أدى الآداب والسنن والحقيقة أنه أظهر نفسه بصورة طيبة ، وعندما أشرق الصبح الصادق وتسللت أشعة نوره إلى داخل المسجد ، اختلس الرجل نظرة إلى هناك فوجد كلبا نائما داخل المسجد ،

فماجت دماء روحه خجلا وانهمر الدمع فوق أهدابه كالمطر ، واحترق قلبه فوق نار الخجل وأحرقت آهاته حلقه ولسانه ، وتحدث قائلا : أيها الرجل البعيد عن الأدب لقد أديت حق الأدب الليلة لهذا الكلب ، وكنت منشغلا بالعبادة طوال الليل من أجل كلب أهكذا سهرت ليلة من أجل الحق ؟ لم أرك فى ليلة أبدا تؤدى فروض الطاعة بإخلاص من أجل الله فقط .

كثير من الكلاب أفضل منك أيها المرائى فانظر أين الكلب ؟ وأين أنت ؟ غرقت فى الرياء دون خجل ألاتخجل فى النهاية من الله ؟ عندما تسقط الحجب فى النهاية ماذا تقول لإلهك عندئذ ، الآن وقد رأيت مكانتى فقدت الأمل كلية من نفسى ، لن يكون لى شأن فى الدنيا وإن تحقق لى فهو جدير بالكلاب ، لماذا تريد مصادقة الشيطان والضلال صفة من صفات الكلب ، اهرب من ظلم وكر الشيطان هذا وفر من هذا السجن المليء بالجهل ، ماذا تريد من الدجالين وعما تبحث عند المتشبهين بالمهدى ، لك من الأصدقاء من يشبه الأعداء فالشوك فى طريقك من بستانك ، كثير من الدجالين لهم وجه المهدى وهم سكارى بهذا الوهم ، إلى متى تشق بالدجالين السحرة ألم يحن الوقت لتتعظ فى النهاية ؟

إن من يسر سبع خطوات فى إثر دجال يصبه التردى حتى آخر الزمان ، فقد روى عن عالم بالأسرار أن ذلك الشخص لن يستطيع الابتعاد عن الدجال لحظة ، يتبعه فى كل الأحوال ويظل فى زمرته إلى الأبد ، الشخص الذى يخطو سبع خطوات خارجة عن الدين يقتفى أثر الدجال ، فيخطو سبعين عاما من المكر والتلبيس ـ وياللعجب ـ على هدى إبليس ، ولأن إبليس دجاله لاأعلم كيف يكون أمره ، ولأن دجالك شيطان ماكر فقد ظهر لك بصورتين الأولى هى الدنيا والأخرى الظلم ، والشخص المشدوه إلى هذا الدجال كيف يصدر عنه نفس طيب ، ماأكثر أشباه المهدى الأطهار الذين أسرهم دجال الحياة ! وماأكثر الدماء التى أرقاها هذا الدجال ليس فى يوم ، بل فى عشرة آلاف عام !

٣ . قصة مناظرة المسيح مع الدنيا (١٨٢١:١٨٥٥)

تمنى المسيح التقى بعد أن رفعه الله أن يشاهد الدنيا ، وذات يوم وبينما يسير والأنوار تحيط به من كل صوب رأى امرأة عجوزا من بعيد ، دب المشيب فى شعرها واحدودب ظهرها وسقطت أسنانها كلها ، غطى عينيها اللون الأزرق وساد وجهها السواد ، تفوح منها النجاسة من كل صوب ، ترتدى ثوبا من مائة لون ، قلبها يملؤه الحقد ورأسها

تتنازعه الشرور والفتن ، وقد خضبت إحدى يديها بألوان متعددة ويدها الأخرى ملوثة بالدماء ، ويتدلى من كل شعرة من شعرها منقار صقر وقد أسدلت نقابا على وجهها .

عندما شاهدها عيسى قال : أيتها العجوز قولى من أنت ؟ إنك قبيحة ومحتالة ، فقالت له : أصدقك القول أنا الأمنية التى طلبتها ، قال لها المسيح : إنك دنيا وضيعة قالت : أنا ! كيف أكون على هذا النحو ، قال لها المسيح : لأنك داخل حجاب فلماذا ارتديت الثوب الملعون ، قالت يحطينى حجاب حتى لايرانى أحد سافرة أبدا ، فإن شاهدوا وجهى بهذا القبح فكيف يجلسون بالقرب منى لحظة واحدة ، لذلك صنعت هذا الثوب المزركش لأضلل به عالما بأسره ، فعندما يرون ثوبى متعدد الألوان وزاهيا يختار الجميع حبى مضطرين .

قال لها المسيح : إنك سجن وضيع لماذا لوثت إحدى يديك بالدماء ؟ قالت أيها الصدر الفريد من كثرة الأزواج الذين قتلتهم على مر العصور ، قال المسيح ويحك أيتها العجوز الثملى لماذا خضبت يدك الأخرى بالألوان ، قالت : كى أخدع الأزواج يجب أن أتزين كثيرا من أجل جمالى ، قال المسيح : عندما تقتلين الخلق ألا تأخذك الشفقة بهم للحظة واحدة ؟ قالت : ماذا أعلم عن الرحمة ماأعلمه إننى أريق الدماء بالجملة ، قال لها المسيح : ألا تأخذك الشفقة بالكثيرين الذين تخدعينهم ، قالت : إننى سمعت بالشفقة لكننى لاأشفق على أحد قط ، إننى أهيم حول العالم كل وقت حيث يقع فى شراكى الخلق ، أكون عائقا لكل شخص وأصبح شيخا لمريدى طريقى ، فتعجب عيسى منها وقال : إننى مشمئز من هذا التلون . انظر إلى هؤلاء الحمقى الجهلاء الذين يتمنون العجوز الشريدة ، لم يتعظوا من هذه الفاسقة ولا يعتمدون على التسليم ، وأسفاه إن الخلق لم يدركوا هذا المعنى ففرطوا فى دينهم ، ولم يشاهدوا الدنيا ، وما أن قال ذلك التقى المعصوم هذه الكلمات حتى أشاح بوجهه عن الدنيا الشؤم .

هذه الدنيا الغادرة مثل الجيفة وأنت مثل الكلب صرت مشغولاً بها ، ولأنك أسير الكلب والجيفة فأنت أسوأ منهما مائة مرة ، ومادام هذا الكلب لايشبع مطلقا من تلك الجيفة فأنت لن تشبع من هذا الكلب أبدا ، إن قيدته ، استرحت منه وإلا ظللت تعانى منه ليل نهار .

٤ . قصة الراهب والشيخ أبى القاسم (١٨٥٦:١٨٨٩)

شيد أحد الرهبان ديرا جميلا وقفل بابه ، وفتح طاقة داخله ، وظل بداخل الدير مدة مارس فيها الرياضات المختلفة ، وحدث أن مر أبو القاسم الهمدانى من ذلك الطريق وفجأة أخذ يحوم حول الدير ، وظل ينادى من كل صوب و لم يظهر له أى راهب .

خلاصة القول من كثرة صياحه أطل الراهب من أعلى الدير ، وقال له : أيها الرجل الفضولى ما هذا الإزعاج لبائس مثلى ، ماذا تريد منى ؟ أصدقنى القول فقال الشيخ للراهب ما أريده هو : أن تطلعنى إن أردت على ما تفعله داخل الدير .

تحدث الراهب وقال : أيها الشيخ أى أمر هذا ؟ دعك من هذا الكلام ، إننى كنت أرى كلبا مسعورا داخل نفسى يجرى حول المدينة دون هدف ، فحبسته داخل هذا الدير وأغلقت الباب وقضيت عليه ، وهذا الأمر حدث للكثيرين فى الحياة وقد حدث لى الآن داخل هذا الدير ، لقد تركت الزوجة والابن وقيدت كلبى داخل سجن ، وأنت قيد كلبك أيضا حتى لايتجول حول أصحاب الوجد بصفة دائمة ، قيد كلبك عن الأطماع حتى لا تمسخ غدا .

وهكذا قال الرسول لسائل : إن مسخ أمتى فى القلوب ، قلبك ضحية للنفس السيئة المذهب ولك شواهد سابقة لضحايا هذا المذهب ، لقد حبستك النفس أفراسياب فجأة فى غيابة الجب مثل بيزن [٩٥]، ولكن جاءت اكوان الجنية لمحاربتك ووضع أفراسياب الحجر على فوهة هذه البئر ، حجر ليس لرجال الدنيا القدرة على تحريكه .

فيلزمك إذن رستم فى هذا السبيل ليرفع عن البئر هذا الحجر الثقيل ، ويخرجك من هذا البئر المظلم ويحضرك إلى الخلوة الروحانية ، ويوجهك من بلاد الترك المليئة بمكر الطبيعة إلى إيران الشريعة ، ويفسح لروحك السبيل إلى كيخسرو فيضع كأس جمشيد بين يديك ، وترى فى الكأس كل شىء ذرة ذرة عيانا ، خالدا ، ماثلا أمامك مثل الشمس ، رسمتك فى هذا السبيل هو الشيخ فرخش[٩٦] دولته حامل للأثقال .

للكلب المجنون عندما ينبح أثر واضح بين الناس ، فاجلس مع رجل الطريق الصادق فله تأثير قوى ، وكل من يرعاه شيخ يتحول كل تقصيره إلى كمال وتوقير ، لكنك لست شيخا ولا مريدا فأنت لحظة أبو يزيد وأحيانا أخرى يزيد ، إلى متى تكون برجا ذا حسدين تتأرجح بين الكفر والإيمان ، لست رجل خرقة ولا صاحب زنار لست هذا ولاذاك ، لكنك الانسان معا ، ابتعدت عن الإسلام بحمقك و لم تصل إلى المسيحية الحقيقية .

٥. قصة إسلام رجل (١٨٩٠:١٨٩٥)

أسلم رجل وفاز بإسلامه وفى اليوم التالى احتسى ذلك الجاهل الخمر ، وعندما رأته أمه ثملا ، قالت له والألم يعتصرها يابنى ماذا فعلت إذن ؟ لقد أغضبت عيسى منك سريعا و لم تسعد محمدا ، إن سلوك الطريق لشبيه المخنث غير مستحسن لأن الأحمق لا يتحلى بصفات الرجال ، تشدد فى الدين الذى تعتنقه فالتهاون فى الدين عبادة أصنام .

٦. قصة عمر والتوراة (١٨٩٦:١٩٠٢)

أمسك عمر بجزء من التوراة وعندما وقع بصر الرسول عليه قال له : لا يمكن العبث بالتوراة إلا إذا تحولت كلية إلى اليهودية ، واليهودى الصرف يجب أن يظل على دينه أفضل من أن يصبح مؤمنا ضعيفا ، فلا تلوث الدين فى اليهودية وإن تمسكت بدينك تكن رجلا ، وأنت لست هذا ولا ذاك وهذا حرام فالنقص فى الدين معيب ، إنك لست قويا لا فى الكفر ولا فى الإيمان فقل إذن فى أى مقام أنت .

٧. قصة مجوسى شيد جسرا (١٩٠٣:١٩٤١)

شيد شيخ مجوسى معروف يعتنق المجوسية أبا عن جد جسرا من أمواله الخاصة أفاد به المسافرين .

وحدث أن مر سلطان الدين محمود المظفر ذات يوم بالقرب من ذلك الجسر فشاهد الجسر فوق نهر مواجه للطريق مشيدا بطريقة محكمة وجيدة ، فسأل محمود أحد الأشخاص قائلا : من شيد هذا الجسر ؟ وفعل هذا الخير العميم ، قالوا له : شيخ مجوسى معروف وبسبب التعصب مكث الملك هناك ، واستدعى المجوسى وقال له : إنك شيخ ولكن اعتقد أنك عدو للمؤمنين ، فتعال وخذ الذهب الذى أنفقته على تشييد جسرك ، خذ ثمنه كله منى ، ولأنك مجوسى وروحك لا تعرف الرحمة ، فكيف يكون هذا الجسر الذى يعلو النهر لك ؟ إن لم تأخذ هذا الذهب فامض فكيف تظهر معى فوق الجسر !

تحدث المجوسى بثبات قائلا : لو يمزقنى الملك إربا إربا ، فلن أبيع الجسر ولن آخذ ذهبا فى مقابله لقد شيدته من أجل الدين ، فسجنه الملك وأمر بتعذيبه ومنع عنه الخبز والماء ، وعندما تجاوز العذاب حده دمى قلب المجوسى ، فاستسلم ، وأرسل رسالة إلى الملك قال فيها : انهض وامتط شبديز[٩٧] فى الحال ،واحضر معك أستاذا فاضلا ليثمن هذا الجسر.

سر ملك الزمان لهذا وتوجه إلى الجسر مع خلق كثيرين ، وعندما وصل الملك إلى هناك ومعه كثيرون وقف المجوسى الفطن فوق الجسر ، وتحدث عندئذ وقال : أيها الملك اطلب

منى الآن ثمن هذا الجسر ، فسوف أنهى حياتى من فوقه وبذلك أكون قد أجبتك ، انظر هاهو الثمن أيها الملك العظيم قال هذا وقفز فى الماء فورا .

وما أن ألقى بنفسه فى الماء حتى سحبه الماء وسلبه روحه وجسده ، خسر جسده وروحه ، ولم يفرط فى دينه ولم يضح بدينه فى سبيل دنياه ، ألقى عابد النار بنفسه فى الماء حتى لايتطرق الفساد إلى دينه .

أما أنت فعلى هذا النحو فى الإسلام سحبك الماء إلى الأبد ، لأن المجوسى صاحب وجد أكثر منك فتعلم الإسلام إذن من مجوسى ، ومن تتوفر له الجرأة فى الآفاق كلها ويحمل إلى الحق نقدا زائفا ؟ إن يوم القيامة يلزمه نقد صحيح لازيف فيه يليق بمعيار الناقد ، فى تلك الساعة التى تنفصل فيها روحك عن جسدك كيف يقابل قلبك الملىء بالأصنام الحق ؟ تخل عن كل هذه الأصنام ، الكائنة معك فلا يمكن مقابلة الحبيب بمعبد أصنام ، إذا ما شلت قدم شخص كيف يتأتى له الصعود إلى المنبر ، وكما لا يمكن الصعود إلى المنبر بقدم مشلولة لا يصل القلب النائم إلى الله .

إن استيقظ شخص للحظة تدوم هذه اللحظة ، على قصرها ، وأنت استرحت طوال عمرك فى الغفلة ولم تر وجه الاستيقاظ لحظة واحدة ، من يعانى من مثل هذا النوم الثقيل عندما يستيقظ يموت ، إنك أيها الرجل غافل عن أمر نفسك فمن سيتولى أمرك إذن ؟ احمل حملك دون عناد وافعل بنفسك أمرا يمكنك إتيانه ، لأن أحدا لن يهتم بأمرك ولن يحمل حملك بدلا منك لحظة واحدة .

٨. قصة سؤال درويش لجعفر الصادق[٩٨] (١٩٤٢:١٩٥٩)

حدث أن سأل درويش جعفر الصادق سؤالا بإخلاص ، لما زهدك هذا ليل نهار ؟ فأجابه الشمع المبهج ، كما أن عملى لا يؤديه شخص آخر كذلك لايقسم رزقى لأحد سواى ، ولأن عملى لى فيجب أن أبعد الطمع عن عاتقى ، ولأن رزقى مقسوم لى منذ الأزل فلم يعد لدى حرص ولا طمع ، ولأن الموت مكتوب على فقد خطوت تجاهه ، ولأنى لم أشعر بوفاء عند الناس اخترت الوفاء للحق بروحى وقلبى ، وانصب كل تفكيرى على هذا الزهد وعندما أمعنت فيه تركته أيضا .

وأنت لا أعلم كيف تعيش داخل نطاق نفسك ؟ ومتى تعود إلى ذاتك من هذا التشتت ؟ رغباتى ورغباتك وهمية إذا ما أردت أن تصبح حقيقية ، اتجه جهة واحدة مثل الكعبة وإن كنت منا فلما تحيا كفصى النرد ، إنك لم تخلق عبثا ولم تخلق مجازا ، حذار أن تضيع عمرك وتفقده فى الشراب أكثر من هذا ، ألاتعلم أنه فى كل ليلة يسرع الصباح ويشق لك فى النوم جيب العمر ، أخشى أنه عندما تستيقظ لا تجد أى نفع لك ، وتصبح

ذليلا ، كل عملك يبدو لهوا وتبدو صلاتك باطلة ، الصلاة التى أديتها بغفلة لن تجد كسرة خبز ثمنا لها .

٩. قصة مجذوب وقيمة الصلاة (١٩٦٠:١٩٦٧)

قالوا لمجذوب من أهل الملامة : فى يوم القيامة ، سوف ينادى شخص على صلاته طوال عشر سنوات فى كل مكان ، فلا يشتريها أحد منه بكسرة خبز مهما أطال فى حديثه عنها للخلق ، ويجيبه المجذوب لأنها لا تساوى ، صلاته كلها لا تساوى الخبز ، وإلا لاشتراها خلق الوادى ولما احتاج للتدليل عليها ، لو ينسج خيالك مائة أمر لايخطر على بالك إلا فى صلاتك ، وعندما تكون صلاتك مجازا على هذا النحو فهى فى الحقيقة ليست صلاة .

١٠. قصة مجذوب وصلاة الجمعة (١٩٦٨:١٩٨٠)

كان مجذوب من أهل السر لا يفعل أى شىء سوى الصلاة ، فألح عليه شخص كثيرا حتى جاء إلى صلاة الجماعة يوم الجمعة .

الحاصل ما أن رفع الإمام صوته حتى بدأ المجذوب بصدر أصواتا ، بعد الصلاة سأله هذا الشخص ، ألم تخف روحك فى الصلاة من الحق ؟ ، انك أصدرت صوت بقرة على مسمع من الجمع ، يجب قطع رأسك مثل رأس الشمع ، قال المجذوب : هو إمامى الذى اقتدى به ، واقتدائى به جائز ، إنه كان يشترى بقرة فى (الحمد) ، فسمع منى صوت بقرة أيضاً ، لقد اهتديت به فى كل شئ ، كل ما يفعله أفعله أيضاً .

فتقدم الرجل من الخطيب بسرعة ، وسأله عن هذا الأمر بالتفصيل ، فقال له الخطيب : عندما أتممت التكبير ، تذكرت قرية ملكى فى مكان قصى ، وعندما بدأت فى قراءة الحمد ، جال فى خاطرى بقرة القرية ثانية ، وأنه ليس لدى بقرة ويجب أن أشترى واحدة ، وعندئذ سمعت من الخلف صوت بقرة .

المقالة السادسة (١٩٨١ : ٢٢٢١)

قال له الولد : حيثما وجد الناس ، تزخر قلوبهم بالأهواء ، لا يتخلون عنها ، ولا يخطون دون رياء ، ولأن هذا متأصل فى نفوسهم حتى اليوم ، ولأننى لا أرى قلبا قد انتصر على نفسه ، فلأحقق أنا أيضا ، بالسحر قليلا من رغباتى ، ثم أتوب عنها فى النهاية ، ولن يلحقنى ضرر كبير يا أبى .

إجابة الأب (١٩٨٧ : ١٩٩٧)

قال له الأب : أيها المغرور ، البعيد عن أسرار الحقيقة ، لا تضع الحياة اليوم ، فأنت تعلم أنك لن تبقى غدا ، إنك تذهب إلى بابل أيها الشيخ ، لتتعلم السحر من هاروت وماروت ، مضت آلاف الأعوام ، وهذان الملكان مقلوبان فى البئر عطشى ، والمسافة بينهما وبين ماء البئر ، شبر واحد يا له من طريق عجيب ، ولأنهما لا يستطيعان أن يسقيا نفسيهما ، فأى باب يمكنهما فتحه لك ، عندما يكون الأستاذان مضطربين هكذا ، فماذا سيفعل تلميذهما ؟

أراك اليوم وقد صرت شيطانا يقول : سوف أصبح ملاكا غداً ، ربما يسرع بك الموت إلى بابل ، فهو يجرى بك وأنت ضال وغافل ، و لو لم يكن موتك فى بابل ، لما ظهرت هذه الرغبة فى قلبك .

١ . قصة عزرائيل وسليمان (١٩٩٨ : ٢٠٢٣)

سمعت أن عزرائيل قابض الأرواح ، ذهب ذات يوم إلى إيوان سليمان ، وظل يسلط نظره على شاب ، كان يجلس أمامه ، وما أن شاهده الشاب أمامه حتى تداعى ، واستبد به الرعب ، وقال لسليمان : أسرع ومر ، حتى تتحرك الرياح الآن سريعا ، وتحملنى من هنا إلى مكان قصى ، فقد أفزعنى الخوف من الموت .

فأمر سليمان فحملته الرياح فى الحال ، من فارس إلى بلاد الهند ، وعندما انقضى يوم على هذا الأمر ، عاد عزرائيل إلى عرش سليمان ، فقال له سليمان : أيها المجرد من سيف باتر ، لماذا سلطت بصرك على الشاب ؟ فأجابه عزرائيل عندئذ ، لقد صدر الأمر لى من الحضرة : أن أقبض روحه فى بلاد الهند ، بعد ثلاثة أيام على حين غرة ، وعندما رأيته هنا بقيت حائرا ، كيف سيذهب من هنا إلى هناك فى ثلاثة أيام ، وعندما حملته الرياح إلى بلاد الهند ، ذهبت إلى هناك وقبضت روحه .

حسبك هذا القصة على الدوام لتعرف أن تجنب القدر محال ، ماذا يتأتى من تدبير البشر ، إن مآله كله إلى الفشل ، انظر إلى كل شئ من منظور التقدير الأزلى ، ولا تكن أحول النظر ، إن عمله لا يشبه عملك ، فهو إن يقطف وردة ، يصبك أنت الشوك ، كل من يشعر بالثنائية مشرك ، و بلاؤنا هو أنا وأنت ، عندما ترتفع الثنائية ، تتحد الارادة .

إن أرقت الدماء الغزيرة من كل هدب ، ستجد عينيك قد أغمضت إن هممت بفتحهما ، لأن يدك قد قيدت أيها التعس ، فماذا يتأتى منها فى نهاية الأمر : لأصحاب العقول

معاناة فى الدين ، أما أنت فسوف تجد نفسك محاطا بالسحر ، الدنيا قاطبة عين للألم والمعاناة ، لذلك لم يفز فى ميدانها المغرورون ، لم تشعر بالمعاناة فى الدين لحظة واحدة ، لأنه لا اهتمام لك إلا بالمحال ، إن تحققت لك ذرة واحدة من المعاناة فى الدين ، تكف عن التعلق بالحياة ، ولكن لأن كبدك لم يجرب طعنة السيف ، فلن تدرك الألم أبدا،ولا الندم .

٢ . قصة شاب جرح بحجر المنجنيق (٢٠٢٤ : ٢٠٤٥)

كان لشاب صديق قديم ، أصابه جرح من حجر المنجنيق ، وبينما كان يتلوى وسط التراب ملطخا بالدماء ، وهو فى النزع الأخير ، ولم يبق من حياته سوى لحظات ، سأله صديقه أثناء احتضاره : قل كيف تشعر ؟ أجابه : إنك لمجنون ، إن يصبك حجر من منجنيق ، تعرف حال صديقك ، ولكن كيف تعرف وأنت لم تصب بحجر ؟ قال هذا وفارق الحياة .

وأنت ماذا تعلم عن الآلام التى يعانيها الرجال ، فهى لا يعلمها إلا الرجال ، إن خبرت دائى فاصنع لى دواء ، وإلا فاذهب واجلس حيثما شئت ، نصيبى مثلنا جميعا تحت الضباب ، فوا أسفاه ، وأسفاه ، وأسفاه ، لى هناك مئات الأنواع من الآلام ، كل ألم عظيم كمائة جبل ، إن أقص قصة ألمى ، لليم وأمام الجبل ، يصر البحر مثل الحجر من الألم ، ويصبح كل الجبل دمعا مثل البحر .

وقد نقل وتواتر فى الأخبار ، أنه مع بزوغ الشمس كل يوم ، تظهر سبعون سحابة من الغيب ، بين أرجاء العالم وفى السبع سيارات ، وكل قلب يمتلئ بالوجل من الحق ، تمطر عليه تسع وستون من هذه السحب الآلام والمحن ، ولكن كل قلب يمتلئ بالصبر من الحق ، تتنزل عليه كل السعادة من سحابة واحدة .

الأرض والسماء بحر للآلام ، لا يغرق فيه الرجال ، لأننى أتخذ منزلا على ساحل البحر ، فخوفى من الموج خالد ، لقد غصت إلى بحر أيها الصديق ، غرقت فيه مئات الآلاف من الأرواح ، ولأن أرواحا كثيرة تغوص فى كل لحظة ، فكيف يمكن مشاهدة نصف روح منها ، ليس من المستغرب أن أختفى مرة واحدة ، العجيب هو أن أطفو .

٣ . قصة مجذوب مصرى (٢٠٤٦ : ٢٠٥٤)

كان فى مصر مجذوب ، له قول فى عين اليقين ، قال : كل مجذوب فى الطريق ، يموت فجأة من حب المعشوق فلا عجب ، الغريب هو أن ذلك الوجد ، يترك العاشق حيا

يوما واحدا ، فإن بقى العاشق حيا يوما واحدا ، يكون مثل الشمع بين الدمع والاحتراق ، لن يكتسب أمر العاشق رونقا ، إلا عندما يحترق بنار الهجر مثل الشمع ، لأن حرقه العاشق أكثر من مائة شمعة ، فضياؤه مثل الشمعة من حرقتة.

وأنت لم تكن أبدا من سالكى هذه الطريق ، ولم تعلم سر العشاق ، ماذا تعلم عن أحوال العاشق ؟ فمكان سجوده فوق المشنقة ، يجب أن يغتسل بدمائه ؛ حتى تشاهد مكان سجوده .

٥ . قصة متصور الحلاج[١٠٠] فوق المشنقة (٢١٢٤ : ٢١٣٦)

عندما قطعوا يدى الحلاج فجأة فوق المشنقة بقسوة ، مسح الحلاج على وجهه وساعده بقدمه من الدماء التى أريقت من يديه ، فقالوا له : أيها البائس لماذا لوثت بدنك بدمائك ، فقال : من عرف سر العشق يجب أن يتوضأ لصلاته بالدماء .

وأنت إن لم تتوضأ بالدم فصلاتك باطلة ، اخط فى جادة المعشوق مثل الرجال ولا تخش وصمة أو عارا من مخلوق ، فكل قلب قائم بالقيوم لايخاف لومة لائم ، تعال برجولة وتقيد بأمر الله وابتعد عن الأغيار ، وكن للحبيب ، إنك تهيم حول العالم مثل الفلك اخط خطوة أوسع من وجودك برجولة ، إن سيطر عليك عشق مثل هذا العالم الوضيع تألم أعضاؤك من الخجل ، ما أكثر الأسود أصحاب القوة الذين صاروا بقوة العشق مثل النمل ، وأنت أقل من نملة فى القوة والحيثية عندما تواجه العشق .

٦ . قصة عشق المجنون (٢١٣٧:٢١٤٩)

عندما كان المجنون يشاهد ديار ليلى كان يتداعى ويجرى ، ويصير وجهه أصفر اللون كالزعفران ويصبح شعره كالسنان ، وتستولى الرعشة على أعضائه فكأنه ثعلب أمام أسد غاضب ، فقالوا له : عندما تكون بعيدا لا يرى أحد قط من يماثلك شجاعة ، فأنت لاتخاف أسد الغابة ولاتخشى النمر أبدا ، تتجول بين الجبال وتجوب الصحراء وبرجولتك لاتقيم وزنا لأى شىء فى العالم ، وعندما تظهر لك ديار ليلى تمتقع وترتعد مثل شجرة السفيدار [١٠١].

فقال المجنون الحزين آنذاك وهو الشخص الذى لايخشى العالمين : انظر إلى قوة ساعد الأسد وكيف ألقى به العشق تحت قدميه كنملة ، مهما توفر لكائن من قوة فهى مجرد ريح أمام قوة يد العشق .

٨. قصة الأعمى والشيخ نورى[١٠٢] (٢١٨٥:٢١٩٨)

كان ضرير يسير فى الطريق ويقول : الله ، وما أن سمع نورى اسم الحق منه حتى جرى إليه متلهفا ، وقال له : ماذا تعلم عنه ؟ وإن كنت تعلم فلما تبقى سجينا ؟ قال هذا وغاب عن الوعى وكأن روحه الملتاعة قد فارقت جسده ، وانطلق فى وجده هذا إلى الصحراء ووجد فى طريقه ، مزرعة قصب وبها قصب محصود ، فأخذ يضرب نفسه على القصب حتى مزق جسده إربا إربا من الجروح ، وفى النهاية فاضت روحه ببؤس مع دمائه التى نزفت منه بغزارة ، وعندما نظروا إليه وجدوه ميتا ومكانه كله مغطى بالدماء ، ومكتوب بدماء صدر قتيل الطريق هذا فوق كل عود قصب "الله" .

هكذا يجب سماع النداى والقتل بالقصب والراحة فى الدماء ، عندما تستمع إلى اسم الحبيب كن بحرا ناريا بكل ذرة فيك ، فإن لم تفن فى العشق فذلك العشق ليس إلا مجازا وإن كنت فى العشق من أهل السر تفدى الحبيب بحياتك بصدق .

٩. قصة الشيخ أبى القاسم الهمدانى (٢١٩٩:٢٢٢٠)

حدث أن غادر أبو القاسم الهمدانى همدان فجأة وفى طريقه مر على معبد للأصنام ، كان الخلق قد تجمعوا حوله للمشاهدة ، وشاهد فوق النار وعاء مملوءا بالزيت كان يغلى مثل البحر الهادر ، وبعد لحظة أقبل عابد ، وتقدم أمام الصنم وأحنى رأسه ، فسألوه : يا من أحنيت رأسك ، من أنت بالنسبة لله ؟ فقال : عبد ، فقالوا له : إذن ضع هديتك بسرعة ، فوضع هديته وانطلق مثل الدخان ، وجاء شخص آخر وفعل مثل الأول .

واستمر الأمر على هذا المنوال إلى أن بلغوا عشرة أشخاص ، وفى النهاية تقدم شخص آخر ، رجل ضعيف وواهن وبائس ، أعجف وعاجز وممتقع اللون ونحيف ، كأنه ميت مسجى ، سألوه : من تكون ؟ إنك تشبه الموتى وأنت حى فقال : إننى بمجرد جلد ، أنا عاشق للإله نفسه ، وما أن قال هذا الكلام حتى قالوا له : اجلس فجلس مطمئنا فوق كرسي ذهبى ، واحضروا ذلك الزيت المغلى ، وصبوه فوق مفرقه دفعة واحدة ، فسقط الرجل المسكين فورا ، بتأثير إناء الزيت ، وعندما انتهى ذلك البائس سريعا ، أحرقوه تماما ، والتراب الذى تبقى من رماده دواء لكل داء .

عندما شاهد الشيخ هذه الأحداث هرب من الدير وأخذ يستعيد هذه القصة فى نفسه ، كان يقول فى سريرته : أيها المشغول باللعب إنك مثل العابد الذى جاء لحبيب مجازى ، لو كانت روحك جديرة بالأسرار لفنيت من أجل الحبيب ، كن هكذا أنت أيضا فى

حب الحق وإلا فلتكن جليسا للمخنثين ، فهكذا كان الرجل فى حب صنم وإن كنت عاشقا لحق اليقين ، افن روحك أو اترك دينك وعندما لا يمكنك فعل ذلك افعل هذا .

المقالة السابعة (٢٢٢٢:٢٤٨٩)

قال الولد لأبية : إن العشق أ مر رفيع ، فمن ذا الذى يعلم كيفية بلوغ أوجه ؟، يمكن الارتقاء إليه بقدر الجهد و الوصول إلى غايته درجة درجة ، وأوج العشق روح محترقة ، أنى لشخص أن يدركها فى يوم أبدا ؟ ، ويدى لاتصل إلى غصن العشق، فلماذا أتظاهر بوجودى هناك دائما ، لا أستطيع نزع السحر عن خاطرى ، فيجب تحقيق هذا الأمر لى ، وأنا أتطلع إلى ما يريده قلبى ، وإن لم يتحقق لى مرادى يدمى قلبى.

إجابة الأب

قال له الأب :الشئ الذى يجب أن تطلبه ، هو ما يتفق مع حضرة العزة ،لأنه إن لم يكن ما تطلبه لائقا ، فلن يحقق لك سوى الضياع.

١. قصة عيسى والاسم الأعظم[١٠٣] (٢٢٣٢ : ٢٢٥١)

طلب شخص من عيسى ذات يوم قائلا: علمنى الاسم الأعظم للحق ،قال له المسيح :إنك لست جديرا بهذا ، فلماذا تريد أمرا لا يتفق معك ؟ أقسم له الرجل كثيرا قائلا : يجب أن تعلمنى هذا الاسم ، وفى النهاية عندما علمه الاسم الأعظم ، أضاء قلبه مثل الشمع من السرور .

و ذات يوم وبينما كان الرجل يسير فى الفلاة، و ينطلق مثل ريح عاتية ، شاهد فى وسط الطريق حفرة مليئة بالعظام ، ففكر ووجد أنه من المناسب ،أن يستعمل الاسم الأعظم ، وأن يذكره على سبيل التجربة ، فطلب من ربه بحق ذلك الاسم ، أن يحيى تلك العظام، وما أن تلفظ بذلك الاسم، حتى اتصلت العظام ببعضها البعض وحل بها الروح و ظهر أسد، تخرج ألسنة النار من عينيه، ونشب الأسد مخالبه فى الرجل و قتله، و انتثرت أشلاء الرجل بين مخالب الأسد ، فالتهمه بقسوة ، وترك عظامه وسط الطريق ،و سرعان ما امتلأت الحفرة التى كانت بها عظام الأسد ، بعظام الرجل.

و عندما سمع المسيح ذلك ثار ، وتحدث وقال لحوارييه: من يطلب من الحق شيئا و هو غير جدير به ،لا يحققه الحق له ،لا يمكن طلب كل شئ طيب من الحق ، فلا يمكن طلب شئ إلا على قدر الطالب ، لو تكتمل لك اللياقة ،يتحقق لك أكثر مما تريد ، إن كان

عملك هو الدعاء و النحيب ، فعمله هو العطاء المحض، لماذا تتعلل وتدعى ؟ فهو يغفر لمن يستحق .

٢. قصة النمرود[١٠٤] (٢٢٥٢:٢٢٦٧)

بعد أن عاش النمرود ثمانيمائة عام ، ساءت أحواله ، فلو أنه كان كالفيل فى تكبره ، إلا أن بعوضة قطعت عليه الطريق ، فأيقن أن الله سلط عليه هذه البعوضة ، لأنه لا يؤمن به ،فقال لإبراهيم :من الواضح الآن، أن كنوزى تتعدى الآلاف ، وكلها زاخرة بالذهب الأحمر و الجواهر ، أ منحها لك لتدعو لى ، حتى يمنحنى الحق تعالى ، من فضله ورحمته كما لا بنور الإيمان .

عندئذ سجد الخليل، وتحدث قائلا : أيها الملك المنزه ، انزع القفل عن قلب هذا الجاهل ، و حطم قيوده وافتح بابه، وامنح روحه الثملى إيمانا متجددا، وحطم أصنامه بفضلك.

فجاء الهاتف من الحضرة ، أيها النبى لا تهتم بأمره و لا تتألم لحاله ،فالإيمان بنا لا ثمن له ، و جوهر الإيمان هو العطاء و البذل، إن أردنا و قدرنا، يتحول غير المسلم إلى مسلم، الواصلون الذين عرفوا استغناءه ، ما غفلت أعينهم ليلا ولا استراحت قلوبهم نهارا، كانوا أمام مركز الأسرار مثل العميان رؤوسهم جميعا حائرة مثل الفرحار، لأنه ليس لأحد علم بنهايته، فلا يستشعر أحد منهم سوى الخوف و الخطر .

٣. قصة شخص غير مسلم مع أبى يزيد[١٠٥] (٢٢٦٨:٢٢٨٢)

جاء شخص غير مسلم من السوق إلى أبى يزيد ، و هو يعقد الزنار على وسطه، ثم أسلم وترك الشك ، ومزق الزنار ، وعندما مزق المسلم الحديث العهد الزنار ، بكى الشيخ بحرقة ، فقال له شخص : أيها الشيخ ، لماذا تبكى و المفروض أن تسعد ؟ قال : لقد غلبنى البكاء ، فكيف يمكن بعد سبعين عاما ، أن يفك شخص عقد الزنار عن وسطه ويحول ضره إلى نفع فى لحظة واحدة ، لو يعقد هذا الزنار على وسطى ، فماذا أفعل ؟ وكيف أسلك ؟ لذلك أبكى ، ولو أن هذا الزنار الذى مزقه الآن ، عقد لشخص آخر ، فما هى الوسيلة ؟

لو أن تمزيق الزنار ليس خطأ ، فلماذا لا يجوز عقده ؟ كيفية الخروج من هذا الأمر تقتضى ، الشجاعة الفائقة ، و بذل الدماء ، وفقد الوجود ، لو كان للروح هنا أي قدر ،لما كان موت الإنسان مجرد قتل لحيوان ، إن ترتفع هامتك إلى الفلك، أو تجعل

وطنك داخل البئر، أو تحطم رأسك ، أو تعاند، فلن تختلف نهايتك عن هذا ، و لا بدايتك، ولو حقر شأنك أو طالت هامتك ، يتساوى الأمر في الاستغناء .

٤. قصة مجذوب أمام الكعبة (٢٢٨٣:٢٢٩٣)

ظل مجذوب طول الليل حتى الصباح ، يبكي ويلتاع أمام الكعبة ، كان يقول بسعادة : إن لم تفتح الباب لى ، فسوف اضرب رأسى على الباب بدلا من الحلقة ، حتى تكسر رأسى فى النهاية ، و يتخلص قلبى من هذا الاحتراق الدائم ، فجاء صوت هاتف حينئذ ، كانت هذه الكعبة ممتلئة بالأصنام ، فتحطمت كلها داخل الكعبة ، فلتحطم أنت صنما خارجها ، إن حطمت رأسك من الخارج، تكون قد حطمت صنما .

مثل هذا السر يعظم فى هذه الطريق و البحر لا يتسع لقطرة واحدة منه ، عندما سمع العظيم صوت الهاتف ، ووقف على الأسرار الخفية ، سقط على الأرض ، وسالت الدماء من عينيه ما أكثر الأرواح التى يمكن أن تدمى من مثل هذا الحزن ، إننا لا يمكننا تغيير قدره قط ، لذلك وجب عليك النواح طويلا بذل .

٥. قصة أيوب (٢٢٩٤:٢٣٠١)

هكذا رووا أن النبى أيوب ، قضى عمره فى بلاء شديد ، تحمل الآلام من ذئاب الدنيا ، و ابتلى بالمرض طويلا ، فجاءه جبريل قائلا، أيها الطاهر لماذا تصمد ؟ نح بروحك الحزينة ، فعلى الرغم من أنك تهلك فى كل لحظة، إلا إن الحق مستغن عن ذلك ،و لو قضيت عمرك صابرا ، فلن تأخذ أكثر من نصيبك ، القدر فرجار دائر ، لا يعرف أحد مركزه ، ولا يعلم قلب عن قلب شيئا ولا روح عن روح ، لكن الحياة مستمرة دون هذا ولا ذاك .

٦. قصة يوسف الهمذانى[١٠٦] (٢٣٠٢:٢٣٢٢)

هكذا روى يوسف الهمدانى الذائع الصيت ، و الشمع المنير ذات يوم : قال الأسرار ليوسف : يا من أسرت قلب زليخا ، لقد أصبحت عاجزة بلا صديق ، تعانى من المرض بسبب بعدك عنها ، سلبتها قلبها فى الحياة ، فهل يمكنك أن تعيده إليها ، فقال يوسف عندئذ : لم أسلب قلب تلك العجوز البائسة ، لا علم لى بأمرها ، ولم أسع إلى عشقها ،وليس لى شأن بقلبها ، ولم تراودنى هذه الفكرة مطلقا ، و هذا أيضا محال لأنه قد مضى على الآن عشرون عاما ، منذ أن فقدت قلبى ، و الشخص الذى لا يعرف سر

قلبه ، كيف له أن يجد السبيل إلى قلب شخص آخر ؟

و سأل العزيز زليخا : كيف سلب يوسف قلبك ؟ اصدقينى القول ، إن كنت تفخرين بقلبك و إن كنت تريدين استعادته من يوسف . أقسمت زليخا قسما قويا : إننى لا أعلم شيئا قط لا أعلم لماذا عشق قلبى ، و إن كان قد عشق ذات يوم مرة فأين ذهب ؟

لأن يوسف لا يتحكم فى قلبه ، وزليخا أيضا لا علم لها بقلبها ، فلا هذا ولا تلك كان لهما علاقة بالأمر ، لم يكن هذا معشوقا ولا تلك عاشقة ، والآن أين صار هذا القلب ، ماذا أقول عن هذا الطلسم وهذه الذرائع، ما أجمل الصولجان الذى قذف بالكرة، من الشرق صوب الغرب ! ثم قال عندئذ : انتبهى أيتها الكرة المسرعة ، اذهبى إلى هناك حتى لا تسقطى فى أعماق الأرض ، وإن اعوج مسارك أيتها الكرة فى الطريق ، تخلدين فى النار وفى غيابة الجب ، ولأن سير الكرة ليس بدون رام ، فالذنب ليس ذنب الكرة الطائشة ، وعلى الرغم أن ذلك الذنب ليس من عملك ، إلا أنه فى عنقك .

٧. تشبيه الأزل بالقوس (٢٣٢٤:٢٣٢٩)

قال عظيم : الأزل كالقوس تنطلق منه آلاف السهام كل لحظة ، و من جهة أخرى الأبد هو الهدف ، ولا يمكن الهروب من هذا ولا من ذاك ، وكل سهم يصوب من القوس بنجاح ، يتطلب عناية قاذف السهم ، وكل سهم يخطئ طريقه ، تنصب اللعنة على السهم حينئذ ، ولا أعلم حالا أعجب من هذه الحال، فقد دمى قلبى ، ولا أعلم شيئا آخر.

٨ ـ قصة أبى بكر سفاله (٢٣٣٠:٢٣٣٦)

هكذا قال أبو بكر سفاله : يحيلوننى دائما إلى الماء ، فيقولون : أحلسنى فى الماء وقال : لاتبتل أبدا أيها العاجز[١٠٧] ، على الرغم من أنك غارق ، ولكن إن ابتللت تكون من المذنبين لاتبتل وإن وجدت فى الماء دائما وفى هذا الصدد ماذا يساوى أسد الغابة ، من يعلم كيفية هذا الألم وكيف يغرق الرجال بسببه فى دمائهم بذلة ، إن حل بك هذا الألم لاكتسبت الحياة الدماء من قلبك .

٩ ـ قصة السلطان محمود ومجذوب (٢٣٣٧:٢٣٥٠)

ذات يوم دخل محمود إلى مكان خرب فرأى مجذوبا قد استبد به الوجد ، كان يرتدى عمامة من النمد وقد استغنى عن العالم بخيره وشره ، ومضت فترة وبدا كأنه يعانى من

ألم عظيم ، فلم يعر السلطان انتباها للحظة و لم ينس أحزانه برهة ، فقال له الملك : ما الذى يحزنك ؟ كأنك تحمل مائة جبل على قلبك .

انطلق الرجل يتحدث من خلف حجاب الأسرار : يامن ترعرعت بين شتى أنواع النعيم ، لو كانت لك قبعة من هذا النمد أيضا لوجدت سبيلك إلى هذا الألم ، ولكن ماذا تعلم أنت عن قسوة آلام الانفصال وسط مظاهر الملك ، فالشمع ناعس هنيء مع العسل لايعلم شيئا عن النار ولاعن المقراض ، ولكن عندما يصنعون الشمع منه يمنعون من احتراقه ضياء للجميع ، عندما يصير الدمع والنار تاجا له يعلم ما سوف يحدث له .

وأنت أيضا لا تعرف نفسك حتى هذه اللحظة ولكن عندما تقبض روحك ، سوف يتضح لك بكل نفس فيك أنك كنت ميتا فى الحياة .

١٠ . قصة شجرة مقطوعة (٢٣٥١:٢٣٦٠)

قطع رجل شجرة خضراء وفجأة مر عليه رجل من أهل المعاناة ، فقال : إن هذه الأغصان القوية التى فصلت الآن عن جمعها ، هى غضة ويانعة على قارعة الطريق لأنها لا تعلم بأمر البتر بعد ، لم تشعر حتى الآن بالأذى وسوف تعلم به بعد أسبوع آخر .

إنك لن تعلم بأمرك الآن ولكن عندما يفارقك طائر روحك ، فسوف ترى كان أسيرا فى الشرك بسبب الحبة التى ضحى بالجنة فى سبيلها ، فعندما أطعم آدم طائر روحه القمحة ، خرج من الجنة الخالدة ولكن لو لم يأكل آدم القمحة لأكل الناس بعضهم البعض ، إن جمحت منك الطيور والحيوانات فلأنك تأكلها ولهذا يفرون منك .

١١ . قصة حسن البصرى ورابعة[١٠٨] (٢٣٦١:٢٣٨٢)

خرج حسن من البصرة ذات يوم وقدم إلى رابعة فى الصحراء ، حيث يوجد كثير من الوعول والغزلان وقد تحلقت رابعة ، وما أن شاهدت الحيوانات حسناً قادما من بعيد حتى جفلت جميعها من أمام رابعة ، وعندما شاهد حسن ذلك تأثر وأخذته الحمية لحظة ، ثم سأل رابعة بصدق لماذا لم تهرب منك حيوانات هذه الناحية ، وفرت عند مشاهدتى ؟ هل رأت معى ما أفزعها ؟ .

فاستطلعت رابعة الأمر متسائلة : ماذا أكلت اليوم ؟ قال : بصل مطبوخ ، كان عندى الآن أيتها التقية بصل وقليل من الدهن ، أذبت الدهن وتناولته عند خروجى بشهية ،

وعندما علمت رابعة منه هذا الأمر أصدرت - ويالعجب - صوت رجل قائلة : لقد أكلت من شحم هذا القطيع المسكين فكيف لايهرب منك ؟

إن تأكل قليلا مثل النمل تقل وجبة دود قبرك ، وإن تتناول كل يوم تمرة واحدة تسلم من ديدان التابوت ، إن الديدان تنتظر جسدك ويكفيها تمرة واحدة ، و ها أنت تتقوى بالماء والخبز وتملأ بطنك فى نهم ، وتلازم الخلاء والمطبخ أيها الرجل ولا يضيق قلبك بهذين الجحيمين : تأتى من جحيم إلى آخر فما أن تخرج من الخلاء حتى تدخل إلى المطبخ ، و لأنك لا تهدأ لحظة عن أنواع الطعام المختلفة فمهما تجتهد نفعك محض خيال .

قيل لك : طهر روحك لكنك دائب على تعمير جسدك ، يجب عليك تصفية باطنك باستمرار وأنت لا هم لك إلا الاهتمام بالظاهر ، قيل : أشعل النار فى نفسك وإن أكلت لقمة اجلس واضرب جسدك .

١٢ . قصة موسى (٢٣٨٣:٢٣٩٣)

قال الحق لموسى : يارجل الأسرار عندما تجلس وحيدا راقب قلبك ، وإن اجتمعت بالناس كن عطوفا واحفظ لسانك آنذاك ، وإن سرت فى الطريق لا تنظر خلفك وانظر موضع قدميك ، وإن دعاك الناس لطعام احذر حلقك ، ففى الشغف بالطعام نقص كبير لك .

عندما يولد الطفل لا حول له يمتلىء الثدى لبنا رزقا له ، قدره الله للطفل فأجراه رزقا له فى الثديين ، لأن لك رزقا دائما مقدرا ومقسوما فلماذا يتصارع عليه الآخرون ، يتملكك الحرص أيها الحريص فإلى متى تطوى طريقه ؟ إن كنت عاقلا ، اترك الحرص إنك اليوم موجود ، فلا تفكر فى الغد .

١٣ . قصة مجذوب صامت (٢٣٩٤:٢٤١٢)

كان هناك مجذوب فى بغداد لم يكن يتحدث مع أحد ، فقالوا له : أيها المجذوب البائس لماذا لا تتحدث أبدا ؟ قال : مع من أتحدث ؟ لأنه لا يوجد أناس ، فممن أبحث عن إجابة ؟ قالوا له : ألا ترى الناس جميعا فى هذا الزمان أناسا ؟ أجاب : هؤلاء القوم ليسوا أناسا فالإنسان هو من يكون من العظمة ، بحيث لا يحمل هما لأمسه أو لغده ولا يهتم بتوافه الأمور ، ولا يقيم وزنا للمستقبل أبدا ولا يؤرقه الماضى ، ولا يهتم بالفقر أو بالرزق ولا يفكر إلا فى يومه فقط ، فالاهتمام فى العالمين ليس إلا شيئا واحدا وما أقوله يقينا لا شك فيه .

إن انشغلت اليوم بالغد لفقدت وجودك اليوم ، فلا تحزن لأن الحياة لا صديق لها وإن حزنت فى كل لحظة آلاف المرات . السعادة فى عدم الاهتمام هى الكمال لأنه من المحال تقيد القلب بالبحث عن السعادة ، ففى هذا المنزل وهو طوفان من الغرور لا يتأتى لأحد السرور لحظة ، ولأن الأمر يسير من سيء إلى أسوأ فالأحزان تتواتر وتشتد أيضا ، ماذا تتوقع من ذلك السرور الذى يولد الحزن وماذا ترجو من الوجود الذى يفضى إلى العدم . يجب عليك السعادة به ، لا بأحد غيره وأن تعانى فى سبيله ، لا فى سبيل غيره ، إن اطمأن قلبك به لحظة فزت بسعادة الدنيا ، وإن نطقت اسمه مرة جرت أسماؤه على لسانك .

١٤ . قصة سؤال المجنون عن ليلى (٢٤١٣:٢٤٢٣)

سأل شخص المجنون الحزين : بماذا تتحدث عن ليلى أيها المسكين ؟ فخر المجنون على الأرض وقال له : اذكر ليلى مرة أخرى ، إنك تبحث لدى عن عدة معان يكفيك أن تذكر ليلى ، فمهما نظم من درر المعانى فإنها لاتساوى قول ليلى . عندما أعدت اسم ليلى وصفتها أفصحت عن عالم من الأسرار ، ولأنه يمكن ذكر اسمها دائما أكون كافرا إن ذكرت غيرها لحظة واحدة .

إن بدأ شخص بذكر ليلى عاد المجنون إلى عقله ، وإن ذكر اسم سواها صار مجنونا وأخذ فى الصياح . إن انتهى ذكرك لنفسك جاز لك أن تذكره ، ولكن طالما بقى وجودك أمامك وذكرته فأنت تذكر نفسك .

١٥ . قصة مؤذن ومجذوب (٢٤٢٤:٢٤٣٧)

كان أحد المؤذنين من زمرة الرجال الصالحين يقيم فى مدينة إصفهان وكان يتمتع بصوت أخاذ ، وفى تلك المدينة كانت توجد قبة كبيرة إلى حد يمكن للإنسان معه الاختفاء تحتها ، وحدث أن اعتلى الرجل العظيم تلك القبة وأخذ يؤذن للصلاة ، بينما كان يسير فى الطريق أحد المجاذيب فسأله شخص : أيها المطلع ، ماذا يقول المؤذن فوق هذه القبة ؟ فأجابه المجذوب المحسن : هذا جوز فارغ ينثره من فوق القبة أيها الصديق ، ولأنه لا يتأثر بالمعانى بصدق فاعلم يقينا أنه يماثل الجوز والقبة .

وأنت تشبه الجوز من غفلتك وأنت تحصى أسماء الحق التسعة والتسعين ، حيث لا يوجد أى تأثير لاسم منها عليك ولاخبر لديك عن واحد فى المائة من التسعة والتسعين ، فأى هدف لك من هذا الإحصاء وأى عابد تحصيه وأى معبود ، إنه لم يحص نعمه المؤلفة

عليك فلا تحص أنت عليه أيضا مثل الصرافين ، لأن الله قد أخفى اسمه فكيف يمكن ذكره أبدا ، إنك لا تستطيع الإشارة إلى كنهه لذلك لا يجب أن يتحدث أحد فى ذلك .

١٦ . قصة أبى سعيد مهنه (٢٤٣٨:٢٤٦١)

هكذا قال الشيخ مهنة ذات يوم : ذهبت إلى شيخ جليل ، فوجدته صامتا مستغرقا فى الفكر وقد غاص داخل بحر لا نهاية له ، فقلت له : أيها الشيخ تحدث بشىء فالقلب يقوى بالشرح والحديث ، فخفض الشيخ رأسه لحظة من الوجد ثم قال : أيها السائل ، أنت تعلم أنه لاشىء سوى الحق فعما أبحث ؟ وإن لم أستطع الحديث عنه فماذا أقول ؟ ولأن حق اليقين لايمكن شرحه لذا فأنا صامت .

لأنه لا يمكن الإفصاح عنه ، فلما التحدث ؟ ولأنه لا يمكن إدراكه ، فلماذا هذه الجلبة ، ذكره ليس ورد كل لسان ولايمكن التوقف عنه لحظة ، ومثل هذا الأمر عجيب فى الطريق ولأن المعشوق آسر للغاية ، يلزم العاشق معشوقا دائما يجعله حينا فى الصحو وحينا فى الفناء ، فبين العاشق والمعشوق حال شرحها غير لائق بنا . إن تصر أبكما فى الفصاحة تصبح جديرا بشرح الحال ، لأن المعشوق من فيض أنواره كأنما هو شمس الأرض والسماء ، وإن بدا المعشوق فى محراب حسنه فبدون شك يلزمه عاشق مشتاق ، لأنه عندما يبدو المعشوق بدلال يجعل أعين العشاق نبع ماء ، وإن لم يكن للمعشوق عاشق لما كان جديرا بالعشق . لايبتعد العاشق عن المعشوق فلا يعرف قدر المعشوق سوى العاشق ، وجماله فى يوم السوق يتضح من حرقة العشاق ، لأن المعشوق ينتقى عاشقه فالعاشق لا يدرك جدارته ولياقته.

إذا ما ارتفع المعشوق إلى العيوق لن ترى أى عاشق غير المعشوق ، ولأن المعشوق يختار عاشقه فلا يوجد عاشق أيضا سوى المعشوق ، إن صار العاشق خالدا فانيا وإن اختفى عن العالمين أيضا ، إن كان العاشق أو لم يكن فقلبه فى يد المعشوق .

المقالة الثامنة (٢٤٩٠ : ٢٧٢٧)

قال الولد لأبيه : اشرح لى ماهية السحر ، الذى لا تهنأ لى الحياة بدونه ، ولماذا أهيم به شغفا ، بينما تزدريه وتحقره ، أخبرنى بسر السحر ، ثم يسره لى .

إجابة الأب

فتح الأب باب كنز الكلام ، وقال للولد : أيها الباحث عن الأسرار .

١ . قصة حواء والخناس (٢٤٩٦ : ٢٥٣٦)

روى حكيم ترمذى هذه القصة ، عن آدم وحواء : عندما تقابل آدم وحواء بعد التوبة ، نزلا من الفردوس واستقرا فى ناحية ، وحدث أن خرج آدم لأمر ما فلحق إبليس الملعون بحواء وكان له طفل اسمه الخناس ، أودعه لدى حواء ومضى .

وعندما جاء آدم ورأى الطفل ، غضب من حواء وسألها : لماذا أخذته من إبليس ، وخدعنى مرة أخرى بالتلبيس ، فقتل آدم الطفل ومزقه إربا ، وحمله إلى الصحراء وألقى به فى جهات متفرقة .

وعندما خرج آدم مرة أخرى جاء إبليس ونادى على طفله بالتلبيس ، فتجمعت أوصال الطفل واتصلت ببعضها البعض حتى تجسم ، وعندما دبت فيه الحياة انتحب إبليس كثيرا حتى قبلته مرة ثانية ، بعد أن مضى إبليس جاء آدم ورأى الخناس فى نفس المكان ، فأغلظ القول لحواء قائلا :أتريدين إحراقنا ثانية ؟ ثم قتل الطفل وأشعل النيران ، وأحرقه فيها ، وألقى برماده للريح ، ومضى عن حواء غاضبا .

وجاء إبليس اللعين مرة أخرى ، ونادى على طفله من كل صوب ، فتجمع رماده من الآفاق ، واتصل ببعضه البعض وظهر الطفل فجأة ، وعندما سرت فيه الروح أقسم إبليس لحواء : خذيه ولا تذريه للرياح مرة أخرى ، فلا يمكننى التفريط فيه ، وعندما أعود سوف أحمله من هنا ، قال هذا ، وذهب وجاء آدم ، فتجدد حزنه بسبب الخناس .

وبدأ يلوم حواء مرة أخرى قائلا : إنك تحالفت مع الشيطان ، لا أعلم ماذا يدبر الشيطان اللعين ، ويهيئ لنا أيضا ، قال هذا وقتل الطفل ، ثم صنع منه كلية ، وأكلها هو وحواء بسعادة معا ، ثم مضى لعمله بقلب مضطرم بالنيران ، وجاء إبليس اللعين مرة أخرى ، ونادى على طفله ، وعندما تعرف الخناس على صوته ، أجابه من داخل صدر حواء .

وعندما استمع إبليس المكار إلى صوته ، قال : لقد تيسرت لى الأمور كلها ، كان هدفى دائما ، أن أستقر فى دخيلة آدم ، ولأننى نجحت فى هذا ، فسوف يصير ابن آدم محتاجا لى ، فأثير حينا فى صدور الناس ، مثات النزوات بوسواس الخناس [١٠٩] ، وحينا أجرى فى عروقه كالدم [١١٠] ، مثيرا فى باطنه ألوانا من الشهوات ، وفى بعض الأوقات أوجهه إلى الطاعة ، ولكن بالرياء لا بالإخلاص ، وأزين آلاف الأنواع من السحر ، حتى أحيد بالناس عن جادة الطريق .

وأنت لأن الشيطان قد استقر داخلك ، وجلس للحكم وأعد للعرش ، جعل رغبتك فى السحر قوية ، فمالت روحك إليه ، ولو لم يكسن الشيطان شريرا على هذا النحو ، لما كان له مثل هذا السلطان على الرجال والنساء ، وسوس للناس بالأحزان ، وأشاع الفوضى فى العالم ، وفى كل ناحية أفسد قلبا ، وفى كل مكان أغرق وردة ، يقطع عليك الطريق ، ويبرحك بالمعاناة ، لذلك صارت عيناك مثل السحاب تمطر دما ، إن وجب البكاء على آدم ثلاثمائة عام لأنه نظر إلى حبة ، فانظر كم يجب أن يريق إبليس من الدمع ، وهو يعيش فى كنف اللعنة والمعصية .

٢ . قصة بكاء إبليس (٢٥٣٧ : ٢٥٤٤)

قال ذلك الفريد : رأيت فى طريق البادية ، جدولى ماء أسود ، فتتبعتهما لأعلم أى ماء ذلك ، الذى ينساب بسرعة فائقة ، وفى نهاية الأمر وصلت إلى حجر ، حيث رأيت إبليس واقعا على الأرض ، وعيناه كالسحاب ينثران دما ، وينساب من كل عين جدول دم ، وينهمر الدمع من عينيه كالمطر ويتحدث بحرقة ، ويقول هذا الكلام على التوالى :

إن هذه القصة لم تحدث لوجه قمرى ، ولكن لأن حظى أسود ، لم تكتب لى الطاعة ، وكُبل عنقى بالذنوب ، لمن حدث مثل هذا الأمر من قبل ؟ لا يذكر أحد مثل هذا أبدا .

٣ . قصة يوسف مع بنيامين (٢٥٤٦ : ٢٥٦٩)

قال عظيم : عندما أراد يوسف ، أن يحقق وصال أخيه بنيامين ، وأن يعبر له عن إخلاصه، وأن يجعله رفيق خلوته الخاص ، وضع له الصواع فى رحلة[١١١] واتهمه بالسرقة . ما أسعده من عمل ! هكذا قال ذلك المتبحر فى الدين : هذا هو ما حدث لإبليس من الحق. طرده من رحمته ومن أجل هذا السر ، ميزه باللعنة فى الآفاق ، فألبسه ثوبا من قهره ، حتى يخفيه بقهره عن أعين العامة ، ووقف على باب الحضرة بصفة دائمة ، ممسكا فى يده حربة من القهر .

وطالما لا تعوذ منه فى البداية ، لا يمكنك الخطو فى الطريق الإلهى ، وهو على هذا المنوال ليل نهار ، ليبعد المذنبين ، و محك الاختبار الحقيقى للرجال فى يده ، فمن المشرق حتى المغرب تحت هيمنته ، والشخص الذى يحمل إلى هناك نقودا زائفة ، يصاب بحربة من

إبليس فورا ، ثم يقول إبليس لصاحب النقود ، يا من سرقت منى كرة التلبيس ، لقد أطعت ربى آلاف السنين ، فطردنى فى نصف ساعة .

وأنت ملأك الغرور من ذرة واحدة من الطاعة ، وتغش الحق ولا تخجل ، إن لعنت فى العالمين ، فلن ينقص عشقى ذرة واحدة ، وأنت إن لعنك شخص ، تتردى من المحنة فى ساعة ، فاذهب أولا وكن مثل الرجال رجل طريق ، ثم جد بروحك أمام الملك عندئذ.

لماذا تحتقر إبليس ، فهو قاطع طريق للعظماء بالتلبيس ، اعلم يقينا أن الأمراء أينما وجدوا، قد حطموا رقاب مائة شخص مثلك ، وإن كانوا ملوكا عليك ، إلا أنهم منساقون فى زمرة الشيطان ، وعندما يكون متسول الشيطان هو مليكك ، فأين يكون الإسلام فى طريقك ، الوجد لا يفارق إبليس لحظة واحدة ، فتعلم الرجولة من إبليس اللعين ، لأنه جاء إلى ميدان التوحيد رجلا ، فاعتبر كل شئ أصابه من قبل الحق أمراً لائقا .

عندما لُعن إبليس ، بدأ التسبيح والتقديس ، ولعنته تفضلك مائة مرة ، يا من تتجه إلى غير الله، إن ابتعد كلب بضربة عن الباب ، يظل بعيدا عن العظام ، ماذا أقول فعندما سمع لعنته ، رآها كلها صادرة من الحق ، الشخص الذى تذوق الصفاء آلاف الأعوام ، ولم يتجرع كأسا طافحة أبدا ، أنى له أن ينسى ذلك الصفاء ، بقطرة يشربها فى النهاية .

وعلى الرغم من أنه تجرع ثمالة اللعنة ، إلا أنه لم ير بتلك الثمالة سوى الساقى ، لأنه رآه فى صفاء آلاف الأعوام ، فكيف يمكن أن يراه فى معاناة الأغيار ، نصيبه من الحضرة هو اللعنة ، واسمه عند الحضرة الملعون ، فلم يعتبر ذلك سيئا وهذا حسنا ، بل رآه كله نابعا من الحضرة ، لأن اللعنة كانت تشريفا له من الحضرة ، فقد قبلها بروحه ، وانتهت القصة.

٧. قصة لص بترت يده (٢٦٤٢ : ٢٦٥١)

حدث أن قطعوا يد لص ، فلم ينبس ببنت شفه ، وأخذ يده ، ومضى ، فقالوا له : أيها المبتلى ، ماذا ستفعل بهذه اليد المقطوعة ؟ قال : لقد رقمت اسم الحبيب الخاص ، عليها بإخلاص ، والآن تكفينى هذه اليد ، ما حييت ، وتحرم على الحياة بدونها ، إن يدى لم تسبب لى سوى الألم ، إلا أن اسم الحبيب عليها يزيل آلامى .

وإبليس اللعين كان مطلعا على الأسرار ، وإن كان لم يسجد فلهذا السبب ، فقد ضن بهذا السر على الخلق وعلى نفسه ، فلم يسجد وبدأ الخلاف ، حتى لا يرى هو ولا أهل

العالم ، ذلك الباب وتلك الأعتاب ، ولا يتلوث شعاع من حجاب العزة ، من المشاهدة أبدا .

٨ . قصة غيرة القمر على الشمس (٢٦٥٤ : ٢٦٥٥)

ألم تسمع أنهم سألوا القمر : ما هو الشئ الذى تتمناه أكثر من أى شئ آخر ؟ فقال : أريد أن تنكسف الشمس ، لتظل فى حجاب الخلود ، ويكون وجهى دائما ، تحت ضبابها ، وتحتجب عن عينى أيضا .

٩ . قصة المجنون (٢٦٥٦ : ٢٦٥٩)

قال صديق للمجنون الضال : ماتت ليلى فرد : الحمد لله ، فقال الصديق : يا عاشق الدين ، إنك تتعذب بسببها ، فلماذا تقول ذلك ؟ فقال : لأننى لم أحقق وصال تلك الفاتنة ، وحتى لا يناله أى شخص سئ الطوية .

١٠ . قصة إبليس (٢٦٦٠ : ٢٦٦٥)

سأل شخص إبليس : أيها الشؤم ، عندما علمت بأمر لعنتك ، لماذا تمسكت بها بروحك ؟ كأنما تخفى كنزا فى قلبك ، فقال : إن اللعنة هى سهم الملك ، والملك يصوب نظره فى البداية إلى الهدف ، فيجب أن يحدد البصر الهدف أولا ، حتى ينطلق السهم من القوس ، وعندئذ يبدو لك السهم ، فاعتبر إن كنت صاحب بصر .

١١ . قصة السلطان محمود وإياز

٢٦٦٦ : ٢٦٨٢

كان العظماء الذين تطاول رؤوسهم الفلك ، حاضرين فى خدمة محمود ، فالتفت ملك العالم إليهم قائلا : ليطلب كل واحد منكم طلبا ، فطلبوا جميعا من الملك فى ذلك اليوم ، كثيرا من المدن والأموال والملك والمناصب والجاه .

وعندما حل الدور على إياز قال أحد الحاضرين : يا محراب الحسن وقرين الفضل ، ماذا ستطلب ؟ قال : شيئا واحداً ، لا أريد شيئا سواه ، ما أريده دائما فى حياتى ، أن أكون هدفا لسهم الملك ، إن تحققت لى هذه الرغبة ، لكفانى هذا من العالم ، قالوا له : أيها الجاهل ، إنك لا تحكم عقلك ، وتطؤه بقدميك ، عندما تطلب أن تكون هدفا للملك ، لماذا تريد أن تجعل جسدك هدفا ، فتصير أسيراً للسهام إلى الأبد .

فتحدث إياز حينئذ وقال : أيها القوم إنكم تجهلون هذا السر ، لو دان لى العالم بالاحترام ، لكفانى أن أكون هدفا لسهام الملك ، ففى البداية ينظر الملك صوب هدفه عدة مرات ، ثم يقذف بالسهم عندئذ ، وعندما يصوب النظر فى البداية ، فمتى يصعب الجرح فى النهاية ، أنتم تنظرون إلى الجرح ، ولكن ما أراه هو نظرة الملك ، عندما تصوب نظراته إلى ، فكيف أتأثر بجراحى ؟

١٢ . قصة شبلى (٢٦٨٣ : ٢٧٠٣)

عندما غلب الوجد على شبلى ، أحكموا وثاقه ، وتقدمت جماعة منه ، ووقفوا وسط الطريق لمشاهدته ، فقال لهم شبلى الفصيح ، من أنتم ؟ أفصحوا لى ، قالوا جميعا : نحن معشر أصدقائك لا نعرف شيئا سوى حبك ، وعندما سمع شبلى هذا الكلام من الأصدقاء ، أخذ يقذفهم بالحجارة فورا ، وعندما رأى أصدقاؤه الحجارة ، فروا جميعا خوفا من الحجارة .

عندئذ تحدث شبلى وقال : إنكم جميعا كاذبون مدعون ، ادعيتم حبكم لى ، ولم تكونوا أيها الأحساء أتقياء ، من ذا الذى يهرب من جرح الحبيب ، أليس جرحه رحابا له ؟ عندما أصيب إبليس بجرح من الحبيب لم يهرب ، لكنه جعل من جراحة مائة مرهم ، وطلب من الحق أن يمهله بجرحه ، حتى يوم القيامة .

اقبل بروحك كل جرح يصوبه إليك ، فإن صوب جرحا إلى روحك فإنه يصوبه بدقة ، إن تتحقق لك ذرة واحدة من العشق، تفتدى جرحه بوجودك ، إنك تتوهم أن جرحه بدون مقابل ، إن ثمنه آلاف الأعوام من الطاعة ، على الرغم من طاعته آلاف السنين ، فإن لعنته كانت ثمن ساعة واحدة ، لتكن قويا لائقا فى البعد ، إن لم تفز بالقبول هناك ، واستمع يا عزيزى إلى قصة إبليس ، واترك التلبيس للحظة .

فإن اكتملت رحولتك لحظة ، يحيا منك عالم فى كل لحظة ، ولو أن إبليس مطرود وملعون ، إلا أنه موجود دائما فى حضور الملك ، عندما تلعنه ليل نهار ، تعلم منه الإسلام مرة واحدة .

١٣ . قصة موسى وإبليس (٢٧٠٤ : ٢٧٢٧)

ذات ليلة كان موسى يسير فوق جبل الطور ، فلحق به إبليس من بعيد ، فقال موسى لذلك اللعين : أيها الرفيق لماذا لم تسجد لآدم ؟ أجابه الملعون : أيها المقبول من الحضرة ، لقد صرت دون سبب مرفوضا من القدرة ، لو كان لى سبيل إلى تلك السجدة آنذاك ، لكنت كليما مثلك ، لكن عندما أراد الحق تعالى أن أخطئ فى قولى ، لم يتحقق لى سوى هذا .

قال له الكليم : يا من وقعت فى أسر اللعنة ، هل تذكر الله أبدا ؟ قال له الملعون : وهل ينساه لحظة قط ، عطوف مثلى ؟ كلما زاد غضبه على ، كلما ازداد حبى له داخل صدرى ، إن كان بعيدا عن الحضرة بسبب اللعنة ، إلا أنه كما يقول موسى حاضرا بها ، إن كانت اللعنة قد أسعدته ، إلا أنها ضاعفت شقاءه .

لأن الشيطان محترق على هذا النحو فى الطريق ، فكيف يا بنى تكون أنت مريدا للعشق ؟ إن رغبت فى السحر اليوم ، فاسعد باللعنة ، وإلا فلن تتعلم ، وانظر إلى هاروت وماروت ، منذ متى ، وهما مقلوبان دون زاد ولا ماء ، مقيدان بقلب دام داخل الجب ، وقد يمسا من زمانهما ، إنهما كانا أستاذى زمانهما ، ولهما مكانة فريدة فى السحر ، ولا يستطيعان أن يحررا نفسيهما ، فكيف لشخص أن يسعد بذلك العلم ؟ لو تمتلك سحر العالم كله ، من الممكن أن تبتلعه عصا فى لحظة واحدة ، ولأن مثل ذلك السحر اختفى داخل عصا ، فلا يتشبث بأذياله سوى الفشل .

لك فى صدرك شيطان ، ثمل دائما برغبة السحر ، فإن يسلم شيطانك ، يصبح سحرك فقها ويتبدل كفرك إيمانا ، وتصبح من أهل الخلد إلى الأبد ، ويسجد لك شيطانك دون حجة . أوضحت لك الآن السحر الحلال ، ومنه يتحقق الخلود الكامل لك ، ولأنه يمكن الوصول لمثل هذا السحر ، يجب الارتقاء على هذا النحو لا التردى بتلك الطريقة .

المقالة التاسعة (٢٧٢٨ : ٢٩٩١)

الابن الثالث

وعلى الفور تقدم الولد الثالث بكمال ، و ع لأبيه ما يجيش فى صدره من آمال قائلا : توجد كأس تظهر فيها الدنيا والأنام ، أريدها بدلا من الملك والسلطان ، وسمعت أن تلك الكأس ، يظهر فيها كل ما يرغبه قلبك ويتمناه ، فمهما وجد من أسرار خفية ، تظهرها لك هذه الكأس جلية.

وأنا لا أعلم أى مرآة جميلة تلك ، التى تظهر عليها صورة الآفاق ، وتكشف لك بصورة جلية ، كل ما عظم من أمور خفية ، لو نلت مثل هذه الكأس ، لخضع لى الفلك بعلوه ، ولظهرت لى أسرار العالم كلها عيانا ، ولبدت لى خفايا الأسرار جهارا .

إجابة الأب (٢٧٣٨ : ٢٧٤٦)

قال الأب : لقد تغلب عليك حب الجاه ، فرغب قلبك فى تلك الكأس ، حتى إذا ما علمت جميع الأسرار ، صرت مهيمنا على العالم بأسره ، ولأنك ترى الجاه وقد ارتفع بك إلى الفلك ، ترى أهل الأرض فى غيابة الجب ، فتزهو تيها وعجبا ، وتخلد إلى الكبر .

لو تمتلك كأس جمشيد [١١٣] ترى الأشياء ذرة ذرة واضحة كالشمس ، وإن تجلت لك الأسرار من تلك الكأس ، يكن الموت قد سلط المنشار فوق مفرقك ، ولن تفوز بشئ من الكأس مثل جمشيد ، وتموت عاجزا فى النهاية مثله أيضا ، الحصول على الكأس يؤدى إلى السقوط داخل البئر ، والسقوط من الطريق حرام عليك .

١ . قصة السلطان محمود والمرأة العجوز (٢٧٤٧ : ٢٧٨٨)

كان سلطان الدين محمود الفاتح ، يسرع مع جنده فى طريقه لإحدى الحملات ، وأثناء الطريق شاهد امرأة أيما ، وقد ربطت مظلمتها فوق عصا ، كانت تطلب القصاص من الظلمة ، وتستجير بذلك المعين .

عندما شاهد الملك المعظم العجوز ، لم يعرها التفاتا وانطلق فى طريقه ، وفى تلك الليلة رأى محمود فى المنام ، أنه وقع داخل سرداب فى بئر ، وأن العجوز ظهرت له ، وألقت إليه بعصاها ، وقالت له : امسك بها أيها الملك ، واخرج من قاع هذا السرداب وهذا البئر ، فأمسك الملك بعصا العجوز ، ونجا من ذلك البئر المهلك .

وفى اليوم التالى عندما اعتلى الملك العرش ، كان حزينا للغاية بسبب ذلك المنام، فرأى العجوز التعسة مرة أخرى ، وهى تأتى من بعيد تطلب العدل ، وتمسك بعصاها وقد احدودب ظهرها ، وابتلت عيناها بالدمع مثل السحاب ، فنهض الملك وناداها ، وأجلسها أمامه .

قال محمود لجنده : لو لم تكن هذه المرأة ليلة أمس ، لاختطف الموت روحى ، فقد تعلقت بعصاها ، فأنقذتنى من السرداب والبئر ، وإن أردتم أنتم أيضا اليوم ، أن تنتصروا بفضل الله الخالد ، أمسكوا جميعا بعصاها ، لتكون وسيلتكم على الدوام ، فتسابق الجند جميعا ، وأمسكوا بالعصا بيد محكمة ، وأخذ الكثيرون يقبلون من كل صوب ، من أجل العصا .

وظلت المرأة الجالسة فوق عرش الملك آنذاك ، تمسك بتلك العصا فى يديها ، وتقبض عليها وتتوسل بها ، وقد علا شأنها للغاية ، وقوى أمرها من تلك العصا مثل موسى ، لأنها جعلتها فى الدين مثل عصا موسى .

قال لها الملك : انتبهى أيتها العجوز المسكينة ، إنك ضعيفة لا حيلة لك والخلق كثيرون ، فماذا ستفعلين لتساعدينهم ، بقطعة من الخشب ، وأنت بهذا العجز ، أناس كثيرون يطلبون مساعدتك ، وأنت لا تقدرين على كل هذه الأحمال .

تحدثت العجوز وقالت : أيها الملك ، الشخص الذى أخرج محموداً من البئر ، يستطيع أن ينجى كل شخص ، ولا يمكنه سماع هذا الكلام منك ، الشخص الذى يسحب فيلا من البئر ، كيف يعجز أمام حفنة من البعوض .

ولأن المرأة الضعيفة هنا هى التى تمنح الجاه ، وتساعد الملوك ، فلماذا يحب الغرور على هذا النحو ، والسرور بالمجهول ، والاستسلام لصفعات كل وضيع ، وتحمل الضرر من كل شؤم ، ومعرفة الأغيار من أجل الزهو ، والترفع على كل بائس بأنا خير منه [١١٤] ، ولا خير فى ذلك .

وأنت بائس مثل الكافر ، لأنك ما زلت متعلقا بالخلق وبنفسك ، لا تعلم ماذا ينتظرك ، وجراحك بسبب ذلك الجبن ، إن عقدت العمامة مثل اللام ألف ، فمن الأفضل لك كثيرا أن تربط الزنار ، لن يشعر قلبك بتلك العمامة ، إلا عندما يطوونك داخل النعش فجأة ، رأسك يختلج بالمنافع ، وعمامتك تجدر برأس النعش .

أى نفع يعود عليك من تزيين مفرقك بالقصب ، ونهايتك هى طويك داخل الكفن بسرعة ، اجلس سعيدا فوق مقراضى الحرير ، فجزاؤك مقراض من نار ، لماذا تأسر

نفسك بالجاه والمال ، وتجعلهما رفيقين لك إلى آخر لحظة ، إنهما لن يحققا لك شيئا ، فلماذا تخفيهما داخل نفسك كالكفن .

٢ . قصة بهلول[١١٥] (٢٧٨٩ : ٢٨٠٩)

كان بهلول يمسك عصا فى يديه ، أخذ يضرب بها القبور حتى تحطمت ، فقالوا له : أيها الواجد ، لما تضرب هذه القبور ، فقال : هؤلاء القوم الذين ذهبوا ، نسجوا أكاذيب لا حصر لها ثم ماتوا ، فحينا كان هذا يقول : قصرى وإيوانى ، وحينا كان ذاك يقول : أسبابى وذهبى ، وفى بعض الأوقات كان يقول فلان : هاهو زرعى وهنائى ، وفى أوقات أخرى كان علان يقول : ها هى حديقتى وأملاكى .

وقد قال الله : كل هذا الادعاء والتكبر غير جائز ، فالدنيا ميراث لى وليست لكم ، ادعوا جميعا امتلاكهم للأشياء ، فمضوا وتركوا ما تعلقت أرواحهم به ، لهذا أعيش بسلا زاد ولا ماء لأنهم كانوا جميعا حفنة من الكذابين ، ولأن النهاية هى ترك كل شئ ، فكيف توسموا نفعهم فى هذا الوهم ، لماذا يكنز شخص شيئا معينا ، يجب أن يتركه بندم .

لماذا تقيد قلبك بالعالم ، ونهايتك هى آجرة تبنى لقبرك ؟ للعالم بابان مثل الرباط ، وما بين البابين يشبه الصراط ، و إن لم تسر منتبها فوق ذلك الطريق ، تنقلب فى السعير ، وإن وقع ظل للأرض على القمر ، يغرق القمر فى الظلام ، ولو كانت عين القمر مضيئة للغاية ، فهى أمام الأرض ماء أسود .

لأن أمر الأرض مع القمر على هذا النحو ، فماذا يفعل من يغرق فى الأرض ، فهى تخمد مثل ذلك النور فى لحظة واحدة ، وتعرف أيضا كيف تضيع حياتك هباء . فسد أمرك ولا مجال أن ينصلح حالك ، فلم تعد هناك إمكانية لذلك ، ترديك زائد عن الحد ، وكل آفات روحك من نفسك ، بتنظرك أمر تفزع منه روحك ، وهو ملك يديه مهما بدا لك الأمر .

٣ . قصة ملك منجم (٢٨١٠ : ٢٨٢٠)

عندما علم ملك كان على دراية واسعة بعلم النجوم ، أنه فى ساعة محددة فى أحد الشهور سوف يصاب ببلاء ، أعد مكانا من الحجارة ، وأقام منزلا من الحجر الصلد ، أسند حراسته إلى عدد غفير من الحراس .

وعندما دخل المنزل رأى طاقة ، يتسلل منها الضياء إلى المنزل ، فسدها بيديه ، وبقى وحيدا فى الحجرة وحبس داخلها ، ولم يعد لديه أى منفذ فبدأ يترنح ، حتى لفظ أنفاسه مختنقا .

وأنت تتشبث بأصابعك العشرة ، وإن كنت لا تستطيع الاحتفاظ بإصبع واحد ؛ إن أردت أن تسلك الطريق بخطوة واحدة ، يجب أن تتخلص من وجودك تماما ، وإن لم تترك نفسك والعالم ، عندما نحين منيتك ، ستتركهما ، وعندما ينتهى النوم والطعام ، ويحين الأجل ، ماذا ستفعل فى نهاية الأمر ؟

٤ . قصة فى معنى التسليم (٢٨٢١ : ٢٨٣٦)

هكذا قال ذلك التقى ، لو توفى عزيز لديك ، تقيم له مأتما فى اليوم الأول ، وتستمر على هذا النحو اليوم الثانى والثالث أيضا ، ويظل قلبك يدمى عليه حتى اليوم السابع ، وعندما ينقضى السابع ، ماذا أنت فاعل فى الثامن ؟ لأنه يجب التسليم فى آخر يوم ، فلماذا تتعذب ؟ اعتبر منذ البداية ، لو انثنى جسدك كله والتف مثل الحية ، لن يمكنك الهروب إلى أى مكان ، ألم تشاهد الحية أبدا عند سيرها ، كيف تسير ملتوية معوجة . ولكن عندما تتلمس طريقها داخل جحر ، تتخلص من التوائها تماما .

الشخص الذى لا يتخلص من الاعوجاج لن يجد السبيل إلى أى منفذ قط ، وأنت أيضا انزع الاعوجاج عن نفسك ، عندئذ يستقيم لك الطريق ، اتبعت الضلال بسبب عماك ، فبقيت خارج الحجاب مثل العميان ، ألا ترى الخلق لا قدم لهم ولا رأس ، يقفون أمام الباب حرحى بسبب العمى .

كما تستقيم الألف فى الخط الكوفى ، هكذا يجب أن يبدو للعين الصوفى ، ما هو التصوف ؟ إنه الراحة فى الصبر ، ونزع الطمع عن العالم بأسره ، ما هو التوكل : تسليم الإرادة من النفس إلى إرادة خالق العالم ، والفناء هو انتزاع القلب من الروح ، والاستغناء عنه كلية .

٥ . قصة شقيق البلخى[١١٦] (٢٨٣٧ : ٢٨٥٥)

كان شقيق البلخى الشيخ المدرس ، يتحدث فى مجلس ببغداد ، كان يتحدث عن التوكل بتقوى ، فيصل بكلامه إلى ما بعد الأفلاك ، قال للحاضرين : فيما يتعلق بالتوكل ، كونوا أغوياء ، ولا تفكروا فى الذل ، فقد توجهت إلى البادية سعيدا ، توكلت على الله وذهبت متحررا من كل شئ ، كان معى من أموال الدنيا وملكها درهم واحد ، قابع

داخل حبيبى يصاحبنى ، وهو كل دخلى لأن قلبى يتوكل على الله ، وإلى الآن يوجد ذلك الدرهم فى جيبى ، ذهبت إلى الكعبة وعدت سعيدا ، لأننى لم أحتج إليه .

فنهض شاب غض ، وقال له : لتسمع كلمة صدق ، أين كان اعتمادك على الغيب وتوكلك ، وأنت تضع الدرهم داخل جيبك ، أين كان هذا التوكل آنذاك ، وأنت تضع هذا الدرهم لمائة احتمال ، ألم تكن مؤمنا حينذاك ، وإن كنت مؤمنا ، ألم تعتمد عليه .

عندما سمع شقيق ذلك الكلام منه ، ارتج المنبر تحته وقال : لقد أنصف ، فحجته بينة ، ماذا أقول فالحق مع هذا الشاب ، فى هذا الديوان لا يتسع المجال للدرهم ، لأنه لا يتسع لشعرة أيضا .

عانى الواجد فى طريقه كثيراً ، والآن صار قتيله بذلة ، فاتركه وسط الأرض والدماء ، فلون الورد لازم له الآن ، يا له من أمر عجيب ما يفعله ذلك الدرويش ، فهو يلون الآفاق بلون الورد من دمائه ! يا له من أمر عجيب فطالما لا يفنى الإنسان ، لا يغطى جسده بثوب واحد من الحجب !

٦ . قصة مجذوب وطلبه للكرباس (٢٨٥٦ : ٢٨٧٢)

وقف مجذوب صاحب وجد عاريا ، وطلب كرباسا من الحق قائلا : يا إلهى حسدى عار من الملابس ، وإن صبرت أنت ، فلا صبر لى على ذلك ، فجاءه الهاتف قائلا : سأمنحك الكرباس ولكن من أجل كفنك .

تحدث المجذوب العاجز : إننى أعرفك ياراعى العبيد ، فطالما لا يموت الرجل أولا عاجزا ، لا تمنحه كرباسا أبدا ، فيجب أن يموت الرجل أولا مفلسا عاريا ، حتى يجد الكرباس منك فى القبر .

أيها القلب لو تقتل فى هذا السبيل ، تحيا داخل الحضرة فى لحظة واحدة ، لا يلزمك ثوب أيها القتيل بدمائك ، يكفيك أن تكفن بدمائك ، لأنك غارق وسط التراب والدماء من القدم حتى الرأس ، فابق وسط التراب ، واغرق بين الدماء ، كل امرأة عندما ينساب منها اللبن ، يتوقف حيضها ، وتختفى دماؤها ، وأنت تشرب الدماء ، وتعتبره لبنا ، ولأن بدايتك قامت على شرب الدماء ، كانت نهايتك داخل التراب .

والشخص الكائن بين التراب والدماء ، لماذا يعصى ، وهو لا إرادة له ، إن أردت أن تعرف كيفية أى شخص ، فهو خليط من الدماء والتراب ، إن أردت التحرر من الدماء

والتراب ، تجرع دماء قلبك ، حتى تصير ترابا ، ليس لك من سبيل سوى الدمع والاحتراق ، ربما يقع عليك ذات يوم ظلا من ظلال طرته .

٧. قصة مجذوب قال ، عليه البكاء (٢٨٧٣ : ٢٨٨٧)

كان مجذوب يبكى بحرقة ، فقال له شخص لماذا تبكى على هذا النحو ؟ قال وهو يجهش بالبكاء : إننى أريق الدماء ، ربما يشعر قلبه بى لحظة واحدة ، فقال له شخص : ليس له قلب ، ومن يقول غير هذا ليس عاقلا ، أجابه المجذوب : إنه مالك القلوب كلها على الدوام ، إنه يتحكم فى كل القلوب ، فكيف لا يكون له قلب ؟ أى كلام هذا ؟

كل شئ فى الحياة نابع من هناك ، الحسن والقبح والإقبال والتردى من عنده ، وقلوبنا أيضا تنبض من هناك ، ليست القلوب فقط بل كل شئ ، إن حدث لك خير أو شر ، فهما من عنده ، انظر كيف أدمى جبريل التراب ، وقضى على قوم السامرى[١١٧] ولكن عندما نفخت روحه فى مريم ، ظهرت حياة العالم من روح الله [١١٨] .

فاعلم أن الخير والشر من عنده ، إن كان نفعا أم ضرا فهو من هناك ، إنك تجهل القدس الطاهر ، لأنك أسير الماء والتراب ، إن تتحرر من هذه الخرابة ، تصبح روحك مثل كنز يعمّر وضاعة وجودك ، وعندئذ تكون قد تخلصت من قيد جسدك ، فيتصل قلبك بالحق مرة واحدة .

٨. قصة أبو بكر الواسطى[١١٩] (٢٨٨٨ : ٢٩١٢)

تملك الواسطى الفضول ، فدخل إلى مستشفى للمجانين وقت الصباح ، وهناك رأى مجنونا ثملا ، كان يصيح حينا ويصفق حينا آخر ، ويتحرك مثل البخور المشتعل من السرور ، وهو يرقص ويقفز ، شفته ضاحكة ، وروحه متوهجة ، ورأسه يتنازعه نشوة خمر الجنون .

اندفع الواسطى وقال : أيها البعيد عن جادة الصواب ، إنك مكبل بالقيود الثقيلة ، فلما سرورك وأنت على هذا النحو ؟ أنت عبد ، فمن أين لك الشعور بحريتك ؟ تحدث المجنون أمام الشيخ قائلا : إن كانت قدماى تعانى من ثقل القيد الآن، فقلبى حر طليق ، وهذا هو أصلى ولأن قلبى متحرر ، فأنا متمتع بوصال الحبيب ، اعلم يقينا هذه القضية : إن قيدوا قدمى ، تحرر قلبى .

ما هما العالمان ؟ إنها بحر اسمه القلب ، وأنت باق فى البحر وقدماك فى الطين ، فتمص داخل بحر صدرك لحظة ، لتتعرف داخل نفسك على عالم مجهول ، ولأن قلبك يحتوى على مئات من العوالم الخفية ، فمتى تستطيع عيناك أن تراها ؟ هناك ترى الأرض والسماء ، فأنت صورة للدنيا والآخرة أيضا ، وبما أنك تعلم أن الآخرة تظهر فيك عيانا ، فلا تنظر إلى أى مكان لحظة واحدة ، إن أردت العالم الحقيقى ، يظهر لك بقدرة الله فى لحظة واحدة .

الحياة تبدو أمامك من أخلاط وأسباب ، وقد غسلت أقاليمها السبعة بسبعة بحار ، أما فى ذلك العالم فلا يخرج الطير من البيض ، ولا يبنى قصر من جرانيت ولا تولد حور من حائض ، ولا يستخرج هناك العسل من النحل ، ولا اللبن من العنزة ولا الخمر من العنب ، ولا تشوى الطيور فوق النار ، ولا تقدم ألوان الطعام المطبوخة .

لأن الوسائل ترتفع هناك ، وتمحى تماما ، وكل ما تتمناه وتشتهيه ، يتحقق لك ، لا تنظر إلى نفسك بعين العقل ، ولا تعتبر العالمين سوى قلب وروح ، كم يخشى وجودك السعير ، إن قلبك عرش وصدرك كرسى ، عندما يضيع قلبك فى الدنيا بعشقه ، متى تحترق بنار الجحيم ؟

٩ . قصة امرأة عجوز واحدة (٢٩١٤ : ٢٩٢٢)

اندلعت ألسنة النيران ذات يوم فى سوق بغداد ، وارتفع صراخ الناس وسط النيران وكأن القيامة قد قامت ، وكانت عجوز واهنة بائسة تتكئ على عصا ، قادمة فى الطريق ، فقال لها شخص : لا تذهبى هل أنت مجنونة ؟ لقد شبت النيران بمنزلك ، فقالت له المرأة : إنك مجنون ، أغرب عنى ، إن الحق لا يحرق منزلى أبدا .

وبعد أن خمد الحريق الهائل ،ظهر أنه لم يلحق العجوز أى ضرر من النيران ، فقالوا لها : ويحك أيتها العجوز ، قولى لنا كيف علمت هذا السر ؟ عندئذ قالت العجوز الزاهدة ، إما أن يحرق الله منزلى أو يحرق قلبى ، ولأن قلبى الواحد قد احترق بعشق الحق ، فلن يحرق منزلى فى نهاية الأمر .

١٠ . قصة النار وحراقة (٢٩٢٣ : ٢٩٤٠)

عندما عمل الحجر والحديد سويا ، شبت منهما نار ، وظهرت حراقة كانت تعيش على الاحتراق ، فتحدثت النار وقالت : من تكون ؟ أجابتها الحراقة : معرفة وحبيبة ورفيقة ، فقالت النار : عملى الضياء ، وأنت سوداء فأى معرفة لك بى ، أجابتها الحراقة

السعيدة فورا : إن سوادى ليس إلا من النار ، لقد أحرقتنى فى نورك ، وتدعين الآن عدم معرفتك بى ، إننى حراقة مسكينة ، نابعة منك ، فاعزى حراقتك بلطفك ، وعندما وقفت النار على صدق إخلاصها ، كفت يدها عنها فى العالم .

وإن أضأت أنت أيضا من هذا العشق ، واحترقت هنا ، لن تحترق هناك ، وقد نصت الشريعة على أنه عندما تموت ، لا تضع فى قبرك آنذاك آجرا غير نيئ ، إن الآجر غير النيئ ، ولو أنه صادر من الأرض ، إلا أنه آجر ناتج من النار ، ولأن الطوب الأحمر آجر نارى ، فلا يليق بقبور أهل الدين .

وإن كانت شريعتك لا تجيز لك ذلك ، فهى لا تجيزه بسبب النار ، إن صوب المصباح بصره على الروضة ، ذبل الياسمين فورا ، ومصباح باب الحق البهيج ، مثله لنا كمثل المصباح للياسمين.

١١ . قصة أبى على الفارمدى[١٢٠] (٢٩٤١ : ٢٩٥٣)

هكذا نقل ذلك الحكيم الروحانى ، عن الخواجه أبى على الفارمدى قوله : فى يوم الحشر يعطى الحق تعالى المرء صحيفته قائلا : انتبه واقرأها وامعن فيها ، وعندما يتمعن المرء فيها ساعة أو ساعتين ، لا يجد عليها شيئا من المعصية أو الطاعة ، فيتحدث ويقول : يا إلهى ، إن صحيفتى بيضاء ، فماذا تريد ؟

فيأتى هاتف : إننى لا أسجل سيئات عشاقى وحسناتهم فى الصحائف ، لقد محا الجبار سيئاتك وحسناتك ، فلا تفكر كثيرا فى الجنة والنار ، عندما تزول الوسائل بيننا ، تصبح أنت نحن ونحن أنت إلى الأبد ، وإن لم تدرك هذا فلا بأس ، كل شئ هو نحن ، وأنت لا شئ قط ، إن تقدمت والغرور يستبد بك ، تعطى صحيفتك ، حتى تعرف نفسك ، إن قدرتنا ليست محدودة ، لا نحاسب حسابا عسيرا على كل صغيرة وكبيرة .

عندما يكون الإمام أميا مطلقا ، لن يطلب الحق منا قراءة الصحيفة ، وبعد هذه الأقوال عن الصحيفة ، سوف يتضح لك المعنى سريعا .

١٢ . قصة مذنب يوم الحشر (٢٩٥٥ : ٢٩٨٠)

روى عن الرسول ، أن الحق يقول للمرء يوم القيامة ، تعال أيها العبد ، واقرأ صحيفتك ، لترى ما فعلت فى عمرك المديد ، وعندما يقرأ العبد صحيفته كلها ، لا يرى سوى المعاصى والذنوب ، ولا يشاهد عليها إلا السواد ، فيتحدث ويقول :

يا إلهى ، إن مآلى إلى الجحيم بعد هذا العمر الخاسر ، فيقول له الحق : اقرأ ظهر صحيفتك ، وعندما يقرأ ظهر صحيفته ، يجد كلمات مكتوبة عليها : لقد عانى من الندم وتاب ، فتحول داؤه إلى دواء ، وأن عالم الأسرار قد منحه مقابل كل سيئة عشر حسنات ، عندما ندم على سيئته ، كتب الله له عشر حسنات ، وعندما يرى العبد ذلك يسر خاطره ، ما أسعد العبد ، عندما يتحرر !

فيقول العبد للحق : أيها القيوم المطلق ، إننى لا أرى كرام الكاتبين على حق ، فقد ارتكبت ذنوبا أكثر من هذا بكثير ، لم يسجلها لى هذان اللبيبان ، فقل لهما أن يسجلاها لعبدك المسكين ، وأن يكتباها كما كتبوا تلك ، لأنه مهما كثرت ذنوبى ، تمنحنى عشر حسنات مقابل كل سيئة مرة أخرى ، وعلى الرغم من أننى رجل آثم ، إلا أننى فزت من ذنوبى بفضلك .

ضحك الرسول من هذا القول والسلوك حتى ظهرت أسنانه ، ثم قال عندئذ : يالله من أمر عجيب ! كيف تتأتى الجرأة لحفنة تراب أمام المالك الطاهر . وأنت يخفى عليك من الهلاك ، إن علمت السر الكائن فى الروح الطاهرة ، فمن ذا الذى يعلم ماهية هذا السر العجيب ، وما هى أسباب الأسرار العجيبة ، لا يتأتى لك إدراك المعانى ، أمام العديد من الأسرار الخبيثة .

المقالة العاشرة (٢٩٩٢ : ٣٢٩٨)

قال له الولد : إن كان ما يشغلك هو عار الجب ، فإن حب الجاه هو هدف العظماء ، ومن ذا الذى غض طرفه عن المنصب والجاه ؟ ومن رأيته وقد أشاح بوجهه عنهما !؟ ألم تر يوسف وقد اعتلى عرش السلطنة ، وتمتع بالجاه بعد الجب ؟

أنا لم أر إنسانا فى الحياة ، لا يراوده حب المال وعشق الجاه ، خبرت جميع السبل كثيرا ، فلم تتشابه الروضة بالحمام لدى شخص ، فإن تساوى الاثنان لدى شخص ، يكون حينذاك لا إنسانا ، ولكن عندما يوجد إنسان عاقل ، يميل إلى العز ويتطلع إلى المال ، ألم يصعد عيسى إلى السماء بسبب الجاه ، وبقى الملاك داخل الجب بصفة دائمة بسبب الجهل .

إجابة الأب (٣٠٠١ : ٣٠٠٧)

قال له الأب : فى هذا السجن المضطرب ، يمكن أن يصير المرء من العظماء بطاعة الله ، ولو أنك تهفو إلى رفعة تعلو القمر ، تدركها بالطاعة وليس بحب الجاه ، وقد قال

الرسول : آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الجاه ، ولا ريب فى حب الجاه وعشق المال ، ولكن لبحثك عنهما عظيم الوبال .

إن تصبح من خواص الخواص فى طريق الحق ، وتفز بجاه ، فأنت رجل عاص ، وكأن الجاه يصعد منك دخانا ، ليس هناك أى فائدة فى تدراكه .

١ . قصة السلطان سنجر وعباسة الطوسية[١٢١] (٣٠٠٨ : ٣٠٢٧)

ذات يوم جاء الملك المعظم سنجر ، وقابل عباسة فى الخلوة ، ولم يحدث تآلف بينهما ، فقد جلس أمامها برهة ثم نهض ، فسألها أحد الأشخاص لماذا ظللت صامتة ، لم تنبسى ببنت شفة ، ولم تصغى إليه ، فأجابت عباسة عندئذ : عندما وقع بصرى على السلطان ، رأيت عالما مليئا بالأغصان الحادة ، وشاهدت فى يدى منجلا لقطعها ، ولم أستطع اقتلاعها بذلك المنجل ، فلم أر وسيلة سوى الصمت .

وأنت إن سعدت بجاه الدنيا ، حرمت نعيم الآخرة ، وعندما تتحقق لك الثروة والسلطة ، تصير الأولى حية والثانية بترا ، ما هو قلبك ؟ إنه موسى فى نفس فرعون ، والدنيا تشبه طستا ، تضطرم فيه النيران المتعددة الألوان ، لو يأمر جبريل موسى بالدخول فى النار ، يحسن أمرك ، ولكن لو أن فرعون هو الآمر ، تحترق بالنار ، وتذوق عذابها الشديد .

إن كنت تطع الله أو تعصاه ، فكل عضو من أعضائك سوف يشهد عليك ، لا كفر لك هناك ولا إيمان ، كل ما تكتسبه هنا ، ينتظرك هناك ، تحصد ما زرعته فى الدنيا ، وترتدى ما نسجته فيها ، تنتظرك هناك حسناتك وسيئاتك ، كل ما فعلته فى الدنيا تحمله معك ، لن تفوز بسعادة أيها الدرويش هناك ، إلا بما تحمله معك من الدنيا ، فإن مت فى كد أو فى هناء ، فهذا حملك على كتفيك هناك ، لأن كل ذرة فى العالم حجاب ، فإن توفرت لك ذرة فهى لا حدود لها ، اخط وكد وعان مثل الفرجار ، وإن حللت هناك ، لا تفكر ، واعبر بخفة .

٢ . قصة طلب موسى من الحق (٣٠٢٨ : ٣٠٦٦)

قال الكليم زينة العالم للحق تعالى : اظهر لى شخصا واحدا من عشاقك ، حتى تضئ عينى بوجهه ، فقلبى يحترق لرؤيته ، فجاء هاتف : لنا فى الوادى الفلانى ، رجل صادق ، من أهل المعاناة ، وهو من خواص حضرتنا ، يخطو فى طريقنا ليل نهار .

مضى الكليم لمشاهدة ذلك الرجل ، فشاهد رجلا يستبد به الوجد ، و يضع رأسه على نصف آجرة ، ويرتدى خرقة حتى ركبته ، يتحلقه آلاف من النمل والنحل والذباب ، ويتجمعون حوله ، عندئذ اقرأه موسى السلام وقال : اطلب ما تريد ، فقال له : اسرع يانبى الله ، واعطنى شربة ماء من الكوز .

وعندما اتجه موسى إلى الكوز ، فاضت روح العطشان فى لحظة واحدة ، وعندما أحضر موسى التقى الماء له ، وجده قد لفظ أنفاسه فوق الأرض ، فتعجب كليم الله ونهض ، ليعد له الكفن ، وعندما عاد كان أسد قد افترسه ، وأكل قلبه ليشبع جوعه .

فماج قلب موسى من الألم ، واشتدت غصته على ذلك الرجل ، وتحدث قائلا : يا عالم الأسرار ، لقد خلقت طينا وتعهدته بالرعاية بعناية فائقة ، وعندما اشتد به الظمأ ، وطلب الماء ، مات دون تحقيق رغبته ، نُهشت بطنه ، وأسلم الروح عطشانا ، لم تلحق هذه الذلة بأحد قط ، كيف لعقل أن يعى هذا السر ، فسرك لا يراه القلب ولا تدركه الروح .

فهتف به هاتف من لدن الحق : لأننا سقيناه الماء دوما ، كان من الأفضل لذلك البائس ، أن يشربه هذه المرة من أيدينا أيضا ، ومنحناه الثياب دوما ، فيكف يلجأ إلى موسى ، وكيف ظهرت واسطة بيننا الآن ؟ ولماذا التفت إلى الأغيار ؟ ولماذا يطلب شيئا من سوانا ، وقد حظى بإعزاز من حضرتنا ؟ إننا محونا وجوده إلى الأبد ، لظهور الأغيار فى الطريق ، ولكن إن لم يُعد لنا ، قيمة الخرقة وقطعة الآجر علنا ، فبعزتنا إن كان يرى قدر شعرة من عزنا ، أو يشتم رائحة منا فى أى ناحية .

يا عزيزى ليس الأمر سهلا معه ، فلا يكون الكلام معه إلا من القلب والروح ، وعندما يستقر الكلام معه فى أعماق الروح ويمس شغاف القلب ، يصعب الحديث عن الدنيا .

وعندما لا يستطيع المرء أن يسمو فوق روحه ، لا يمكنه الفوز على آخر برجولة ، ولا يمكن اعتباره من رجال الكون العظماء ، بل امرأة عجوز عفا عليها الزمن .

وأنت لك علائق عديدة بكل شئ ، فأى صلة لك بأصلك ؟ ولما تأخرك عن الارتقاء إلى الفلك ، وهو يزودك بمثل هذه القوة الهائلة ؟ إن سلاسل الأرض جاثمة فوق قدميك ، فكيف يمكن لك الارتقاء إلى السماء ؟ إن اهتمامك ارتبط بزمرة من الكلاب ، فمن منهم سيعلو بك إلى الأفلاك ، وكيف يليق بكرام الكاتبين فى القدس الطاهر ، الوضاعة الأرضية؟ والجمال المباح للعظماء ، كيف يظهر لسكان المستراح ؟ ليس لكل روح سبيل

إلى ذلك السر ، ولا يدرك كل شخص ذلك الجاه يا بنى ، فآلاف الأرواح تأتى إلى العالم ، ولا تطلع على ذلك السر إلا روح واحدة .

٣ . قصة خلق الأرواح قبل خلق الأجسام (٣٠٦٧ : ٣٠٩٩)

هكذا روى : أنه فى الفترة ، التى خلقت فيها الأرواح قبل الأشباح ، وتتراوح مدتها بين ثلاثة وأربعة أعوام ، وكل عام منها مدته ألف عام ، يروى أن تلك الأرواح السنية ، قبل اتصالها بالأجساد الإنسانية ، جمعت كلها ، ونظمت فى صف واحد ، وعندئذ ظهرت الدنيا عيانا ، من خلف الأرواح ، وعندما شاهدت الأرواح الدنيا ، جرت تسع أرواح من كل عشر صوبها .

ثم تجسمت الجنة ، على يمين الأرواح الباقية ، وما أن رأى هذا القسم من الأرواح ـ ويا للعجب ـ الجنة ، حتى اختارت الجنة تسع أرواح من كل عشر ، عندئذ بدا السعير ، على يسار الأرواح الباقية ، وما أن شاهد هذا العدد من الأرواح السعير ، حتى جفلت من الجحيم تسع أرواح من كل عشر .

وظل عدد ضئيل من الأرواح فى مكانه لم يبرحه ، لم ترغب فى أى شئ ، لم تختر الدنيا ولا الجنة ، ولم تجزع وتفر من السعير ، فجاءهم هاتف : أيتها الأرواح المجنونة ، ماذا تنتظرون الآن هنا ؟ إنكم بعيدون عن الدنيا وعن الجنة ، ولم تذوقوا عذاب السعير ، فماذا تنتظرون فى طريقنا ، أتلزمكم حضرتنا ؟

فتعالت الصيحات من الأرواح ، وكأن عمرا قد انقضى عليها قائلة : يا صاحب العرش والفرش والكرسى ، أنت أكثر منا علما ، فلم تسألنا ؟ نريدك أنت وكل شئ بعدك عدم ، فأنت حق اليقين وما عداك عبث .

فجاء الهاتف : إن أردتمونا ، فأنتم تطلبون أنواعا من البلاء ، كثيرة كثرة شعر المخلوقات جميعا ، متلاحقة كتراب الصحراء ، غزيرة كقطرات المطر ، وفيرة كورق الشجر ، وأكثر من ذلك ، أنزل بكم كثيرا من الآلام والمحن ، وأسلط كل لحظة آلافا عديدة من الشوك النارى ، على صدوركم الجريحة .

وعندما استمعت الأرواح إلى كلمات الحق ، أطلقت الصيحات من السعادة وقالت : لتكن أرواحنا فداء ذلك البلاء ، وليجر علينا كل ما تريد ، نفتدى بلاءك بأرواحنا ، ونتحمل فى سبيلك مئات الصعاب ، إلى الأبد .

ولأن له مع كل روح سرا ، فكل روح تعتقد ، أنها المنفردة بسر الحضرة ، والجامعة لسر معرفتها ، على هذا النحو توقن الأرواح ، ولكن قربه يختص بروح واحدة [١٢٢] ، وبقية الأرواح حجاب لها ، وتفتديها بوجودها .

٤ . قصة زوجات الرسول (٣١٠٠ : ٣١١٧)

اجتمعت نساء المصطفى ذات يوم ، وسألن الرسول : يا صدر العالم ، من منا أحب إلى قلبك ؟ إن تفصح لنا ، يطب أمرنا ، قال الرسول : أيتها العزيزات ، يجب أن تصبرن اليوم ، حتى أفصح لكن غدا عن مكنون قلبى ، وأجيبكن جميعا على قدر استطاعتى .

وعندما انقضى الليل وانمحى الظلام ، استدعى كل زوج على حدة ، وأعطى لها خاتما فى السر ، فداوى جراحها بمرهم ، وأخذ وعدا من كل زوج ، بألا تتحدث قط مع أخرى بشأن الخاتم ، وأن تحتفظ بهذا السر ، ولا تسربه إلى أحد ، وفى اليوم التالى ، اجتمعت الزوجات أمام الرسول ، ووجهن إليه ذلك السؤال مرة أخرى .

تحدث الرسول قائلا : أقرب النساء إلى قلبى فى العالم ، هى من منحتها خاتما فى الخفاء ، وعندما استمعت النساء إلى هذه الإجابة منه ، لم تظهر أى واحدة منهن سعادتها ، بل نظرت كل منهن إلى الأخرى ، ولم تقف إحداهن على ذلك السر ، فكل واحدة تعرف سره على حده ، ولكن كان له سر آخر مع عائشة .

إن هفا قلبك أيها السالك ، إلى الخطو داخل حجاب الأسرار ، فُنح من قلبك واسعد بذلك ، وتحرر فى التراب والدم ، فطالما لا تتجرع الدماء فى الخلوة ، لن تجد سبيلا إلى سر المعرفة .

٥ . قصة رابعة (٣١١٨ : ٣١٣٦)

أمضت صاحبة المقامات رابعة ، أسبوعا دون طعام هاجعة ، لم يقر لها خلاله قرار ، فكان جل عملها الصلاة والصوم للقهار ، ثم أقعدها الجوع عن الحركة والنشاط الدائب ، ولحق بجسدها الهزال والوهن الكامل ، وكانت جارة بالقرب من مقرها ، قد أحضرت وعاء به طعام لها ، فنهضت رابعة بصعوبة بالغة ، لتشعل المصباح .

وما أن قفلت راجعة ، حتى وجدت القطة قد قلبت وعاء الطعام ، فذهبت مرة أخرى لتحضر كوزا من الماء ، تنهى به صوم يومها ، وعند عودتها كان المصباح قد خبا نوره ، ورأسها قد اشتعل كالشمعة من حرقتها ، وما أن رفعت الكوز إلى فمها فى الظلام ،

لتنهى صوم قلبها الحزين ، حتى وقع الكوز من يدها فى التو واللحظة ، وبقيت عطشى وانكسر الكوز فأصدرت تلك البائسة آهة من قلبها ، كأنها قد أضرمت بها النيران فى العالم .

كانت تقول بإنكسار شديد : يا إلهى ماذا تريد من هذه المسكينة البائسة ، أسلمتنى إلى الإضطراب ، فإلى متى وأنت تدرجنى داخل الدماء ؟ فجاءها هاتف : إن أردت وهبنا لك الآن العالم بأسره ، على أن تخرج من قلبك ، معاناة السنوات الطوال ، واعلمى أن الوجل منى ، والدنيا المحتالة لا يتلازمان فى قلب واحد أبدا ، فإن لزمتك المعاناة فى سبيلنا ، فليس أمامك من سبيل سوى ترك الدنيا ، وطالما أنت فى قيد وجودك فلا سبيل إلى ذلك ، فالمعاناة الإلهية ليست دون مقابل .

٦ . قصة بهلول (٣١٣٧ : ٣٢٠٣)

ضاق بهلول مجذوب بغداد ، ذرعا بالأطفال ، الذين كانوا يقذفونه بالحجارة ، ويلاحقونه أينما ذهب ، ولما أرهقه الأمر كان يتناول الحجارة الصغيرة من الطريق ، ويعطيها لهم متوسلا : اقذفونى بهذه ، ولا تدموا قدمى بالحجارة الكبيرة ، فإن تجرح قدمى من الحجارة ، لن أستطيع الصلاة إلا وأنا جالس .

وفى نهاية الأمر عندما أدماه إلقاء الحجارة ، ولم يعد قلبه يحتمل آلامها ، نزف دما من الحجارة والضيق ، ودمى قلب الحجر من غصته ، وحتى يكف أذاهم عن نفسه ، ذهب إلى البصرة ، وهو يعرج ببؤس ، الحاصل ، وصل إلى البصرة ليلا ، وأخذ يتلمس مكانا فى الطريق لينام فيه ، فدخل إلى زاوية بها قتيل ، كان غارقا وسط الدماء والطين ، ولم يلحظه بهلول فنام بجانبه ، فتلوثت ثيابه من دمائه .

وفى اليوم التالى ، تجمع الخلق ، وشاهدوا القتيل ملقى بقسوة ، وشاهدوا بهلول واقفا بجانبه ، وقد تلوثت ثيابه بالدماء وامتلأ مكانه بها ، فأدانوه جميعا واعتقدوا ، أن بهلول - ويالله العجب - قد فعل هذا .

قالوا له : أيها الكلب من أى جهة أنت ؟ إننا لا نعرفك ، قال : أنا من بغداد ، وصلت إلى هنا ، فنمت بجانب هذا القتيل مطمئنا ، ثم اتضح هذا القتيل أمامى ، عندما أضاء العالم رقت السحر ، قالوا له : أسرعت من بغداد إلى البصرة ليلا ، لتريق الدماء ، ثم قيدوا يديه بشدة وقادوه ، وأودعوه لدى حارس السجن بقسوة .

كان بهلول الملتاع يقول فى سريرته : ويحك أيها القلب ماذا أنت فاعل اليوم ؟ لقد فررت من قذف الأطفال لك بالحجر ، فاتهمت بالقتل هنا ، إن كنت قد سلمت أمرك لله فى بغداد ، لما أصبت روحك بالطلع فى البصرة ، وفى النهاية أخبروا الملك بالأمر ، فأصدر أمرا بقتله دون شفقة .

وفى الحال قادوه إلى المشنقة ، ووضع له الرجل الظالم السلم ، وعندما أراد ربط الحبل حول عنقه ، رفع بهلول رأسه إلى الله ، وكان يَسُر إليه بسر ، وفجأة انتفض شاب من مكانه ، وأطلق صرخة وقال : إنه برئ ، أنا الذى قتلت ، ويجب قتلى أنا ، وأنا لا أستطيع الآن تحمل هذا العبء ، فكيف يمكننى احتمال وزرين فوق كاهلى .

حملوا الاثنين إلى الملك ، حيث كان وزير الملك حاضرا ، وكانت الرغبة تراود الملك منذ أمد بعيد ، فى مجالسة بهلول ولو لوقت يسير ، وكان يتطلع إلى رؤيته كثيرا ، لكنه لم يكن قد رأى وجهه أبدا ، وعندما رآه وزيره وتعرف عليه ، التفت إلى الملك بسرور ، وتحدث قائلا : أيها الملك المبارك ، إن كنت تريد بهلول فها هو ، فنهض الملك بسرعة من مكانه ، وأفسح لبهلول مكانا أمامه ، وقبل رأسه ووجهه بعطف وافر ، ورحب به وأجلسه بإعزاز شامل ، وقصوا على الملك أمر القاتل والمقتول ، ثم رووا له قصة بهلول ، فأمر ملك البصرة فى الحال ، بإراقة دم الشاب دون انتظار .

قال بهلول للملك : أيها الملك المظفر ، لو تداوى حرقة قلبى ، فمعاذ الله أن تريق دمه ، إن ترقه ، لن يعلو لك شأن ، فبسبب صدقة انتفض ، واقتدانى لما يفيض به قلبه من خير ، ضحى بنفسه فى سبيلى ، فكيف تريق دم هذا الشاب ، فاستدعى الملك أقارب القتيل ، وقال لهم : يجب عليكم طلب الدية ، وإن أردتم قتله ، يجب أن تتراجعوا عن ذلك ، وهذه ليست رغبته ، بلغ رغبتى ، و إن كان عاصيا ، فقد اهتدى ، لأن بهلول شفع له .

وفى نهاية الأمر ، حكموا الذهب بين الطرفين ، وأرضوا خصومه ، ثم سأل ملك الزمان الشاب : عندما نهضت من بين الجمع ، ما الذى جعلك تضحى بنفسك ؟ فأنت لم تخش شيئا ، واعتزمت على نفسك بسهولة ، قال الشاب : رأيت ثعبانا ، لم أشاهد مثله من قبل ، يفتح فاه وينثر منه النيران ، يرتعد من منظره الحجر الصلد ، قال لى : انهض وقل الحقيقة ، وإلا هلكت الآن ، فسوف أبتلعك فى لحظة واحدة ، واحتفظ بسك داخلى إلى الأبد ، حيث تحظى بعقوبة خالدة ، ولا يغيثك أحد على وجه الأرض ، فقفزت من مكانى من الهول والفزع ، وقلت ما قلت حتى أتخلص منه .

ثم سأل الملك بهلول ، بماذا كنت تهمس وأنت فوق المشنقة ؟ فقال : فقدت الأمل فى حياتى ، وأيقنت بهلاكى ، فرفعت رأسى وقلت : يا إلهى ، ماذا تريد من هذا المسكين العاجز ؟ لقد أعددت أنت كل هذا ، وإن كانوا سوف يقتلوننى الآن بذلة ، فسوف أطلب منك الدية ولا أطلبها منهم ، ولماذا أتعقب مجموعة من البائسين ؟ أسألك أنت فأنا لا أعرف أحدا سواك ، فروحى متعلقة بنفاذ حكمك ، وما أن أسررت بهذه الكلمات إلى حجاب الأسرار ، حتى نهض الشاب وصاح بالحقيقة ، فنجانى بكلامه من المشنقة ، ورفع الغموض عن الأمر ، ولو أن محنتى من الحق تعالى ، إلا أنها أثارت وجدى ، وإن كانت قد أدمتنى فى البداية ، فقد أشعرتنى بحاجتى إلى مائة روح ، ولأن تردى حالى صادر من تلك الحضرة ، فالسير إليه يتطلب التضحية بمائة روح .

ولكن طالما ترى غير الله ، ترى الشر والخير من سواه ، الحب والحقد نابعان من مصدر واحد ، فاعتبر كل شئ نابعا من هناك .

٧. قصة الشيخ بوشنجة (١٢٣) (٣٢٠٣ : ٣٢١٧)

خرج الشيخ بوشنجه إلى السوق ، فصفعه تركى ظالم على قفاه ، فقال له شخص : أيها التركى ما هذه الصفعة ؟ ألا تعرف من هو ؟ إنه فلان وهو مثل شمس مشرقة ، ووصاله لدى السلطان أفضل من العرش ، وكان التركى قد سمع من قبل عن صيته ، فأدرك عندئذ مقامه ، فندم وتقدم من الشيخ ، معتذرا مستشعرا ذنبه قائلا : لقد ثقل كاهلى بما ارتكبت من إثم لقد أخطأت ولم أكن أعلم ، لأننى مُلم .

أجابه الشيخ الجريح القلب ، لا تهتم أيها القائد بهذا الأمر ، إن رأيت هذا الفعل صادرا عنك فهذه سقطة منى ، ولكننى أراها صادرة من هناك حيث لا يوجد خطأ

اعلم أن كل شئ مقدر منذ الأزل ، ولكن لا تتوقف عن العبادة لحظة واحدة ، فأنت لا تعلم أهالك أنت أم لا ، ولا تعرف هل قدرت لك النجاة أم لا ، لكنك تعرف أنه طالما بقيت على قيد الحياة ، فسلوك الطريق أمر واجب ، إنك تعرف هذا ، ولا تعرف ذاك ، ولا يمكن ترك اليقين والتشبث بالوهم ، إن الله قادر عظيم ، وعملك هو العبودية على وجه الدوام .

٨. قصة موسى والرجل العابد (٣٢١٨٨ : ٣٢٤١)

أمضى عابد حياته فى الطاعة ، ولم يتوقف عن العبادة ساعة ، كان عمله العبادة ليل نهار، فقد أمضى حياته فى عبادة الجبار ، فهبط الوحى على موسى قائلا : قل للعابد : أيها الرجل ، ما هو هدفك من الطاعة الدائمة ، واسمك مسجل فى ديوان الأشقياء .

وما أن جاء موسى وأخبر الرجل العابد بذلك ، حتى زاد من عبادته ، وأخذ يضاعفها بجد واجتهاد ، فأدى الفريضة الواحدة مائة مرة ، فسأل موسى الرجل : إنك من الأشقياء ، فلما تشغل نفسك بالعبادة ؟ فقال مجذوب الطريق لموسى : يا ببغاء الطور ، ورجل الحضرة ، لقد اعتقدت ذات يوم ، أننى لا شئ ، ولا شأن لى بأى أمر ، عندما علمت مؤخرا أننى فى عداد الأشقياء ، ضاعفت عبادتى ألف مرة ، لأن اسمى ظهر بين الأشقياء عنده ، فقد ارتقى أمرى ، كل شئ يأتى من عنده طيب وحسن ، إن كان ماء أم نارا ، كل شئ يصدر عن الحضرة ، زاد للطريق ، خيرا كان أم شرا ، إن أفاض الحق على بنوره أو أحرقنى بناره ، فهو ربى الذى ليس لى عمل أمامه سوى العبودية ، لا أفكر فى قربه أو بعده ، فأنا دائما فى حضوره .

وعندما جاء موسى إلى الطور مرة أخرى ، هتف به هاتف من أوج الأسرار : عندما رأيت هذا العابد على هذا النحو ، منكبا على الدين ، لم يضعف من عبادته بسبب وعيدى ، بل زاد من جده وضاعف من اجتهاده ، ولأنه ضاعف من عبادته ، فقد زاد الله من سعادته ، والآن أدخلته فى زمرة المؤمنين ، ومحوت اسمه من لوح الهالكين ، ورفعته مع أصحاب الحظوة ، فاذهب الآن وبشره .

ولأنك لا تعلم بسر الأولين ، فلا تنكر أعمالهم ولو بدرجة ضئيلة ، ولا تثر بجهلك وتعيبهم ، فغدا سوف تتضح الأعمال .

٩. قصة شيخ بخارى والمخنث (٣٢٤٢ : ٣٢٥٤)

بينما كان أحد شيوخ بخارى سائرا فى طريقه ، شاهد فجأة رجلا سئ الأعمال ، وعندما اقترب من ذلك الفاسد ، رفع أطراف ثوبه مبديا استياءه .

فقال المخنث : يا شيخ بخارى ، لم تظهر أعمالى من أعمالك بعد ، فلا تغتر بأعمالك اليوم ، فغدا ستتضح الأعمال ، والنجاة والعذاب فى علم الله ، فلا صلاح لك ولا فساد لى ، إنك اليوم لا تستطيع أن تحدد مصيرك ، فلماذا تبعد ثوبك عنى اليوم يجب عليك

الانتظار ، إلى أن يتحدد مصيرك غدا . وعندما سمع الشيخ هذا الكلام منه ، سقط على الأرض ، وقلبه مفعم بالألم .

أيها القلب إن من شاهد أعمالك اليوم أشاح بوجهه عنها بوضوح ، لو تفحص دخيلتك ، تتصاعد حيرتك فى كل لحظة ، اتبع الأمر ، طالما لديك الاختيار ، وابتعد عن أى شئ آخر ، فسوف تمضى ساءت أحوالك أم حسنت ، وكما جئت وحيداً سوف تذهب .

١٠ . قصة الغزالى[١٢٤] وملحد (٣٢٥٥ : ٣٢٧٠)

قال جماعة للغزالى : يريد أحد الملاحدة أن يقتلك كالشمع ، فخاف الغزالى وقبع فى منزله ، حتى تسنح له فرصة للخروج ، وعندما طالت غيبته فى منزله ، ضاق صدره للغاية من المكوث فى المنزل ، وكان هناك مجذوب من كوشهد ، يطلقون عليه كوشهدى فى ذلك العهد ، فأرسل شخصا إلى كوشهدى قال له : أيها المطلع على الأسرار فى طريق الحق ، لقد لزمت منزل خوفا من أحد الملاحدة ، وقد ضقت بالأمر ونفد صبرى ، فبماذا تأمرنى أن أفعل ، ربما استطعت التغلب على هذا الأمر .

ثار كوشهدى من تلك الرسالة ، وقال لرسول الغزالى : أيها الرسول قل للإمام والخواجه ، إنك لست من رجال الحق ولا حافظا لدستوره ، لقد أتى بك الحق إلى الدنيا فى بداية الأمر ، ولم يسألك عندما خلقك ، ولن يسألك عند موتك قط ، فاسعد الآن ولا تخف ، فقد أحضرت للحياة بدون رأيك ، وتخطف منها أيضا بدون إذنك ، عندما سمع الغزالى كلمات الرسالة ، سر قلبه ، وخرج من شركه .

لم يكن لك اختيار البداية ، لذا فلن يكون لك أمر النهاية ، ولأن طريقك ليس فى ساحة الملك الإلهى ، لن يتحقق لك ما تريد . فلماذا تطلب ؟

١١ . قصة الداعى والمجذوب (٣٢٧١ : ٣٢٧٩)

كان أحد علماء الدين يدعو الله ، فيرد عليه الناس بقولهم آمين، فقال مجذوب : ما معنى آمين ، إننى لا أعرف مغزاها ، قالوا له : معنى آمين ، أن يتحقق ، كل ما طلبه الإمام والسيد من الحق ، مثل ليفعل كذا وليكن كذا ، وليتحقق كذا ، فتحدث المجذوب صائحا ، لن يتحقق شئ أبدا مما يطلبه الإمام والسيد من هذه الترهات ، ولكن لن يكون إلا ما يريده الحق ، لا أكثر ولا أقل ، فلماذا تطلب بنفسك ؟ ، لو لم يقسم الله لك

رزقا ، فلن يكون رزقك سوى احتراق الصدر ، وإن يقسم لك ، يعل شأنك ، وإلا تنبت الأشواك من وردك .

١٢- قصة مجذوب يبكى (٣٢٨٠ - ٣٢٨٥)

كان أحد المجاذيب ، يجلس فوق رماد على قارعة الطريق ، يريق الدمع مثل الدر حينا ، ويهيل التراب على رأسه حينا آخر ، فقال له شخص : يا من قبعت فوق الرماد ، لماذا تبكى دائما بمثل هذه الحرقة ؟ ، فقال : تفيض روحى بالوجد ، وأغرق بين دمعى كالشمعة ، لأننى أريد الله ولا شئ سواه ، لكن الحق لا يريدنى قط .

١٣- قصة مناجاة مجذوب (٣٢٨٦ - ٣٢٩٤)

كان مجذوب يسير فى الصحراء ، وقد استولى عليه الوجد ، فكان ينظر إلى السماء ، ويقول بقلب ملتاع : يا إلهى إن لم تكن حرقتك العشق ، إلا أننى أعشقك دائما ، وإن كنت لا تُكن لى حبا كبيرا ، فأنا لا أعشق أحداً سواك ، كيف أشرح لك يا مضئ العالم؟ وفي كل لحظة تتطلع مئات من الأرواح إلى ذلك السر ، وتهيم حوله شوقا مثل الفراش حول الشمع ، وإن كان هذا السر يدرك بدون سبب ، إلا أنه يدرك أيضا بإقبال الحظ ، وإن تحققت لك ذرة من الحظ ، لارتفعت بك صوب الشمس .

١٤- قصة إقبال الحظ (٣٢٩٥ - ٣٢٩٨)

قال رجل لأحد الشيوخ : أيها التقى ، ماذا تفعل إن حالفك الحظ ؟ فقال : إن تحقق الإقبال ، يقل لى ما يجب وما يلزم ، كل شخص تفيض عليه السعادة ، تجعله يبدأ العمل فورا .

المقالة الحادية عشرة (٣٢٩٩ : ٣٥٩٠)

قال له الولد : إن تمتعت بالجاه ، فلماذا يضطرب حالى وأُضِلُّ السبيل ، إننى أبحث عن الجاه باعتدال ، فلا تمنعنى إن سلكت هذا السبيل ، فلو ضؤلت رغبتى فى الجاه ، لن يجرفنى غروره كالسيل .

إجابة الأب (٣٣٠٣ : ٣٣٠٦)

قال له الأب : الرغبة فى الجاه وإن كانت ضئيلة ، إلا أنها تطيل سجنك داخل الجب ، لو تتطلع ثانية إلى هذا السبيل بعين الطاعة ، ينقشع عنك الحجاب فى الحال ، ولأن حجاب البحث عن الجاه ينسدل أمامك ، يحول بينك وبين الطاعة .

١ . قصة موحد (٣٣٠٧ : ٣٣٢٥)

كان أحد العظماء من أصحاب التوحيد ، قد أمضى زمنا طويلا فى البادية[١٢٥] وحيدا ، لم يأخذ دلوا ولا إبريقا ولا حبلا ، ولم يحمل معه ماء ولا زادا ، وفى نهاية الأمر جاء و هو يسير مثل الغرباء ، وقد وضع قطعة من الخبز فى فتحة السربال ، كان يشمها أحيانا ويهيم على وجهه أحيانا أخرى ، وينام فى بعض الأحيان عاجزا دون غطاء فى العراء ، فقال له شخص : لماذا صرت مسكينا على هذا النحو ، وقد كانت لك مثل تلك الحياة ، أصرت على هذا النحو فى النهاية ، تشم قطعة الخبز كل لحظة !؟

قال الرجل : أسلك على هذا النحو ، لكى أكفر عما اقترفته ، فقد كان تجردى وهما ، وكان غرورى وغفلتى لا حد لهما ، وكان كل ما صدر عنى مجازا ، والآن وقد أدركت ذرة من المعنى ، ووهبنى الله التوبة من غرورى ، ويزيدنى منها كل ساعة ، كيف يكون الاهتمام بغير الحق ، دليلا على العبودية .

إن تنشغل بشئ سوى الحق ، فأنت قطعا عبد لذلك الشئ ، وإن نازعتك نفسك عن الحق بشئ مهما ضؤل ، فهو قيد صغير فى طريقك ، يجب أن تنزع كل علائقك تماما ، وأن تزيد معرفتك بنفسك كل لحظة ، لأنك تعرف أن موتك أمر حتمى ، فلماذا لا تقصد إليه ، انهض ، فلست أقل من ورقة ، ارتعد وامتقع وانفصل عن نفسك . إن يتحقق لك الوقوع أمام هذا الباب ، تنفتح أمامك أبواب العظمة ، ولو تسقط أمام هذا الباب وأنت على هذا النحو من التردى ، عندما تنهض تصبح شمسا .

٢ . قصة مجذوب ونعش (٣٣٢٦ : ٣٣٤٢)

شاهد مجذوب واحد ، نعشا محمولا من بعيد ، فسأل أحد الأشخاص : من هو الميت ، الذى خطفه أسد الموت فجأة ، قالوا له : أيها المجذوب الواحد ، كان هذا الميت شابا مصارعا فى غاية القوة .

قال لهم المجذوب : الشاب وإن كان قويا فى المصارعة ، إلا أن المسكين لم يكن يعلم ، مع من يدخل حلبة المصارعة فجأة اليوم ، أوقعه منافس بالغ القدرة ، وألقى به دون محاباة ، فقذف به وسط التراب والدماء ، بحيث لا ينهض ثانية ، لكن الحمد لله يمكن لهذا الشاب أن ينهض ، حيثما وقع ومات . هناك توجد الحياة ، بعد صعود الروح ، حيث يجئ الجميع ويواجهون الوقوع ، لأنه لا مناص لأحد من الوقوع ، فلا بد للجميع من الوقوع فى هذا البحر .

إن لم تسقط هنا ، فأنت بلا روح ، ولا إيمان لديك بالنهوض ، ترفرف حول العالم سعيدا ، وأنت تنشب مخالبك فى هذه الجيفة ، إنك لم تمتلك هذه الضيعة ، ولم تبتعها ، وكأنك لم تشاهدها من قبل ، الحياة لا تلزم أى عاقل ، فهى تنهى حياة المرء فى لحظة ، لماذا ارتبطت روحك بالعالم ، وهذا العالم سوف ينتهى فى لحظة !؟ إن كنت رجلا ، فالحياة الحقيقية هى ، أن توجد هناك حيث الخلود فى الآخرة .

٣ . قول للرسول (ص) عن الرضيع (٣٣٤٣ : ٣٣٥٩)

هكذا قال الرسول للصحابة ، عندما يولد الطفل من أمه ، يكون وجهه متجها إلى الأرض ، يظهر عجزه للغاية ، ويظل يبكى ، ولكن عندما يرى ضياء الدنيا ، ويشاهد سعة الأرض ، وامتداد السماء ، لا يطلب العودة إلى رحم أمه مرة أخرى أبدا ، حيث يلفه الظلام ، والشخص الذى تخلص من هذا العش الضيق (الدنيا) ، ذهب إلى صحراء الآخرة الشاسعة ، ومثل هذا الشخص ، مثل الطفل الذى خرج من رحم أمه إلى الحياة ، مثل ذلك الطفل الذى يأتى إلى الدنيا ، ولا يريد أن يعود إلى داخل البطن لحظة واحدة ، كل شخص رحل عن الدنيا إلى الآخرة ، كان حاله كحال الطفل كما ذكرت لك .

أيها القلب إن روحك ليست متعلقة بالدنيا ، فاشعل النيران فى وجودك إن كنت رجلا . إن لم يسلك قلبك الطريق ، فكيف ستسلكه داخل جسدك ، إن كان السابقون استطاعوا سلوك الطريق ، فأيقن أنه يمكن لروحك سلوكها ، أقم خلوة داخل دير قلبك ، وانطلق منها صوب الحق ، وإن أديت عملا اجعله روحانيا ، ولا تظهره و اخفه ، و مارس رياضاتك مرتديا الحرير لا النمد ، فذلك عمل الحمار وليس من العقل فى شئ ، و ليس من الجائز أن تبدل ثيابك ، فأمر الله ليس بالعمامة ولا بالقباء ، وإنما تجاوز عن الثياب إن استطعت ، وبدل روحك مثل الرجال .

٤ . قصة حسن وحبيب [١٢٦] (٣٣٦٠ . ٣٣٧١)

كان حسن يسير برفقة حبيب ، حتى وصل الرفيقان إلى جيحون ، وعندما نظر حسن بجانبه لم يجد حبيب ، فأخذ يتلفت حوله ، حتى وجده على الجانب الآخر من النهر ، فأدرك أنه فاز بمقام أعلى منه ، فقال له : يا حبيب ، يارجل الحضرة ، لقد تعلمت منى سلوك الطريق ، فكيف مرقت فوق النهر ؟ وكيف وجدت السبيل إلى هذه الكرامة ؟

قال له حبيب : أيها الأستاذ المطلق ، وهبت هذه الكرامة فى طريق الحق ، لأن دأبى كان درء الصدأ عن قلبى ، وكان عملك دائما هو جعل الورق أسود .

وأنت إن جلوت مرآة قلبك مثل الرجال ، يعكس القمر لك مرآة من الشمس ، قلب بعيد عن التشبيه وعن التعطيل [١٢٧] مبرأ من كل تفسير وتأويل ، يفنى حينا فى القدس والطهر تماما ، ويشعر حينا بقيد التراب ، يعيش بين السكر والصحو ، ويتحقق له الكمال بهما .

٥ . قصة شبلى (٣٣٧٢ : ٣٣٨٨)

كان شبلى يحضر مجلسا ذات يوم ، فسأله شخص : يا وضاء العالم ، قل من هو العارف ؟ فقال : هو الذى إن يجتمع أمامه العالمان ، يتغاض عنهما بهدب واحد ، لأنه فاز بدرجة أعلى منهما .

وسأله آخر ذات يوم مرة أخرى ، من هو العارف ؟ يا أستاذ الأسرار ، قال : إن العارف عاجز ، لا تتحقق له قوة بعوضة أبدا ، فنهض أحد الحاضرين وقال : يا وضاء العالم ، فى اليوم الفلانى تحدثت عن العارف بذلك النحو ، والآن تقول هذا اليوم ، إنك تتناقض فى طريق دينك ، أجاب شبلى آنذاك بوضوح : أيها السائل لم أكن أنا نفسى ذلك اليوم ، ولكننى اليوم عاجز ، فلن أجيبك بأفضل من هذا أبدا .

الشخص الذى يرى جمالا فى جهة ما ، لا يتحقق لرؤيته الكمال ، يجب رؤية الحسن والقبح معا ، وإدراك مقامى الصحو والسكر على حد سواء ، ولكن إن رأيتها كلها متصلة ، فأنت ترى حسنه كله فى ترابط ، وإن رأيت سوءا فهو حسن ، لأنه من عند الله ، إن تنظر إلى المنزل والسقف معا ، تجد دنيا العشق وقفاً عليك .

أيها القلب ، للمعشوق علامة فى روحك ، انثر عليها الدمع من عينيك وأبدره دُراً ، فإذا ما جلس فوق عرش قلبك ، وألقى بكل قيوده ، جب الآفاق من سعادتك به ، حينا فى صحوك وحينا فى سكرك ، وانظر إلى الآفاق وادرك معرفتها ، فأنت فى كل لحظة تدرك عالما بذاته ، ولكن إن تجمع الخلق حولك بالآلاف ، فإنهم يصوبون إليك السهام من الجهل ، عندما يكون معشوقك حاضراً معك ، إن تأوهت ، فأنت بعيد عن الطريق .

٧ . قصة أبى يزيد والمحتال (٣٤١٠ : ٣٤٣٠)

كان أبو يزيد وضاء العالم ، يمر على الصرافين ذات يوم لعمل ما ، فشاهد أمامه فى الطريق أحد المحتالين ، وقد بدا أنه اقترف كثيرا من الذنوب ، حيث كان شخص يقيم عليه الحد ، ويجلده بقسوة بالغة ، والدماء تنزف منه بغزارة ، وعلى الرغم من تلك القسوة ، لم يكن المحتال يتأوه ، بل كان يضحك ويقول بسعادة : ليتهم كانوا

يضربونني دائما على هذا النحو ، ويطعنونني بسيف ناري ، فتعجب الشيخ من ذلك العربيد ، وظل واقفا هناك .

وعندما انتهوا من إقامة الحد عليه ، سأله البسطامي في الخفاء ، لقد جلدت طويلا ونزفت كثيرا ، ومع ذلك بقيت مثل الورد ضاحكا متفتحا ، لم تتأوه ، وتغلبت على دمعك ، لقد احترت في أمرك ، اعلمني عن سر هذا الأمر ؟ وكيف يمكن البقاء وقت المحنة بمثل هذه السعادة ؟

فقال المحتال المنبوذ عندئذ : كان معشوقي أيها الشيخ موجودا من بعيد ، كان واقفا على ناحية من الطريق ، لا يفعل شيئا سوى المشاهدة ، وعندما رأيته واقفا في الطريق ، لم أشعر حينئذ بالألم ، متى كنت أرى جراحا بعيني في تلك اللحظة ، وإن جرحت مائة جرح !؟، وكيف لا أثبت ، والمعشوق واقف من أجلي !؟

عندما سمع الرجل الفريد هذا الكلام ، فاضت الدماء من عينيه ، وقال في سريرته : أيها الشيخ التعس ، تعلم طريق الدين من هذا المحتال ، كل أمورك في الدين معوجة ، فانظر كيف تكون أنت ، وعلى أي نحو يكون هو ، يجب أن تتعلم الدين من هذا المحتال ، فإن تعلمته ، يجب أن تتعلمه على هذا النحو ، يوجد كثيرون من أصحاب التسليم في الدين يتعلمون من أقل عبد .

٨. قصة ابن مبارك [١٢٨] (٣٤٣١ : ٣٤٤٤)

كان ابن المبارك يسير في الطريق ، في الصباح الباكر ، وسط الجليد والرياح ، فشاهد غلاما ، يرتدي ثوبا واحدا ، وكان جسده يرتعد من البرد ، فقال له : لماذا لا تفاتح سيدك في هذا الأمر ، حتى يهيئ لك ملابس أخرى ، قال الغلام : ماذا أقول لسيدي ، إنه يراني دائما ، ولأنه يراني بوضوح فماذا أقول ؟ ، ولأنه يعلم حالي أفضل مني فماذا أطلب منه ؟

عندما سمع ابن المبارك هذا الكلام ، تدفقت الدماء إلى مفرقه ، وأطلق صيحة وفقد رشده ، كأنه صُعق ، وعندما عاد إلى رشده تحدث قائلا : ظهر لنا مرشد ، ألا يا سالكي طريق الحقيقة ، تعلموا من هندي الطريقة هذا .

من يعلم ما تخفي الصدور ، وفي أي قلب من قلوب الخلق تكمن محبة الله ، القلب الذي يستشعر محبته ، يطوي طريقه في نفس واحد ، كل قلب فاز بنفحة من محبته ، يسرع

ببذل روحه فى لحظة واحدة ، مثل ذلك الحبشى الذى أدرك محبته ، فأدرك عمره الضائع فى لحظة واحدة .

٩. قصة حبشى (٣٤٤٥ : ٣٤٥٩)

جاء حبشى إلى الرسول قائلا : لقد قررت التوبة الآن ، ولو فزت بالعفو وقُبلت توبتى ، يكون لى شفيع مثلك يا رسول الله ، قال الرسول : إنك تبست ، فاعلم يقينا أن الله قد غفر لك .

عندئذ قال الحبشى مرة أخرى ، لقد كنت ضالا وسط ذنوبى ، ربما لا يتقبل الله ذنوبى ، ويكون قد شاهدنى غارقا فى تلك الآثام ، قال الرسول : ألا تعلم إذن ، أنه لا يخفى على الله شئ ، لقد اطلع على ذنوبك كلها ، إلا أنه سترها بكرمه .

عندما سمع الحبشى هذا الكلام ، أصدر آهة فجأة من قلبه الدامى ، وما أن انطلقت تلك الآهة من قلبه ، حتى اقتنصت طائر روحه ، وسقط أمام المصطفى فوق الأرض ، مات تقيا ، وذهب إلى الحق طاهرا ، وطلب الرسول من أصحابه الصلاة عليه قائلا : أسرعوا أيها الصحابة جميعا ، وابكوا على قتيل الحق ، غريق الخجل والحياء ، وكبروا عليه ، الشخص الذى يقتل بسبب الحياء والخجل ، إن مات ، صار جسده توتيا ، وإن شممت أى ذرة من ثراه ، لوجدتها مثل مائة بحر يهدر بالخجل .

١٠. قصة عروس وزوج شهم (٣٤٦٠ : ٣٤٩١)

أراد رجل وصال عروسه الفاتنة ، فوجد منها تمنعا وصدودا ، وعندما شعر الزوج بابتعادها عنه ، أيقن أنها قد فقدت عفافها ، صار جسدها من العرق مثل ماء الورد ، وبدلا من أن تمزق ثوبها كالورد مزقت روحها ، وعندما وقف الرجل على مدى خجل المرأة ، وشعر بإشرافها على الهلاك كمدا وحزنا ، دمى قلبه لحالها ، وتجاوز عن عارها .

قال لها : لن يصح إيمانى ، إن لم أخف سرك وأحفظه ، لن تعلم أمك بهذا الأمر ، ولن يتأتى لوالدك الاطلاع عليه ، وابن آدم لا يخلو من العيوب ، فإن صادفنى عيبك ، أستره ، ليستر الله عيوبى ، فلى نقص فى دينى ، يفوق نقصك ، فليطمئن قلبك ، ولا تفكرى فى هذا الأمر طويلا ، ولا تذكريه ثانية أبدا .

وفى اليوم التالى وبعد انتهاء هذا الأمر ، توقف ذلك الطائر الذهبى عن التحليق ، استبد بها المرض ، وثقلت عليها وطأته فى يوم واحد ، أصبح وجودها كله يصرخ ويشبه

قبضة من العروق والأعصاب ، وبدت عظامها وأصبحت مثل نواة التمر ، وعندما شاهد زوجها وجهها مثل الذهب أحضر لها طبيبا فى التو والساعة ، وكيف لـذرة من العلاج أن تداويها ؟ واصفرار وجهها يزداد كل لحظة .

تحدث الزوج وقال لها خلسة : إنك تقتلين نفسك وأنت بعد فى ريعان الشباب ، إن كانت رغبتك هى عدم كشف سترك ، فقد سترتك والتزمت بالصمت ، و إن كنت تتمنين عدم معرفتى بالأمر ، فتخيلى أننى لا أعلم به ، لماذا يطبق الحزن على صدرك ؟ حتى أسلمك إلى المرض على هذا النحو .

فقالت الزوجة عندئذ : أيها الزوج التقى ، لا يصدر الكلام الطيب إلا من أمثالك ، إنك قلت ما يليق بك ، وفعلت ما يجدر بك ، وتحملت عذاب روحى ، دون ذنب ، ولكن ماذا أفعل فى هذا الخجل ، فأنا أعلم أنك تعرف سرى ، ولأنك تعلم إثمى ، فمنى تخمد النيران فى طريقى . ظالما بقيت على قيد الحياة ، فلن تعرف روحى سوى الاحتراق ، قالت هذا وفارقت الحياة بسبب الخجل ، أسود وجهها ، وانقلب حالها ، لأنه غفر لها كل ما ارتكبته ، ولم يعد لديها ما تخشاه ، فأسلمت الروح .

إن كانت قطرة واحدة قد غرقت فى بحر الكل ، فلماذا تهيل التراب على مفرقك بسبب هذا الفكر ، لا تكن فى سعيك مثل قطرة شريدة ، فالأولى بالقطرة ، اتصالها بالبحر ، أنا وأنت خلقنا من نطفة ، ماذا كان يحدث ، إن لم تكن النطفة ، ولماذا ولدت إن كنت ستموت هكذا بذلة ، إن عدم وجودك أفضل من موتك (غافلا) كالشرارة ، لماذا تحيا وقد استغرقك النوم ، ولماذا يستوى مجيؤك وذهابك .

١١ . قصة لأحد الحكماء أمام قبر الإسكندر(٣٤٩٢ : ٣٤٩٨)

عندما أودع الإسكندر الثرى فى ذلة ، قال حكيم أمام قبره : أيها الملك لقد قمت بأسفار متعددة ، ولكنها ليست كرحلتك هذه المرة ، طفت حول العالم مثل الافلاك ، وانتهيت الآن من ذلك ، لماذا ذهبت كما جئت ؟ ولماذا جئت كما ذهبت ؟ إنك لم تعلم شيئا عن الحياة وأنت فيها ، ولا تعلم ماذا تحمله إلى هناك ، لماذا تلزم كل هذه القيود ، وإلام هذا المجئ والرحيل .

١٢ . قصة مجذوب (٣٤٩٩ : ٣٥٣٤)

اضطرب حال أحد المجاذيب ، وساء أمره يوما بعد يوم . انقبض قلبه من الخلق ، ومن نفسه ، وضاقت الدنيا أمامه ، فتحدث قائلا : يا عالم الأسرار ، ليس لهذا الخلق سر واضح ، إلى متى يستمر المجيء والذهاب ، ألم يضق قلبك يا إلهى بالخلق!؟ ماذا أقول ، وأنا لا أعرف شيئا عن نهايتى ، وعما أبحث ، ولا فكرة لدى عن بدايتى ، إن دمعى الدموى يفوق ماء البحر ، ماذا أقول ، فهو عالم يهدر بأمواج الدماء .

تقول لى : لأنك خبرت الحياة ، فارشد أرواحنا بإشارة ، ولأن روحى لا تدرك كنه الحياة ، فكيف يبحث أحد عن شيء لدى فاقدة ؟ لا أعلم ما هى وسيلتى ، وما هو قلبى أو ما هى روحى ؟ إن مسكينك هذا لا حيلة له ، يعانى دائما من الاضطراب ، طفقت أبحث فى كل حدب وصوب ، إلا أننى لم أوفق بأى وجه ، طفت حول العالم كثيرا ، لهذا أصبحت حائرا على هذا النحو ، منذ أن نزعت من ثدى ألستم ، وألقى بى فى هذا السجن مقلوبا ، عانيت الاضطراب والضلال ، فتلمست كنف المربية فزة ، و من هناك جئت وحيد منجردا ، حيث يوحد رسم إقبالى وسعادتى ، إن أفز بالوصول إلى هناك أو لم أفز ، فإننى أحترق من الحيرة ليل نهار ، قلبى مفعم بالألم وروحى طافحة باليأس ، وأيامى مظلمة وقمرى خاسف ، إن بقى قدمى فى هذا المنزل ، فقد ينغرس قلبى المتهالك فى الطين .

بسبب العمى أدرنا ظهورنا للأسرار ، وبسبب الغفلة ، جعلنا الخرقة زنارا ، محونا عقولنا ، وتمسكنا بالحماقة ، تركنا الأدب ، واخترنا الوقاحة ، لو بقى القلب متعلقا بهذا الخيالات ، فسوف يتردى بأيدينا من جهلنا ، أى فائدة من عمر لا طائل تحته ، إن فزنا فيه بشيء ، نزعت عنا السلامة ، أيها القلب إلى متى تقتلنى وإلام تصهرنى ؟ أنت لا تستسلم ولا تقاوم ، فماذا يجب أن أفعله معك فى نهاية الأمر ؟ وأنا لا حاصل لى سوى الألم .

إن تتحقق لك معاناة الرجال ، فأجلس برجولة ، وتغلب على ذلك الألم بشجاعة ، لأن ترديك يتزايد دوما بسبب آلامك ، فالإلم تسحلنى فى الدماء ، إنك تشعل فى النار كل لحظة كالشمع بيد ، وتجلونى باليد الأخرى ، إن تعثرتُ ، تقل لى انهض ، وإن ركضتُ ، تقل لى لا تسرع ، إن كنت قريبا أو بعيدا ، طالما وجدتُ ، فأنا وحيد .

أيها القلب لا علم لى عن الضيعة والضياع ، فحررتنى من هذه الضيعة لحظة واحدة ، واصنع لنفسك منزلا مثل أبى أيوب ، فإن أعددته ، احتفظ به مفتوحاً ، ليصير على حين غرة مهدا للمصطفى ، فيشارك مثلك أيها المسكين المنزل ، فإن كنت كافرا يمنحك الإيمان ، وإن كنت عاجزا ، يساعدك ، وعندما يتحقق لك شيخ مرشد ، كن مريدا فأصل الرجل هو الشيخ ، وإذا ما انمحى الشيخ فى الحق محوا مطلقا ، أصبح أمره هو أمر الحق بعينه .

١٣ . قصة حسن البصرى وشمعون (٣٥٣٥ : ٣٥٩٠)

كان للحسن البصرى أستاذ البصرة الجليل ، جار مجوسى واهن ، ظل يعبد النار سبعين عاما ، ويحترف الجهل والسكر ، كان اسمه شمعون ، وكان يقضى جل وقته أمام النار ، مثل الشمع ، وعندما اشتدت عليه وطأة المرض ، رق الحسن لحاله ، وقال فى سريرته ، يجب الذهاب اليوم ، لعيادته ومواساته ، فهو وإن كان مجوسيا بائسا ، إلا أنه فى نهاية الأمر من جيراننا .

الحاصل ، توجه الحسن إلى شمعون ، فرآه نائما وسط الأرض مثقلا بآلامه ، وقد أسود وجهه من دخان النار ، الذى ذهب بنظافة ثوبه وشعره ، فتحدث الشيخ وقال : أيها المسن ، اخش الله ، فإلام تبتعد عن جادة الصواب ؟ لقد أضعت عمرك كله عبثا ، وأمضيته بين النار والدخان ، وأغضبت ربك ، فجعلت مصيرك الجحيم ، أنك تتوهم أن النار تحميك ، ولا تعلم أنك لاترى منها سوى الدخان ، فابتعد عنها ، أيها الغافل ، لتتحرر ، إن كنت أسدا ، فلن تستغنى عن الله .

لماذا تنير قلبك بالنار ؟ وهى إن أدركتك ، أحرقتك فى الحال ، إن تلك النار لا تشتمل على ذرة واحدة من الوفاء ، فمن غير الجائز البحث عن الوفاء لديها ، إن كان للنار وفاء لحظة واحدة ، لأمنتك مرة واحدة هوينة ، إنك عبدت النار طويلا ، وسوف تحرقك فى نهاية الأمر ، ولكن لأننى أعبد الحق بإخلاص ، سأضع يدى الآن فى النار ، حتى نعلم أيها الآثم ، أنه لا يوجد أحد سوى الحق فى العالم ، انظر ، قال هذا ووضع يده فى النار ، فلم تمس شعرة منها .

وعندما شاهد المجوسى الواهن يد الشيخ ، احتار وبهت ، وأشرق عليه صباح المعرفة ، وأسبغ عليه الضياء كالشمع ، وقال للحسن : أيها الشيخ أى أمر هذا ؟ لقد انقضى الآن سبعون عاما ، وأنا أمارس عبادة النار ، والآن يؤرقنى التفكير فى الحق ، ففى هذا

الوقت وأنا على وشك الموت ، أشرق الصباح فى قلبى المظلم ، ماذا أفعل ؟ وماذا تقترح على أن أفعل ؟ ولم تبق لى سوى أنفاس معدودة فى الدنيا .

تحدث الشيخ وقال : أيها الطاعن فى السن ، اعتنق الإسلام ، فهذا هو مخرجك ، عندئذ قال شمعون : أيها التقى ، كثيرا ما تطاولت على الحق بكلمات ، إن ساعدتنى الآن ، تكتب لى رسالة وتشفع لى فيها ، حتى يعفو الحق عنى دون أى عقاب ، ويشرفنى بمشاهدة الجنة ، إننى سأقر بإيمانى وأسلك طريق الله ، ولكن عندما ترقم الرسالة . فكتب الحسن الرسالة ، وأحسن ديباجتها ، وشفع فيها للرجل .

فقال المجوسى مرة أخرى : أيها الشيخ التقى ، يلزمنى عدول البصرة كلهم ، ليشهدوا على هذه الرسالة ، لأننى أخشى غضب الله وقهره ، فنفذ حسن طلب المجوسى الطاعن فى السن ، وأشهد العظماء على ذلك الكلام ، وأحضر الرسالة وسلمها إلى شمعون ، عندئذ أسلم شمعون الصالح .

وعندما أخذ الرسالة قال للحسن : أيها الشيخ عندما يحين أجلى ، وتغسلنى ضعنى فى الكفن ، وضع الرسالة فى يدى بنفسك ، فليس لى أمام الحق سوى هذه الحجة ، وإن كنت لا أحملها إليه ، إلا تعبيرا عن خجلى ، قال هذا وفاضت روحه الطاهرة ، وتجمع كثيرون حول قبره ، ثم وضعوا الرسالة فى يده ، وظل القوم هناك حتى الليل .

فى تلك الليلة لم تغفل عين للحسن من شدة التفكير ، وأمضى الليل كله فى الصلاة والذكر ، كان يقول فى سريرته : يالك من أستاذ ماهر ، أجسرت على إعطائه الرسالة بجهل ؟ اجترأت وكان ذلك بسبب جهلى ، ولا أعلم أكان ذلك صوابا أم خطأ ، إننى أخشى من أن يجرفنى التيار ، فكيف أمسك بيد غريق ، إننى بعيد عن ملك الحياة ، فكيف أتصرف فى ملك الحق ؟

ظل على هذا النحو حتى السحر ، وعندما أسره رسول النوم ، رأى شمع الإيمان فى المنام ، شمعون متنعما فى جنات الخلد ، والتاج فوق رأسه فى عز ملكى ، ويرتدى حلة من التشريف الإلهى و شفتاه ضاحكتان ، ووجهه مضيئ مثل الشمس ، صار مسلما فى دار الملك الخالدة ، فقال له الحسن : ويحك كيف أتيت إلى هنا ؟ فقال له : لماذا تسأل ، تمعن فى الأمر ، الله جعل مثوى الجنة الخالدة ، ومتعنى برؤيتها بفضله وإحسانه ، الآن وقد أوفيت بشفاعتك ، خذ هذه الرسالة ولا تقلق .

قال الحسن : وعندما استيقظت ، وجدت الرسالة فى يدى ، وقلبى مطمئن . إن صنعت دواء اصنعه على هذا النحو ، واجعل عهد الإيمان على هذا المنوال .

المقالة الثانية عشرة (٣٥٩١ : ٣٨٣٦)

قال له الولد : لو أن الكأس حرام على ، فاشرح لى كنهها ، وإن كان عشقها عزيزا ، فأنا لا أعلم سرها .

إجابة الأب (٣٥٩٤ : ٣٥٩٦)

أطلق الأب لسان الماس ، ونظم درر البيان ، وقال للولد : لو فاضت عليك الهداية ، لكانت هذه القصة كافية لك طوال عمرك .

١ . قصة كيخسرو وكأس جمشيد (٣٥٩٧ : ٣٦٣٠)

جلس كيخسرو ، ووضع الكأس أمام الشمس مثل جمشيد ، وأخذ ينظر إلى الأقاليم السبعة ، ثم تحول إلى مشاهدة البروج السبعة لم يخف عليه شئ من حسن أو قبح ، إلا كأس جمشيد ، لم تظهر له ، فطلب أن يشاهدها ، وأن يرى العالم كله فى لحظة واحدة ، فإنه وإن كان يرى العالم بأسره داخل الكأس إلا أنه لم ير كأس جمشيد . فطفق يبحث عن ذلك السر ، ولكن لم يتضح أمامه الأمر .

وفى النهاية ظهر رسم قال له : متى تستطيع أن ترانا داخلنا ؟ لأننا فنينا عن أنفسنا الطاهرة ، فمن يرى صورتنا فى عالم الأرض ؟ لقد فنى الجسم والروح عنا ، فلم يبق منا أثر ولا اسم ، كل ما تراه ، هو أنت ، وليس نحن ، فنحن لن نظهر ثانية أبدا ، ولأن صورتنا قد تبدلت إلى صورة أخرى ، فلما تبحث عن رسمنا ، وقد صار فى حكم الأزل ، وكل شئ يتعلق بنا ، يمكن رؤيته منه ، فلا يمكن مشاهدتنا جهاراً ، وجودنا ، وإن كان مجرد ذرة ، إلا أن هذه الذرة ، تضيق بوجودها إلى الآن ، ولن يرى أحد أثرا منا إلى الأبد ، فالشمس لا تفصح عن ذراتها .

إن كنت تبحث عن المعرفة فى نفسك ، فافن عنها ولا تنظر إليها ، عندما شعرت عينك بهاتف موتك ، ارتدت السواد ، قبلك ، حزنا عليك ، وإنسانا العين ، وإن كانا صغيرين ، إلا أنهما يسبقانك فى الموت ، لم يشاهدا نفسيهما أبدا ، لأنهما اختارا فناءهما ، طوال وجودهما ، لذلك لا يشاهدان عزهما ولا ذلهما ، ولأن الموتى لا يشاهدون أنفسهم أبدا ، إن أردت الحياة فى الموت ، فاعلم أن كمال الحياة هو الموت .

وإن أردت إدراك الخلود ، يمكنك ذلك بالمحو ، والآن إن أردت أن تصبح مثلنا ، افعل مثلنا ، واترك نفسك ، وافن عنها ، في هذا الحي ، تلزمك قلعة من الفناء ، وإلا أصابتك الجروح من كل صوب .

عندما اطلع كيخسرو على ذلك السر ، نفض يديه من الملك ، وأيقن أن ملكه الحقيقي ليس سوى الفناء ، حيث لا دوام للدنيا . عندما رأى صحراء وجوده سدا أمامه ، وشاهد قباء المحو يزين قده ، ترك الملك الفاني مثل الرجال ، وقرأ الشهادة ونام بين يدى الفناء ، واستدعى لهراسب الذى كان يرافقه ، وأجلسه بدلا منه على العرش ، وذهب إلى غار وحمل الكأس معه ، واختفى تحت الجليد ، وانتهى ذكره [١٢٩] .

الشخص الذى يغرق ، لا يُعرف أثر له ، ولا يعلم عنه ساكنو الشاطئ شيئا ، وأنت أيضا ما زلت أسير دوامة البحر ، ولا تعلم أنك غافل ، فأنت معنا مثل ثلج أمام الشمس ، أو باقة ورد على سطح ماء ، ولأنك جلست داخل البحر بدون سفينة ، سيقول لك البحر : من تكون ؟

٢ . قصة حجر وطوبة (٣٦٣١ : ٣٦٣٩)

كان حجر وطوبة يسيران في الطريق ، وفجأة سقطا في بحر ، فقال الحجر بضعف : لقد غرقت ، الآن سأقص سيرتي إلى قاع البحر ، لكن الطوبة فنيت عن نفسها ، ولا أعلم أين ذهبت وماذا حدث لها ؟

فتحدثت الطوبة الخرساء ، بحث سمع صوتها كل من تمتع بالمعرفة قائلة : لم يبق منى أثر في العالمين ، ولم يبق من وجودى قدر رأس إبرة ، ولا يمكن مشاهدة شئ منى لا روحى ولا جسدى ، ولكن يمكن مشاهدة البحر المضئ كله ، إن تصر مثل البحر اليوم ، تتوهج فيه ليلاً أيضا ، ولكن طالما تتقيد بوجودك ، فلن تجد روحك ولا عقلك .

٣ . قصة شبلي وشاب (٣٦٤٠ : ٣٦٦٧)

ذات يوم كان شبلي يسير في طريق البادية ، يستبد به الوجد كالشمع ، فرأى شابا متألقا مثل شمع المجلس ، يمسك بأعواد من النرجس ، ويضع غطاء رأس موشى بالقصب ، ويرتدى خفه ، ويزهو بثوبه الفاخر ، ويسير في عزة وخيلاء ، يشبه الحجلة الآمنة من الباز .

فتقدم منه شبلى فى ود ، وقال له : أيها الشاب ، من أين تجئ ، بمثل هذا الاندفاع وهذا السرور ؟ فقال له الشاب القمرى الوجه : من بغداد ، خرجت فى الصباح من هناك ، وأمامى الآن طريق شاق ، ثم تحرك الشاب بعد ساعتين من المكان ، وعندما ذهب شبلى إلى الحرم ، بعد مضى خمسة أيام على ذهاب الشاب ، رأى شخصا محطما فى الطريق ، صار أسود اللون ، واهنا ضعيفا ، تحطم قلبه ، وفقد اهتمامه بحياته ، وقد قص شبلى قصته على رفاقه فقال :

عندما رآنى كان ينوح بضعف ، وفادانى أمام الكعبة قائلا : أتعرفنى يا شبلى ، أنا ذلك الشاب الغض النضر ، الذى رأيته فى المكان الفلانى ، لقد دعانى إليه بمئات الآلاف من الإعزاز ، وفتح لى الباب ، ومنحنى فى كل ساعة كنزا مختلفا ، ووهبنى فى كل لحظة أكثر مما طلبت ، والآن عندما جئت بنفسى ، تحول دفعة واحدة إلى مفرقى كالفرجار ، أدمى قلبى وأشعل فى النار ، وألقى بى من الروضة إلى الحمام ، ابتلانى بالمرض والفقر ، وأبعدنى عن العالمين فى ساعة واحدة ، فلم يبق لى شئ لا قلب ولا دنيا ولا دين ، وبقيت على هذه الحال التى ترانى عليها اليوم .

قال له شبلى : أيها الهمام ، افعل ما تؤمر به ، فقال الشاب : أيها الشيخ الفريد ، لمن يكون هذا النصيب الخالد ؟ لا أعلم أنا الغافل هذا اللغز ، فهو يقول إما أن تكون أنت أو نحن ، وأنا أحترق والتاع لهذا السبب ، حيث لا يتسع المجال فماذا أفعل ؟

وأنت جلست أمام عينيك ، فانهض من أمام عينيك ، وتحرر ، لقد خلقت فى الحياة من أجل نفعك ، ولا أرى نفعا لك هنا سوى الفناء ، إن نصيبك من الوجود كله لا شئ ، وقسمتك من خضم الحياة العدم ، وإن كنت سالكا ، تحترق طوال عمرك ، فلن يقسم لك رزق سوى العدم .

٤ . قصة مجذوب أمام قبر (٣٣٦٨ : ٣٦٩٣)

كان أحد المجاذيب يسير وقت السحر ، فرأى شاهد مقبرة أحد العظماء فى طريقه ، وقد تراصت الأحجار فوق بعضها البعض بصورة جمالية ، فأقامت نسقا محكما قويا ، وبعد أن وقف فترة أمامه ، اتصل بروحه ، ثم قال : إن هذا الشيخ المدفون ، لا يملك شيئا وهذا أمر مخاف ، فمثل هذا الرجل القوى ، لا أرى لروحه العزيزة أى كسب فى هذا السبيل ، وسوى هذا الحجر الذى وضع فوق قبره ، لم يفز بنصيب من الكون كله .

فقالوا له : أوضح الأمر ، حتى يتضح لنا هـذا السر ، فقال : إن هـذا الرجل المدفون ، أهمل شأن الدنيا والآخرة ، فلم يهتم بالدنيا ، ولم يخش الآخرة أيضـا ، فقد كان مريدا لشئ آخر ، ولكن ما الفائدة ، فذلك الشئ من العزة ، بحيث لم ولـن يصـل إليه شخص أبدا ، وإن كان صالحا ، أم طالحا ، فقد زهد فى كل شئ ولا يملك شيئا قط .

للحياة ضر ونفع ، فانظر مدى إقبالها وإدبارها ، فى الصباح تضع كل شئ أمام عينيـك ، وفى الليل تسلبك الحياة ، فى يقظتك تجد الدنيا تضج بالحركة والحياة ، وعند نومك تصبح عدما فى عدم ، فانظر إلى هذا الوجود والعدم ،، واعتبره كله من العدم .

ما هى الطريقة ؟ إنها تصفية الباطن ، لأنه لا يمكن المجازفة بالنفس فى الخطأ ، وأنت لا بصيرة لديك ، فأنت دائم الخطأ ، لأن الخالق قد خلقك قاطع طريق ، ومهما اشتدت معاناتـك ، فكيف يتأتى لك وصال المعشوق كاملا ؟ إن العاشق يظل مبرحا بعشقه دائما ، ومفعما بأنوار نفحات المعشوق ، وكيف يتأتى وصال المعشوق لأى شخص ؟ ومتى يتحقق كامـلا لمخلوق ؟ هـذا العلم لا قبل لنا به ،وسوف تظل آلام أشواقنا ولوعتنا ، ومن الأفضل ألا يحقق لك وصاله ، حتى تظل ملتاعا به دوما ، إنك عاشق نفسك فبمن يحترق قلبك ، احرق قلبك ، حتى يضيئه لك ، إن أدركت سر هذا أم لم تدركه ، فليس لك سبيل آخر سوى هذه الطريق ، افن وجودك فيه ، أيها البائس ، فالمجال لا يتسع لك وله .

٥ . قصة مناجاة مجذوب(٣٦٩٤ : ٣٧٠٦)

كان مجذوب واجد ، يفضى بسر إلى الله ، فقرب شخص أذنه منه ، ليعلم ذلك السر العظيم ، فوجد المجذوب يقول للحق ، هـذا هو مجذوبك ، الذى ظل فترة يشاركك منزلك ، ولأن المنزل لا يتسع لك معه ، فيجب أن تظل أنت أو هو داخله ، والآن أنا تارك هذا المنزل استجابة لأمرك ، ولأنك أنت موجود فأنا ذاهب بجنون .

فى هذا المذهب حيث لا يوجد سبيل سوى هذا ، لا يوجد شرك وذنب أسوأ من كلمة نحن وكلمة أنا ، فاخرج يا ولدى من هذا المنزل الضيق ، فحملك ثقيل وحمارك أعرج ، وقد أحمالك صوب اللامكان ، وأنت تمتطى براق الصدر ، فأحمال العشق وإن كانت تثقل على الروح ، إلا أن ميدان خلده مؤكد ، والزم هذا الباب ، فربما يخصك الملك ، بقربه فجأة ، وحضورك هو أصلك ، لا شئ آخر ، و ما يلزمك هو الحضور ولا شئ سواه ، إن تلزم الحضور فى الحضرة ، تصبح من الفائزين بقرب الملك .

٦. قصة السلطان ملكشاه والحارس (١٣٠) (٣٧٠٧ : ٣٧٣١)

ذات ليلة سقط جليد كثيف ، فسد الطريق أمام خيمة السلطان ملكشاه ، وجفلت الطيور واختفت الأسماك من شدة البرد ، ولجأ الجميع إلى أماكن متفرقة ، ففكر السلطان وقال : يا إلهى ، من سيهتم بالسلطان هذه الليلة ، يجب أن أذهب لاستطلع الأمر ، وأرى من يلازم بابى فى هذا البرد القارس .

وعندما أخرج السلطان رأسه من الخيمة ، سرت فى جسده قشعريرة وشعر بلسعة البرودة ، ولم ير أحدا من الحراس فى أى اتجاه ، بل وجد شخصا يلازم بابه بيقظة ، يرتدى قباء من النمد ، ويفترش الأرض ، ويسند رأسه على مسامير الخيمة ، خفه فى قدميه طوال الليل ، قابع فى مكانه من شدة البرد والجليد ، ولا أعلم هل لزمت الحضرة ذات ليلة ، على هذا النحو ، بسبب معاناتك فى الدين ؟ إن شعر قلبك بذرة من الاحتراق ، لفاز ليلك بمثل هذا الإشراق .

نهض الرجل على صوت أقدام السلطان ، ونادى على الملك : ويحك ، من أنت ؟ فرد الملك فى الحال : أنا السلطان المعظم ، أيها العطوف ، فمن أنت أيها الرجل المتفانى ، بحيث تحرس السلطان فى مثل هذه الليلة ؟ فتحدث الرجل قائلا : أيها الملك إننى رجل غريب لا وطن لى ، وطنى ليس سوى بلاط الملك ، وليس لى سبيل سوى خدمته ، وطالما أنا على قيد الحياة فرأسى تحت أقدامه ، قال له الملك : إننى أهبك ، وأقلدك عمادة خراسان .

عندما أدرك السلطان علامة من إخلاص الرجل ذات ليلة ، فاز الرجل منه بالشهرة والخلود ، وإن تلزم أنت أيضا بلاط الحبيب ليلة واحدة ، تفز بالحظ والإقبال ، وإن تنزع الغفلة ليلة واحدة ، تدرك حدود الوفاء ، وتمنح خلعة خالدة من فضله ، وترى كل ذرة مثل الشمس ، وإن تتحقق لك تلك الرؤية لحظة واحدة ، ويكف بصرك ، فأنت ميمون الطالع ، فالعظماء الذين اتضح لهم الأمر ، نظروا إلى الحياة بعين الفناء ، وعندما تتحقق لك عين الفناء ، يصبح السكر لك سما ، والورد شوكا .

٧. قصة هدية الشيخ أبى سعيد إلى معشوق (٣٧٣٢ : ٣٧٥٠)

أرسل الشيخ مهنة ثلاثة أشياء إلى معشوق ، خلالا وغطاء رأس وسكر ، وعندما رآها معشوق ، رفضها لأنه وجدها من مخلوق ، وقال للخادم : قل لشيخك ، لم تعد هذه الأشياء توافقنا ، أتناسب الخلال ، من لاعمل له سوى تناول الدماء دوما ، إننى أتجرع

الدماء دائما ، فلتعلم أننى لا أحتاج إلى خلالك ، وهل يفيد السكر ، من يجب أن يتناول شراب السم دوما من القهر ، ولأن هذه المرارة لن تزول عن حلقى أبدا ، فاعرف أن هذا السكر حرام على ، وغطاء الرأس يليق بصاحب الرأس ، أو بمن يشعر برأسه ولو قيد أنملة ، والشخص الذى لا سربال له لا رأس له ، فكيف يناسبه غطاء الرأس ، أشياؤك الثلاثة لك . أيتها الحياة ، يكفينى شئ واحد آخر أنت تعرفينه .

الشخص الذى يدرك شمس المعرفة الإلهية ، متى ينظر إلى ذرة ؟ وأنت إن تدرك سر العشق ، تتجه إلى المحو دائما ، وإن ترد إدراك هذا السر الهائل ، لن يلزمك رأسك لحظة ، فعندما يفصلون عن الشمعة رأسها ، يسود الضياء سواد الجمع ، وعندما يمحى رأس القلم ، يبدو جميلا للغاية ، وإلا لما بدا لأحد خط منه ، إن محوت الباطل ، تدرك الحق ، وإن ألقيت بقيودك تفز بالمطلق ، فيسلبك وجودك ، حتى يتحقق لك هذا الأمر ، وطالما قيد وجودك يثقل كاهلك دوما ، لا يمكنك أن تفوز بوصال معشوقك .

٨. قصة شبلى وكلب (٣٧٥١ : ٣٧٦٦)

سأل شخص شبلى : من أول مرشد لك فى الطريق ؟ فقال : رأيت كلبا على حافة جدول ماء ، وقد أشرف على الهلاك من شدة العطش ، وكلما رأى وجهه على صفحة الماء الصافى ، ظنه كلبا آخر ، فلم يشرب الماء خوفا من الكلب الآخر ، ولم يجر من أمام الماء ، وعندما بلغ به التعب مبلغه من العطش ، وطال انتظاره عن الحد ، ألقى بنفسه إلى الماء فجأة ، فاختفى الكلب الآخر .

عندما اختفى وجوده من أمام عينيه ، انمحى حجاب نفسه من أمامه ، وما أن تلاشى هذا الحجاب البين أمامى ، حتى أيقنت أننى حجاب نفسى ، ففنيت عن نفسى ، وعلا شأنى ، وكان أول مرشد لى فى طريقى كلب .

وأنت أيضا ، أزل وجودك الماثل أمام عينيك ، حجابك هو أنت ، فانزعه من أمامك ، وإن يظل لك أى قدر من وجودك ، فهو قيد ثقيل ، كان من الأفضل لك أيها الرجل الهرم ، لو حملوك من المهد إلى اللحد ، لذلك أدرك موسى تلك المنزلة من الحق ، لأنه سلك الطريق من المهد فى تابوت [١٣١] ، إن لزمك حضوره دائما ، فلا تأت مع نفسك ثانية وهذا كاف لك ، لا تأت مع نفسك ، تعال بدونها ، وابتعد عنها فهذا الفناء نور على نور .

٩. قصة السلطان محمود وإياز (٣٧٦٧ : ٣٧٨٢)

كان إياز الفضى الصدر نائما ، على أنغام البلبل ، تحت ظلال الورد ، وما أن علم السلطان بذلك حتى انطلق إليه واقترب من وسادة إياز ، فرأى شمسا تحت الظلال ، وقد تكشف عرقها فأضحى ماء ورد ، طال جلوسه بجانب وسادة إياز ، واشتد بكاؤه ، ولم يسأم من النظر إليه ، وأخذ ينثر الورد تارة على جماله ، ويجرى الدمع فوق وجهه تارة أخرى .

وفى النهاية عندما استيقظ إياز من نومه الهنيئ ، اضطرم كالنار ، خجلا من السلطان ، وعندما شاهده الملك على هذا النحو قال : يا صاحب الحسن الفائق ، لأنك استيقظت الآن ، فأنا ذاهب ، ففى تلك الساعة عندما كنت غائبا عن الوعى ، كنت أعظم من كل صفة أصفك بها ، وفى تلك الساعة التى رأيت فيها روحك الفياضة ، لم تكن أنت لأننى كنت موجودا ، ولأنك عدت إلى وعيك فقد فنى المحبوب ، ولأنك صرت طالبا فقد اختفى المطلوب .

لا تكن أيها الصديق حتى يكون المحبوب ، فإن وجدت حُجب المحبوب ، افن عن نفسك ، فالفناء هو وجودنا ، ولأن الفناء أفضل ، فلماذا تبقى فى قيد وجودك ، إن تلزمك خلوة محمود ، تتحقق لك بعد فنائك ، عندما يفنى وجودك ، ويتحقق لك الوجود الحقيقى ، تصبح محمودا فى عالم الغيب ، طالما بقيت مقيدا بوجودك ، لن يخصك بعنايته ، ولكن إن فنيت عن نفسك ، يخصك بها .

١٠. قصة القمر والشمس (٣٧٨٣ : ٣٧٩٨)

قال القمر : إننى فى عشق الشمس ، سوف أجعل الدنيا ، مفعمة بالنور ، خالدة ، فقالوا له : إن كنت بهذا الصدق ، تلزمك الحركة ليل نهار ، حتى تصل إليها ، وعندما تدرك قربها ، تفنى فيها وتنمحى ، تحترق تحت أشعتها ، ويهون شأنك أمام عظمتها ، وعندما تخرج من تحت أشعتها ، يتلهف الخلق على مشاهدة جمالك ، فينبهون بعضهم البعض ، ويصوبون أبصارهم نحوك ، وعندما تختفى على حين غرة ، يتضح من نورك السابق ، أن واحدا متيما قد فنى دون خوف ، وانفصل عن بقية الأجرام ، واحدا قد احترق تحت أشعة الشمس ، وأدرك الوصال بعد الفراق .

وفى الليلة الرابعة عشرة وبالرغم من جماله الفائق ، يطلب العون بسبب نقصانه فى ليالى

المحاق ، وعندما يزدان فى تلك الليلة ، لا يلحظه أحد لأنه يكون ذاتيا ، ولكن إن شاهدته وقت تكونه ، تجد الناس يضحكون له وهو هلال .

وانت طالما تتقيد بوجودك ، فأنت صاحب بلاء خالد ، وعندما يبتعد القلب عن ترهات الشرك ، يقيم فى سنزل الفناء ، وإن تتخلص طباعك من لبن الشرك ، تصل إلى التوحيد .

١١ . قصة أبى يزيد (٣٧٩٩ : ٣٨١٣)

رأى ذلك الفطن فى منامه ذات ليلة ، أن أبا يزيد ظهر له فجأة ، فقال له : يا شيخ العصر والأوان ، ماذا قلت لله الواحد القهار ؟ أجاب : جاءنى الأمر من الحضرة : أيها السالك ماذا أحضرت لنا معك ؟ قلت للحق : أحضرت لك ذنوبا ، لكننى لم أشرك بك أبدا ، شربت قليلا من اللبن أثناء حياتى ، وفى الليل انتابنى ألم فى بطنى كاد يزهق روحى ، وفى تلك الليلة كاد الألم يقضى على ، فقلت فى سريرتى : أصابنى الألم من اللبن الذى شربته .

فقال لى الحق تعالى : إنك تقول لم أحضر لك شركا إلى الحضرة ، ونسيت بهذه السرعة أيها الشيخ ، وأحضرت معك شركا بحديثك عن اللبن ، إنك من شركك رأيت الألم من اللبن ، ومحوت خطا فى دفتر التوحيد ، فلا تدع التوحيد ، لأنك تجرعت اللبن بشرك .

وأنت متى تشتم روحك وردة التوحيد ، ورائحة الشرك تفوح من فيك ، وعندما تصل إلى كنه الحقيقة ، تتوقف عن شرب اللبن بطهر . إن تبلغ الأسرار ، تفز بوجوده كله ، إنك لست طفلا ولا أحولا ، لذلك اعتبر كل ما تراه وتسمعه من لدنه .

١٢ . قصة إبراهيم بن أدهم (٣٨١٤ : ٣٨٣٦)

كان إبراهيم بن أدهم يسير فى الطريق ، فرأى شخصين ، يريد أحدهما أن يشترى شيئا من الآخر مقابل شعيرة من الذهب ، فرفض الثانى . كرر الأول قوله : خذ هذه منى ، فهى كافية لهذا الأمر ، و امض عنى ، قال الآخر : إننى لن أماطلك ، لن أعطيك بشعيرة ، لن أعطيك هذا ، وعندما سمع إبراهيم هذا الكلام ، اكتنفته الدهشة وصار مثل طائر يرفرف بجناحيه ، فكان يغيب عن وعيه حينا ، ويثوب لرشده حينا آخر .

فتقدم رجل من بين الناس وسأله : يا سلطان الدين ، ماذا ألم بك ؟ فاضطربت على هذا النحو ، فقال : عندما قال : لن أعطيه هذا ، قلت لنفسى : ربما قال ابن أدهم ، وعندما كرر : لن أعطيه هذا بشعيرة واحدة ، سمعتها لن أعطى ابن أدهم بشعيرة واحدة .

لو تصرخ كل ذرة دائما ، يسمعها القلب الوجل ، لنفرض أنك لم تخبر بأحوال الرجال ، ألم تسمع سيرتهم الطيبة مرة واحدة ؟ إن أردت أن تكتسب كمال أحوالهم ، فافن عن نفسك ، لتدرك البقاء والخلود مثلهم ، حطم قيد وجودك ، أيها الشبيبة بالذرة إن أردت الخلود ، ورغبت فى إدراك مقام الشمس ، ولو لم يكن لوجودك فائدة ، لما كانت الدنيا منزلا لك ، كل طفل يموت صغيرا ، تطويه الدنيا بسهولة ، وأنت تتنازعك الأهواء ، وبلاؤك ليل نهار لهذا السبب ، إن أردت الكأس لتصل إلى المعرفة ، افن عن نفسك فى الحياة ، لقد سمعت أيها العاقل عن كأس جمشيد ، وعلمت أنها كثيرا ما ظهرت فى الدنيا ، اعلم أيها الصديق أن كأس جمشيد هى العقل ، فهى اللب والإدراك الدائم ، وكل ذرة فى العالمين ، واضحة فى كأس عقلك ، حيث الآلاف من الصنائع والأسرار والمعارف ، وآلاف من الأوامر والنواهى والأحكام والتكاليف ، كلها نتيجة لعقلك وهى كافية ، وأى كأس تكون أوضح لك من هذه أبدا ؟

المقالة الثالثة عشرة (٣٨٣٨ : ٤١٦١)

الولد الرابع

تقدم الولد الرابع صائب الرأى قوى الشكيمة ، و الجميع يسودهم الهدوء و تشملهم السكينة ، و قال لأبيه : طالما لم يبلغ عمرى منتهاه ، أتطلع بشغف إلى ماء الحياة ، لو يتحقق لى أبحو و أتحرر ، وإلا أظل قابضا على ريح صرصر ، تحترق روحى من الشوق إليه دوماً ، فتعزف نفسى عن الطعام نهارا و يجافينى الكرى ليلاً ، قلبى يستبد به هذا الخاطر ، وأصبحت متعطشا لنواله .

إجابة الأب

قال له الأب : لأن الأمل قد تغلب عليك ، طلب قلبك العمر الأبدى , إنك مشتاق لماء الحياة ، لأن الأمل هيمن على روحك ، فإن لاحت عليك ذرة من نور الصدق ، يصبح الأمل طوع يديك .

١. قصة الإسكندر (١٣٢) والحكيم (٣٨٤٨:٣٨٩٥)

و صل الإسكندر الرومانى إلى مكان ما ، حيث طفق يبحث عن المعرفة ، أراد أن يتعلم الحكمة ، وأن يتلمذ على أحد الأساتذة ، وأنت سبيلك هو العلم ، وإن كنت ملك العالم ، لتصبح مثل ذى القرنين إ ن أردت . قالوا للإسكندر: يوجد هنا رجل، لايوجد له مثيل فى الدين ، يعتبره بعض الناس مجنونا ، ويعده البعض الآخر كاملا و حكيما ، وهو يقيم أمام بوابة، ومشهور عنه اعتزال الحياة ، فأرسل الإسكندر شخصا ليأتيه به .

الحاصل ، ما أن وصل الرسول إلى هناك ، حتى طرده الرجل ، فقال له رسول الملك : انهض الملك يستدعيك فلا تتكاسل ، و لاتعاند. و أجبه، وإن كان ذلك ثقيلا على نفسك ، فذو القرنين هو سلطان العالم . تحدث الرجل الفريد قائلا : إ ننى غير تابع لسلطان الزمان .أنا سلطان لمن يكون مليكك عبدا له ، فكيف أصادقه ؟ و ملكك من عبيد عبيدى(١٣٣) ، فلا يليق بى الذهاب إليه.

جاء الرسول ، وأبلغ إجابة الرجل ، فغضب الإسكندر التقى ، ثم قال : إما أنه مجنون ، أو ضال عن السبيل ، لأننى عبد للحق ، و حبيب له أيضا . فمن يعتبر الحق تعالى عبدا له ؟ لايجرؤ ملك ولادرويش ، على اعتبارى من عبيد عبيده .

وذهب الإسكندر إلى الرجل ، وأقرأه السلام ، فأجابه الرجل بما يليق بمقامه . سأله الملك : لماذا اعتبرتنى من عبيد عبيدك ، و أنت على علم بالأصول و الرسوم ؟ فأجابه الرجل وقال :أيها الملك لقد وطأت العلم بقدميك ، لتحصل على ماء الحياة ولاتموت ، وتفوز بحياة خالدة ، وهذا يسمى أملا أيها الملك . وأنت تسلك سبيله مثل العبيد ، وجمعت مئآت الجيوش ، لتستولى على الأقاليم السبعة ، و لو تعلم فهذا هو الحرص ، وأنت عبد مستعد لخدمته .

ولأن الحرص و الأمل تركتهما أنا ، فصار الهك عبد الى . وعندما يحيا قلبك بالحرص و الأمل ، فأنت عبد أمام عبدى . وعندما قبع الأمل داخلك طلب الخلود . لذلك طلب منك ماء الحياة ، لكن حرصك كان يطلب الدنيا منك ، لذلك كان يطلب منك الجيوش الجرارة ، الشخص الذى يتشبث بالحياة ويخشى الموت ، إن فقد حياته ، فبسبب حرصه ، عندما تخف على حياتك ، و تقلق على روحك ،تفقد حياتك و روحك قيمتيهما ، حياة روحك خالدة إلى الأبد ، فلماذا التعلق بالروح و الحياة .

سالت الدماء من عينى الإسكندر ، و لسان حاله يقول إن هذه غصة دامية .و قال : إنه ليس بمجنونا ، و لايوجد حكيم يفوقه عقلا . لقد اكتسبت روحى الراحة و السكينة من حديثه ، وهذا نصر كاف لى من هذه السفرة ، وهكذا بحث الإسكندر عن ماء الحياة خوفا من الموت . فمات فى شبابه .

ولماذا تسأل عن قصة سد الإسكندر[١٣٤] ، وأنت أيضا سد لنفسك فاتركها . وجودك سد أمامك ، وأنت باق مع نفسك فى ذلك السد دوما . أنت فى سدك يأجوج و مأجوج ، يطوق رقبتك قيد مثل عوج[١٣٥] ، إذا ما انتزعت هذا الحجاب ، انتزعت بذلك الطوق عن عنقك مثل عوج بن عنق ، و إن حررت رقبتك ، تتحرر من كل هذه الدماء التى تتجرعها ، وإلا تواجهك مئآت الآلاف من الحجب ، وتشاهد داخلها روحا ميتة. إن أردت أن تعبر النيران ، لاتنظر إلى معبد نار الدنيا ، وإن ارتكبت أقل خيانة ، تظل داخل جبل النار ، ولأن عبور النار هو عين الطريق ، فلماذا تسأل إن كان سياوش[١٣٦] بريئا ؟

إن كنت قد أخلصت للحق لما نهشك كلب نفسك ،إدبار الناس بسبب المحاباة ، ولو لم توجد المحاباة ، لاستقام الاعوجاج ، ينتظرك بلاء شديد ، فماذا تريد أن تقول عن نفسك فى النهاية ، الدنيا خصم ، التففت حوله ، فاخش الموت لأنك ميت فى نهاية الأمر .

٢. قصة افتضاح الخلق يوم القيامة (٣٨٩٦:٣٨٩٨)

قال واحد من أهل السلامة ، إن افتضح الخلق يوم القيامة فلاعجب ، العجيب هو ، إن ينجو واحد مما اقترفه من مظالم عديدة .

٣. قصة طاووس [١٣٧] (٣٩٠٠:٣٩٠٩)

حدث قحط في أحد الأعوام ، واضطربت أحوال الناس ، و تجمهر خلق العالم أمام طاووس ، ليدعو الله ، فتنهمر الأمطار ، وقالوا له : إن الأمطار لا تسقط ، فادعو الله أن يحقق رجاءنا.

فقال لهم طاووس: أيها الأعزاء إن السحاب لا يمطر عبثا ، إن لم يكن لكم مطلب سوى الأمطار ، فلا غرو إن لم تهطل الأمطار ، العجيب هو ألا تمطر حجارة على الناس ، وتتدفق من جراء الذنوب الغفيرة ، وألا يترك السحاب السماء ، ويمكنك أن تتعجب ، إذا لم تنشق الأرض من شؤمنا ، وتبتلعنا من جهلنا .

وأنت تعتقد أنك من رجال الطريق ، أى رجل طريق واهم أنت !! عندما يُنزع عنك و همك ، ينهض كلب ميت من داخل نفسك .

٤. قصة الرسول في ليلة المعراج (٣٩١٠:٣٩٢٧)

لبلة المعراج ، شاهد الرسول فجأة ، بحرا عظيما في طريقه ، يقف الملائكة حوله في أعداد غفيرة ، وينساب سيل من عينى كل ملاك منهم ، فقال الرسول : أيها الأطهار ، لماذا تبكون جميعا بصورة دائمة وتمثل هذه الحرقة ، وعندما صدر لهم الإذن من غيب الغيب ، بدأوا يتحدثون أمام الرسول :

منذ ظهور العالم ، ومنذ خلقنا الله من نور ، ونحن نبكى ، على قوم من أمتك يوجدون في هذه الطريق ، يتوهمون أنهم من أهل الطاعة ، وهم بعيدون عن رضائه ، لا يعلمون ، ومن وهمهم ، يقضون عمرهم ، وهم واهمون .

وأنت تعلم مالك من أعمال ، فكيف تعرضها للتجارة ؟ إن اهتممت بدينك لحظة ، لما عانيت من النزدى في دينك كل لحظة ، افعل أمرا ، فقد خلقت هنا للعمل ، وهناك ، يواجهك الحساب ، وأسفاه ، فقد صار نفعك الكثير ضررا ، انمحى طريقك ، ومضت القافلة .

وأسفاه على عمرك الذى أهدرته ، أليس من الخير أن تنصفه ، لماذا تطلب من الحق عمرا مديداً ، وأنت لا تعلم قيمة هذا القدر منه ، الشخص الذى لم يعرف قدر حياته لحظة واحدة ، لا يمكنه الزهو بكنز عمره ، لا تذر عمرك للرياح عبثا ، يا من أسلمت عمرك إلى رياح الحياة ، فمثل هذا العمر إن طلبته لحظة ، لن يبيعه أحد لك للحظة بأى ثمن .

٥ . قصة رجل حريص وملك الموت (٣٩٢٨ : ٣٩٥٦)

عاش حريص بين الألم والمعاناة ، أفنى روحه وكد واجتهد طويلا ، ضاعف عمله ليل نهار ، حتى تجاوزت أمواله ثلاثمائة ألف دينار ، وتجاوزت أملاكه المائة ألف ، وادخر ما يزيد على مائة ألف أخرى ، بالإضافة إلى مائة ألف أو يزيد ، كانت بين أيدى أهل البلدة للتجارة .

وعندما رأى أمواله فاضت عن الحد ، وشاهد قصره وأمواله ، قال لنفسه : اجلس وتناول ما لذ وطاب إلى ماشاء الله ، وحتى يفعل الله أمرا كان مفعولا ، فإن أنفقت هذه الأموال على مأكلى وملبسى ، وضاق بى الحال ، حينئذ أعمل ، وما أن جلس لينفق الذهب سعيدا ، ويغرق نفسه فى المسرات ، ويبدأ تنفيذ هذه الفكرة ، حتى هبط عليه عزرائيل فجأة ليقبض روحه .

وعندما شاهد عزرائيل قريبا منه ، أسودت الدنيا أمام عينيه ، وبدأ يتحدث وينتحب قائلا : لقد أمضيت عمرى فى كد وتعب ، والآن وقد جلست لأجنى ثمرة اجتهادى ، أترضى أن أموت دون نصيب ، وكيف لعزرائيل أن يكف عنه ؟ فبدأ فى قبض روحه ، فقال الرجل فى ذلة : إن كان الأمر على هذا النحو ، ولا مناص لك من قبض روحى ، معى الآن ثلاثمائة ألف دينار ، أمنحك مائة ألف ، إن وافقتنى ، وأمهلتنى ثلاثة أيام وتركتنى ، وبعد ذلك افعل ما تشاء .

رأى لعزرائيل أن ينصت لهذا الكلام ، فقبضه مثل شمع يحترق ، فقال الرجل مرة أخرى ، سوف أمنحك مائتى ألف دينار ، مقابل أن تمهلنى يومين ، إن تيسر هذا ، الشاهد لم يمهله عزرائيل أيضا ، ثم عرض عليه الرجل أيضا ثلاثمائة ألف ، ليمهله يوما واحدا ، وجادله طويلا ، ولم يتحقق له رجاؤه ، وفى نهاية الأمر قال : أريد أمانا للحظة واحدة ، لأكتب شيئا ، فأمهله فكتب كلمة ، بالزنجفر من دماء عينيه : انتبهوا أيها الناس ، فقد كنت أريد شراء عمرى وحياتى بثلاثمائة ألف ، أشتريهما لساعة واحدة ، ولم أوفق فى جدالى ، احفظوا مثل هذا العمر إن استطعتم ، واعرفوا قدره ، فإن انتهى انطلق مثل

السهم من اليد ، وهو لا يباع ولا يعود أبدا ، ومن أفسد عمره ، كيف يمكنه تدارك الأمر فى الآخرة .

٦ . قصة قتل ولد مرزبان (٣٩٥٧ : ٣٩٧٠)

كان حكيم ، صاحب كمال ، اسمه مرزبان ، من خواص أنوشيروان ، كان له ولد جميل يشبه الشمس ، دانت له كافة العلوم ، وحدث أن قتله أحد السفهاء فجأة ، فأدمى روح أبيه من فجيعته فيه .

قال أحد الخواص لمرزبان ، يجب أن تقتص من ذلك الكلب ، فأجابه مرزبان بسرعة ، ليس لإراقة الدماء فائدة فى الحقيقة ، أأشترك معه فى ذلك العمل ؟ وأريق دم مخلوق بنذالة ، لم يفعل ذلك الشرير عملا طيبا ، حتى أفعل مثله ، فقال له : إذن فلتأخذ دية ، قال : لن آخذ دية قط ، لا أستطيع أن أثمن ولدى ، فالدية تدمى القلب وتحرقه .

إن كان الحزن على الولد غير جائز ، فكيف لا يكون اهتمامك بنفسك خطأ ، من عاش فى هم نفسه ، فقد أضاع عمره ، باقى لك من عمرك أسبوع أو اثنان ، وما أحسن ذهابك بعد ذلك ! ولنفرض إنك تبت أسبوع أو اثنين ، فماذا ستفعل فيما انقضى من عمرك .

٧ . موعظة (٣٩٧١ : ٣٩٧٨)

هكذا قال ذلك العالم الطاهر ، كل من دخل حانة القمار الوضيعة ، وركز اهتمامه فى لعب القمار ، يخسر كل ما يملك مع إحدى عينيه ، ولنفرض أنه تاب ولم يتراجع عن توبته أيضا ، ألم يفقد عينه عبثا ؟ ولو أنه يتقدم الصفوف بالتوبة ، لكن متى تعود إليه عينه المفقودة ؟

يا عزيزى كل نفس تخرجه من القلب ، ولا توجهه لذكر الحق ، اعلم أنك ستفقده مثل عين المقامر ، ومتى يمكن تدارك هذه الخسارة ؟ لا تضع من يدك شيئا ، يكون من العزة بحيث لا يعود أبدا .

٨ . قصة بوذر جمهر [١٣٨] (٣٩٧٩ : ٤٠٨٨)

عندما غضب كسرى على بوذر جمهر ، أمر بسمل عينيه ، وحدث أن أرسل الروم أحجية إلى كسرى قائلين : إن وقف كسرى على هذا السر ، نرسل له الخراج ، وإلا تكون الحرب بيننا ، ولا شئ آخر ، فجمع كسرى الحكماء جميعا ، ولم يوفق أحد

منهم فى فهم السر ، وقالوا جميعا : هـذا السر معقد ، وهو من شأن بوذرجمهر ، لن يعرف أحد غيره هذا السر ، فاسأله عن هذا اللغز .

أرسل أنوشيروان أحد الحكماء لاستدعاء بوذر جمهر ، وأعزه مثل روحه ، بعد ما أذاقه من ذل ، ثم أطلعه على أمر اللغز فى الحال وقال له : لن يستطيع أحد سواك حله ، فقال له الحكيم ، أريد حماما ، أسترخى فيه لمدة ساعة ، وعندما تتسلل الحرارة إلى جسدى ، اطلب ثلجا ، ثم اكتب اللغز فوق جسدى بالثلج ، لو أن عينى مظلمة ، إلا أننى سوف أحل هذا اللغز بهذه الحيلة .

الحاصل ، فعلوا ما طلبه منهم ، فحل اللغز ، وأصاب فى حله ، فسعد الملك فى قرارة نفسه للغاية ، وقال له : اطلب منى شيئا ، فقال له الحكيم : إنك كما ترى قد أصبتنى بالعمى وسئمت عينى ، والآن أريد منك أيها الملك العظيم ، أن تعيد لى نظرى المفقود ، فقال له الملك : متى أستطيع هذا ؟ أنت نفسك تعرف أننى لا أملك حيلة لذلك ، فقال له الحكيم ، أيها الملك المعظم ، لأنك لا تستطيع أن تعيد لى بصرى ، فلا تحتد على شخص ، وخذ الشئ الذى تستطيع إعادته إن أردتَ ، لماذا تنتزع شيئا ، يكون من العزة ، بحيث لا يمكن تعويضه أبدا .

وأنت أيضا ، كل نفس لك ، جوهر غال ، وأى شئ أكثر عزة من جوهرك هذا ؟ فلا تبدد هذا الجوهر هدرا ، لأنك إن أردت استعادته ، ماذا تفعل ؟ يجب أن تتقدم كل لحظة ، فإلى متى تأتى مع نفسك دائما ؟ إنك لست بنفسجا ، ولا نرجسا ، فلما عماك كهذا ، وزرقتك كذاك ؟ كلك مثل صوت الرعد المفاجئ ، وأنت تشبه برج العقرب أحدب وأعرج .

أمامك آلاف الحجب داخلك ، فكيف تسلك السبيل داخل نفسك قدر ذرة واحدة ؟ إن جئت مع نفسك ، فأنت غافل ، وتتقدم زمرة الأشقياء ، لم تخلق أبدا لنفسك ، لذلك كتب لك عمرا مديدا ، ألا تبتعد عن الوجود أمدا ؟ ولماذا تبقى وحيدا شريدا ؟ أيقن أنه عندما تظهر تلك المعرفة ، لن يبقى الانفصال .

٩. قصة طائر صحراوى (٤٠٠٩ : ٤٠٣٢)

كانت أنثى إحدى الطيور تعيش فى صحراء ، وتضع بيضها خلال أربعين يوما كل عام ، وكانت تعشش على حدود الشام ، ولا تهتم ببيضها ، فبعد أن تضع بيضها الكثير فى أربعين يوما ، تختفى عن أعين الناس ، ثم تأتى أنثى طائر غريب ، وترقد على البيض ،

وتظل تحتضن البيض ، حتى يفقس ذات يوم ، وهكذا ترعاهم هذه الأم البديلة ، ولا تسمح لأحد بالاقتراب منهم .

وعندما تقوى أجنحة الصغار ، يتجمعون مع بعضهم البعض ، وتطير أمهم بسرعة ، وتجلس شامخة فوق الجبل ، وفجأة تصدر صوتا عجيبا من بعيد ، لتنادى على صغارها ، وعندما يسمع الصغار صوت أمهم ، يجفلون من الطائر الغريب ، ويعودون إلى أمهم ، وينفصلون عن الأخرى .

وأنت إن طواك إبليس المغرور يومين أو ثلاثة ، تحت جناحى الوجود ، فأنت معذور ، وعندما تسمع خطاب الحق ، سوف تنطلق صوبه ، وتجفل من إبليس ، كن هكذا بحيث إذا حان الأجل ، يكون جسدك باقيا وروحك قد ذهبت من قبل ، إن يكن موتك قبل الأجل ، يكن خلودك من الموت ، روحك مصباح فى الصحراء والجسد مشكاتها وسد لها ، عندما ترتفع المشكاة مُن الصحراء ، تخلد روحك مثل الشمس الساطعة .

توجد عجائب فى قلبك تزيد عن الحصر ، وإلى أن تعلم بها أمامك كثير من العمل ، تقدم فى الدين كل لحظة ، فانفصل عن نفسك وتعال معها ، لأنك فى سكرك وصحوك ، تعرض عن دنياك المليئة بالآثام ، وفى طريق الأسرار ، تدرك حياة جميلة ، عوضا عن كل سيئة ، فاسعد بكل ما يمنحه لك ، وإن لم يهبك شيئا ، كن حرا سعيدا ، كل ما يأتيك من هناك لا ترفضه ، وإن لم تستحسنه لا تشك منه .

١٠. قصة بهلول (٤٠٣٣ : ٤٠٣٨)

عندما غلب بهلول الوجد ، منحته زبيدة طعاما وحلوى ، فجلس يأكل سعيدا فقال له أحد الأشخاص : ألا تعطى منه أحدا ؟ فثار قائلا : وهبنى الحق هذا الطعام الآن ، فكيف يمكن منحه مثله ؟ ارض بكل ما يعطيه لك ، وإن حصلت عليه ، صنه ، فكل حكمة أثرت عن القدماء ، ولا تعلمها ، يليق بك أن تتعلمها .

١١. قصة موسى (٤٠٣٩ : ٤٠٤٣)

سأل موسى الله قائلا : أيها العالم الذى لا مثيل له ولا شبيه ، مَن مِن الخلق عدو أو صديق ، أكثر احتياجا ، وأكثر فقرا ؟ قال الله : يا رهين نعمتنا ، هو الشخص الذى يغضب من قسمتنا ، ويستغيث من قضائنا ، فينتحب ليل نهار .

١٢. قصة نصيحة كسرى (٤٠٤٤ : ٤٠٤٦)

هكذا قال كسرى ، لباربد[١٣٩] ، إن أردت أن تصبح غير وجل ، انزع الحسد عن قلبك فتصر سعيدا ، وارض عن الحق تصبح حرا طليقا .

١٣. قصة مناجاة عظيم لله (٤٠٤٧ : ٤٠٥٧)

كان أحد العظماء يناجى الله وقت السحر ، فتحدث قائلا : أيها القيوم ، إننى راض عنك ليل نهار ، فارض عنى أنت أيضا يا إلهى ، ويقول ذلك العظيم : فسمعت صوتا يقول : أراك كاذبا فى دعواك ، لأنك إن كنت راضيا عنا ، فمتى كنت تبحث عن رضانا ، وإن رضيت عنا وبحثت عن رضائنا الآن ، فأنت مجنون .

صاحب عين الكمال فى الرضا ، بحثه عن الرضا محال ، لأنه راض ، إن كنت راضيا فعم تبحث لدينا ؟ وإن لم تكن نفسك راضية فماذا تقول ؟ ارض ، واصبر ، واجلس ولا تصيح ، أى فائدة تجنيها ، فلا تجادل ، واهدأ ، أحيانا تتمنى المحال ، وأحيانا أخرى تتعلق بالأوهام ، ولا تستمع لذرة من الكلام ، فقد اغتررت بالمحال .

١٤. قصة شعبى (٤٠٥٨ : ٤٠٨٢)

هكذا روى رجل الطريق شعبى : أمسك شخص بعصفور فى الطريق ، فقال له العصفور : ماذا تريد منى ؟ وماذا تنتظر من هذه الساق والرأس والرقبة ؟ إن حررتنى من أسرك ، أعلمك ثلاث نصائح نافعة ، الأولى أقدمها وأنا بين يديك ، أما الثانية فأقولها وأنا أطير إلى غصن آمن ، والثالثة عندما أجد سفح الجبل ، أقولها لك من فوقه .

فقال الصياد للعصفور : قل السر الأول ، فبدأ العصفور يقدم النصيحة الأولى : لا تتحسر أبدا على شئ تفقده ، وإن كان عظيما ، عندئذ حرره الرجل كما وعده من بين يديه ، فطار حتى استقر فوق غصن ، ثم قدم النصيحة الثانية قائلا : إن استمعت إلى محال ، لا تصدقه طالما لم يظهر لك عيانا ، قال هذا وانطلق حتى سفح جبل ، ثم قال له : أيها النعس السيئ الحظ ، كان بداخلى جوهرتان كبيرتان ، كل منهما تزن عشرين مثقالا ، لو قتلتنى لكنت فزت بهما ، ولكنك أطلقتنى ، وكان هذا خطأ .

فدمى قلب الرجل حزنا ، وأخذ يعض بنان الندم ، وقال للعصفور : والآن قل النصيحة الثالثة ، فقد صار بحر حسرتى عميقا ، فقال العصفور : ليس لديك ذرة من الفطنة ،

لأنك نسيت النصيحتين السابقتين ، ولأنك لم تعمل بالنصيحتين ، فلماذا تطلب الثالثة ؟

قلت لك لا تتحسر على ما مضى ، ولا تصدق المحال أيها التقى ، فحزنت جدا لما حدث ، وصدقت ما قلته لك وهو محال ، إن وزنى اليوم لا يتعدى مثقالين ، فيكيف يوجد بداخلى جوهرتان تزنان أربعين مثقالا وتضيئان ظلام الليل والآن سوف تصاب بالجنون منى .

قال هذا وطار من فوق الجبل ، وبقى الرجل بين أسفه وحزنه . الشخص الذى يفكر فى المحال ، تستبد به الحيرة ليل نهار ، وأنت لا تستيطع الخطو حيثما شئت ، فاذهب تبعا للأوامر واعتبر بها ، وكل من يخطو بغير أمر الله ، تنزع عنه رأسه ، طوال حياته .

١٥ . قصة نحلة نملة (٤٠٨٣ : ٤١٠٢)

خرجت نحلة من خليتها ، وهى سعيدة ومسرورة للغاية ، فرأتها نملة وهى على هذا النحو من السرور ، والتحرر من العبودية ، فقالت لها : لماذا أنت سعيدة إلى هذا الحد ؟ إن الأرض لا تتسع لك من السرور ، أجابتها النحلة : أيتها النملة لماذا لا يمتلئ قلبى بالبهجة ، فأنا أجلس حيثما شئت ، وأختار الطعام الذى يستهوينى ، وأجوب الدنيا وفق رغبتى ، فلماذا أحزن لحظة واحدة ؟ قالت هذا وانطلقت فى طريقها كالسهم ، إلى دكان قصاب ، وكانت هناك قطعة من اللحم ، سقطت عليها النحلة بسرعة ، وتصادف أن القصاب كان يقطع اللحم بالساطور ، فشطر النحلة نصفين ، فسقطت على الأرض فورا .

وعندما علمت النملة ، جاءت وحملت نصف النحلة ، وأخذت تسحبها بذلة فى الطريق ، وهى تتحدث قائلة : كل من يزهو بنفسه يصبه ذلك ، لأنه يتنقل وفق مراده ، وكل من لا يجرب التردى والفشل ، تكون نهايته مثلك ، الشخص الذى يعيش لتحقيق أهوائه ، يموت مثلك ، فانظرى ما هى آخرتك ، ولأنك ابتعدت عن حدودك ، فقد وضعت قدمك فى الدماء بجهل .

يجب الخطو داخل الحدود ، ويلزم السير وفق الأمر ، يجب القضاء على الغرور والكبر ، وسلوك طريق الأخلاق ، والكرم ، إن شعيرة واحدة من الخلق لها قوة ، تماثل قوة جبل قاف ، فتمسك بالبعد عن الأذى وبالصبر ، فليس لك طريق أقصر من هذا .

١٦ . قصة الرسول (ص) و عبد حبشى (٤١٠٣ : ٤١٢٢)

روى عن سلمان الفارسى : كان الرسول وضاء العالم وصدره جالسا ذات يوم ، فدخل عليه عبد حبشى وجهه أزرق مثل نبات النيل : مسرعاً من باب المسجد ، وأمسك فجأة برداء المصطفى قائلا : تعال معى لحظة ، عندى مهمة يمكن تأديتها الآن ، وسيدى ليس معى ليؤديها ، وأنت اليوم نصير من لا نصير له ، وأنا لا أحد لى وأحتاج إلى مساعدة ، كان العبد يتحدث ويتحرك مسرعا ، وهو يسحب رداء المصطفى ، متجها إلى الخارج .

لم ينبس الرسول ببنت شفه وسار معه ، ولم يسحب رداءه منه ، وسار معه على ذلك النحو ، ولم يسأله الرسول من أخلاقه الكريمة ، إلى أين تتجه بى ؟ كان يسير معه مطمئنا صامتا ، حتى قاده إلى بائع قمح ، تحدث العبد قائلا : أيا السيد إننى أتضور جوعا اليوم ، وقد نسجت الآن هذا الصوف القليل ، فاعطه للبائع واشتر لى قمحا ، فأخذ الرسول الصوف واشترى له القمح ، وأخذه وحمله فوق كتفيه ، وأوصله حتى حجرة العبد ، ثم ولى وجهه المبارك صوب القبلة وقال : يا إلهى إن كنت قد قصرت فى هذا العمل ، فلا تؤاخذنى ، وإن كنت قد أهملت فى هذا الشأن وهذا الرأى ، فاعف عنى بفضلك .

لقد حمل القمح من أجل عبد ، وأصبح حمالاً من خلقه وحلمه ، وتحدث إلى الحق بخجل شديد ، وطلب منه العفو ، وأنت أيها الشاب الهمام ، انظر إلى الكرم ، وتطلع إلى الوفاء ، ودقق النظر ، فى خلق المصطفى ، وفى هذا المقام ، ماذا يتأتى من الروح والجسد ، وماذا يصدر من الجهلاء ، الأشقياء .

١٧ . قصة الفضل بن الربيع [١٤٠] (٤١٢٣ : ٤١٤٠)

جاء شيخ بائس ، إلى الفضل بن الربيع يطلب أمرا ما ، وبسبب خجله وبؤسه ، ولعجزه وشيخوخته ، ووهنه ، أصاب قدم الفضل دون قصد ، بسن حاد فى عصاه ، فسالت الدماء من قدم الفضل فورا ، واضطرب حال الصدر العالى ، ولم ينبس بشئ حتى انتهى الشيخ من كلامه ، وأخذ المظلمة منه بلطف .

وعندما انصرف الشيخ سعيدا من أمامه ، ظل الفضل متألما من جرحه ، فقال له رجل من كبار رجال الدولة : لماذا كنت يا سيدى سعيدا بجرح قدمك ؟ لقد جرح الشيخ قدمك ، واستمعت له وأنت صامت ، وكيف يمكنك الانتظار ، بينما الدماء تسيل من قدمك ؟ فقال : خشيت أن يخجل الشيخ ، وأن يستنكر فعلته ، ويغضب من جرمه ، فيتجاوز عن

طلب حاجته ، وقد ضعف حاله من حمل الفقر الثقيل ، فلا يجوز أن نزيد حمله بذلك السر .

ما أجمل الحب والوفاء والصبر ، انظر إلى الوفاء ، إذ كان لديك بصر ، مثل هذا الفضل الذى يعادل مائة ربيع ، هو من فيض الحق وليس من فضل بن الربيع ، وأنت رجلٌ لا همسة لديك ليل نهار ، إن كنت رجلا ، فتعلم الهمة منه ، ولا تتعال أيها التراب مثل النار ، ولأنك حفنة تراب ، فلا تحتدم مثل النار ، إن لزمتك تلك الحضرة سريعا ، لزمك فى هذا السبيل تراب الطريق .

١٨ . قصة بهلول (٤١٤١ : ٤١٤٨)

كان شخص يمتطى جواده فى بغداد ، وكان فى ادعائه وغروره يبدو كأنه خالق الحياة ، يحيط به الحراس من كل جانب ، ليمنعوا الناس من الاقتراب منه ، يأمرون الناس بإفساح الطريق ، والابتعاد عن موكب العظيم .

فرفع بهلول حفنة من التراب ، ونظر إليها خلسة قائلا: لا يجوز كل هذا الكبر من حفنة تراب ، فهو وإن صار فرعون أليس عبد الله ؟ خذ العبرة من أهل السوق ، فقد ألقوا جميعا بشباكهم من أجل جيفة ، عندما يكون هدف الإنسان ميتة ، فأنى له أن يتصل بسر القدس ؟

١٩ . قصة مجذوب وكبار القوم (٤١٤٩ : ٤١٦١)

كان مجذوب يجلس على ناحية من الطريق ، أثناء مرور جماعة من القوم ، وكانوا من أهل الدنيا : يرتدون أفخر الملابس والعمائم ، كانوا يزهون بأنفسهم تيها وعجبا مثل الحجلة ، ويبدو عليهم التهور والكبر والجاه والعظمة ، وعندما شاهد ذلك المجذوب المتجرد ، هؤلاء القوم المزهوين بأنفسهم تيها وعجبا ، أدخل رأسه داخل ثوبه استياء منهم ، حتى يخلو الطريق من هؤلاء الغافلين .

ولما مضوا رفع رأسه ثانية ، فسأله رجل قائلا : أيها المبرأ من العيوب ، لماذا اضطرب حالك وأحنيت رأسك ، عندما شاهدت كبار القوم ، فقال : أحنيت رأسى ، من شدة الغرور الذى شاهدته ، لأننى خشيت أن يخطفنى ريحه ، وعندما مروا رفعت رأسى ، عندما أدركت رائحتهم النتنة ، لم أستطع الاحتمال ، فأحنيت رأسى . إذا ما استولى الغرور على أعضائك السبعة ، افتضحت الدنيا منك ، والأشخاص الذين يتخلصون من هذا الصفة يفوزون بالآخرة وهم مازالوا على قيد الحياة .

المقالة الرابعة عشرة (٤١٦٢:٤٦٧٢)

قال الولد لأبيه : لو أن ماء الحياة لن يحول بيني وبين الموت ، فلا أقل أن يكون شاغلي هو معرفة ماهيته ، وإن كان ماء الحياة لن يتحقق لي ذات يوم فليهنأ قلبي بمعرفته وإدراك أمره .

إجابة الأب

فتح الأب له طريق الهداية وقص أمامه هذه الحكاية .

١ . قصة الإسكندر وموته (٤١٦٨:٤٢٢٦)

قرأ الإسكندر في كتاب ذات يوم أنه يوجد ماء للحياة ، يسعد القلب ، وأن من يشرب منه يخلد كالشمس ويطول عمره ، وتدوم حياته ، كما يوجد طبل معه مكحلة وهما من أدوات الحكماء ، وقد سمعت من أستاذ مدرس أن المكحلة وطبل هرمس[١٤١] موجودان ، وأنه إن استبد مرض القولون بشخص ودق على ذلك الطبل ، زال مرضه ، وإن تكحل شخص من تلك المكحلة انكشف له العالم من الأرض حتى العرش .

وحدث أن تملكت الإسكندر رغبة شديدة في الحصول على هذه الأشياء الثلاثة ، فأخذ يجوب الدنيا بجيوش جرارة إلى أن انتهى به المطاف ذات يوم عند جبل ، فشق الجبل عند العلامة التي قرأ عنها وبعد عشرة أيام وجد منزلا ففتح بابه ووجد في وسطه طاقة بداخلها الطبل والمكحلة ، فاكتحل فانكشف أمامه على الفور العرش والفرش ، وكان يقف بالقرب منه أمير دق على الطبل ، فصدر عنه صوت كالريح ومن خجل الأمير مزق الطبل .

وعلى الرغم من صمت الإسكندر إلا أن أمر الطبل بقي لغزا أمامه ، الحاصل توجه الإسكندر إلى بلاد الهند والظلمات والتي تشبه زحل من أجل الحصول على ماء الحياة ، لماذا أكرر عليك هذه القصة وقد سمعتها مائة مرة[١٤٢] ، وعندما عجز في ذلك الطريق المظلم ظل الجيش حائرا ، والملك أيضا .

ثم تلألأت له قطعة من الياقوت بشدة فتمعن فيها ذلك الحائر فشاهد آلافا من النمل يذهب إلى كل صوب وحدب وكل نملة تتجه إلى ناحية مختلفة ، فظن أن قطعة الياقوت ظهرت له بسبب عجزه ، فجاءه هاتف : إن هذه الشمعة المتوهجة تحترق من أجل جيش

النمل ، ليهتدي النمل الضال بنورها إلى بيوته ، فتعجب الإسكندر من تلك الحال ومن أن الياقوت مرشد للنمل .

وخرج الإسكندر من الظلمات حزيناً ، ودقات قلبه تضطرب بشدة ، وضاعف سرعته ، فأخذ يقطع المنزلين في زمن المنزل الواحد ، إلى أن وصل إلى أرض بابل ، وكان مدوّناً لدي الإسكندر ، أنه عندما تحين منيته ، يحملونه من الطريق ، ويجعلون درعه وسادة له ، والحديد فراشاً ، ويتكون حائط منزله من الناس ، وتستوي سماؤه من الذهب الأحمر .

وحدث أن مرض الإسكندر بالقولون في بابل ، وأقعده الألم في الصحراء ، ولم تعد لديه قدرة على قطع مراحل الطريق ، فأعدوا له خيمته ، ومدوا تحته درعاً جميلاً ، جعلوه وسادة له ، و اجتمع الناس حوله ، وتلاصقت الدروع الذهبية بعضها مع البعض ، وعندما رأى الإسكندر نفسه على هذا النحو ، أدرك حتمية موته بداء القولون ، فبكى طويلاً ، ولكن دون جدوى ، فالموت ينتظره بدون محاباة .

وكان لذي القرنين نديم حكيم من تلامذة أفلاطون ، جلس وقال للملك العالم : لأنك وضعت الطبل الذي صنعه هرمس ، بين يدي غير الأكفاء ، وقعت فريسة لمثل هذا المرض ، ولو لم تظهره لشخص ، فمتى كنت تبتلى بمثل هذه الغصة ؟ ، لم تعلم أن أمر الأتقياء ، لا يجب الإفضاء به إلى الضالين ، لذلك أوديت بعالمك ، لأنك لم تعرف قدره لحظة، ومتى يعود ذلك الوقت ، الذي ظهر فيه الطبل أيضا ، ولأنك لم تقدره حق قدره ، أبعدته عن عينيك ، ولو كان عزيزا عليك كروحك ، لحصلت على شربة من تلك العين أيضا ، ولكن لا تحزن واستمع إلى كلمتين ، هما أفضل من ماء الحياة إن استمعت لهما :

مثل هذا الملك وذلك الحكم ، ذهبا مع الريح لوضاعتهما ، ومثل هذا الملك الذي عشت به ، انظر على أي أساس قام حتى الآن ، لماذا يكون لمثل هذا الملك أساس فهو إن وجد أو لم يوجد قبضة ريح ، لذا لا تحزن فلا يفقد الإنسان شيئاً يمكن أن يودي به الريح لوضاعته ، والكلمة الثانية عن ماء الحياة الذي اقتفيت أثره ، إن كنت قد يئست منه الآن ، ففكر ولا تتعب نفسك طويلاً ، تجده العلم الدائم وليس شيئاً آخر ، إن يتحقق لك ذلك العلم ، فهو ماء الحياة دون شك ، وقد وهبك الحق تعالى كثيراً من العلم ، ولأنك علمت الآن مت حراً عارفاً .

عندما سمع الإسكندر هذا الكلام من أستاذه ، سر قلبه و أسلم الروح بسعادة ، فلا تحزن كثيراً أنت أيضا يا بني ، فماء العلم و كشف الأسرار موجود ، وكلما سطع ضياؤه

عليك ، ينكشف العالمان لقلبك ، ولو تعلم سبيل العلم وعين يقينه ، لخجلت من ماء الحياة ، وإن لم تصل الى سبيل معرفته ، لن تكون لك بصيرة سوى الشيطان ، فتبدو كراماتك شيطانية ، ويخبو كل نورك .

٢ – قصة النمرود (٤٢٢٧ – ٤٢٦٣)

غرقت سفينة ومات ركابها السبعمائة ، ما عدا امرأة واحدة، ظلت فوق لوح من الخشب ، حيث وضعت ولداً ، وما أن وضعت تلك المرأة المسكينة ، حتى انقلبت داخل البحر ، وبقي المولود الصغير فوق لوح الخشب ، والموج يتقاذفه في كل اتجاه ، وجاء هاتف إلي الرياح والموج والسمك : إن الله شمل الطفل بحفظه و رعايته ، فاحفظوه حتى لا يهلك ، ويصل سالماً ، فقالت الملائكة : يا إلهي ، من هذا الشخص الكائن بين الموج والسمك ، فجاءهم الهاتف : عندما يحين الوقت ، سوف تعلمون أمر هذا البائس .

وبعد أن تقاذفته الأمواج ، وقذفت به إلى الشاطئ ، التقطه أحد الغواصين ، وعاش الطفل معه بين الخفافيش والأسماك ، وأفنى الصياد نفسه في تنشئته ، وعندما شب الفتى عن الطوق ، واعتاد الخروج ، وبينما هو سائر في الطريق ذات يوم ، وجد ياقوتة في مكحلة ، تجعل العقل مبهوتاً من فرط غرابتها ، وبمجرد أن تكحل من الكحل الطاهر ، رأى العرش والكرسي والأفلاك عياناً ، وعندما أجرى الكحل في عينه الأخرى أيضاً ، شاهد كنوز العالم ، فكان يرى آلاف الكنوز تحت الثرى ، ويشاهد جلياً من الأرض إلى ما وراء القمر.

وكانت الملائكة جميعاً يقولون : أيها الطاهر ، أي عبد هذا الجدير بكل هذا الإدراك . فجاء إليهم الهاتف من غيب الغيب ، إن هذا الشخص العظيم هو النمرود ، الذي سيدعي الألوهية ، ويخرج عن طاعتنا بصور شتى ويحاربنا طويلاً .

انظر كيف أعزه الله ورعاه في هذا السبيل ، وكيف سيتمرد عليه فجأة ، ليس لأي شخص في العالمين مهما كان ، معرفة بالأسرار الإلهية ، إن انشغالك بالبحث عن العلة ، لن يثمر إلا ظهور المعلول نفسه ، وان لم يكن هناك شك في وجود العناصر الأربعة[١٤٣] ، إلا أن اعوجاج الفكر قد صدر عنك ، لا عن واحد من الأربعة ، ادخل إلى هذا البحر وتعال مقلوباً ، وتخلى عن الطباع والعلل ، إنك لست أعلى من الفلك ، فتعلم منه ، فهو يأتي مقلوباً ليل نهار .

لماذا تسأل عن أمر الدنيا من الذرة حتى الشمس ، إن الله قادر على أن يجعلها كأن لم تغن بالأمس[١٤٤] ، فصل المجرات عن الفلك ، وثبتها وهي تراب من ذرات ، والفلك جواد مسرج للدنيا ، والشمس فوقه سرج ذهبي ، وعندما يحين فناء العالم ، تظلم الشمس مثل الليل ، أتعرف كيف يظهر سرج الفلك آنذاك ، يظهر هذا السرج فوق مركبه معكوساً من الغرب ، فتشرق الشمس معكوسة ، إيذاناً بخلود سرج الفلك هذا .

اصدر آهة محرقة من روحك الدامية ، فلا علم لديك عن الليل أو عن النهار ، لتسعد بليلك،فأي نفع لك من هذا الليل السعيد ؟ ، وأنت لم يشرق صباحك أبدا !! ، إن أردت أن تسعد ليل نهار ، لا تذكر ما حييت الليل والنهار ، ولكن إذا بقيت داخل نفسك ، لن تجد سوى قلب جريح ، يجب أن تفنى عن نفسك من الوجد ، وتتخلص من وجودك وتبتعد عن أمر نفسك ، فطالما تتقيد بوجودك ، ترى خرقتك زناراً .

٣ – قصة منح الصدقة إلى الفقراء (٤٢٦٤ – ٤٢٧٢)

قال أحد العظماء : هفت روحي ، وتمنيت طوال عمري ، أن تصل مني صدقة إلى درويش ، دون أن يراها أحد ، وعندما جرى هذا الكلام على لسانه ، هتف به هاتف في الحال :

يجب عليك إن كنت صاحب يقين ، ألا ترى الصدقة التي تمنحها فإن لم تر تلك الصدقة على الإطلاق، لن تفكر فيما سيعم عليك من فائدة ، إنك تبدو مثل جيفة سيئة ، فأنت بلاء لنفسك ميتاً وحياً ، إنك لن تطلب الحياة ، إن علمت أن الموت أفضل لك منها، إن كنت أكثر علماً وأعمق بصيرة ، لقللت من هذا الغرور.

٤ – قصة اللقمة الحلال (٤٢٧٣ – ٤٢٨١)

قال لي رفيق : أن فلاناً يأكل قوته من حلال ، يأخذ الجزية من اليهود ، ويعيش على دخلها ، فقلت له : أنا لا أعلم بحاله ، ما أعرفه هو أنني من العار ، بحيث يجب أن يطلب مني ، مائة يهودي مشتت الجزية .

إن تحيت الغرور جانبا ، سترى كلابا عديدة صادرة من نفسك ، وجودك وفناؤك في طبيعة واحدة ، الأول جحيم والثاني جنة ، إن بقي أثر من ذلك الجحيم ، تظل كلاب نفسك متعلقة به ، وإن اغتسلت في اليوم مائة مرة ، فصلاتك غير جائزة .

٥- قصة الشيخ والمرأة العجوز (٤٢٨٢ - ٤٢٩٢)

جلس شيخ من شيوخ الطريقة ذات يوم ، أمام المحراب ورأسه يمتلئ بالوهم والخيال ، فدخلت امرأة عجوز من باب المسجد ، وكانت محدبة الظهر ، طاهرة القلب ، وقالت له: إنك هالك لا محالة تأتى الفواحش وتدعى الطهر ، تملكك الغرور من رئاستك للأصحاب ، فغادر أيها السيد المحراب ، احرق نفسك بنار العشق أيها العزيز ، وإلا فأنت زاهد مبتدئ ، وطلب الاحتراق من الزاهد حرام ، فالزاهد لم يكمل الطريق وهو بعد لبنة نيئة .

والعاشق مثل الشمع يحيا بين الاحتراق والدمع لذلك فهو يجد شتات نفسه فى الدمع والحرقة ، لهذا يمضى ليله بين الدمع والاحتراق ، حتى يتم محو وجوده أثناء النهار أيضا ، وعندما تصل دموعه وحرقته ومحو وجوده إلى الأوج ، يصير اسمه قتيل المعشوق ، ويصبح رفيقا مؤانسا داخل الحجب ، ولا يعود لها شأن بأى شخص .

٦- قصة عمر بن الخطاب والشاب العاشق (٤٢٩٣ - ٤٣٠٦)

خاض الفاروق حربا ، وانتصر فيها ، فأخذ يطلب من كل أسير كافر أن يقرأ الشهادة لينجو من القتل وإلا قطعت رأسه فورا[١٤٥] ، وكان بين الأسرى شاب وهب قلبه للمعشوق أحضروه أمام الفاروق ، فقال له عمر : أقر بدين الإسلام ، قال أنا عاشق بائس ، قال له عمر مرة أخرى : الإيمان سوف يحرر رقبتك ، أجابه : وماذا يعرف العاشق ؟ ، طلب منه عمر الدخول فى الدين للمرة الثالثة ، فأقر بعشقه مثل المرتين السالفتين ، فأمر عمر ، فقتلوه ، وألقوا به فوق التراب بذلة .

وعندما عاد عمر إلى المصطفى ، أسر شخص للرسول بما حدث ، وعندما سمع الرسول ما حدث للرجل ، قال لعمر والألم يعتصره ، أسمح قلبك يا عمر بمثل هذا العمل ، فقتلت عاشقا بمثل هذه الذلة ؟ ، فالعشق قد قتل العاشق وهذا ليس خطأ ، وقتل المقتول مرة أخرى ليس جائزا ، والقتل من الحق أمر طيب وما أسواه عندما يكون منك ، فهذا جحيم وذاك نعيم ، لا يجدر بك أن تقتل نفسا ، فهذا القتل لا يجمل إلا به .

٧- قصة الدرويش وطلب الطوفان (٤٣٠٧ - ٤٣٢٣)

سأل شخص أحد الواصلين فى الطريق ، ما هى الرغبة التى تريد تحقيقها فى هذه الطريق ؟ ، فقال أتمنى أن يأتى طوفان ، ، يجرف أهل العالم ، فلا يبقى للخلق أثر ، وتفنى الديار وتندثر ، فحتام يظل الخلق أسرى أوهامهم ، معزولون عن الحقيقة بالبدع

والشرك ، لا يشعرون بالوجل من الحق لحظة واحدة ، فمن الأفضل ألا يوجد هذا العالم .

قالوا له : إن جاء الطوفان فسوف تنتهى حياة الخلق البائسين ، وإن هلك أهل الأرض ، فسوف تفنى أنت معهم أيضا ، قال : إن حدث الطوفان ، أود أن أكون أول الهالكين ، وإن تحقق هذا الطوفان ، أتمنى أن أكون أول شخص يجرفه ، قالوا له : اذهب ، ودّبر حيلة ، وألقى بنفسك فى البحر ، حتى تتحرر من وجودك وتحقق رغبتك .

قال : من المعروف ، أن كل ما يصدر منى ، يكون بإرادتى ، وهلاكى بيدى ليس شيئا طيبا ، إلا إن عزم الحبيب على هلاكى ، لأن ما يصدر عن المعشوق لائق ، وكل ما يصدر عن العاشق لا طائل تحته .

إن لم تكن صادقا فى العشق فأنت لست عاشقا إلا لنفسك ، على ذلك النحو ، يجب أن يكون كمال عشق الأحبة ، لأنه مهما طال العمر ، فهو يسرع بنا ، كل نفس تبوح بسر عن معشوقك ، كما ستعلم مما قاله (المجنون) آنذاك .

٩- قصة سؤال المجنون (٤٣٦٢ - ٤٣٧٨)

هكذا قال المجنون ذلك الفريد ، أنصفنى شخص واحد فى حياتى ، أما الآخرون ، فكانوا حفنة من الأشقياء ، يلومونني على عشقى ، وكان ذلك عندما جاءتنى امرأة ذات يوم ، وشاهدت ما أنا عليه من حرقة ولوعة ، ووجدتني غارقا وسط التراب والدم ، ورأسى مقلوبا مثل الفلك فقالت لى: من أجل ماذا أصبحت على هذه الحال تجلس بين التراب والدم ، فقلت لها : عندما رأيت ليلى ، منحتها عقلى واختزت الفضيحة ، وأصبحت من عشقٍ وجهها على هذه الحال ، لا ذنب لى ولا دين .

قالت لى المرأة : أيها المجنون الواله ، إننى جئت الآن من عند ليلى ، وإن كان جمالها لن يحقق لك الوصال أبدا ، فيجب أن يزدى حالك أكثر من هذا ، وأن يتزايد ذبول قلبك الحزين ، فليس من اللائق أن يكون هناك عاجز مثلك فى الدنيا ، بسبب عشق مثل تلك الفتاة ، بل أن تصير من عشق وجهها ، مثل شعرة من ثنايا شعرها ، لقد رأيت فيها الرجولة الكاملة ، وسمعت منها كلاما حكيما .

إن حديث العشق والقلب أمر عجيب ، فقد اتحدا معا ، وصارا شيئا واحدا ، والكلام عن العشق والقلب مهيب للروح ، إن قلته فوق المشنقة ، فذلك مكانه ، دمى قلبى أيها الساقى ، كما تعلم ، فلا تفصح بحديث القلب ، وما عدا ذلك أنت تعرفه .

١٠- قصة ثعلب (٤٣٧٩ - ٤٤٠٠)

سقط ثعلب في شباك وقت السحر ، ففكر في حيلة قائلا ، إن يجدني الصياد على هذا النحو ، يأخذ جلدي إلى الدباغ في الحال ، فأظهر نفسه كالميت ، ومدد جسده ، خوفا على حياته ، وعندما جاء أحد الصيادين اعتقد أن الثعلب ميت ، ولم يستطع أن يغض الطرف عنه ، فقطع أذنه في الحال قائلا ، ربما استفيد منها في أمر ما ، فقال الثعلب في نفسه : لا تحزن ، وتغاض عن الأذن ما دمت على قيد الحياة ، وأقبل صياد آخر وقال : والآن لأستفد أنا أيضا من لسانه ، وعندما اجتث الصياد لسان الثعلب فجأة ، لم يحرك الثعلب ساكنا خوفا على حياته ، ثم أتى صياد ثالث ، وقال : إنني أحتاج أيضا إلى أسنانه أكثر من أي شيء آخر ، ولم يحرك الثعلب ساكنا ، حتى اقتلعوا أسنانه بمشقة بالغة ، فحدث الثعلب نفسه قائلاً : إن نجوت فلا أهمية للأسنان ولا الأذن ولا اللسان ، فجاء شخص آخر وقال : لاختز أنا نزع قلبه ، لعلاج بعض الأمراض .

وعندما سمع الثعلب اسم القلب من بعيد ، أظلمت الدنيا في عينيه فجأة ، كان يقول في نفسه ، لا عبث مع القلب ، الحيلة الآن لا تفيدني ، قال هذا وبعد حيل عديدة ، انطلق من الشرك كما ينطلق السهم من القوس .

حديث القلب حديث عجيب للغاية ، فهو يتسع للعالمين ، يجدر بك أن تخمد هذا الحديث في دمائي ، ولا تتحدث بما تعلم عن القلب ثانية ، لأن القلب قد ذاب ، فبماذا أتحدث عنه ؟، وماذا أقول للغافلين عنه؟، قلبي هناك حيث يوجد المعشوق ، وأنا متى أصل الى هناك ومتى يتيسر لي ذلك ؟ ، ضاع قلبي وفقد مني ، فلم أعد أعرف شيئاً عنه ولا يعرف هو شيئاً عني ، ولانني أجهل قلبي دائماً ، فمتى تظهر لي إشارة من الحبيب.

١٢ ـ قصة محمد بن عيسى (٤٤١٤ - ٤٤٢٨)

كان محمد بن عيسى الذي اشتهر باللطائف ، بين ندماء الخليفة ، يمتطي جواداً مسرجاً ، ويزين رأسه بتاج مرصع ، وغلمانه يركبون حوله ، وأهل بغداد جميعاً يقفون لمشاهدته ، وفي كل ناحية يتساءل شخص : من يكون هذا الذي يتجمل وتحيط به مظاهر الأبهة على هذا النحو ؟

وكانت امرأة عجوز تسير في الطريق وتمسك عصا ، فقالت : إنه في بلاء ، أبعده الحق عن حضرته ، وطرده من أمامه ، فهو إن لم يكن قد أبعده عنه لما كان شغله بهذا العبث .

سمع محمد هذا الكلام بفطنة ، فترجل عن جواده بتواضع ، وقال : أنصفت العجوز ، فالأمر على هذا النحو الذى جرى شرحه على لسانها ، قال هذا وسلك طريق التوبة ، ونزع من قلبه حب المال والجاه تماماً . عندما أيقن بتزديه ، اعتكف داخل زاوية ، وصار من رجال الدين .

وأنت كثيراً ما مارست السيادة فى الخفاء ، ألا تعلم كيفية الخضوع ؟ إن كنت لا تستطيع التحكم فى نفسك بأي قدر ، فلن يمكنك منح شعيرة إلى درويش ، عندما لا تستطيع التحكم فى نفسك ، فكيف يمكنك التحكم فى شخص آخر .

١٣ ـ قصة السلطان محمود ومجذوب (٤٤٢٩ - ٤٤٤١)

أتفق لمحمود بمجالسة أحد المجاذيب ، فأغمض المجذوب عينيه ، فتضايق السلطان ، وقال للمجذوب : لماذا تغمض عينيك ؟ ، قال المجذوب : حتى لا أرى وجهك أيها الملك فثار محمود ، وقال له ألا تجيز لقاء ملك العالم ، قال المجذوب : هو كذلك ، لأن الغرور غير جائز فى هذا المذهب ، فالخطأ كله أن ترى غير الله ، قال له الملك : أنا صاحب الأمر فى العالم ، وحكمي نافذ عليك .

قال له المجذوب : فكر فيما سأقوله : لأن أمرك غير نافذ على نفسك ، فلا ينفذ على شخص آخر أيضاً ، وحتام ترهقني بالذرائع ، ألا تخجل من هذه السيادة ، التي سعيت إليها طوال عمرك وهي لا تساوي شيئاً ، الشخص الذي يملك زمام نفسه ، هو الناجي لا الهالك .

من يحسن قوله ، و تخلص نيته ، لا يجد الاعوجاج إليه سبيلاً ، فهناك من يظهر نفسه على نحو يخالف حقيقته ، وهذا إن أشار عليك بنفع فهو ضر ، ولأنك تعلم أنك أعوج ، أيها المرائي ، فلماذا تدعي الاستقامة ؟

١٤ ـ قصة خشونة الكليم ونعومته (٤٤٤٢ - ٤٤٥٩)

كان لدي أحد الدراويش كليم ، عرضه على رجل ، ليبتاعه منه ، فقال له الرجل : إنه خشن الملمس ، ملمسه يشبه ظهر القنفذ ، ثم اشتراه الرجل بثمن بخس ، عندئذ أقبل مشتر ، وقال للرجل : هل لديك كليم أملس ؟ ، فقال عندي ، فاحضر ذهبك .

وبعد أن أحضر المشتري الذهب ، بسط له الرجل الكليم أمامه ، وقال له : إنه كليم لا مثيل له ، نعومته كالحرير .

وكان أحد الصوفية يرقب الرجل ، ويتابع شراءه للكليم وبيعه إياه ، فأطلق الصوفي صيحة وقال : أيها الفريد أجلسني داخل هذا الصندوق (السحري) ، حيث يتحول الكليم إلى حرير ، ويصير الخزف درأ خالصاً ، وأنا في جوهري أشبه الخزف ، فلعل حالي يتحسن في صندوقك .

وأنت إن لم يتغير حالك ، فلن يحقق لك عمرك سوى الوبال ، لأنك تمضي حياتك في الظلام ، فأنت مثل حيوان ولا تعلم ، قيد أعضاءك بقيد الدين ، وافعل ما يمليه عليك إن أردت أن تكون على النحو المطلوب ، لا تنظر ولا تسمع ولا تقل ، إلا بما يقتضيه الدين ، حتى لا تموت كافرا أيها المسلم ، ولأنني لا أرى موتك على طريق الهداية ، فأنا أخشى موتك كافراً للغاية ، هذا المحراب والإيوان من أجل الاعتبار ، وأنت لا ترى سوى الشهوة مثل الحيوان ؛ كيف يلحقك الخسران دائما ؛ في السوق الذى تنعم فيه الأرواح .

١٥ ـ قصة امراة كانت تطوف بالكعبة (٤٤٦٠ - ٤٤٧٠)

كانت امراة تطوف بالكعبة ، فاختلس رجل النظر إلى وجهها ، فقالت له المرأة : إن كنت من أهل السر ، فلم انشغلت بي الآن ؟ إنك لا تعلم أيها الضال ، عمن ابتعدت في مثل هذا المكان ، ولو كان لديك أثر لرجولة ، لما كنت تهتم هنا بامراة ، لقد جئت إلى هنا من أجل النفع ، ولم تأت للخسارة ، أتطلب الذنوب لنفسك بهذه الحرارة يوم السوق ؟ ألا تخجل من الله ؟ رب العالم يرى دائماً ، وأنت غائب عنه ، وهو حاضر معك .

ولأن الله مطلع عليك لحظة بلحظة ، فلماذا تنحرف عن الطريق مثل الحية ، ولأن الحق معك في كل مقام ، فلا تخط أى خطوة إلا في حضوره ، وإن خطوت بدونه خطوة واحدة في الطريق ، يلفك الندم ويستبد بك الأسى آنذاك .

١٦ ـ قصة السلطان سنجر ومهستي[١٤٦] (٤٤٧١ - ٤٥١١)

كانت الشاعرة مهستي الطاهرة الجوهر ، من المقربات إلى السلطان سنجر ، وعلى الرغم من أنها لم تكن على قدر كبير من الجمال ، إلا أن السلطان كان يميل إليها ، وذات ليلة كانت في بستان رادكان ، جالسة مع السلطان سنجر ، وعندما انقضى هزيع من الليل ، توجه الملك سنجر إلى مخدعه ، وانصرفت مهستي أيضاً ، إلى خيمتها الخاصة .

وكان لسنجر غلام ساقي ، بلغ من الجمال أعلى مراتبه ، واقترن جماله بالفتنة ، وكان مقرباً من السلطان ، وذات ليلة ، استيقظ السلطان من النوم ، وطلب الغلام ، فلم

يجده ، فأخذ يبحث عنه ، وفى منتصف الليل ، ألقى بالعباءة فوق ظهره ، وأشهر سيفه الهندي .

وما أن جاء إلى باب تلك الخيمة، حتى رأى فجأة ، مهستي برفقة القمر ، ورأى الغلام جالساً معها ، وقد تعلق قلب مهستي بذلك القمرى ، فكانت تعزف على الصنج ، والعشق يملأ جوانحها ، وهي ترنم بأشعار جميلة ، وتشدو كالثملة : احتضنك بجانب الروضة ، فما يلزمني الليلة هو أمير الخلق البهي ، وعندما اطلع سنجر على أمرهما ، انطبع الشعر في ذهنه ، وقال في سريرته : إن دخلت الليلة ، إلى هذه الخيمة بغضب وسيفي في يدي ، لفقدا صوابهما ، فأتحمل وزر هذين البائسين ، ووقف متردداً ، ثم مضى بسرعة ، وعاد إلى خيمته .

وبعد مضي عشرة أيام ، أقام السلطان حفلاً بهيجاً ، وجلست مهستي تعزف على الصنج أمام السلطان ، وتغني ألحاناً بصوت شجي عال ، وكان الغلام واقفا أيضاً ، يمسك بالأقداح ، وهو يطرق بنظره إلى الأرض ، وجال فى خاطر السلطان ذلك الشعر الليلي ، فطلبه منها دون اكتراث .

وعندما سمعت مهستي ذلك الشعر من الملك ، سقط الصنج من يدها على الأرض ، وسيطرت الرعشة على جسدها ، مثل ورقة ، ثم غابت عن الوعي ، وعقلها يغوص فى الحيرة ، وجاء الملك وجلس بجانب فراشها ، وأخذ فى نثر ماء الورد فوق وجهها ، وعندما ثابت المرأة إلى رشدها مرة أخرى ، عادت إلى سيرتها الأولى خوفاً من سنجر ، وبعد أن استعادت وعيها للمرة العاشرة ، لم تفصح عن سرها بأى حال ، فقال لها الملك : يا عدوة نفسك ، إن كنت تخافين مني ، فأنت آمنة .

فقالت له مهستي : إنني لا أخشاك ولكن هذا الشعر كان وردي ذات ليلة ، فقد ظللت أكرره طوال الليل ، أجهر به حيناً ، وأكف حيناً آخر ، فإذا بي أجده يتردد أمامي والدنيا تضيق من حولي ، يبدو أنك كنت طوال تلك الليلة مختفياً وتعلم أمري ، إن تعاقبني أو تسامحني ، فلن يسمح لك قلبك أن تعلن سري ، وإن تقتلني وأنا في عنفواني ، تنجني من يد الوجود ، خوفي الشديد هو ، من السلطان رزاق العالم ، لأنه معي دائماً لحظة بلحظة ، وانظر أى عمل لى في كل لحظة ! ولأن الحق قد قدر أسراري منذ الأزل ، فماذا أقول الآن ، وماذا أفعل ؟

وأنت لأن الحق يراك دائماً ليل نهار ، كن مثل الشمعة اضحك سعيداً واحترق ، ولا تخرج نفساً من قلبك دون شكره ، ولا تصدر نفساً وأنت غافل عن ذكره ، إن تجتهد في شكره ، تحقق كل ما تصبو إليه ، من الوجود الإلهي .

١٧ ـ قصة محمود وعدد أفياله (٤٥١٢ - ٤٥٢٣)

قال محمود آسر الاعداء لولده ذات يوم : أيها الابن الحصيف ، انظر كم عدد أفيالي الآن فأنا لا أعرف عددهم الآن ، فأحصاهم الولد وقال له : عددهم يا مولاي ألف وأربعمائة فيل ، فقال له الملك : أذكر أنني لم أكن أمتلك عنزة واحدة ، والآن ، وإن كان شأني قد ارتفع حتى العرش ، فهذا ليس مني ، هذا بفضل الله .

إن فاضت عليك نعمة الحق ، فلا مندوحة عن شكر المنعم[١٤٧] ، وعندما تدوم نعمة الله عليك ، فقضاء لحظة دون شكر الحق جرم واى جرم !!

إن قصرت نفسك في الشكر ، يجب أن يحل قلبك هذه المشكلة ، فعندما تميل نفسك إلى التقصير دائماً ، ينشغل قلبك بالتعلق بالأسباب ، وعندما تسلك نفسك بك الطريق ينحو قلبك إلى الزهد ، الصالح يحسن ، ، والطالح يسيء ، فكل نفس تطفح بما فيها .

١٨ ـ قصة عيسى واليهود (٤٥٢٤ - ٤٥٣٥)

دخل عيسى الطاهر إلى أحد الأحياء ، فأخذ اليهود يقذفونه بالشتائم ، وكان عيسى طاهر المحتد ، يدعو لهم بوجه بشوش ، فسأله شخص : ألم تتضايق ؟ ، فتقابل شتائمهم بالدعاء ، قال له المسيح : كل قلب له روح يخرج منه مكنونه .

وأنت لك مكنون في بحر روحك ، تهدر أمواجه منه ، ولكن طالما أنت على قيد الحياة ، لا يظهر مكنون باطنك ، ومحك روح الرجال ، في ذلك الزمان ، عندما يصير الأعمى صاحب بصيرة .

يجب أن تفكر في الغد من اليوم ، ويجب أن يحترق قلبك خوفاً منه ، ويجب أن تموت كل لحظة مائة مرة ، والإ فلن تستطيع عبور هذا الوادي ، وإن أمطرتك السحب بالنيران يجب أن تثبت سعيداً ، حتى إذا ما أسلمت الروح تأتي سعيداً ، أى تأتي أكثر حرارة من النار .

١٩ ـ قصة لص تحت المشنقة (٤٥٣٦ - ٤٥٤٩)

قبض على أحد اللصوص فجأة ، وحمل إلى المشنقة ، فطلب ببؤس شديد وعجز أن يمهلوه ، ليؤدي الصلاة تحت المشنقة ، وبعد أن فرغ من الصلاة ، سجد وأخذ يستغيث بالله قائلاً:

يا إلهي في مثل هذا الوقت ، وهنا ، حيث يحيط بي البلاء ، انظر كيف يسلط سيف قهرك ، إلى وجهي فوق المشنقة في نهاية الأمر ، انظر كيف أسجد أمامك الآن ، على الأرض بقلبي الطاهر ، لقد أسرت حائراً مثلي بقهرك ، وقد استغنيت عن روحي من حبي لك ، هكذا أنا كما شرحت وكذلك أنت ، والآن أسلم روحي وما بعد ذلك يدخل في علمك.

إن تجد بروحك فجد بها على هذا النحو ، وإلا فأنت تبدد عمرك ، إن تضطرب دماؤك خوفاً من قهره ، فلا تنس لطفه أبداً ، اطو الطريق بخفة ، فالروح المثقلة ليست من سالكي الطريق ، واسلك بحبور ، فالحزن ليس من الطريق ، الدنيا عروس لا تستحق التأبين ، مباهجها العديدة لا تساوي لحظة حزن واحدة ، لأن الفلك سوف ينزلك عن جوادك ، فاركب وأنت مسرور .

٢٠ ـ قصة فارس ومجذوب (٤٥٥٠ - ٤٥٦١)

امتطى أحد الجهابذ مركبة خشبية ، وأخذ يجري بها كأنه يمتطي جواداً مسرجاً ، ويثير مثل البلبل الشجن في أنحاء الدنيا ، بفمه الذي يشبه الوردة الضاحكة ، فسأله شخص : يا رجل الحضرة ، لماذا تجري بهذه السعادة في الطريق ؟؟ ، قال : أريد أن أجوب ميدان العالم ، ممتطياً جوادي لحظة ، حتى إذا ما قيدوا يدي بالقوة ، لا تهتز شعرة واحدة مني .

إن تحقق لك العمل في هذا الميدان فخذ نصيبك برحولة ، لأن الماضي والمستقبل لا علم لأحد بهما ، فعمرك الحقيقي ليس سوى الحاضر ، فلا تبدد ثروتك وتقرضها للرياح ، فلم يؤسس أحد بناءه على المجهول ، ووجه عمرك للعمل كنقطة ، ودر حولها آلاف المرات مثل الفرجار ، واسعد بفكرة ابن الوقت ، ولا تهتم بالمستقبل والماضي مثل العاطلين ،وإن ظلت تدور حول نفسك ، فأنت هالك لا محالة .

٢١ ـ قصة قائد وقلعته (٤٥٦٢ - ٤٥٧٢)

شيد قائد قلعة عالية فى مكان ما ، لإحكام الأمن وتشديد الحراسة ، وحدث أن مر مجذوب ، فاستدعاه القائد ، وقال له : انظر إلى هذه القلعة ، كيف تطاول الأفلاك فى رفعتها ، وكيف تمنع البلاء عن الأكابر ، وتدرأ الخطر عن العظماء .

وعلى الفور قال له المجذوب : إنك رجل تعس ، وعندما يحل البلاء من السماء ، وتحتمي فى القلعة ستجد نفسك فى مواجهة البلاء أيضاً ، فبلاؤك هو نفسك ، فلا تبحث عن بلاء آخر يا عزيزي .

خلاصك الكامل فى هذا السبيل ، من نفسك ومن بلائها ، عندما تسلك وتكابد ، لن تتعلق بالأسباب ، وإن سقطت عن السير فى الطريق ، تستغيث كل شعرة فيك .

٢٢ ـ قصة السلطان محمود والمظلوم (٤٥٧٧٣ - ٤٥٨٨)

بينما كان محمود يسير ذات صباح ، اعترض طريقه مظلوم ، يستغيث به ، كان يصيح ويقطع عليه الطريق ، ثم أمسك بعنان جواده ، وعندما أمسك بالعنان ، ضربه ملك الزمان بالسوط على يده ، فسحب الرجل يده من الألم ، ووقع فى الطريق بذل وخضوع ، وعندما رآه الملك عاجزاً على هذا النحو ، عاد أدراجه إليه ، فسأله شخص : أيها الملك عندما كان ذلك المظلوم يمسك بعنانك لم تتوقف ، والآن لماذا عدت أدراجك إليه ؟؟

فقال له الملك : كنت ثملاً آنذاك ، عندما أمسك عناني بيد واحدة ، والآن كل شعرة من هذا المظلوم بمثابة يد قوية ، لا أستطيع مقاومتها ، ولأنني ا أرى أيدي كثيرة تقبض بعناني ، فكيف لي أن أخلص جوادي منها ، وانا أسير بين هذه الأيدي ، ولا أعلم كيف يمكن التخلص منها .

ولأن سلوك هذه الطريق أساس الرجل ، فلا يسلكها إلا من كان من أهل المعاناة والترفع لا يعتد به فى هذه الطريق ، لذا لا يتعلقون بعنان الملك ، و يجب على الشخص أن يعاني كثيراً حتى يتلمس طريقه للسلوك ، فالشخص الذى يعيش فى ترف وبذخ ، كيف تفتح الأبواب أمام روحه .

٢٣ ـ قصة المجنون (٤٥٨٩ - ٤٦٠٢)

سأل شخص المجنون : كيف حالك ؟، إنك تبدو مسكيناً عاجزاً ، فقال : إنني مثل حمار عجوز ، يمتلئ بدنه بالجراح من أثر الأحمال الثقيلة ، وعلى الرغم من أن جسدي ضعيفاً واهناً ، إلا أنه يحمل طوال اليوم الأحمال الثقال ، وإن أراحوني بعد عناء طويل ، وخلعّوا ثوبي عن ظهري لحظة واحدة ، يأتي آلاف من الذباب المؤذي ، لينهش جراحي ، فأقول يا ليت هذا المسكين ، ما رأى مثل هذه الراحة والعز أبداً .

إن كنت من سالكي الطريق ، فمن المحتم أن تقابل كثيراً مثل هذه الأمور دون إرادتك ، ولأن سلوكك لم يبلغ أوجه ، تثير هذه القصة ضحكك ، ولأنك مشغول باللهو والعبث ، فكيف ستعلم بأمر السلوك أبداً ، من يجب أن يسلك الطريق فى رأيي ، هو من أقام مأتمه مائة مرة ، ومن عاش بالحق ، وفني عن نفسه ، من مات قبل موته ، وليس من بقي في زمرة الخاسرين ، إن لم تصبح عاشقاً ، وتجد بروحك ، لن تدرك سر السلوك ، والمرء الذى يرفل فى النعيم والدلال ، يتخلف عن السالكين العاشقين .

المقالة الخامسة عشرة (٤٦٧٣:٤٩١١)

الابن الخامس

تقدم الولد الخامس تغمره الأنوار وقال لأبيه : يا بحر الأسرار ، أريد مخلصا ذلك الخاتم الذى ميز ملك سليمان ، فخضع له الجان والشيطان وسير له بساط الملك[١٤٨] ، وبسبب ذلك الخاتم لامن غيره انكشفت له رموز النمل وتعلم منطق الطير[١٤٩] ، فإن تحقق لى ذلك الخاتم خضع لى الفلك على الرغم من علوه هذا .

إجابة الأب (٤٦٨٠:٤٧٠٢)

قال الأب : أى شأن لك بالملك ، إنه وإن تحقق لك فان ، يمكنك السعى نحو الملك الآخر ، لا نحو هذا الملك فتسعى لخلودك بدلا من فنائك ، ربما كنت فى ملكك ظالماً تجيز المظالم ، فتواجهك يوم القيامة نملة قائلة لماذا اتسم ملكك بالبطش ؟ والدنيا خصم وأنت تقتفى أثره حتى توفر لنفسك رغيفا من الخبز ذات يوم ، والحياة كلها حسرة أبدية فهى حفنة من تراب أو قبضة ريح ، فلاتغتر بملك الريح والتراب فمن تعلق به كان مصيره الهلاك ، ولمن تكون الحياة ذات قيمة ونهايته الموت بعجز ! تجرع الحياة المليئة بالدواء الإلهى ولا تقتل نفسك بسم الملك ، فأى نفع جناه رستم وقد تحطم قلبه وأى فائدة ترجى من تناول الدواء بعد أن مات ابنه[١٥٠] !

فاطلب يابنى ملكا آخر حيث يجب التضحية بالولد[١٥١] ، فالملوك الذين وجدوا فى الحياة ووجهوا آمالهم إلى الفلك الدوار ، لم يكن لديهم سند قوى فى الملك وإن استندوا إلى قطعة من الجلد ، فاستراحوا جميعا تحت الجلد[١٥٢] وأسموه الدرفس الكابيانى ، وكيف لا تبتعد عن ملك يقوم على قطعة من الجلد؟، فإن يقم ملك على درفس من الجلد أمكن أن يقوى أيضا بحذاء ، وإن يكن لى ملك أصله من الجلد وأفتخر به ، يحق لى أن أخجل .

عندما تنكشف الأسرار فما أكثر الحديد الذى يصبح شمعا ، وفى هذا المجال حيث يدهش العقل إن وجدت جبال ، تصير كالعهن المنفوش[١٥٣] ، ولأن ملك الدنيا هو الحياة فقط عندما تدقق النظر تجد أن الملك هو الآخرة ، وويل لآدم وقد أدرك سر العشق فأعرض عن ملك الخلد بسبب حبة قمح واحدة ، إن أردت اكتساب الملك الخالد يكفيك قرص واحد من العالم مثل الشمس .

١. قصة للسلطان محمود فى الصيد (٤٧٠٣:٤٧٢٦)

عندما كان محمود فى طريقه إلى الصيد انتحى جانبا عن جنده ، فشاهد قرية على مقربة منه يتصاعد الدخان من إحدى أرجائها ، فانحرف بفرسه نحوها وهناك وجد امرأة عجوزا ، تجلس أمام نار ، فقال لها : لقد قدم إليك ضيف للخليفة فماذا تنضجين فوّق هذه النار ، أيتها العفيفة ، فأجابته العجوز عندئذ : أنضج ملكا لى أيها الملك .

قال لها الملك : قولى أيتها العجوز البائسة أتمنحيننى هذا الملك ، قالت : لا أبدا ، إننى أنضج ملكا لنفسى فكيف أبيع ملكى بملكك ؟ إننى لا أشترى ملكك أبدا فملكى أفضل من ملكك كثيرا ، إن ملكك يقبع وراءه عالم من العداء أما ملكى فلا تكتنفه أية أحزان ، فكفانى هذا من ملك !!، وعندما أمعن الملك فى ملك العجوز انتحب على ملكه طويلا ، وفى نهاية الأمر أخذ حفنة من ملك العجوز ومنحها كيسا من الذهب وانصرف .

لأن الشعيرة الواحدة سوف تخضع للحساب أيها الغنى فليس هناك ملك أفضل من ملك العجوز ، فرستم وإن كان صاحب كمال إلا أنه تطلع إلى ملك زال ، ماهى الطريقة ؟ إنها إدراك مخاطر الطريق والسير بخفة لتجنب المشقة ، والشبع باليسير وغض الطرف عن الملك والحشم ، ولايوجد اليوم ملك بلازوال فعما تبحث حيث لاكمال ؟ ولا يمكن تحقيق الكمال فى هذا العالم، فطالما نحن فى قيد أنفسنا فلا مفر من النقص .

يتزايد القمر فى البداية خلال أسبوعين ثم يتناقص فى أسبوعين أيضا ، ويتحقق له الكمال بين مسيرتيه فى ليلة واحدة ، ثم يتجه إلى الزوال ،والكمال الذى لا يتحقق إلا فى ليلة واحدة البحث عنه ليس من مذهبى ، لقد علمت الآن من هذا المثال أنك تتجه إلى الزوال ، وإن اكتملت كالقمر ، فمآلك إلى زوال وإن كنت عزيزا أو ذليلا ، ولأن ملك الدنيا زائل فكيف تستقيم أمورك هنا ، فى هذا الزوال .

٢. قصة الشيخ والعنقاء (٤٧٢٧:٤٧٣٧)

كان أحد الشيوخ الواصلين يسير فى الطريق فوقع بصره على طاق عال ، وعلى قمته تمثال من الجص لطائر العنقاء وقد أطلق جناحيه ، فتحدث الشيخ وقال : أيها الطائر الغادر أعدت ثانية إلى هنا دون حياء ، تظلل كل شخص بجناحيك فترة ثم تجلس فوق قصر آخر ، لايتأتى ظلك لأحد فشيمتك الزوال ، وإن كنت تحقق الخلود للحياة لما كنت تخطر على العقل وتلوح للروح!.

الدنيا كلها تبدو مثل سراب والحياة تتوالى كمنام ، لقد سقط حمارك بقوة وسط الطين ولأن الحمار علامة على الحظ فى تفسير المنام ، فإن كان الحمار حظا لامرىء هنا فبدون شك يبدو أمر الدنيا سيئا للغاية ، إن كان غربال أوهامك من الماء فكل ماتراه أضغاث أحلام .

٣ . قصة السلطان سنجر (٤٧٣٨:٤٧٤٧)

قال الغزالى لسنجر : أيها الملك إن حالك لا يخرج عن أمرين ، إن كنت يقظا فأنت لن ترى شيئا حتى تغمض عينيك ، وإن كنت نائما لا ترى شيئا من هذا الملك حتى تفتح عينيك ، فإلام الزهو بالملك والفرح به ؟ وإلام تفتح عينيك وتغمضهما ؟ إنك لن ترى آثاره فى عالمك ولن تدرك شيئا أقل من العدم .

وأنت إن كنت ملكا مثل يزدجرد[١٥٤] فنهايتك هى القتل فى الطاحونة ، وإن لم تكن تعلم بأمر تلك الطاحونة فالق نظرة على هذا الفلك المنحنى ، فبمجرد أن تنقلب داخله نستقر فى النهاية تحت حجر الطاحونة ، والكل سواء فوق هذه النار ، سواء أكان بخورا أم عشبا وعندما ينتهى النوم ، فالجميع سواء ، الملك والمسكين .

٤ . قصة محمود وسميه (٤٧٤٨:٤٧٦٨)

كان محمود يشق طريقه فى الفلاة بصحبة جنده ، تحيط به مظاهر الملك ، وبينما كان يسرع بجنده فى كل صوب ليحصل على صيد من الصحراء ، شاهد شيخا محدبا بائسا حافى القدمين ، عارى الرأس ، يغطى الغبار وجهه ، ينزع الأعشاب ويتأوه ويسلك طريقه بين الأشواك ، فتقدم الملك إلى الرجل وقال له : أخبرنى يا عزيزى ما اسمك ؟ فقال : اسمى محمود ولأن لى اسمك ، فهذا يكفينى .

قال الملك : لقد انتابنى الشك فأنت محمود ، وأنا محمود ، أنت محمود وأنا أيضا محمود وكيف لنا أن نتساوى ، أجابه الشيخ قائلا : أيها الملك : عندما نموت نحن الاثنان ، نبتعد عن الدنيا بمسافة ذراعين فى بداية الأمر وعندئذ نتساوى معا ، نتساوى ، وإن كنت أحقر منك أتساوى معك عندما أموت .

وأنت تعتلى العرش سعيدا فدعك منه لأن هذه الدنيا ستصنع لك نعشا من خشب عرشك ، ماذا سوف تفعل بالملك فى الحياة ؟ إنك لن تستطيع أن تسعد لحظة ، ولن يمكنك المضى فى الطريق وحيدا ولن يستقيم لك أمر دون جند ، ولن تتجرع الماء دون أن يتذوقه أحد قبلك ولن تنام ملء جفونك دون حراسة ، فلماذا تتعلق بالملك هكذا ؟

وأنت لاتهنأ فيه بكسرة خبز ، إن كان عرشك العاجي يطاول السماء ، وإن كان تاجك يفوق تاج أنو شيروان ، فإن نصيبك من مثل هذا التاج والعرش لن يكون سوى التراب ، أى ملك هذا ، وأى ملك أنت ؟ إنك لن تتفوق على أمير الأجل ، يكفيك كل يوم قطعة من الخبز وإن بحثت عن قطعتين حرام عليك .

٥ . قصة السلطان محمود ومنظف الملابس (٤٧٦٩ : ٤٧٩٠)

بينما كان محمود ملك العالم ، يسير فى طريقه شاهد منظفا للملابس ، وهو يحمل مجموعة من أقمشة الكرباس فقال له : ما ثمن هذا الكرباس ؟ أجابه الرجل : يا ملك الملوك يكفيك عشرة أذرع فقط من الكرباس فى هذا السبيل ، ولأنه يكفيك عشرة أذرع منها فلماذا تسأل عن قيمتها كلها ، وما أن سمع الملك ذلك حتى بكى تأثرا .

ثم شاهد رجلا فقيرا يقطع الآجر فى الطريق ، وقد لفحت الشمس وجهه فصار مثل الفحم وملأ الصحراء كلها بالآجر ، فقال له الملك : ما ثمن هذا الآجر ؟

قال الرجل : يكفيك عشر منها ، ولأنه يكفيك عشر من هذه المجموعة فلماذا تريدها كلها ؟ البقية حرام عليك ، أكثر من عشرة أذرع من الكرباس وعشر من الآجر وبال عليك سواء كنت صالحا أم طالحا ، إن هذين الشيئين هما نصيبك من الدنيا عندما تمضى عن هذا الكبر والغرور ، وإن اعتبرت بهذا الأمر فاعتبر الدنيا دخانا ، وتجاوز عن سوء طويتك وامعن عقلك واترك الملك وهيء أمرك ، ولأنه ليس أمامك من الملك سوى لحظة فاعمل فربما لاتواتيك هذه اللحظة أبدا .

وعندما سمع الملك ذلك قال : إن أقوالهما قد جعلت وجودى يتداعى ، وبكى طويلا حتى فقد وعيه وبعد ذلك أعز الرجلين كثيرا ، ومنحهما ذهبا وفيرا وعندما جاء إلى المدينة روى هذه القصة .

ولأن نصيبك من الحياة هو الآجر والكرباس فماذا سوف تفعل فى دار الميتة هذه ، لو ملكت قوة بهرام أمام الفلك فأنت فى الآخرة بهرام كور[١٥٥] ، ولو تلألأت أنوارك خلف الحجب مثل الياقوتة تصبح مثل بهرام جوبين[١٥٦] ولو كنت داخل التابوت ، فاحذر يا صاحب القبر من القبر ولا تفقد حيثيتك تحت الأرض ، واسلك الطريق حتى لا يجعلك هذا الفلك الغادر أسيرا لنفسك .

٦. قصة الحكيم وذى القرنين (٤٧٩١:٤٨٠٩)

شاهد أحد الحكماء ذا القرنين فى الطريق فقال له الحكيم ، رجل الحضرة ، كم طفت حول العالم وأثرت من اضطرابات فى الدنيا قاطبة ؟ فقال الإسكندر : سخرت نصف العالم وبقى نصف ، وأنا ذاهب الآن لاخضاع النصف الآخر .

قال له الحكيم : ليس هذا هو الإنصاف يجب أن تسلك الطريق ، ولأنك تعلم أنه لامناص من موتك فاسلك الطريق المستقيم مثل العلماء ، فحتى وإن لم تكن كالأسد إلا أنك عندما تتجه إلى القبر تصبح نملة ، ووجودك فى الدنيا قصير ، ومكوثك فى القبر يمتد إلى مئآت الآلاف من الأعوام ، فلماذا تقيم عشك فى الدنيا ؟ من الأفضل إقامة منزلك فى القبر ، وإن شيدت إيوانا عظيما مثل كسرى فلن يسلم من الكسر فى النهاية .

ألاترى الكواكب تجرى على مفرق الفلك ، تتحرك تائهة فى حرقة من هذا المنزل إلى غيره ليل نهار ؟ ولإنها تعرف أنها ليست سوى امتداد للفلك لذا لاتهدأ لحظة فى منزل واحد ، والملك وإن كان يمنح مكانة متميزة إلا أنه يموت فى موقعه أيضا .

وأنت أيضا ، إن أقمت منزلا فى هذا السبيل تموت داخله فجأة مثل دودة الحرير ، إن أحمالا كثيرة تثقل كاهلك أيها المجنون وفى النهاية ، يتهدم المنزل فوقك ، فلاتسعد بعشك ولا تضق بخرابتك ، لأن سعادتك لن تدوم ولا شقاؤك فالحزن يمضى والسرور يذهب أيضا كالريح .

٧. قصة الملك والخاتم (٤٨١٠:٤٨٢٥)

كان يوجد ملك تقى خضع له ملك العالم ، ولم يكن له نظير فى الحياة بأسرها وامتدت سيطرته على الدنيا قاطبة ، فامتد ملكه من الأرض حتى السماء وساد حكمه الشرق والغرب ، وكان لدى الملك حكماء يعيشون فى كنفه .

وهكذا قال الملك - ويالله العجب - لهم ذات يوم : يكتنفنى القلق ، وتتأجج فى قلبى رغبة عجيبة لا أعلم لها سببا ، فاصنعوا لى خاتما طاهرا بحيث عندما يجتاحنى الغضب ، وانظر فيه أسر وينتهى غضبى ، وحينما أكون سعيدا بإقبال الحظ وانظر إليه يملؤنى الغضب أيضا ، فطلب الحكماء مهلة .

جلس هؤلاء المفكرون العظماء ، وقدحوا أذهانهم وأعملوا فكرهم وتجرعوا دماء الحسرة ، إلى أن عقدوا اتفاقا وعزموا على أمر ، وهو أن يكتبوا على الخاتم هذه العبارات الموجزة :

يمضى هذا أيضا سريعا فى نهاية الأمر ، ولأن ملك الدنيا ملك زائل فكل من فاز بملك الآخرة حى ، إن أردت هذا الملك افده بذلك الملك واقتد بإبراهيم بن أدهم .

٨. قصة إبراهيم بن أدهم والخضر (٤٨٢٦:٤٨٥١)

كان إبراهيم بن أدهم قد جلس فى خيلاء والغلمان تحيط به ، وهو يضع التاج المرصع فوق رأسه ويرتدى ثوبا مذهبا ، عندما دخل الخضر إلى إيوانه دون استئذان على هيئة جمّال ، فارتعد الغلمان من هيبته كما فزع كل من رآه ، وعندما لمحه إبراهيم قال له : من أذن لك أيها المسكين بالدخول ؟ فقال الخضر : لأننى رأيت المكان مناسبا لى وجدت هنا رباطا فنزلت فيه .

فتحدث إبراهيم بن أدهم قائلا : هذا قصر السلطان المعظم ، لماذا تدعوه رباطا أيها الغافل ؟ هل أصابك الجنون أيها الرجل العاقل ! فتحدث الخضر قائلا : أيها الملك لمن كان هذا المكان مقرا فى البداية ؟ قال إبراهيم : كان فلان أول من أقام هنا ، وكان ملكا هنا ، ومن بعده فلان ثم فلان والآن أن ملك العالم .

فقال له الخضر : إن لم يكنَ الملك يعلم فهذا المكان رباط وليس شيئا آخر ، لأنهم يجيئون ويذهبون فى هذا المكان باستمرار والجلوس فى الرباط مسموح به ، لقد مضى قبلك ملوك كثيرون أتقياء وأحساء ، وسوف يجيئون أيضا فى طلب روحك ويخطفونك من هذا الرباط القديم ، فأى فائدة لك من هذا الرباط القديم ومن وجودك هنا ؟

وعندما سمع إبراهيم ذلك ، تداعى وكأن هذا الحديث قد سلبه قراره ، وانطلق الخضر وجرى إبراهيم فى إثره وأنى لإبراهيم أن يتخلص من شباك الخضر ، وأقسم إبراهيم له كثيرا قائلا : أيها الشاب الكريم اقبلنى الآن ، إن أمكنك هذا ، لقد زرعت بذرة فى قلبى فى الخفاء فاروها الآن وامنحها الحياة ، قال هذا ، وانطلق فى إثره وصار رجلا من رجال من رجال الطريق ، استغنى عن رباط الدنيا العتيق ، وبدل الملك بحياة الدراويش . العظماء الذين انكشف لهم سر الفقر اشتروا الفقر الصوفى بالملك ، تحرروا من رسوم الملك أى تحرروا من المسكنة ، وإن كان الملك فى الدنيا هو الحكم لكن إن أمعنت النظر ، تجد أصله هو الدروشة .

٩. قصة محمود والدرويش (٤٨٥٢:٤٨٦١)

بينما كان محمود فى طريقه مع جنده فى الصحراء مر على أحد الدراويش ، وأقرأه السلام فرد الدرويش عليه دون اكتراث ، ومضى ، فقال الملك الطاهر العنصر لجنده انظروا إلى هذا المسكين المتكبر .

فقال له الدرويش : إن كنت فطنا فلماذا تطلق على هذا الاسم وأنت المسكين ، لقد نزلت فى أكثر من مائة مدينة وعشر وشاهدت المساكين أيضا فى كل مسجد ، ولم أر مسكينا مثلك فى العالم لأنه لا يخلو مكان من ظلمك ، فقد قرروا ما يوازى شعيرة أو نصف شعيرة على كل مبنى من أجلك لأنك مسكين ، ولم أر أى سوق أو دكان يخلو من استغاثات منك ، والآن إن كانت قد تحققت الرؤية لبصيرتك فانظر من منا نحن الاثنين هو المسكين .

١٠. قصة سنجر وركن الدين أكاف (٤٨٦٢:٤٨٧٩)

حدث أن ذهب سنجر التقى إلى ركن الدين أكاف فى خلوته ، فتحدث إليه الشيخ آنذاك قائلا : أيها الملك ألا يلحقك العار من هذا الملك ؟ ألم يجعلك الملك فى كل الأحوال تأخذ شيئا من امرأة عجوز تطهى بعض البصل .

قال له الملك : أيها الشيخ أنا لاأعلم كيف آخذ من البصل ! قال : أيها الملك إن العجوز الواهنة تنسج الحبال بدماء قلبها ، وعندما تبيعه بثمن بخس تشترى دهنا وبصلا وحطبا آنذاك ، وعمالك يعرفون كل شيء عن البصل والدهن والحطب وغير ذلك ، فكيف لا تعلم أنك تأخذ من خضروات السوق ومن الدهن والحطب أيضا ، وتطلب جزية عن وعول المراعى واحدا واحدا لذلك فالفقر أفضل لك كثيرا من هذا الملك .

أدرك ملك الآفاق حقيقته ووجد نفسه يأخذ الزكاة من بصل العجوز زدهنها ، فدمى قلب سنجر من الخجل وانسابت دماء دموعه ، ومضى ، وأصبح المسكين فى طريقه ، مثل ملك وملك الدنيا مستجدى لتراب طريقه ، وصار المسكين الذى لا يملك شيئا أمامه كأنه يملك كل شيء ، والملك الذى لا تقل كنوزه عن آلاف مؤلفة أصبح وكأنه لا يمتلك درهما واحدا .

لاأهمية للفضة والذهب فى هذا السبيل ولا قيمة إلا لصاحب الهمة العالية ، لقد عجز أحدهم عن امتلاك درهم واحد إلا أنه غض بصره عن كنوز الدنيا كلها .

١١ . قصة حطاب وكيس الذهب (٤٨٨٠:٤٨٩٣)

عندما كان أحد الأتقياء ينزع الأعشاب من الأرض ، خرجت صرة من الذهب فأخذ الرجل يضرب على رأسه بيديه من الحزن ، وخاطب الحق قائلا : لقد جعلتنى تعيسا فكيف أطلب منك شيئا أحترق به !؟ فتهبنى شيئا من حضرتك يحرقنى فى الحال؟ إننى لا أريده ، إننى أريد منك العدل لا الظلم ، يلزمنى العشب لا الدراهم .

وأنت إن توفرت لك الهمة كالرجال اجعل نفسك رجلا بهمتك ، فإن أملت فى الذهب والفضة من مولاك منعتك روحك دائما بوجلها ، ولماذا يجب البحث عن الذهب والفضة ومآل روحك إلى التسليم ، اترك الفضة والذهب وحافظ على روحك فالروح تفضل الفضة كثيرا .

لقد أدرك محمود الشهرة الفائقة لأن روحه مالت إلى الفقر ، وأنت لزمت الحرص فى الملك لما ذكرت خلقه أبدا ولأن السلطان أصبح على هذا النحو من الفقر فأنت أيضا يمكنك أن تصل إلى حال الفقر ، فالملوك الذين أدركوا سر الفقر لجأوا إلى ظل عجوز .

١٢ . قصة السلطان محمود والمرأة العجوز(٤٨٩٤:٤٩١١)

ذات يوم سلك محمود وضاء الوجه طريقا بعيدا عن جنده ، وفى الطريق صادف امرأة عجوزا ، تتكىء على عصا وقد احدودب ظهرها ، وتحمل كيسا فى عنقها وتتجه إلى الطاحونة سائرة على قدميها ، فقال لها الملك : إنك خائرة القوى وحملك ثقيل ، ولا يمكنك حمله ، هاتى الكيس ، فهو محكم القفل وضعيه فوق جوادى ، وتحررى منه ، وما أن وضعت العجوز الحمل فوق ظهر الجواد حتى انطلق كالريح .

وعندما ابتعد جواد الملك عن العجوز تحدثت وقالت للملك فى الحال : لو لم تقف لى أيها الملك اليوم لما وقفت معك غدا فى ذلك الهول العظيم ، فعندما يسرع جوادك فى انطلاقه لا أستطيع أن أصل إلى غباره ، ومهما قدت غدا من جياد لن تلحق بغبارى أيضا . فماذا ستفعل ؟ فلا تسرع اليوم أيها الملك لأننا سوف نكون سويا غدا فى الطريق فدمى قلب الملك من كلام ا أة وسحب عنانه ، وسار بجانبها .

إن تحققت من سر الوفاء لازمك التوفيق مثل محمود ، فهذا هو الكرم والعهد والوفاء وذلك هو التقوى والتسليم والرضا ، وإن فزت برائحة من تلك النافجة فزت بالكرة من الأفلاك التسعة وإلا غرقت فى الندم ولا تنهض منه حتى القيامة ، وأنت أيها المسكين ، تعلم الإحسان وتعلم الدروشة من مثل هذا السلطان .

المقالة السادسة عشرة (٤٩١٢:٥١١٤)

قال الوالد لأبيه : إننى لم أر شخصا أبدا زاهدا فى الملك ، ولا أعرف إنسانا على وجه الأرض لاتراوده أحلام الحكم ، ولا يمكن الاستغناء عن كمال الملك فمن أجل الملك يجود المرء بروحه ، وما أحسن ما قال ذلك الحكيم الذى يشبه المشترى إذا ما تحقق الملك يوما واحدا ، فهو شيء طيب !

إجابة الأب (٤٩١٧:٤٩٢٢)

قال له الأب : إن ملك الدنيا أصله غير ثابت وفان ، إنك اخترت هذا الملك لأنك لم تسمع بملك الآخرة ، وإن علمت به تصبح ملكا على العالمين ، والعظماء الذين انكشفت لهم عوالمه متى اشتروا ملك الدنيا بشعيرة واحدة فعندما كانوا يشاهدون الملك الخالد كانوا يتحررون من ملك الدنيا .

١ . قصة ابن هارون الرشيد (٤٩٢٣:٥٠٣٠)

كان لزبيدة ولد من هارون يعيش فى عزلة ، بعيدا عن العالم ، ولم تكن أمه تخرجه من باب القصر وقد تفانت فى رعايته مثل روحها ، وعندما تفتحت مدارك عقله للغاية رغب قلبه فى طلب المعرفة وتعلم الحكمة ، فقال لأمه : هل العالم هو هذا القصر ؟ أم توجد أماكن أخرى عديدة خارجه ، إن كان هناك مكان آخر اذكريه لى حتى تتسنى لى مشاهدته ، فاحترق قلب أمه عليه للغاية وقالت له : أيها العزيز ، الميمون الطالع ، سوف أرسلك الآن خارج القصر وأبعث بك إلى الصحراء والبيادى ، ثم هيأت له حمارا مصريا[١٥٧] وأمرت له بغلام وعشرة من الخدم ، فخرج معهم بمفرده حتى يستطلع أمر العالم .

ولم يكن ذلك الفريد قد شاهد العالم فتعجب من أحوال الدنيا ، وتصادف ، أن شاهد نعشا كان يحمله بعض الناس فى الطريق ، والجميع يبكون وينتحبون من حوله وقد أدمى البكاء أكبادهم ، فسأل الولد أحد الخدم : هل الموت حق على الجميع ؟ فأجابه الخادم : إن جسد كل كائن حى لامفر له من الموت ، وليس للموت عام وخاص ولم يمكن لأحد الخلاص منه ، فقال له الولد إن كان ينتظرنى مثل هذا الأمر ؟ فلماذا لاتحزن روحى على نفسها ؟ ولأن الحجر سوف يذوب بالموت لذا يجب الذهاب والعمل من أجل هذا الأمر الحق .

أصبح الموت أمام الولد مثل أسد داخل كمين ، وفى الليل عندما عاد أدراجه إلى أمه كان قد فقد سعادته وحبوره ، لم يغمض له جفن طوال الليل من هيبة الموت وكان يرتعد مثل ورقة فى غصن مكسور .

وفى الصباح هرب من المدينة ، ترك حياة النعيم ، بسبب رهبة القهر ، وظل يجوب الفلاة والبيادى وحيدا يتقلب بين التراب والدماء ، وكان هارون يبحث عنه كل لحظة ولم يجد له أثرا عند أحد .

ويروى أحد الأتقياء : عندما كانت هناك بعض أعمال البناء فى منزلى توجهت من المنزل إلى السوق وبحثت عن أجير ، فوجدت شابا نحيفا نحيلا أصفر الوجه يعتصره الألم ، يضع الفأس والفقة أمامه وقد سلبه الوله وجوده ، فقلت له : أيمكنك القيام بأعمال البناء ، قال بفتور : يمكننى قلت له : إنك تلزمنى ، فانهض قال الشاب الكريم ، فلننطلق ، فأنا أعمل يوم السبت فقط إن أردتنى ففى هذا اليوم ، وإلا فلا ، ولأنه كان يعمل يوم السبت فقد اشتهر باسم السبتى وصحبته معى إلى المنزل فعمل بجد وجهد كبيرين .

وفى الأسبوع التالى ذهبت إلى السوق وبحثت عنه طويلا فى كل مكان ، فقالوا لى هو مجذوب يجلس دائما فى الخرابة الفلانية ، فذهبت إلى هناك ورأيته فى ذلك المكان الخرب بعيدا عن خلق العالم ، ملقى فى ضعف وعجز شديدين يحيط به الموت والذلة ، فقلت له إنك مريض بائس وأنا أستطيع العناية بك ، تعال إلى منزلى ، أيها الرجل اليوم فإننى لا أرى أحدا مهتما بأمرك ، فلم ينبس ببنت شفة ، ونهض ونفذ ماطلبته منه .

وعندما وصل إلى منزلى كان قد بلغ به الإعياء والضعف كل مبلغ ، وأصابه مرض عضال وظهرت عليه علامات الموت ، فقال لى : أيها الصديق ، لى ثلاثة طلبات يجب أن تنفذها بإخلاص ، فقلت له اطلب ماتريد ياصاحب السر الإلهى .

قال لى : بعد قليل سوف تحلق روحى وتتحرر من غيابة جب هذا السجن ، عندئذ اربط حبلا فى عنقى والقنى على وجهى ثم اسحلنى فى الاتجاهات الأربعة ، وقل إن هذا العمل عمل صاحب دين وهذا هو جزاء من عصى الجبار ، فالشخص الذى يعصى الجبار ينقلب أمره هكذا ويذل على هذا النحو ، الشىء الثانى : لدى كليم قديم طاهر اجعله كفنى وأوسدنى به التراب ، لأننى أديت فوقه فروض الطاعة لأمد طويل ربما ينفعنى فى التراب ، الشىء الثالث : خذ هذا المصحف واعلم أنه كان لعبد الله بن العباس ، وكان هارون يحتفظ به ويخفيه عن أعين الآخرين فاحمله إلى هارون فى بغداد وقل له : إن من سلمنى هذا المصحف يقرؤك السلام ويقول لك : انتبه ، ولاتمت وأنت غافل مثل الجيفة ،

لأننى مت من الغفلة والوهم ولم أختبر الحياة فمت كالجيفة ، وقل لأمى لاتنسينى فى الدعاء فى أى مكان ، قال هذا وتأوه ثم أسلم الروح عفا الله عمن أسلم الروح على هذا النحو .

فقلت فى سريرتى يجب إحضار الحبل حتى أنفذ الوصية الآن ، وربطت الحبل فى عنقه وسحلت وجهه فوق الأرض بذلة ، وفجأة سمعت هاتفا يقول : أيها الجاهل ، البعيد عن الطريق ، ألا تخجل من جهلك المطلق وتفعل هذا بأحبابنا ، أنضع الحبل فى عنق ذلك الشخص الذى أسلم له الفلك رقبته ، ماذا تريد من قتيل معاناة الطريق هذا ؟ لا تحزن فإنا قد غفرنا له .

وعندما استمعت إلى هذا الهاتف الجليل ارتعشت يداى من الهيبة ، وقلت لنفسى أيها الغافل اترك هذا الأمر ، وانهض ، فهذا الحبل عبث ، فاستدعيت رفاقى وقصصت عليهم أمر الدرويش ، فجاءوا جميعا بقلوب طاهرة وكفنوه بالكليم وأوسدوه الثرى ، وبعد أن فرغت من أمر الشاب أخذت المصحف وانطلقت فى طريقى .

وقفت أمام باب هارون وقت السحر وانتظرت ، حتى قدم أمامى ، فأظهرت له المصحف فأخذه بسعادة وقال لى : من أعطاك هذا المصحف ؟ قلت له : شخص أجير شاب نحيف ، نحيل ، ممتقع الوجه ، وعندما قلت : ما أعجبه من أجير ! انهمرت الدموع من عينيه كالسيل ، وبكى طويلا ، حتى فقد وعيه وبعد أن تمالك نفسه قليلا ، قال لى : أين هو ذلك السرو الباسق ؟ قلت له : لبيق الله هارون ، وما أن سمع هذا ، حتى تعالت صرخاته وفقد ذلك العالم النحيب رشده ، فأراق الدمع ، وتعالت صرخاته بصورة لم يشاهدها أحد من قبل ، كان صوت آهاته يعلو حتى الفلك وجنده يراقبونه من كل ناحية ، ثم قال : ماذا قال لك عنى ، وماذا فعل ؟ قبل أن يسلم الروح ؟

قلت : قال لى آنذاك يجب أن تقول لأمير المؤمنين : استمع إلى كلام هذا الدرويش الأجير حذار أن تغتر بهذا الملك ، اجتهد فى ذلك ، واعمل بنصيحتى ولاتمت مثل الجيفة ، وسط مظاهر الملك ، إن تمت مثل الجيفة ، أيها الفريد تظل على هذا النحو ، إلى الأبد ، إلام تظل مكبلا بالدنيا ؟ اخط فى طريق الدين ، لتسعد ، فالدنيا حجاب روحك بينما الدين شمع إيمانك ، إن تفز بملك العالم بأسره يتخلى كله عنك ، عندما تموت ، أنت رجل منعم ترعرعت فى العز والدلال فتعلم الخلق من جمال ، والآن وقد أفضيت بوصيتى ، أنا ذاهب وإن كان لن يسعدك أن تستمع لمثل هذه النصيحة فى وقت كهذا .

تجددت أحزان هارون وتزايدت واستبدت به الحيرة ، ففقد قراره ، ثم صحب الدرويش إلى غرفته وأجلسه خلف ساتر ، وجاءت زبيدة خلف الساتر ليقص عليها الدرويش عليها ماحدث .

وهكذا يروى الدرويش : عندما وصلت فى حكايتى إلى قولى : ألقيت به على الأرض ، وأخذت أسحله ، ارتفعت صرخات النسوة من خلف الساتر وأخذت تتلاطم مثل أمواج البحر ، وقالت زبيدة إننى أستغيث منك وليقتص الله لى منك فى نهاية الأمر ، جعلت فلذة كبدى يذوق الذل و لم تخش ما يحيق بوجهه ؟ ألم تعرف ابن الخليفة فألقيت بالحبل فى عنقه ، أسفى عليك أيها الغريب وعلى ولدى أسفى على نور عينى وشمعة روحى ! رحل عنا فجأة مثل الريح وأحرق أرواحنا ، لوعتى عليك أيها الفاتن المدلل كنت مثل كنز فى أرضى .

ثم طلبت زبيدة معرفة مكان قبره وشيدت له ضريحا مهيبا ، ومنحت الرجل ذهبا كثيرا بينما أجزل هارون العطاء له أكثر ، وصار الرجل من الأثرياء وإن كان لديك تساؤل ، فقد مضى هو أيضا الآن .

وأنت ماذا ستفعل بالملك ؟ وهو بلاء أكيد لروحك فى النهاية ، إن كنت ملكا وصاحب سيادة سرعان ماتترك منزلك بذلة ، فلماذا تجس فى منزلك بغفلة ثم تضطر إلى النهوض منه ، ولماذا تربط قلبك بشىء تكون نهايته دائما ترديك ؟ ولماذا تجمع شيئا بقدر كبير لن تأكل منه شعيرة واحدة أبدا إن كنت عدوا للملك فكن مثل الولد وإلا فكن الأب هارون فى الملك ، أخبرتك عن حال الولد والآن أحدثك عن أبيه .

٢. قصة هارون وبهلول (٥٠٣١:٥٠٦٨)

ذات يوم وبينما كا هارون يعبر الطريق مر بجانب بهلول المجذوب ، فناداه قائلا : ياهارون البائس فغضب هارون منه للغاية ، وقال لجنده : من هذا المجذوب الذى يناديني باسمى فى الطريق ؟ فقالوا له : إنه بهلول ايها الملك فتقدم هارون من المجذوب ، وقال له : ألا تعرف آداب احترامى فتناديني وأنت لاشأن لك باسمى مجردا ؟ إن كنت لاتعرفنى أيها المجذوب أريق دمك الآن على الأرض .

فأجابه الرجل المفعم بالمعانى إننى أعرفك جيدا ، فأنت إن زلت قدم عجوز فى الشرق على حجر ، أو تصدع جسر فى مكان ما وتسبب فى جرح قدم عنز ، تسجل عليك

هذه الذنوب وإن كنت في العرب ، فاحش الله أيها الجاهل لأنك أنت الذي سوف نسأل .

فانتحب هارون طويلا من كلامه وقال له : ألست مدينا بشيء ؟ قل لي حتى أؤديه عنك كله فأجابه بهلول التقي : كيف تؤدي ديني عني ؟ وأنت نفسك لا تملك شعيرة ، أموالك هذه هي أموال الناس وكل ما في خزائنك ليس لك ، فاذهب وأعد الأموال إلى الناس فقد أمرت أن تمنح الناس أموالهم .

ثم طلب هارون النصيحة من بهلول فقال له بهلول المذنوب على الفور : يا من تعلو بهامتك في الدنيا علامة أهل السعير جلية عليك ، فامح عن وجهك تلك العلامة وإلا فقد أوضحت لك ، وأنا ذاهب كما ترى .

فسأله الخليفة ثانية إن آل مصيري إلى الجحيم فأين تكون قد ذهبت كل أعمالي الدنيئة ؟ فقال له بهلول : انظر إنك ترتكب أفعال أهل النار كل شهر وكل عام ، قال هارون وإن كنت صاحب فضل لأن نسبي يتصل برسول الله ؟

قال له : ألم تر عند سماعك القرآن أنه لا أنساب بينهم[١٥٨] ، قال هارون مرة أخرى : ويحك أيها البائس إنني لم أفقد الأمل في الشفاعة[١٥٩] ، قال له : ليست هناك شفاعة دون إذن الله فماذا تريد مني ؟ عندئذ قال هارون لجنده : واصلوا سيركم لقد قتلنا وأنتم لا تعلمون .

حيث لا ملك هنا ولا مالك فنجاتك أن تفنى عن نفسك ، لأن الحجر يدوم مئات الآلاف من السنين وأنت لا تبقى ، فماذا سوف تفعل في تأخيرك هنا حيث يبقى الحجر مدة أطول منك أيها القلب لا تهتم بالفلك الدوار وماذا ستفعل في يوم الدم هذا ؟ مناقيع المذاق الجميل لقدرها المليء بالدهون وقد اتخذ من الموت غطاء ذهبيا له !

يجب الخطو صوب الفلك ووضع الرأس داخل هذا القدر الدموي ، لأن هذا القدر المملوء بالدماء فلا تضع إصبعك داخله ، بل اختف برأسك فيه ، ومهما زادت سورة هذا القدر لن تحصل على لقمة ، دون سم ولاحمى ، الفلك دائما شفق دموي لأنه تجاوز عن التاج ، واكتفى بالدماء ، انظر إلى خلق العالم ، يتصارعون مع بعضهم البعض وقد ولدوا جميعا ، من أجل الدفن في التراب ، كل تراب الأرض دماء سوداء سراب خلق لا عبرة لهم ، مثل سياوش ، إن كنت لبيبا ، تراه عيانا وتشاهد دماء مائة سياوش من كل ذرة فيه .

٣ . قصة سليمان والآنية (٥٠٨٩:٥٠٦٩)

ذات يوم ، كان سليمان يبحث عن آنية يشرب فيها الماء دون غصة ، بحيث لاتكون تلك الآنية مصنوعة من تراب ميت مدفون ، بحثوا كثيرا عن ذلك التراب فلم يجدوه ـ ويالللعجب ـ مهما بحثوا عنه ، حتى جاءه أحد الجان وقال : سأحضر هذا التراب من تراب الموتى الأطهار ، وغاص الجنى فى قاع البحر واختفى داخل أعماقه ثم أخرج التراب من قاع البحر وحوله إلى طين وصنع من آنية ، وعندما ملأ سليمان الآنية بالماء حدثته الآنية عن نفسها قائلة :

أنا فلان بن فلان اشرب الماء ، لماذا تسأل عن كنهه ؟ فمن هنا حتى ما بعد القمر أجساد الناس أكثر مما تطلب ، وإن أردت آنية لاتكون من تراب هذا أو ذاك فهى ليست فى الأرض ، وإن امتلكت آنية أو تنورا اعلم يقينا أنها من تراب القبور .

ما أسعد حفنة التراب التى تشكل ولكن لتصير آنية للماء ، فهى أفضل من الحفنة التى يصنع منها التنور لأنهم يوقدونها بالقوة كل ساعة ، انظر إلى القبور ، لتدرك المعاناة وطف بالعالم ، تجده عالم أموات ، الجميع أسرى للتراب والدماء أسرى داخل الطريق بعيدين عن خارجه ، لو أن بصيرتك من روح طاهرة فانظر إلى أرض القبور ، من أى تراب هى ، وإن تدقق النظر ، تجد كل ذرة من ترابها كأنها حسرات مائة عالم ، لأن القبور هى أول منزل للآخرة فانظر أى صعوبة فى الوصول لآخر منزل ، إن أردت الفوز بصفاء الآخرة اجلس فى القبور متى استطعت ، فالقلب يحيا من رؤية الأموات ويزيد من رصيدك فى الآخرة .

٤ . قصة الدرويش والملك (٥١٠٤:٥٠٩٠)

غضب ملك على أحد الدراويش فطرده من عنده بقلب مفعم بالألم ، وقال له : لن أمهلك لحظة واحدة تبقى فيها داخل حدود ملكى ، فمضى الرجل ، خالى الوفاض ، من أمام الملك وذهب إلى المقابر وأقام هناك حرا .

وعندما علم الملك بذلك أرسل له رسالة فورا قائلا : ألم آمرك أيها البائس ، أن تخرج من حدود ملكى ، أنت تعاند ؟ أتريد أن أريق دمك ؟ ، فأجابه : لقد قبلت هذا وخرجت من حدود ملكك ، أليست القبور أول منزل للقيامة حيث يبدأ العذاب ، أليست أول منزل للحشر وهى ليست ضمن ملكك بل من ملك الآخرة .

مثل المرأة عندما يحضرها ألم المخاض يقول الناس عنها : إن هذه المرأة بين الحياة والموت إحدى قدميها فى الدنيا والأخرى فى الآخرة ، وأنت أيضا أيها الجاهل ، طالما وجدت فى الحياة فوجودك يتعلق بنفسين ، إن توقف نفس ، لايصدر الآخر وينتهى أثرك من العالم ، فلا تصح ولا تنح واسترح فالطائر الذى ترك الشرك ، لايعود إليه أبدا ، ولأن جسدك شرك لطائر الروح لماذا تجعل من هذا الشرك مقبرة له ؟

٥ . قصة شاب وامرأة جميلة (٥١١٤:٥١٠٥)

تزوج شاب من امرأة فاتنة يعجز العقل عن وصفها ، كان جمالها آية للعاشقين وشفتاها دواء لروح العطشى ، ماذا أقول فقد ماتت تلك العروس شبيهة القمر كانت موفورة الصحة ، لكنها ماتت أثناء الولادة .

الحاصل عندما أوسدها زوجها التراب وأهال الثرى فوق شمس وجهها ، كان معه زجاجة من ماء الورد كانت زوجته تعطر بها قدميها ، فسوى قبرها بها ولكن بعد أن عدله بدمعه الدموى .

لماذا اهتمت تلك الحسناء بشىء وجب عليها المضى عنه مضطرة ؟، ولماذا عطرت قدميها فى العرس وهى سوف تتركهما ؟ ماذا أقول عنى وعنك وأأسفاه وأأسفاه على مجيئنا وذهابنا ! وأأسفاه ! .

المقالة السابعة عشر (٥١١٥:٥٣٩٩)

قال الوالد لأبيه : أنت تعلم أن الملك تهفو إليه القلوب سواء أكان محمودا أم مذموما ، حيث يعيش العظماء المبرزون والحكماء الماهرون على عطايا الملوك دائما ، وأنا لم أر جمعا ولا نفرا فى غنى عن بلاطهم أبدا .

إجابة الأب (٥١١٩:٥١٢٤)

قال الأب : ياعزيزى إلى متى تجادل ؟ وتبحث عن الملك الفانى بغفلة ؟ إن الملك لا يدوم طويلا فلا تثقل كاهلك بأعباء العالم ، إنك لن تستطيع احتمال حملك فقط فكيف تسرع بأحمال أهل العالم ؟ إن الموت فى الفقر صعب ، فكيف تموت عن الملك فى نهاية الأمر ؟ إننى أتعجب فحتام تطلب الملك وأنت تدرك زواله !

١ ـ قصة الخراف والقصاب (٥١٢٥:٥١٣٩)

هكذا قال أمير من أصحاب المعاناة إننى لا أعجب كثيرا من أمر الخراف ، التى يسوقونها بذلة لقطع رؤوسها بقسوة لأنها لا عقل لها ، ولا تدرى أنهم يسوقونها إلى نهايتها ، لكننى أتعجب من ذلك القصاب وهو صاحب العقل والعلم والفكر ، فكيف يعلم أنه سوف يذبح فجأة فى هذا السبيل أيضا ، ويجلس سعيدا آمنا هكذا ولا يحرك ساكنا .

الجنين الذى تحتضنه الدنيا داخل بطنها وجوده يستند إلى العدم ، انظر إلى الدنيا كم من الأطفال قتلت داخل بطنها منذ آدم ، البعض تلو الآخر ، كثير من الأمراء سقطوا كالنمل وكثير من الأقوياء أودعوا القبور ، ليست للدنيا ذرة من الفطنة فهى ليست سوى قاتلة لأبنائها كما قتل رستم سهراب .

ماذا أقول ؟ لقد اختطفت كالثمل إنها عجوز شمطاء كلها مكر وحيلة ، تربيتك لتلتهمك وتسلط هذا السيف على عنقك بالقوة ، لا تجعل دورة الفلك تصفعك فهى إن صفعتك ، فعلى قفاك ، تعودك الصفع حتى تسمن ، وتؤكل .

٢ ـ قصة الباز وطائر منزلى (٥١٤٠:٥١٦٧)

ثار باز على أحد الطيور المنزلية فقال له عندئذ : يهتم الناس بأمرك فى المنزل ولا يدعونك لحظة دون ماء وحب ، يحمونك من الأعداء دائما حتى لا يجد عدو إليك سبيلا ، وأنت تهرب دائما من الناس فلماذا سوء عهدك ؟ الناس يوفون دائما لك وأنت لا تعرف سوى النكران ، لا تتآلف مع الناس برهة ولم أسمع عن صاحب جفاء مثلك ،

أما أنا إن أرسلنى الناس مائة مرة لمباشرة مهام جمة ، أحقق عهدهم فأحلق سريعا وأعود إليهم على جناح السرعة أيضا ، لا وفاء للطائر المنزلى فهو يميل إلى العزلة .

عندما سمع الطائر المنزلى هذا القول تحدث قائلا : أيها الباز الجاهل ، إن تهبط فى طرقات السوق العديدة لا ترى بازا واحدا مقتولا ومعلقا ، وإنما ترى مائة طائر مقطوع الرأس معلقا من أرجله ممزق الصدر ، إن كان وفاء الإنسان على هذا النحو فإننى أتجنبه ، على وجه اليقين ، مثل هذا العهد وذلك الوفاء فى الحياة الأفضل منه الموت إلى الأبد ، فإن كانوا يربوننى الآن فهم يحسنون تربيتى لقتلى ، فإن اعتبرت هذا وفاء فالجفاء أفضل منه وكثير من الكراهية أفضل من هذا الحب وذلك الوفاء .

وأنت أيها الفلك الدوار تدير الطاحونة على دماء الرجال منذ القدم ، ما أعجب أمرك أيها الفلك الغادر ! تلقى داخل الثرى ، بمن أحسنت رعايته ، أيتها الحياة ، ماذا ستكون نتيجة رعايتك لنا إلا تجرع دماءنا ، لا يعلم أحد بأمر تجرعك الدماء لأنك تخفى أمرك داخل الأرض ، وفى أعماق البئر .

أيتها الحياة ، لأن حياتك ممات فانتظار الوفاء منك ، طمع فى الموت ، فى البداية تلقى بى وسط الفتنة من جفائها وفى النهاية تلقى بى فى القبر ، عند وفاتى ، لا أعلم ، إلى متى تظل هذه الحياة ؟ ولماذا تظل دورة النهار والليل ؟

كتاب عجائب الأفلاك السبعة يجعلنى أجول فى دمائى مائة مرة ، طفت حول العالم من أقصاه إلى أقصاه فى كل وقت ولم أعرف له بداية من نهاية ، فهو مثل كرة لا رأس لها ولا قدم لذلك لا أعرف له رأسا من قدم ولا قدما من رأس ، لأن الروح هنا يخفى أمرها عنها ، فكيف لها أن تدعى العلم ؟

٣ . قصة مبصر الأرواح (٥١٦٨:٥١٨٣)

اشتهر أحد العرافين بقدرته على كشف ما يجرى داخل القبور فما أن يصل أمام قبر حتى يرى ما يجرى داخله ، وأراد أحد العظماء أن يختبر مقدرته هذه فصحبه إلى قبر عمر الخيام ، وقال له : ماذا ترى داخل هذا القبر ؟ أخبرنى أيها المبصر الطاهر ، فأجابه الرجل العزيز قائلا :

هذا الرجل يعانى من العذاب وعندما توجه إلى تلك الحضرة كان يدعى العلم ، والآن وقد صار جهله عيانا فإنه يتصبب عرقا من خجل روحه ، وهو يلق بين الخجل والندم وأصيح

يعانى من التقصير بعد التحصيل ، وهاهو قد دق حلقة باب السماء السابعة فأنى له أن يزعم العلم هناك ؟

حيث تغمض النهاية والبداية لا يدرك أحد رأسا للحياة من قدم ، الفلك مثل كرة ، إن أمضيت عمرك تلهث وراءها لن تجد لها أبدا رأسا ولا قدما ، من يعلم كيف أسير فى هذا الوادى المنكر وكيف اجتازه من قدمى حتى رأسى .

طغت العالم مرات عديدة ولم أر وسيلة ، فصرت لا حيلة لى ، العالم كله يلفه الألم ويحيط به الأسف فإن سنح وقتك فهو سيف أيضا[١٦٠] ، وهذا الفلك أمامى مثل صندوق الساعة لن يترك اللعبة باختياره .

٤ . قصة أمر الدنيا فى نظر مجذوب (٥١٨٤:٥١٩٤)

سأل شخص أحد المجاذيب : كيف ترى أمر الدنيا ؟ فقال : أرى هذه الدنيا المليئة بالآلام والأحزان مثل لوح من الشطرنج ، تزدان صفوفه أحيانا وأحيانا أخرى تختلط ببعضها البعض ، يحملون واحدا من منزله ويقدمون آخر مكانه ، ويجتمعون فى بعض الأحيان على الملك من الأنحاء المختلفة وينحونه بمهانة تامة ، ويستمر الأمر على هذا النحو حتى يفضون هذا اللوح المزخرف .

حياة اللهو واللعب تبعدك عن جادة الطريق وحياة الآخرة تهبك الضياء ، حيث يدرك قلبك الخلاص الأبدى من لعب الزمان ، غرتك حياة اللهو واللعب فانشغلت بالمال والملك والأوامر ، أنت باز فرفرف بجناحيك وطر عن شرك لعب الأطفال هذا .

٥ . قصة أمر الحق فى رأى مجذوب (٥١٩٨٥:٥٢١٠)

سأل شخص أحد المجاذيب : أيها المجذوب ما هو العمل الذى يؤديه الحق ؟ فقال : إن ميدان الحياة مثل لوح الأطفال ، إن كنت قد رأيته ، يكتب الحق فوقه أحيانا ثم يمحوه تماما أحيانا أخرى ، ينظر إليه طوال الحياة ولا عمل له ، سوى الإثبات والمحو .

الغوث من الخلق ، وأواه من الزمان وياويلاه من صورة لوح الأطفال ، الحناء التى تخضب بها النساء أيديهن وإن كانت تمنحهن الجمال ، الأفضل عدم تعلق القلب بها لأنها لا تمكث أكثر من عدة أيام ، فالحناء التى تزول سريعا لا يجمل وضعها على يد ولا على قدم ، والأصباغ التى تصنع من النوشادر يسرى السم منها إلى قلبك وروحك .

إن كانت مباهج الحياة لا حصر لها إلا أنها زائلة مثل الحسناء ، انظر إلى المصطفى خير رجال العالم كيف كان أسلوبه فى الحياة ، وكيف افتخر بالفقر فى الملك وارتدى قباء المسكنة ، ومد مئات الأسمطة بالطعام للجوعى ونصب خيمة عظيمة لملك الفقر ، وأهال التراب فوق ملك الدنيا فغطى الأفلاك بمتاع من التراب ، فتحقق له كمال الملك بالفقر ولا أعلم أى قدرة هذه كانت له .

٦. قصة جهاز فاطمة[١٦١] (٥٢١١:٥٢٦٨)

روى أسامة أن الرسول أمره قائلا : استدع لى أبا بكر وعمر ، وبعد أن جاء أبو بكر وعمر طلب الرسول الزهراء أيضا ، وقال لها : أريد أن تحضرى أمامى كل ما لديك من جهازك ، لأصحبك إلى الحيدر اليوم يا نور عينى ويا بهجة قلبى .

مضت فاطمة ، ثم أخرجت من حجرتها طاحونة يدوية من الحجر ، كما أحضرت قطعة قديمة من الحصير ، مصنوعة من سعف النخيل ومسواكا ، وخفا معطرا ، ومع هذه الأشياء أتت بآنية من الخشب ووسادة من جلد البقر المتين ، وكان معها أيضا ملاءة بها سبع وصلات وقد وضعت جهازها كله ، ووقفت تنتظر .

حمل الرسول سيد البشر الطاحونة فوق كاهله ، ثم رفع أبو بكر الحصير وأمسك عمر بالوسادة ومضى ، عندئذ ألقت فاطمة قرة عين الرسول بالملاءة القديمة على رأسها ، ثم تنعلت الخف وأمسكت بالمسواك فى يدها .

ويروى أسامة : عندئذ أمسكت بالآنية وحملتها فى يدى وسرت فى طريقى ، وعندما وصلت أمام حجرة الحيدر لم أكن أرى شيئا من غزارة الدمع الذى غطى وجهى ، فقال الرسول : أيها الرجل التقى لماذا تبكى بمثل هذه الحرقة ؟ قلت له : يتمزق كبدى وتدمع روحى ، من فقر الزهراء ، أيكون جهاز ابنة سيد العالمين ، على هذا النحو ؟ انظر ماذا يتملك قيصر وكسرى ؟ وماذا يمتلك النبى من دنياه ؟ قال لى : يا أسامة هذا القدر كثير أيضا ، لأن الموت محتم .

لأن قدمك ويدك ووجهك وجسدك وروحك لن تبقى ، فأيقن أن هذا لن يدوم أيضا ، ولأن العروس فلذة كبد الرسول على هذا النحو ، فماذا تتوقع أنت ؟ سمعت ما كان من أمر الرسول ، وأنت تريد أن تجمع الدنيا ، لأن عمل الدنيا هو تجرع دمائك ، فلماذا تجمع ما يثقل كاهلك ؟ لو تحقق لك الكمال مثل الشمس ، فمآله إلى الزوال ، الشمس وإن

كانت تضيء العالم ، وتجلس على عرش السلطنة كل يوم ، إلا أن السماء بوجهها القمرى ، تجعلها تنكس رأسها على الأرض كل ليلة .

لو لم تكن هذه القبة الزرقاء ، لما أصاب أحد اعوجاج ولا حزن ، الفلك محدب من رأسه حتى قدميه ، لن تجد استقامة فى أى ناحية منه ، ولأن الدنيا اكتسبت الاعوجاج منه لن تجد استقامة فيها لحظة ، والفلك دائر على دماء الرجال ، وقد تعلقت حلوق الرجال فى حبل دلوه ، والأرض مرتكزة على ثور ، لكن الفلك لا يهدأ أبدا ، لا أعلم ماذا حدث ، حتى يجرى الفلك ، والثور واقف ، الفلك يهدف إلى روحك ، لأن أقدام ثوره معك ، والأرض قائمة على ثور ، وهى تتربص بك الدوائر ، لأن ثورها دائما ، فى بيدرك .

لماذا تنام طويلا بين الثيران ؟ الق باللباد فوق الثور وامض ، وكأن الأرض قد استقرت فوق ثورها ، وصولجان الأفلاك ، يدرك دوره تباعا ، انظر إلى الأفلاك ، إنها تشبه دين زردشت ، وقد تكاثفت جميعا على قتلك ، ولكن انظر بعين القلب أيها الضال ، لأنك ازددت تعلقا بها ، ولا يوجد سبيل إلى الفلك المعوج ، فإلى متى تتعلق بمثل هذا الحبل ، إن عشقت الفلك طوال عمرك ، فهو مثل الخياط لا يخيط شيئا دون أن يمزقه فى البداية ، هذا القرص النارى أشعل التنور ، ولا تجد فوق خوانه كسرة خبز طيبة .

كيف يمكن لك استخراج الياقوت بمساعدة القمر ، وهو يختفى كل شهر ، من يعلم أية لعبة يدبرها ، هذا الفلك الدوار فى كل لحظة ، أيها الفلك ، إن العمر بضع أيام متفرقة ، فاطوها واطوها واطوها ، ألا تصاب بالحيرة مرة من تجرع الكؤوس المتلاحقة مثل الريح ، إنك لم تفعل عملا طيبا أيها الفاسد ، لذلك تتلمس قوة الأسد لساعديك .

اجعل غطاء رأسك طستا من الدماء ، اسحبه دوما ، والزم الصمت ، لماذا تحتال دائما ، وليس لك من عمل سوى القتل ، الفلك العتيق مثل طفل يبلغ ستة أيام ، يلقى بك من أعلى إلى أسفل على حين غرة ، وأنت أيها البائس الذى تبلغ الستين ، خدعت بهذه الأيام الستة ولا تعلم أنك مثل طفل يبلغ ستة أيام ، وإن هذه الأيام الستة قد حادت بك عن الطريق ، فإن كنت اليوم شيخا واهنا ، لكنك فى القبر طفلا للآخرة .

إلى متى تفتخر بقوة الأسد ، وأنت ضال ، وإن كنت عظيما ، إنك مثل طفل ، لا جسد لك ولا قوة ، قماطك هو كفن مهد قبرك ، صار شعرك كالقطن أيها الفريد ، والزمن سوف يجعلك مثله ، الحياة مثل النار أيها الشيخ العاجز ، وأنت مثل القطن ، والنار والقطن لا يجتمعان أبدا ، لأن النار المستعرة لا تتوافق مع القطن ، فلا تهيم أيها الشيخ حول الشباب .

٧. قصة الشيخ والشابة (٥٢٦٩:٥٢٨٦)

أحضر شيخ فتاة شابة ، ولم يحقق مراده منها ، وظل الشيخ يراودها عن نفسها ، فلم تطاوعه ، وتتآلف معه تآلف الخمر واللبن ، وكان للشيخ الطاعن فى السن رفيق فقال له : أيها المستغرق فى الفكر ، قل لى ماهو حالك مع المرأة ؟ أنت شيخ ، وهى شابة وهذا أمر شائك ، قال أنا يائس منها ، فكلما أردت تقبيلها تقول لى : لا أستسيغ تقبيلك فالقطن يلزم فم الموتى، لماذا تريد تقبيلى كل لحظة وتضع شعرك وهو مثل القطن فى فمى.

اذهب وانزع ، قطن الغفلة من أذنك ، تجد المشيب قد سرى فى رأسك ، وأنت غافل ، إن نزعت القطن من أذنك ، ترى شعرك مثل القطن ، وتجد أن ظهرك قد احدودب مثل القوس من الكبر ، وأن رأسك قد ثقلت مثل السهم من الذنوب ، اطلب اليقظة من الحق قبل الأجل ، وابحث عن اليقظة لأنك تمل بالغفلة .

اترك كل ما تملك مثل الرجال ، فلماذا تكون مثل النساء مع الفلك الدائر ؟ إن وجدت رأسك بين الورود فلماذا تغسلها ؟ إنها لن تسقط بثقلها وسط الطين ، انزع حجاب التراب عن هذا المكان الخرب ، وارتد ثوبا من أثواب الرجال ، حتى تصير خرابة الكفر والأسباب ، معمورة بالدين ، وهذا هو إقبالك ، إن مت مشركا فأواه عليك ، حيث يبكون عليك دما بكل كيانهم ، فالشخص الذى أمضى عمره مؤمناً ، كيف يموت كافراً فى النهاية .

٨. قصة الدرويش وأبى بكر الوراق [١٦٢] (٥٢٨٧:٥٢٩٨)

ذات ليلة رأى أحد العارفين بالله في منامه ، أبا بكر الوراق ، يبكى بحرقة بالغة ، فقال له : يا رجل الدين ، لماذا تبكى بمثل هذه الحرقة ؟ فقال كيف لا أبكى ، ولا أفزع من الردة ؟ اليوم عندما جلست في هذا المكان ، نظرت برهة إلى القبور ، فلم أجد واحدا من كل عشرة دفنوا اليوم ، فاز بالإيمان ، فما أشدها من حرقة ! فكيف يمكن أن يرتد إلى الكفر ، شخص أدى حقوق دينه لمدة سبعين عاما ، والآن بكائي وانتحابي لهذا السبب ، ماذا أقول فعملي اليوم هو هذا .

يا عزيزي إن الأمر صعب ، ولكن الناس غافلون ، كل من يرهب سوء العاقبة يتسلل إلى قلبه فى كل لحظة وجل آخر ، فيبقى بين الكفر والإيمان من الخوف ، فلا يسمى نفسه كافرا ولا مسلما ، يجلس بين الكفر والدين بائسا ، حتى يتضح هذا الأمر فى النهاية [١٦٣].

٩. قصة الشيخ والقبر (٥٢٩٩:٥٣١٧)

عندما حانت منية أحد الشيوخ ، وكان قد تجاوز الستين من عمره ويناهز السبعين ، قال له شخص : أيها الذاهب إلى العالم الآخر ، أين أدفنك ؟ حدد لي مكاناً ، فقال : أنا مضطرب الإيمان ، ولا أريد أن أدفن بين المسلمين ، لأنني ليس لي نور المسلمين ، فأي شأن لي بقبور أصحاب الدين ، ولا أريد أيضا أن أجاور اليهود ، لأن الرسول قد تحاشاهم ، وليكن قبري بين هذه وتلك ، فأنا لست من هؤلاء ولا من أولئك ، ليست لي مكانة في الإسلام ، ولا في اليهودية أيضاً .

مثل هذا الرجل يجب أن يكون بين هذا وذاك ، حتى تتضح مكانته ، وأنت لم تتقدم خطوة في هذا السبيل ، فأين كنت طوال ذلك الوقت ؟ ، ليس لك عمل هنا عملك هناك ، فهناك تتغلب على عقبات كثيرة ، فليس ثمة عقبات أمامك هناك ، حيث لا سبيل للفكر أبداً ، إنني أخشى من هذا الوادي الوعر الذي لا نهاية له ، وأخافه للغاية .

في ذلك الوادي حيث تشعر الروح بالوجل ، ويليق بالروح أن تدمي ، وحيث يموج بحر داخل الروح ، لا بداية له ولا نهاية ، وقد تدمى آلاف الأرواح في هذا السبيل ، ولكن لا يعلم أحد عنها شيئاً ، فمن يعرف وكل قلب مثل سراج ، يرسل إشاراته إلى رأس صاحبه ، في كل لحظة تتزايد أحزاننا ، من ذلك الطريق الذي ينتظرنا ، ومصباح نور الإيمان على قارعة الطريق ، فماذا تفعل إن خبا نوره فجأة .

١٠ ـ قصة سفيان الثوري[١٦٤] (٥٣١٨ - ٥٣٤٥)

عندما كان سفيان الثوري شاباً ، احدودب ظهره وصار مثل القوس ، فقال له شخص : يا إمام الآخرة ، لماذا أحدودب ظهرك في شبابك ؟، إنك ما زلت شاباً ، على هذا الحدب ، وتحدب ظهرك على هذا النحو ، ليس جائزاً الآن ، ماذا حدث ؟ اشرح لنا الأمر ، ووضحه لنا ، وبينه ، وأخبرنا به ، فقال سفيان :

كان لنا أستاذ ، دائب السعي والعمل في الطريق ، وعندما حان أجله ، ذهبت إلى فراشه ، فرأيته بائساً ، يعاني من اضطراب شديد ، وتموج الدماء داخله كموج البحر ، وروحه وقلبه يضطرمان فوق نار الخوف ، وفوق كل هدب من أهدابه مئآت من قطرات الدمع ، ترتعد روحه داخل جسده المرتعش مثل الورقة ، ويمتلئ قلبه باليأس أمام الموت ، قلت له: أيها الشيخ ما هذه الحال ؟ ، قال : الأيمان في زوال ، أدميت قلبي مدة خمسين عاماً ، و

الآن وقد سلط علي سيف الموت ، جاءني هاتف : إنك مرفوض لدينا ، فابتعد عن هذا الباب لأنك غير جدير بنا .

وعندما سمعت هذا منه محوت وجودي ، فخرج صوت تكسر العظام من ظهري ، وما أن قال تلك الكلمات آنذاك ، حتى صار ظهري على هذه الصورة ، على هذا النحو كان نصيب أستاذي ، فكيف لتلميذه أن يأمل في دينه ؟ و عندما بدت لي نهاية أستاذي ، نفضت يدي من تلمذتي عليه .

لا أعلم كيف تتحقق الحرية للمصباح الكائن في مهب الريح ، فالسراج الذي تتخاطفه الرياح ، اعتبره كأنه لم يكن ، ومصباح روحك قد خمد فجأة ، ولن تجد سبيلاً إليه ، ومهما بحثت واجتهدت لن تجد له أثرا قط ، فلا تقم مأتماً للمصباح المطفأ ، ولا تتأسف على قلبك المفعم بالأحزان .

مرحى للكلب البعيد عن الحزن ، بينما ابن آدم هذا مسكين ، إن لم يكن هناك سبب ينتظر الإنسان ، لما حزن أحد عليه ، عش بالعلم مرة واحدة ، ومت عن الخليفة الدنيوية ، ونقب عن وادي الصامتين هذا ، وإن علمت عنهم شيئاً فاقتد بهم ، اليهودي الذي سلك الطريق ، ، وجد سبيله إلى خوان المصطفى ، إن حدث لك أيضاً هذا الأمر بسرعة ، فلست أقل من اليهودي في هذا المعنى .

١١ ــ قصة إسلام يهودي (٥٣٤٦ - ٥٣٩٩)

عندما كان أحد الشيوخ المعمرين في الشام ، يقرأ في التوراة ، ويصل إلى اسم الرسول ، كان يمحوه أو يمزق الورقة ، وفي اليوم التالي يفتح المصحف ، فيجد اسم الرسول مكتوباً ، فيبدأ في محوه مرة أخرى ، وفي اليوم التالي يجده ثانية ، وذات يوم ، انقبض صدر الرجل وقال في سريرته : لا أستطيع إخفاء الشمس بالطين ، ربما يكون هذا الزعيم الذي ظهر على حق ، فيجب الذهاب الى المدينة ، كان قلبه يهدر مثل البحر شوقاً إليه ، لكنه كان يخفي شوقه كما يخفي الجبل جوهره ، أحضر ناقة ومضى ، وجاء إلى المدينة مباشرة ، وصل المدينة وقت الظهيرة ، وهو لا يعرف طرقها ولا دروبها ، وعندما وصل أمام مسجد الرسول ، ظهر أنس فجأة ، فقال الشيخ لأنس : أيها الجوهر الطاهر دلني على الرسول ، قاده أنس وهو يبكي إلى داخل المسجد ، وشاهد اليهودى الجميع وقد لفهم الحزن وشملتهم الحيرة ، ورأى الصديق وهو يجلس فى المحراب مطرقاً حزيناً ، والصحابة يلتفون حوله .

فاعتقد ذلك الرجل الهرم ، أن الصديق هو الرسول ، فقال له : يا رسول الحضرة المختار، بقرئك السلام هذا الشيخ الضال ، وعندما سمع القوم اسم الرسول ، أخذوا يتخبطون مثل طائر مذبوح ، وانهمرت الدموع كالمطر من الأعين ، ما أغزره من طوفان فجره الصحابة ! وتعالت الصرخات من وسط القوم ، كأنما ظهرت مائة شمعة من كل قلب .

لم يحرك الغريب ساكناً ، بينما كان قلبه يموج بالألم ، من شدة حزنهم ، وقال لهم : إنني رجل غريب ، يهودي ولا معرفة لي بشريعتكم ، ربما نطقت بشيء غير لائق ، كان يجب ألا انطق به ، وإلا فلماذا إذاً تبكون بهذه الحرقة ؟؟ ، إنني لا أعرف مراسم دينكم ، فقال له عمر : ليس هذا البكاء ، لأنك أسأت بشيء ، ولكن اليوم هو اليوم السابع أيها الرجل البائس ، لرحيل الرسول عن الدنيا ، وعندما سمعنا اسمه جرى على لسانك ، جرحت كل القلوب من الحزن مثل روحك ، فنحن ننصهر أحيانا شوقاً إليه ، وتتجمد أطرافنا أحياناً أخرى لفراقه ، وأسفاه على الشمس المضيئة للعالم ! وقد صرنا ذرة بدونه اليوم، واويلاه على ذلك البحر الأعظم ، الذي أصبحنا بدونه أقل من قطرة !

عندما اتضح الأمر للشيخ ، مزق ثوبه حسرةً عليه ،وأراق من عينيه أمطاراً غزيرة ، تشبه ما يمطره السحاب في فصل الربيع ، وتجدد مأتم الأرواح الملتاعة ذلك اليوم ، وترددت بين جنبات المسجد واشوقاه وواويلاه ، الحاصل ، عندما هدأت حدة الانفعال ، وحكم العقل ، وتوارى إندفاع القلب ، قال اليهودي : حققوا لي أمنية ، واحضروا لي ثوباً من أثواب الرسول ، فإن لم يتحقق لي رؤية وجهه ، أستطيع أن أشم رائحته ولو مرة واحدة ، فقال له عمر : يمكن طلب الثوب ، ولكن يجب الاستئذان من فاطمة ، فقال علي : من يستطيع الدخول إليها ؟ ، لقد أغلقت الباب على نفسها ، وتخلي بنفسها ، طوال هذا الأسبوع ، فحسرتها تفوق الجميع ، وهي لا تفصح بشيء عن حزنها ، ولا تستريح لحظة واحدة من لوعتها .

فتوجه الصحابة جميعاً في تلك المحنة وذلك الحزن ، إلى سيدة نساء الجنة ، وما أن دق أحدهم الباب حتى رد صوت ، لقد ذهب يومنا وحل ليلنا ، من يدق الباب على يتيمة مثلي ، جالسة فوق كئيب ممزق ؟ من يقرع الباب على أسيرة مثلي ، قابعة فوق حصير قديم ؟ من يدق الباب على حزينة مثلي ، وقد فتح الموت كميناً لروحي ؟

فقصوا عليها القصة كلها ، فقالت لقد صدق الرسول ، ففي تلك الساعة التي كان يسلم فيها روحه إلى الحق ، أخبرني همساً بهذه الحال قائلاً : سيأتي عاشق لنا من الطريق ،

لكن ذلك التقي لن يرى وجهي ، اعطه هذا المرقع فهذا كاف له ، وابلغيه سلامنا بإخلاص .

وعندما سلموه المرقع ارتداه ، وما أن تسللت رائحته إلى مشامه حتى استبد به الحال ، فقد أدرك رائحة صدقه ، وأسلم وطلب الذهاب إلى قبر المصطفى ، فصحبوه من هناك الى القبر ، فاضطرم قلبه ، وقبع ذلك الطاهر هناك ، إلا أن الوجد استبد به من ثرى المصطفى العاطر ، فسقط وفاضت روحه الطاهرة ، أسلم ذلك الشيخ الحزين الروح بذلة ، ووجهه فوق قبر الرسول ، وأنت إن كنت عاشقاً فاسلك على هذا النحو فى المذهب ، ومت هكذا مثل الشمع شوقاً إلى المعشوق .

المقالة الثامنة عشر (٥٤٠٠ - ٥٦٨٣)

قال الولد لأبيه : لان الخاتم عزيز المنال ، فاشرح لي كنهه ، ليسعد قلبي بمعرفته ، وإن لم يتحقق لي الفوز به .

إجابة الأب

فض الأب الخاتم عن حقة اللعل ، فتناثرت اللآلئ ، وروى هذه القصة .

١. قصة بلقيا وعفان[١٦٥] (٥٤٠٥ - ٥٤٢٨)

ذهب بلقيا يصحبه عفان ، من أجل الحصول على خاتم سليمان ، من غار يقع وسط البحار السبعة ، والطريق إليه غاية فى المشقة ، وفى الطريق ظهرت لهما جنية على هيئة حية ، تحدثت إلى عفان قائلة :

إن جمعت ماء الأغصان فى المكان الفلانى ، ومسحت به على قدميك ، تجرى فوق سطح الماء ، كعداء فى الصحراء ، فتوجه الرفيقان إلى ذلك المكان ، ومسحا بالماء على أقدامهما ، فانطلقا فوق سطح الماء ، مثل السهم ، وفى النهاية تحقق للشغوفين مرادهما ، ووصلا إلى البحار السبعة .

وهناك ظهر لهما غار هائل ، يفوق الجبل رفعة وهيبة ، وهذان الرفيقان وإن كانا صديقين ، إلا أنهما لم يكنا رفاق غار ، وكان يرجد أمام الغار لوح ممدود ، ينام فوقه شاب فى سعادة وهناء ، يضع فى إحدى أصابعه خاتما ، حجمه أكبر من المشترى ، وتحت اللوح حيات نائمة ، وقد تجمعت فى دائرة بحيث أصبحت خافية .

وبمجرد أن رآهما الشاب استيقظ ، وتنفس فى الحال فنثر النيران ، فخاف عفان من صوته ، فقد وضح أذاه ، وقال لرفيقه : لا تتقدم ، ولا تنخدع ، احترس ، وفكر فى حياتك ، ولا تقامر بها بسبب حب سليمان ، فإن مت ماذا تفعل بملكة ؟ لم يتعظ بلقيا بكلام عفان ، وانطلق أمام عرش سلطان الأنام .

وعندما هم بنزع الخاتم ، تحول الخاتم إلى ثعبان أسود ، ففزع عفان من الخوف ، وعندئذ أدرك أنه علم بالسر ، وجاءه هاتف من حضرة الإيمان : إن لزمك ملك سليمان ، اقنع فذلك هو الملك الخالد ، الذى يحويه قرص الشمس تحت ظلاله ، وسليمان كان يحفظ مثل ذلك الملك ، بقوة القناعة .

٢ . قصة سليمان[١٦٦] (٥٤٢٩ : ٥٤٤٧)

ذات يوم ، كان سليمان فى الطريق مع جنده ، فوق بساط الريح ، وفجأة خال الملك فى خاطره فقال : أى الملوك مثلى فى العالم اليوم ، فاهتزت ناحية من البساط بشدة ، وفى الحال تحدث سليمان مع الريح قائلا : أيتها الريح لماذا فعلت هذا بالبساط ، بمن كنت ستلقين على الأرض ؟ فقالت : لست أنا المذنبة يا سليمان ، ابعد عن قلبك هذه الفكرة ، لدى أمر من الحضرة يقول : عندما يحفظ سليمان قلبه ، احفظى بساطه ، وإذا لم يحفظ ، لا تطيعى أمره ، ولأنك فكرت لحظة فى الملك ، زل طرف من بساطك عن مكانه .

يجب أن تتصف بالقناعة دائما ، حتى لا يزول عنك الملك ، لأن لب الملك ومكنته ، لن يتحققا بشئ سوى القناعة ، والفقر أساس القناعة ، فأنت ملك إن افتخرت بفقرك ، وإن أردت ملك العالم أيضا ، فلا تتكبر ، واقنع فى الحياة .

والقناعة هى الخاتم الذى امتلكه سليمان ، وعن طريقه امتلك العالم ، ذلك الملك كان له قوة النار المضطرمة ، بحيث جعل إبراهيم الخواص[١٦٧] يقنع بصناعة السلال ، ومملكة الشمس عظيمة ، لأنها اكتفت بقرص واحد من الآفاق كلها ، وملك القمر ذو مهابة واحترام ، لأنه سعد بوجهه فقط ، إن خطواتك تتعثر ، فعما تبحث ؟ الملك حيثما وجد ، ملكه هو ، فماذا تريد ؟ إن لم تفز بمُلك ، فأنت مَلك العالم ، وهلاك روحك يظهر كل لحظة من هذا الشؤم (الملك) .

٣ . قصة المأمون والغلام[١٦٨] (٥٤٤٨ : ٥٤٨٨)

كان للخليفة المأمون غلام ، جمع بين الفنون والطرائف ، جماله يشبه الشمس فى حسنها ، وقد تاق للناس جميعا إلى وصاله ، ولثنية طرته شرك عنبرى ، وكأنها استولت على الهند

بأسرها بين ثنايا ، نعم ، فلو لم تكن طرته تمتلئ بالثنايا ، لما كان نثارها نافحة المسك ، وماذا أقول عن حاجبه الذى يشبه القوس ، فقد كان قوسا لطرة معشوقة .

وأراد المأمون منذ زمن طويل ، أن يختبر مكنون قلبه ،وأن يتأكد هل عقله قائم على عهده ؟.

وحدث أن جاء قوم ذات يوم من البصرة إلى بغداد ، بقلوب مفعمة بالألم والاحتراق قائلين : لينصفنا أمير المؤمنين ، إننا نستغيث من أمير البصرة ، لقد تحملنا مظالم عديدة ارتكبها ، لم نر أو نسمع من قبل عن مثلها ، وإن لم تقتص لنا منه ، فسوف نثور عليه .

أمرهم المأمون بخفية : أن اختاروا غلامى هذا الآن ، ربما قبل تقلد هذ الإمارة فيعينكم على أمركم ، عندئذ طلب القوم من الملك : أن اجعل هذا الغلام ملكا علينا ، فسوف نرضى جميعا بحكمه ، ونتخلص من ظلم ذلك الأمير .

عندئذ نظر المأمون إلى غلامه ، ليرى مدى التزامه، وقال المأمون لغلامه :ماذا تقول فى هذا المنصب الآن ؟ إن قبلت التوجه إلى تلك الناحية ، سأكتب لك فرمانا فى الحال . فوقف الغلام صامتا ، وقلبه يتمزق شوقا لإمارة البصرة .

عندئذ قال المأمون ، لقد اتضح لى ادعاءه .وفى الحال ، وفى مكان قصى ، كتب إلى عامله رسالة بيديه : عندما يصل غلامى إلى هناك ، ومعه رسالة باسمى ، يجب أن تزين المدينة والأحياء والسوق ، وكل أنحاء البصرة ، ثم يحضر شراب الورد وبه سُم ، ويقدم له ، وبعد ذلك يحمل إلى الطريق ، ويسحل فى كل ناحية ، وينادى المنادى : إن كل من يفضل المُلك على المال ، جزاؤه أسوأ من هذا مائة ألف مرة .

وأنت خلقك الحق من أجل نفسه ، وأوجدك لترجو قربه ، ولا يدعك تموت جاهلا ، بعد وهبت الحياة لهدف آخر ، وإن تركك تزل ، فقد وضع لك الصباغ فى رحلك فى الخفاء ، لماذا يثقل عليك هذا الذهاب ، إن رب العالم يقول : إن تتسرع إلى ربك خلا ؛ أحضر لاستقبالك جاريا [١٦٩] ، الله يناديك ، وأنت غافل ، فلماذا تظل على هذا النحو أيها الضال ؟ يارجل الحضرة إنك لست أقل من البعير ، التى تتعقب نداء الحداء .

٤ . قصة الأصمعى[١٧٠] والزنجى (٥٤٨٩ : ٥٥٢٤)

هكذا روى الشيخ الفريد ، الأصمعى : ذات ليلة توجهت إلى البادية ، وفى اليوم التالى استضافنى شخص كريم ، وهناك رأيت غلاما زنجيا ملتاعا ، مقرنا فى الأصفاد والقيود ، يئن وينتحب بصوت خفيض ، وقد ضاق قلبه فصار مثل عين نملة ، وتأججت نار قلبه ،

فأتت على وجوده ، فسألت الزنجى الجريح ، لماذا كبلت على هذا النحو بالقيود ؟ فقال لى : لقد ارتكبت ذنبا ، أحبس وأعذب من أجله ، وللضيف عند سيدى حق ، لا يستطيع أن يرده ، ويمكنك أن تطلب منه الآن ، أن يعفو عنى من أجل حق الضيافة .

وعندما مدوا السماط وجلس السيد ، لم يمد الأصمعى يده إلى الطعام ، فسأله الرجل الفاضل : لماذا تعزف عن تناول الطعام ؟ فقال له الأصمعى : يعزف قلبى عن الطعام ، من ضيقه لحال الزنجى ، ولا أستطيع أن أتناول طعامى بدماء قلبى ، فإن عفوت عنه أتناول الطعام ، قال المضيف للأصمعى : لتحترق روح الزنجى ، لقد أصاب قلبى بجرح غائر ، ماذا أقول فذنبه عظيم ، قال الأصمعى : ما هو الإثم الذى ارتكبه ؟ قل لى ، فأخذ الأعرابى يروى :

كان هذا الزنجى السيئ الطوية يتقدم أربعمائة من الإبل القوية ، وكلها محملة بالأثقال وقت الظهيرة ، كان يسوقها بسرعة فائقة فى الطريق ويحدوها فتطرب له ، حتى سار بتلك الجمال على هذا النحو من القسوة ، مسافة عشرة منازل دون زاد ولا ماء ، والزنجى عذب الصوت يغنى لها بحرقة ، ويسرع بالجمال فى الطريق ، وظل يواصل الحُداء ، والجمال تملى من اللذة ، وعندما طووا مثل ذلك الطريق فى عناء بالغ واعتساف ، نفق الأربعمائة جميعا هناك ، كان يغنى للجمال المحملة بالأثقال ، حتى نفقت من العطش ، أربعمائة جمل نفقت كلها من نداء واحد ، ولا يمكن أن أوضح لك مدى لوعتى عليها .

وأنت يا بنى أقل من الحيوان فى تحمل هذا الطريق ، فكيف اعتبرك من رجال الطريق ، إن كان الغلام حداء للجمال ، فالنداء متواتر لك من الحق ، إن الحيوان ضحى بروحه تحت أحمال العشق ، الذى توسمه فى الغناء ، والرسالة متواترة لك من الحق ، وتكون فى النهاية أقل من الحيوان ؟ لقد خلقك الله من أجل نفسه ، واشترى منك نفسك وأموالك أيضا[١٧١] ، وأنت مشغول بوجودك ، وتفوقت على الشيطان بسبب أنانيتك ، منحك الحق مئآت الكنوز من الوجود ، وأنت تتقاسمها مع الشيطان من مُلكك .

الله يناديك دائما ، وأنت تقتفى أثر الشيطان ، الله مطلع على كل أفعالك ذرة ذرة ، وأنت الذى تشبه الذرة ، تتشبث بأهوائك ، أفسدت عمرك الطويل ، ولم تعرف قدره لحظة ، ولكن صبرا ، ففجأة ، تسقط الحجب من أمامك فى الطريق ، وعندما تتضح فضيحتك أمامك ، تحرق نار الخجل روحك .

٥. قصة جبريل مع يوسف (٥٥٢٥ : ٥٥٤٧)

عندما ألقوا بيوسف في غيابة الجب ، نزل عليه جبريل من سدرة المنتهى في الحال قائلا :

لينشرح قلبك في محنتك هذه ، فسوف تنجو من البئر ، وسوف يخلصك الحق تعالى من الحزن ، ويمنحك ملك مصر ، ويزين رأسك بتاج من العزة ، ويجتمع المصريون على بابك ، وتدين لك الدنيا ، وترعى في كنفك الكثيرين ، ويأتي إليك بإخوتك العشرة ، في ذلة لكسب العيش ، فقل لي الآن ، هنا في هذا البئر ، عندما يقع بصرك عليهم ، هل ستلقي بهم في السجن ؟ أم تشنقهم ؟ أم تهيئ أمرا لقتلهم ، أم تجرى دماء كل واحد منهم ، بالعصا والسوط .

عندئذ قال يوسف لجبريل ، عندما يأتون استدعيهم بسرعة ، ولا أتحدث معهم لا عن البيع ولا عن البئر ، ثم أزيح النقاب عن وجهي ، فإن انحنوا أمامي ، ما أقوله هو هل علمتم ما فعلتم [١٧٢] ؟ ألا تندمون ، على أنزلتموه بيوسف من آلام ، إن نصب هذا الشرك كاف لهم ، وهو عذاب قاس لهم ، فإن كانت قلوبهم قد تحجرت ، فقد تتمزق مما سيلم بهم من خجل .

وأنت إن لم تفكر في مصيرك ، فقلبك ميت ، لأن الإحساس بالمعاناة والألم من خصائص الإنسان الحي ، وأنت حديث العهد ، لن يفيدك هذا الحديث ، فالنار لا تضطرم إلا مع الاشتعال ، فاحترق ليل نهار مثل الشمع ، فالنار تظهر الضياء ، إنك لم تر أي خير في الأغيار ، فلماذا تنشغل بهم ، لأن أمرك متعلق بنفسك دائما ، فسافر داخل نفسك ، بعيدا عن وجودك ، فإن طفت لحظة داخلها ، كأنما طفت في العالم بمائة قلب ، وهل رؤية غيب واحد داخل نفسك ، أفضل لك من رؤية مئآت الأنوار من غيب الغيب ؟

٦. قصة الشيخ خالو السرخسي [١٧٣] (٥٥٤٨ : ٥٥٧٧)

كان شيخ سرخسي اسمه خالو على صلة وثيقة بالخضر ، وكان هناك شاب في مقتبل العمر ، غض ، نقي السريرة ، يفيض قلبه بنور الحق ، ويمضي جل وقته في ذكره ، وذات مرة عندما كان الخضر ذاهبا إلى الشيخ الدرويش ، اصطحب الشاب معه ، وما أن جلس الشاب حتى قال له الشيخ ، على سبيل التعارف : أيها الشاب ماذا تفعل ؟ ، فرد الشاب : من هو الشاب هنا ؟ فقد انقضت الآن عشر سنوات متصلة ، وأنا لا أعلم شيئا عن عقلي ولا عن جلدي للحظة واحدة ، بسبب التفكير في الحبيب .

وعندما سمع الشيخ العالم هذا الكلام ، قال للشاب : أيها الشاب الهمام ، الواصل ، إن تفكيرى فيه محال ، والذى أعلمه أنه مضت الآن ستون سنة ، وأنا دائم التفكير فى عيوب نفسى ، بحيث لم أبتعد لحظة عنها ، ولأننى أرى نفسى ممتلئة بالعيوب والنقائص ، فكيف أرى الغيب فى نجاستى ، إن جمل هذا بى أو لم يجمل ، فهو لا يحتمل لحظة من عارى ، لو أتبرز من جراء طبيعتى النتنة ، هل يجوز أن يظهر لى الحبيب ؟ فمع مثل هذه الجيفة ، لا يتحقق إقبال لهذا الأمر .

إن لزمك الطهر ، تطهر ، وإلا تجرع الدماء ، والزم التراب ، ماذا ستفعل فى النهاية بهذه الرئاسة ؟ إنك مثل شمس تشرق فى نجاسة ، تطهر أولا ثم انظر ، ولا تسلك الطريق بالجهل واحذر البئر ، الشخص الذى تكتنفه النجاسة ، يبحث عن قربة ماء ، ويتلمس الجفاف وسط بحر التراب .

فأثر هذا الكلام فى قلب الشاب للغاية ، وبدا وكأن روحه قد فارقته من الخجل ، فارتعد، وصرخ ، وسقط ، وتغير حاله بدرجة لا يمكن وصفها ، فقال الخضر للشيخ : أيها الشيخ التقى ، لا تضربه بهذا السيف البائر ، فهذا أمر الواصلين ، ولا يدركه الشباب الغض .

يجب إدراك السكر دون شك ، ويمكن اعطاء القوس حسب قوة الساعد ، أنت الآن ثمل بجاذبية العشق ، تثمل حينا ، وتزهو حينا آخر ، يلزمك خمر خاص أيها المخمور ، حتى يخلصك من وجودك تماما ، كل ما يبعدك عن نفسك ، يكون خمرا وليس نبيذا ، إن علمت الفناء من السكر ، تكن قد وقفت على حجاب الأسرار ، فعندما يستبد السكر بشخص ، يعرف أنه أدرك الفناء لا السكر ، ولأنك لا تعرف الفناء من السكر ، فلا تفتخر بالفناء وأنت ثمل .

٧. قصة يحيى بن معاذ (١٧٤) وأبى يزيد (٥٥٧٨ : ٥٥٩٢)

وصلت رسالة من يحيى بن معاذ شمع الإسلام ، إلى الشيخ البسطامى يقول فيها : ماذا يقول شيخ الدين فى ذلك الشخص ، الذى شرب شربة طاهرة ومقدسة ، فاستولى الخمار على رأسه ، لمدة ثلاثين عاما ليل نهار ، فوصله الرد من أبى يزيد ، يوجد هنا رجل شرب كثيرا ، شرب البحر والأرض والعرش والكرسى دفعة واحدة ، فعما تسأله ، وهو إلى الآن يصيح هل من مزيد ، وإن كنت لا تعرفه فهو أبو يزيد .

وأنت لماذا لم تتجرع الخمر ، وأضعته ، جئت متيقظا ، وتذهب ثملا ، إنك تبدو مسكينا للغاية ، فقد ثملت من كأس فارغة ، والحياة زاخرة بآلاف البحار ، وكلها مملوءة للخاصة من الأرواح ، وحيث يمكن هنا السكر من قطرة واحدة ، كيف يمكن تجرع البحر بأكمله ، إن كنت ثملا بعشق مبهج للقلب ، فمت تبعا للأمر واحترق ، وإلا فسكرك مثل ثمل المخمورين ، وأى شأن للثملى بالسلوك ، سر وفق الشريعة إن كنت صاحب مقام ، فإن ثملت لن تستطيع الخطو ، فكل عاشق لا يسير وفق الشرع ، وتجتاحه الآلام ، لا دواء له .

ماذا أقول لك يالك من معاند ، فأنت فى العشق ، لست رجلا ولا امرأة ، فى هذا المجلس ، لا تسع إلى الموت ، إلا بقلب محترق له موات الشمع ، يسلبك وجودك ، فلا يستقيم العشق مع العافية أبدا .

٩ . قصة السلطان محمود والمشعوذ (٥٦٣٨ : ٥٦٤٥)

كان محمود يسير فى طريقه تحيط به مظاهر الملك ، عندما صادف فى طريقه أحد المشعوذين : فقال له الملك : أيها المحتال القاطع للطريق ، أراك وقد جلست هنا ، على الأرض وسط الطريق ، تمارس الشعوذة أمام الملك ، فقال له الرجل : يا ملك العالم ، اذهب لشأنك ، ماذا تريد من هذا العمل ؟ لن تتلازم الشعوذة مع الطبل والعلم ، تلازم الفراشة والشمع .

فتجرد واحترف هذه الحرفة ، وإلا فلتظل كما أنت ، ففى هذا المنزل حيث لا يجد شخص قلبه ولا روحه ، يمكن إدراك الكمال من العشق .

١٠ . قصة أبى سعيد ولاعب القمار (٥٦٤٦ : ٥٦٦١)

توجه الشيخ مهنه إلى الصحراء فجأة ، فصادف فى طريقه مجموعة من الشباب الغض ، كانوا يسيرون معا ، على نمط واحد ، وقد ربط كل منهم إزارا من الجلد حول قدمه ، وحملوا واحدا منهم ، على أعناقهم بسرور ، والتف حولهم كثير من الدهماء ، فسأل شيخ الزمان ، من يكون هذا الرجل ؟ فقالوا :

هذا الفريد هو أمير المقامرين ، وهو خبير فى حرفته ، فسأله الشيخ وضاء العالم ، من أى شئ حصلت على هذه الإمارة اليوم ؟ فأجابه العربيد الذى لا يؤدى الصلاة : لقد اكتسبتها من العشق ، فأطلق الشيخ صيحة عالية وقال : أتعلم من ذا الذى يتحقق له سر العشق ؟ إنه أمير ، وصاحب سيادة فى الحياة ، فالعشق لايمكن الإمساك به إنه بلاء

فجائى ، وكل الأسود الذين سلكوا الطريق ، كانوا ثعالب فى دنيا العشق ، فاتجه إليها ، وانظر جيدا ، واحترس ، فهنا يمطر البلاء فاحذر .

إن امتلكت رأسا ، جدبها ، وأسلم جسدك لفناء روحك ، فيسلم لك هذا المذهب ، وإلا فأنت ناقص ولا صلاة لك ، إن عملت مثل رجال الطريق ، فلا تحمل معك إبرة كعيسى ، وإن لم تحمل معك سوى إبرة[١٧٧] فهذه الإبرة هى حجابك ، لا أكثر ولا أقل.

١١ . قصة المجنون وليلى (٥٦٦٢ : ٥٦٨٣)

سنحت الفرصة للمجنون ذات يوم ، وتحققت له مجالسة ليلى ، فرجته ليلى قائلة : أيها العاشق ، تحدث عن مكنون قلبك ، فتحدث المجنون وقال : أيتها الشبيهة بالقمر ، فى عشقك لم يعد لى بحر ولا بتر ، ولم يعد لكبدى طاقة على الاحتمال ، وجفانى الكرى أثناء الليل ، ولأن عشقك ذهب بصوابى ، لم يبق لى الآن سوى روحى ، وهى رهن إشارتك ، فإن أردت روحى ، هاهى امنحها لك ، أيقنى أننى سوف أمنحها لك ، فتحدثت ليلى بشجاعة : كيف أمتلك روحك ؟ احضر لى شيئا آخر ، فأعطى المجنون إبرة لليلى قائلا : هذا هو الشئ الوحيد الذى امتلكه من الكونين الآن ، هى أملاكى فى إقليم الوجود بأسره ، وليس لى سواها سوى العوز ، لقد احتفظت بها ، لأننى كنت كثيرا ما أسقط فى الصحراء ، حيث كنت أهيم لأبحث عنك أيتها المحبوبة ، فيصيبنى الشوك فى قدمى مثل الورد ، فكنت أخرج الشوك من قدمى ، بهذه الإبرة وأنا واقع فى الطريق .

عندئذ قالت ليلى للمجنون : كنت أريد أن أختبرك ، وقد تحقق هذا لى الآن ، لو كنت صادقا فى العشق ، لما احتجت إلى هذه الإبرة ، وإن كنت تهيم على وجهك من أجل حسناء مثلى ، ويدخل فى قدميك شوك أيها الولهان ، فإخراجه بإبرة ليس جائزا ، فإن تخرجه تخالف بذلك شرط الوفاء ، فالشوكة الواحدة هى كمال لا حد له ، وهى المرشد الدائم لطريق الوصال ، ونزعها بإبرة شئ مؤسف .

وويل للعاشق إن لم يحترق ، وعندما تصاب قدماك بشوك من أجلنا ، اعتبره وردة داخل قبائك ، وتعلم قليلا من شجرة الورد فى هذا السبيل ، فهى تنبت الشوك عاما كاملا على أمل طرح الورد ، ودخول الشوك فى قدميك بسبب ليلى ، أفضل من مائة وردة تمسك بها فى يديك من الأغيار .

المقالة التاسعة عشرة (٥٦٨٤ : ٥٩٣٣)

الولد السادس

تقدم الولد السادس بقلب مفعم بالأسرار ، والدرر تتساقط من ماس لسانه ، وقال لأبيه : ما أريده دائما ، أن تكون حرفتى صناعة الكيمياء ، فلو وجدت سبيلى إليها ، يصبح لى طلاب كثيرون فيها ، وإن أدرك هذه السعادة يتحقق لى الدين ، لأنه عندما تتيسر الكيمياء يتحقق الدين ، فأشع الأمن على الدنيا من ذاتى ، وأحول الفقراء إلى أغنياء بنفسى .

إجابة الأب (٥٦٩١ : ٥٦٩٦)

قال له الأب : لقد غلبك الحرص ، لذلك رغب قلبك فى تعلم الكيمياء ، ماذا ستجنى بها لدنيا البلاء ، ولدار المكر ومقر العداء ، الدنيا عجوز ذات سبع سماوات ، سلطت سماواتها السبع من أجل صيدك وقنصك ، ولا أراها استراحت من حرصك ، فاسترح وأنت مثل طائر وقع فى الشرك ، وغذاء طائر الحرص هو التراب ، وشبعه الخالد منه .

١ . قصة حيوان حريص (٥٦٩٧ : ٥٧١٢)

روى عطاء الخراسانى ، أنه يوجد حيوان يماثل فى قوته مائة جبل ، يعيش خلف جبل قاف ، ويستقر هناك ، حيوان قوى وضخم وهلوع ، لا عمل له إلا التهام الطعام ، أمامه سبع صحراوات مليئة بالأعشاب ، وخلفه سبعة بحار ممتدة ، يجئ كل صباح فى وقت محدد ، ويأتى على أعشاب السبع صحراوات ، وعندما يجرد الصحراوات السبع ، يشرب البحار السبعة دفعة واحدة ، وبعد أن ينتهى من تناول الطعام ، لا يغمض له جفن لحظة واحدة ليلا ، تراوده المخاوف والأفكار متسائلا : ماذا سألتهم غدا ؟ ، لقد أتيت على الموجود كله ، فماذا سأفعل غدا ؟ وفى اليوم التالى ، يعمر الله المكان من أجله ، ينبت له الصحراء ، ويملأ البحار مرة أخرى .

لأن حرص الإنسان شديد للغاية ، أسماه الحق تعالى هلوعا[١٧٨] ، إن ذرة من النيران المضطرمة ، إذا ما أمسكت بحطب تشتعل وتقوى ، وإن كان لديك ذرة من الحرص اليوم ، فمصيرك فى النهاية الاحتراق بها ، وإن تحققت لك المعرفة الكاملة ، لصببت الماء فوق النار المتأججة ، وإلا فأنت لا صاحب صحو ولا صاحب سكر ، وسوف تخلد فى عبادة النار ، وإن كان لديك قدر شعيرة من الحرام ، ينتظرك عذاب خالد جزاء هذه الشعيرة .

٢ . قصة عيسى (٥٧١٣ : ٥٧٤١)

كان روح الله ، الشمع البهيج ، يمر بالقرب من المقابر ذات يوم ، فتزامى إلى مسامعه صوت آهات مكتومة يصدر من أحد القبور ، تأججت نيران قلبه من حرقتها ، فدعا عيسى الحق تعالى ، فأحيا صاحب الصوت فى الحال كشبح ، شيخ أحدب الظهر مثل القوس ، أقرأ عيسى السلام وسكت برهة ، فقال له المسيح : من أنت أيها الشيخ ؟ متى فارقت الدنيا ؟ وفى أى زمن عشت ؟

عندئذ قال الرجل : أيها البحر المفعم بالأسرار ، أنا حيان بن معبد على مثل هذه الحال من الذلة والهوان ، مت أيها الطاهر وأودعت الثرى ، منذ ألف وثمانمائة عام ، ولم أسترح من هذا العذاب لحظة ، ولم أمهل دقيقة واحدة ، فقال له المسيح : أيها الميت البائس ، لماذا أنزل بك العذاب الشديد هكذا ؟ قال له : هذا العذاب الأليم ، من أجل دانق من مال يتيم ، فسأله المسيح : هل مت على كفر ، حتى تعذب مثل هذا العذاب من أجل دانق واحد ؟ قال : مت على الإسلام ، وتحملت مثل هذا العذاب لسنوات طويلة ، عندئذ دعا له عيسى الطاهر ، فنام هانئا مطمئنا فى قبره .

أيها المسلمون إن كان هذا هو الإسلام ، فلا أعرف أى دين ذلك الذى أراه ، إن كان لديك شعيرة واحدة من حرام وعن طريق غير مستقيم ، فعذابك ألف وثمانمائة عام ، وإن كانت كل أموالك حرام ، فماذا أقول فالعقوبة خالدة ، يا عزيزى إنك عديم الوفاء ، اهتم بمصيرك ، لأنك لاه ، إنك معدم فاعل بهامتك ، والق عن كاهلك سيئات أعمالك ، إن عيسى الطاهر لن يدعو لك ، وسوف تحاسب حسابا عسيرا فى قبرك .

ألا تعلم أى أمر تفعله فى حياتك ، سوى اكتناز الذهب ، ألا تعلم يا من تجتهد لجمع الفضة ، إنك تبيع عمرك الذهبى بغفلة ، فلا تجمع الذهب فهو مثل الزئبق أمام الحرارة ، وأنت سرعان ما تختفى مثله ، لذلك فأكثر الذهب يوجد فى باطن الأرض ، لأن هلاك أكثر الناس بسببه .

والبخيل فى حرصه على الذهب ، أشد من أحجار الجبال التى يستخرجون منها الذهب ، فالحجر يمنحك الفضة بضربة إزميل واحدة ، بينما السفلة لايعطون دانقا بمائة ضربة من الإزميل ، احسن إلى الناس دائما من كنوزك العديدة ، ولكن احتفظ بالقليل برجولة ، الشخص الذى يمنح الخبز ، أفضل كثيرا ممن يصدر الأوامر ، لكن الموت تحت أقدام الفيلة ، خير من إحسان البخلاء .

٣. قصة أنو شيروان (٥٧٤٢ : ٥٧٤٩)

هكذا قال أنو شيروان العادل : إن تمت بجرح سيف حاد لقاتل ، خير لك ، من عطاء مشبع لخسيس ، ولا تتصارع مع أهل الدنيا ، لأنها جيفة وحولها حفنة من الدود ، فأهل الدنيا والرياسة ، كلهم مثل الدود الكاتن في النجاسة ، والذهب والفضة والنجاح ومظاهر الأبهة ، لن تفيدك بشئ في نهاية الأمر ، إن تخلص لحظة ، يتحقق لك الإقبال ، وإلا فأواه عليك ، وكل شئ كامل في الدنيا ، تأكد أنه وبال في العقبى .

٤. حديث في ذم الدنيا (٥٧٥٠ : ٥٧٥٦)

هكذا أفتى أحد رجال الشرع : أن كل من يتحدث بحديث عن الدنيا ، يبعُد عن الجنة ، بمسافة خمسمائة سنة ، يا له من أمر عجيب !! فإن تحدث مرتين ، كيف يكون الحساب ؟ كلما أطال حديثه ، يزيد ابتعاده عن الجنة ،والشخص الذى أمضى عمره في الدنيا ، رجل قوى إن مات على الدين ، إن نفسك مثل سفينة في طريق الحياة ، لن تجدها ثانية في الآخرة ، وماذا ينتج عن الدنيا سوى الندم ، وأنت لا تعلم ماذا يتأتى منها بسبب جهلك.

٥. تمثيل في ذم الدنيا (٥٧٥٧ : ٥٧٦٦)

هكذا قال أحد الأتقياء ، إن عاشق الدنيا أقل شأنا من الكلب ، فالدنيا الغادرة جيفة ، والكلاب تجتمع حول الجيفة ، فإذا ما شبع كلب منها ، يدعها ليحملها كلب آخر ، لا يدخر منها أبدا ، ولا يفكر في الغد مطلقا .

ولكن كل شخص كالكلب على الدنيا ، يبحث عن المزيد دائما ، فهو مثل كرة ، دائب الحركة ، ليستزيد من الدنيا كل لحظة ، لا يفكر في يومه فقط ، وروحه مثقلة بمخاوف مائة سنة قادمة ، بينما الكلب لا يطلب أكثر من حاجته ، من هذه الجيفة ، لذلك فهو يشرف الشخص ، الذى يحترق ليل نهار بنار الحرص .

٦. حديث عباسه الطوسى (٥٧٦٧ : ٥٧٨٢)

هكذا قالت عباسه : إن الدنيا مثل جيفة ألقيت داخل حمام ، أكلت منها الأسود حتى شبعت ، فأقبلت النمور وحملت عليها ، وبعد أن أكلت النمور وتركتها وتفرقت ، جاءت الذئاب الكثيرة والكلاب العديدة ، فإذا ما بقى منها شئ يسير ، أتت الغربان أفواجا من كل صوب ، والتهمت منها قدرا أيضا ، حتى يبقى شئ قليل من روثها ودمائها ، فيأتى جُعْل [١٧٩] ويحولها ، إلى كل ناحية واتجاه بصور عديدة ، وإذا ما بقيت

العظام دون لحم ، تتسلط عليها حرارة الشمس ، فيخرج منها قليل من الدهن ، ليجتمع عليه النمل من كل اتجاه ، وعندما يفرغ النمل من هذا الدهن ، تبقى عندئذ عظام جافة على الطريق .

وأضافت عباسه : إن الأسود هم الملوك ، ويليهم النمور وهم الأمراء ، والكلاب والذئاب هم أعوانهم الظالمون ، والغربان مساعدوهم ، والجعل هو عمال المال فى الأعمال ، وإنما ذلك النمل كله هم الغوغاء .

يا عزيزى لا أعلم ماذا يكون اسمك ، فانظر أى شخص أنت من هذه الطوائف ، أيها الصديق الدنيا كلها جيفة ، ومن يتعقبها جيفة أنتن منها ، والشخص الذى يتعلق بجيفة ، يكون أسوأ منها مائة مرة .

٧ . قول جعفر الصادق (٥٧٨٣ : ٥٧٨٨)

روى أصحاب الولاية ، عن جعفر الصادق أنه قال : هذه الدنيا القاتلة خرابة ، وأكثر خرابا منها مائة مرة ذلك القلب ، الذى يختار عمار الدنيا ، حتى يتكئ على مسندها ، لكن العقبى هى مقر العمار ، وأكثر عمارا منها ذلك القلب ، المفعم بالنور ، الذى لا يطلب سوى العقبى العامرة ، ويقنع بها ، ولا يلتفت إلى الدنيا .

٨ . قول يحى بن معاذ (٥٧٨٩ : ٥٧٩٢)

مر يحيى بن معاذ رجل الأسرار ، فى طريقه على قرية جميلة ، وهناك قال له شخص : هذه القرية جميلة ، فانطلق يحيى كالنار قائلا : قلب الرجل الواصل أفضل من هذه القرية الجميلة ، لأنه لا يعيرها اهتماما .

٩ . قصة فى ذم الدنيا (٥٧٩٣ : ٥٨٠٢)

سأل شخص أحد علماء الفتوى ، عن الشئ الذى يفضل أموال الدنيا ، فقال : هو المال غير الكائن ، لأن المال إن وجد لا يُجنى من ورائه سوى الخسران ، فإن رزقت بأموال من الدنيا ، يعوقك ذلك عن الله ، وماذا تساوى أموال الدنيا ؟ وهى تبعدك عن الحق للحظة واحدة ، ولأن المال يبعدك عن الحق ، فمن الأفضل عدم وجوده فى كل الأحوال ، ولأن عشق الدنيا قطع عليك الطريق ، فكيف يمكنك تحطيم الأصنام فى الدين ؟ كل عمرك ليل ، أيها الغافل عن الطريق ، ولا علم لديك بالنهار ، ولا باليقظة وسرعان ما يشرق صباح يومك ، فترى مع من كنت تمارس العشق ، إنك لم تجلس فى خلوة العشق ، فأنت حريف للحيات النارية .

١٠. قصة الأمير والعروس (٥٨٠٣ : ٥٨٤٨)

كان يوجد أمير يشبه الشمس فى جماله ، وكان قرة عينى أبيه ، وحدث أن خطب الملك للأمير ، فتاة رائعة الحسن ، كانت مثالا رائعا للجمال فى العالم بأسره ، بحيث تفوقت على جميلات رسام الأزل بجمالها .

وأقام الملك الزينات فى القصر ، فصار القصر كالجنة من أجل تلك القمرية ، وغص القصر بحور العين ، وتلألأت فيه أنوار الشمس وضياء القمر فأصبح نورا على نور ، تقابلت شموع الوجه المعطرة ، وتشابكت الشعور فى تلك الليلة ، وتلاطمت بحور الشعر مع أصوات الصنج ، وتعالى هديرها فى كل لحظة ، وسرى الخجل فى السماوات السبع الطباق[١٨٠] ، شوقا إلى مباهج القصر السبع .

وجلست العروس فى هذا الحفل البهيج سعيدة هانئة ، والجميلات الآسرات يتلففن حولها ، تتطلع هى وحور الخلد ، إلى قدوم الأمير إلى العرس ، وكان الأمير قد جلس مع رفاقه ، تغمره السعادة فى مجلس خمر ، وفى تلك الليلة ، أسرف الأمير فى احتساء الخمر ، من شدة سروره ، ففقد رشده ، ونهض من مجلسه ، وقد فقد توازنه ، بينما انشغل فكره بخيال عروسه .

ومن شدة ثمله ، امتطى جواده ، وسط ذلك الضجيج ، وخرج من بوابة القصر ، دون أن يحدد طريقه ، أو يصطحب معه رفيقا ، وفى الطريق شاهد ديرا عاليا يبدو من بعيد ، وينبعث من مصابيحه أنوار تضئ الطريق ، فتوهم الأمير الوحيد الثمل ، أنه قصر عروسه يبدو من بعيد ، بينما كان المجوس قد جعلوا من هذا الدير قبرا لموتاهم ، ودفنوا الموتى فى كل صوب منه .

وكانت تضئ فى ذلك القبر مصابيح عديدة ، تضئ بها قلوب عبدة النار ، وأمام القبر ، كان يوجد سرير ، فألقى الأمير البائس بنفسه عليه ، وكان فوق السرير امرأة مكفنة ، عندما لمحها الأمير من بعيد ، وبسبب تأثير الخمر ، اعتقد أنها عروسه ، وكان الخمر يتلاعب برأسه ، ولم يكن يتبين السقف من الباب ، فأزاح الكفن من فوق وجه السيدة المسجاة ، وأمضى معها الليلة حتى الصباح .

وجلست الشبيهات بالقمر طوال الليل ، ينتظرن مجئ الأمير ، وعندما ظهر أمر اختفائه ، أخبروا أباه بأمره ، فانطلق الأب مع فرسانه ، إلى الصحراء والقلق يستبد بالجميع ، وفى

الطريق ، شاهد أركان الدولة جميعا ، جواد الأمير ، من بعيد ، وعندما شاهد الأب جواد ولده ، توجه إليه في الحال ، ثم ترجل .

وهناك شاهد الأب ابنه ينام مع السيدة المتوفاة ، وقد احتضنها بقوة فى حب ، وعندما شاهد الملك وجنده الأمير على ذلك النحو ، كأن النيران قد اضطرمت فى أعماقهم ، وبدأ الأمير يستعيد وعيه ، فتقدم منه الملك والجند .

وفتح الأمير عينيه بصعوبة ، فشاهد على الفور الخلاء والملك المعظم ، ووجد نفسه يحتضن امرأة متوفاة ، بينما الملك والجند يقفون حوله ، فأدرك ما حدث له ، وتمنى موته فى الحال ، واستولت الرعشة على جسده ، بسبب ترديه ، وكان يتمنى من أعماق قلبه الطاهر ، أن تنشق الأرض وتبتلعه ، ولكن ما حدث قد حدث ، ولن يفيد الخجل والندم.

ويلزمنى أنا أيضا الصبر أيها الرجل المخمور ، حتى يتسلل إلى فراشك ذلك النور ، وسوف تعلم فى تلك الساعة وترى ، مع من أقمت هذ الخلوة ، فلتحطم الأصنام فى الدين مثل إبراهيم ، ولتلق بأصنام آزر[١٨١] ، فعندما قصدها إبراهيم ، ابتلاه إله العالم ، فإن كنت ستبتلى ، فسوف تنقلب بك الحياة .

١١ . قصة إبراهيم (٥٨٤٩ : ٥٩٠٨)

قرأت فى القصص ، أن النبى إبراهيم ، كان لديه أربعة آلاف غلام ، ولكل غلام كلب يأتمر بأمره ، وتزين عنقه قلادة ذهبية ، أما عدد أغنامه فتربو على الحصر ، فتنبه الملائكة لأمره ، وتوجسوا خيفة منه ، وخشوا عليه من انشغاله بقطعانه ، وهو من يقول الله عنه إنه طاهر وعظيم ، فإن كان مستغرقا فى معرفة ربه الجليل ، لن يهتم بغيره ،وهو الخليل.

فقال الحق لجبريل الأمين : انهض واذكر اسمنا أمامه بسرعة ، حتى ترى مدى إخلاصه فى طريقنا ، وتخبرنا بأمره ، فظهر جبريل لإبراهيم على هيئة رجل ، وقال له بصوت شجى : " القدوس" وعندما سمع خليل الله صوته ، كأنه تداعى بكل عظمته تلك ، فمنحه ثلث أغنامه ، وقال له : يا دواء الملتاعين ، قل مرة ثانية اسم حبيبى ، فهذا الاسم يزيل آلامى دائما ، فقال جبريل " القدوس " مرة ثانية ، عندئذ سقط إبراهيم على الأرض من غلبة الشوق عليه ، ومنح تاج العظماء جبريل ثلثا آخر من أغنامه .

وقال له : اذكر اسم الحق مرة أخرى ، فليس هناك شئ يفضله ، وعندما ذكر جبريل اسم الحق مرة ثالثة ، انتاب إبراهيم الحال، ومنحه ما تبقى من أغنامه، ولم يكن ما تبقى

كثيرا ، فتقدم منه جبريل وقال له : أيها الطاهر ، أنا روح القدس على هيئة آدمى ، وهذه الأغنام لا تفيدنى فى شئ ، فهى لك أيها التقى .

لم يكن لجبريل الأمين على أى نحو ، رغبة فى تناول الشواء ! فقال له الخليل : ليكن معلوما لديك ، أننى لا أستعيد ما منحته لأحد أبدا ، قال له جبريل : وأنا لا يليق بى الرعى ، وأنا ذاهب الآن كما تعلم ، قال له الخليل : وأنا أيضا ، وقد تركت كل هذه الأغنام .

فجاء هاتف من الحق إلى الملائكة : أرأيتم كيف كان إبراهيم مالكا ؟ وعندما ذكر جبريل اسمنا ، افتداه إبراهيم بكل ما يملك ، هل أيقنتم أنه لم يكن سوى عبد ، يحيا بنا لا بالمال ؟ فقال الملائكة : يا إلهى ، ربما ينشغل قلبه بابنه ، عندئذ خاطبه الحق فى منامه ، وطلب إليه التضحية بولده ، وعندما أحضر ولده لذبحه ، دارت الأرض مثل الفلك ، وتعالت أصوات الملائكة وصيحاتهم : إنه بعيد عن الأموال والأبناء ، إلا أنه مشغول الآن بوجوده ، ومهتم بحياته .

فكتب عليه فى عالم الغيب ، أن يلقى به فى النار لامتحانه ، وعندما أحاطت به النيران من كل صوب ، جاءه جبريل من أوج الأسرار ، أن انتبه ، واطلب ما تريد ، فقال له : لن أطلب منك ، لأنك لا تستطيع ، إن طلبت حاجة من غير الله ، أكن من البعيدين عن هذه الحضرة ، ولأننى لا أهتم بوجودى فاستمع إلى كلمة حق : علمه بحالى يغنى عن سؤالى .

عندئذ أدرك الملائكة مقامه الرفيع ، فأطلقوا الصيحات من صدقه : يا إلهى إنه صاحب جسم طاهر وروح نقية ، تغلب على كل ما ابتلى به ، وجدناه فى عشقك طيعا ، وقد بردت النيران أمام حرارة عشقه ، والجنة صارت سعيرا من حرارة قلبه ، ما أجمل خلله التى تمسك بها ! هو يستحق أن تدعوه خليلك ، وهو جدير بما تضفيه عليه من سمو .

وأنت إن لم تتحقق لك القدوة من دين الخليل ، فليس أمامك سوى طريق آزر ، وإن لم تتوفر لك الفضة والذهب ، فأنت . آزر والنمرود معا ، أتتعجب أن النمرود وصل أمره إلى حد أن توجه إلى محاربة الحق فى السماء ؟ إن اعوج أمرك فجأة ، يسلك قلبك طريق النمرود آنذاك ، إنك تصل فى غضبك وشهوتك إلى حد ، تحلق معه فى الجو كالنسور ، كذلك تصل ثورة غضبك وحقدك ، بصندوق صدرك إلى الفلك ، وأنت مثل النسر والصندوق معا [١٨٢] ، بتمردك فى العالم ، تبدو كعلم ، وفى كل لحظة تتواتر شهام إنكارك ، على هذا الفلك الدوار ، مثل النمرود ، والآن طباع النمرود تتقمصك ، فأنت

تحارب الله مثله ، وأنت تشبه النمرود فى عملك ، لا ترى فى الخير والشر سوى ضررك ومنفعتك ، بقيت مكبلا بالاستزادة ، وكل جسدك غارق فى الدماء .

لقد انقضى عمرك فماذا أنت فاعل ؟ إنك تجلس تزيد من ذهبك ، وكل عمرك ينقضى هباء أيها الصديق ، حتى يتزايد ذهبك ، وعندما تتبدل همة الرجولة بقطعة من المعدن ، تكون أقل من النساء الحائضات ، لقد اعتبر الرسول الغنى ميتا ، فمن يمتلك الفضة يشبه الميت ، إن كلب حرصك ولو امتلك العالم ، تكفيه قطعة من العظام ، لقد جعلتك هذه النفس الكافرة ثملا ، ووطأتك بأقدام الغفلة ، فإن لم تشغلها بالعمل ، تعزل عن العمل بسببها .

١٢ . قصة الحلاج مع ولده (٥٩٠٩ : ٥٩١٨)

قال الحلاج لولده : أيها الصالح ، اشغل نفسك بشئ ، وإلا فإنها تعزلك ، وتشغلك بمئآت الأشياء غير الصالحة ، و اسلك بها فى الطريق ، أيها القوى ، عندئذ يمكنك التواجد فى الميقات ، فطالما تبقى نفسك فهى توهمك ، ان الإبطاء فى منحها كمال .

لو يشبع هذا الكلب لحظة ، فالعجيب أنه يصبح أسدا ، فعندما تمتلئ بطنه لحظة ، يشتاق لسانه للغيبة ، فيطيل لسانه كسيف حاد ، ويغتاب أهل العالم ، ولا يمكن إسكاته لحظة واحدة ، مهما وجهت إليه النصائح ، وكل من يتطاول بلسانه للغيبة ، يحل به الأذى كل ساعة من الغيب.

١٣ . فى ذم الغيبة (٥٩١٩ : ٥٩٢٥)

ذكر فى التوراة : أن الشخص الذى يغتاب ثم يتوب ، يكون آخر شخص ، يفسح له الحبيب الطريق إلى ساحة الخلد ، وإن لم يتب ، يكن أول شخص يدخل النار بمفرده ، وإن كان سيف لسانه مثل الشعلة ، يصبح مثل الرمح فى اتجاه مستقيم . علامة صدق القلب ، هى أن يكون أول منزل للقلب هو الصدق ، فى هذا المنزل ، لا يوجد شراب لأرواح عظماء العالم مثل الصمت .

١٤ . قول فى الصمت (٥٩٢٦ : ٢٩٣٣)

سأل أحد الأشخاص ، حكيما محنكا ، طاف بالعالم كثيرا : أيها الرفيق العالِم ، من رأيت يستحق الحديث عنه ؟ فقال : لقد طفت الأقاليم السبعة ، و لم أر فى العالم إلا شخصا ونصف شخص ، أما الشخص فهو من لا يتحدث فى أغلب أوقاته ، بطيب ولا بسوء

عن أحد ، وأما نصف الشخص فكان من العزة ، بحيث لم يتحدث عن الخلق إلا بالطيب فقط .

طالما يتنازعك الطيب والسيئ ، فقلبك ليس بصيرا ، وروحك بعيدة عن المعرفة ، ولكن إذا ما تلاشى لديك هذا وذاك ، شغلت روحك عندئذ بالسر القدسى .

المقالة العشرون (٥٩٣٤ : ٦١٩٨)

قال الولد لأبيه : إن الفقر المدقع ، كثيرا ما يفضى إلى الكفر ، وعندما يستقيم أمر الدنيا والدين بالذهب ، يمكن طلب الكيمياء من الحق والذهب أيضا .

إجابة الأب

قال له الأب : عندما يلقى الذهب بظلاله عليك ، يسلبك جوهرك وخصالك ، فالدين والدنيا لا يستقيمان سويا ، واعلم أنه لا يمكن طلب الاثنين من الحق .

١ . قصة الشيخ وشخص لا يدين بالإسلام (٥٩٤٠ : ٥٩٦٣)

خرج شيخ تقى من أهل الأسرار ، إلى السوق ليلا ، ليلتقط بعض الخضروات من الطريق ، يحفظ بها أوده ليلا أو نهارا ، وكان شخص لا يدين بالإسلام يمتطى جوادا أسود اللون مسرجا ، ويجلس فوق السرج المرصع فى الطريق ، وقد أحاط به غلمان كثيرون ، فصادفه الشيخ فى السوق .

وما أن شاهد الشيخ هذه الحال حتى اضطرب ، وخجل من فقره وعوزه ، وأخذ يخاطب الحق تعالى قائلا : يا إلهى أتريدنى على هذا النحو ولا تريده هو ، وأنا من أحبائك وهو من أعدائك ، أتريدنى أن أكون على هذه الحال وهو على تلك ، غير المسلم يرفل فى النعيم والذهب والعز ، والمسلم على هذه الحال من العوز والعجز ، نصيب محبتك الاحتراق ، ونصيب عدوك المحبة والإعزاز !! إنه لم يطلب منك خبزا ولا ثوبا ، فمنحته جوادا وعمامة .

عندما أسر الشيخ بهذا الأمر ، جاءه هاتف داخلى : أيها المؤمن إن أردت كل شئ ، بدل وضعك حتى يبدل الآخر وضعه أيضا ، اعطه كل ما لديك من فقر ، وخذ منه كل ما يملك وتحرر ، ابدل الإسلام بمذهبه ، واعطه الفقر وخذ الغنى واعمل ، إن كنا قد وهبناه

الدراهم والدنانير ، فقد منحناك أيها الرحل الدين والمشاهدة ، فاترك الدين ، وخذ الدنانير ، والق بالخرقة واربط الزنار .

عندما أدرك ذلك التقى هذا السر ، غاب عن وعيه ، وسقط على الأرض ، وبعد أن ثاب إلى رشده ، واستعاد وعيه ، أطلق صيحة وقال : يا إلهى لا أريد هذا البدل أبدا ، لا أريد هذا التحول ، لقد تبت ، ولن أعود إلى مثل هذا أبدا.

وأنت أحاطك الله بصنائعة الكريمة ، فلا تنكر نعمائه وأياديه ، إنك تتشبث بعنادك وتملك ، فتعال بدون نفسك ، واخلص لله ، وتحرر ، إن أدركت إشارة ضئيلة من السابقين ، تعال ، متجردا من كل شئ من العالمين

٢ . قول فى معرفة الحق (٥٩٦٤ : ٥٩٦٧)

قال أحد شيوخ الطريقة : منذ أن فزت بمعرفة الحق وأنا على هذه الحال : ليس لدى إحساس بأمن ولا بخوف ، وليست لى صداقة بأحد ولا عداء ، الآن وقد بحت بالأسرار اللازمة ، افعل أنت أيضا ما يلزم بعد هذا ، .

٣ . قصة زبيدة (١٨٣) والصوفى (٥٩٦٨ : ٥٩٩٠)

كانت زبيدة داخل هودج فى طريقها إلى الحج ، لأداء الفريضة المباركة ، وأثناء الطريق كشفت الرياح الهودج ، فوقع بصر أحد الصوفية عليها ، فأخذ فى الصياح والعويل ، ولم يستطع أحد إسكاته .

وعندما علمت زبيدة بأمره ، طلبت إلى أحد الخدم خفية قائلة : خلصنى من صيحاته ، مهما كلفك الأمر من ذهب ، فأعطاه الخادم كيسا من الذهب ، فرفضه الصوفى ثم قبل عندما وصل إلى عشرة أكياس ، وبعد أن أخذ العشرة أكياس من الذهب ، توقف عن الصياح والعويل .

وعندما علمت زبيدة بما آل إليه أمر الصوفى ، وأنه قد توقف عن إدعاء العشق ، طلبت من الخادم أن يقيد يد الصوفى ، ثم ينهال عليه ضربا ، حتى يمزق أعضاء جسده ، فأخذ الصوفى يصرخ ويقول : ماذا فعلت ، حتى أضرب ضربا مبرحا على هذا النحو ؟

فقالت زبيدة : يا عاشق نفسك ، ماذا تريد أن تفعل أيها الكاذب أكثر من هذا ؟ إنك ادعيت عشق امرأة مثلي ، وعندما شاهدت الذهب انمحى عشقك لى ، رأيتك كلك صاحب دعوى ، وألفيتك فى دعواك دون معنى ، فلزم لى امتحانك وعندما لم تجتزه ،

أيقنت أنك واهن فى أمرك ، إن كنت صادقا فى عشقى لكانت أسبابى وأملاكى ، وذهبى وفضتى كلها خالصة لك ، ولكن لأنك بعتنى ، حكمت عليك بما تستحقه همتك ، كان يجب التشبث بى أيها الغافل ، حتى يتحقق لك الأمر .

وأنت اربط قلبك بالحق حتى تنجو ، لأنه إذا ما تعلق قلبك بالخلق تشقى وتعانى ، واغلق الأبواب على نفسك أمام الجميع ، وانشغل با لله ، واربط قلبك به كلية ، حتى يشع نور صبح المعرفة ، من سحاب الوحدة الأسود ، فإذا ما أدركت ذلك الضياء ، أدركت طريق المعرفة ، والعظماء الذين طاولوا القمر ، سلكوا على هدى نور المعرفة .

٤ . قصة أردشير [١٨٤] (٥٩٩١ : ٦٠٤٩)

سمعت أنه كان للملك أردشير زوج ، تكن له العداء ، وذات يوم تملكها القهر ، فحملت إليه الطعام بعد أن دست له السم ، وفى طريقها إليه ، وقع بصرها عليه ، فوقعت الآنية من يدها فوق الأعتاب ، وارتعد جسدها ، وامتقع لونها ، فثارت الشكوك والريب فى نفس زوجها ، فقدم الطعام إلى أحد الطيور ، فمات الطائر فورا ، وظل الملك حائرا ، وفى الحال سلم الملك زوجه لأحد الموابذة قائلا : افصل قلبها عن جسدها فى التو والساعة ، وأرق دمها وادفنها ، وخلص قلبى من هذه الكلبة الكافرة : وكانت المرأة حاملا من الملك الحكيم ، ولم يكن للملك أبناء قط ، ففكر الموبذ قائلا : إن الملك ربما يموت فجأة ، فتسود الاضطرابات والفتن قصره ، ولأنه ليس له وريث ، فمن الأفضل أن أخفى هذه المرأة ، حتى أرى ما تؤول إليه الأمور .

وبعد عدة شهور ، أنجبت زوجة الملك ولداً جميلا كالقمر ، كان وجهه يشبه الشمس ، التى تشرق فى المساء أى وسط شعره ، وبدت على محياه المعارف والعظمة والحسن ، وظهر عليه الدلال وحسن الطباع ، وعندما شاهد الموبذ وجه الطفل من بعيد ، أسماه شابور[١٨٥] وهو سعيد .

وظل يرعاه ليل نهار بإعزاز ، وكان يدلله داخل حجاب الأسرار ، وعندما شب عن الطوق ، أحضر له أستاذا متمكنا ، فأضاء قلبه من العلم كما تضاء النار ، وسرعان ما تعلم مذهب زردشت ، وعندما أتم تعليمه وأكمل تدبيره ، تعلم الصولجان والكرة وقذف السهام ، كما برز أقرانه وصار أستاذ زمانه فى ضرب السيف والرمح ، ووصل إلى درجة لا يمكن وصفها ، واكتسبت قامته بسوق السرو ، ووجهه يعلو سروه كقمر آسر ، والعنبر فى ركاب شعره ، أسير لحكم ساحره الهندى ، لشفتيه كأس أحمر ملئ بالمدام ، يتعقبه شاربه النضر ، إن أشار فى أى وقت ، يجتمع العالم تحت علمه .

وذات يوم جلس الملك حزينا ، مقطب الجبين ، فسأله الموبد : يا مولاى ، لماذا يبدو ملك الملوك حزينا ؟ لا أراك مسرورا مثل كل يوم ، ولا يتحمل قلبى أن يراك جالسا فى هذا الاحتراق ، فقال له الملك : لست من الحجر الصلد ، وليس هناك مفر من موت أى شخص ، وأنا حزين لأننى ليس لى ابن واحد ، يحمينى من جور الزمان ، ويخلفنى ، عندما يقتنصنى الموت .

وما أن سمع الرجل الفريد هذا القول ، حتى انساب من عينيه سيل من الدماء ، وقال للملك : عندى سر دفين ، وهو من عجائب الدنيا ، إن أمننى الملك أقله ، وإلا أحتفظ به لنفسى ، وعندما أمنه الملك ، اطلعه على تفاصيل القصة كلها .

لم يعرف الملك ماذا يقول من فرط السرور ، وكيف يعبر للموبد عما يكنه له من حبور ، فقال للموبد : احضر مائة ولد ، يشبهون جميعا ابنى شابور ، يرتدون جميعا نفس الثياب ، ويكونون فى نفس العمر والقوام ، ويمتطون خيل متشابه وملابس رأس واحدة ، حتى تستطيع روحى ، أن تجد نفسها ثانية تحت حجاب الأسرار ، ويمكنها أن تفرق بين الناس ، بنور المعرفة ، فمضى الموبد العالم .

وفى اليوم التالى أحضر مائة ولد يسرون الخاطر إلى الميدان ، الجميع يرتدون نفس الثياب ويمتطون خيل متشابه ، كما قال الملك له تماما ، وما أن نظر ملك الآفاق إلى الجمع ، حتى عرف ولده على الفور ، عرفه من نظرة واحدة نظرها إليه ، فناداه واحتضنه وأعزه ، ثم عفا عن أمه فورا ، ورحم العجوز التى قاست طويلا .

لتتعلم من هذه القصة ، أن كل ذرة من الإنسان تفيض بالضياء من المعرفة ، وإن لم تجد ذرة منه سبيلها إلى الشمس ، يصير محجوبا غريبا إلى الأبد ، وإن أدركت ذرة منه المعرفة ، يفض الضياء ويتلألأ من جسمه .

٥ . قصة ألم عين إياز (٦٠٥٠ : ٦٠٧٤)

ألمت بعينى إياز آلام مبرحة ، بسبب عين أهل السوء ، فصارت عيناه كالدم من الآلام ، وساد اللون الأحمر نرجسيتاه ، الحاصل عندما مضت عشرة أيام ، امتنعت عليه الرؤية بسبب الآلام ، وكما ابتلى بآلام العين ، هاجمته الصفراء فأفقدته الوعى ، فأخبر شخص محمودا بأمره ، فامتطى جواده وتوجه إليه .

وتقدم محمود إلى فراش إياز بخفة ، وأومأ للحاضرين فى الحال ، وقال لهم : حذار ، لا تعلموه بأن الملك قد حضر ، وبمجرد أن جلس محمود المجاهد ، حتى نهض إياز على الفور

فقد انجذب قلبه لمحمود ، وفتح عينيه وجلس سعيدا ، يا له من عبد جلس حرا طليقا ! فقال له الحاضرون : لقد كنت فاقد الوعى ، عجز جسدك ، وخمدت روحك ، وأنهكتك آلام عينيك ، تتردد أنفاسك بين الحياة والموت ، وما أن جلس الملك على فراشك حتى تغلبت على الصفراء ، ونهضت ، لم يخبرك أحد بقدومه ، ولم تكن تتوقع حضوره فكيف علمت بمقدمه ؟

فقال إياز : لاحاجة لى بالسمع ولاحاجة لى أيضا بالمشاهدة ، إن روحى متحررة من قيد الأذن والعين وقد عرفته بروحى من رائحته ، فعندما شممت رائحته بروحى حييت على الرغم من أننى كنت ميتا ، ألم تر النبى يعقوب رد إليه بصره من رائحة ؟

وأنت يلزمك بصيرة من الآلام حتى تتجاوز عن الآم عينيك ، وعندما تكتسب رائحة المعرفة ، يشع نورك على الآفاق فى العالمين لأن ذرة واحدة من نور المعرفة ، تحوى ضياء مائة شمس ، وعندما يتملكك عشق الحق على هذا النحو تكون ذرة واحدة منك أفضل من العالمين ، فأى سعادة يتسع لها وجودك ! أن يحبك الله على ذلك النحو ؟ العظماء الذين أدركوا الحياة بذلوا مئات الأرواح فى سبيل إدراك معاناتها ، وجادوا بآلاف الأرواح المضطربة من أجل الاستماع إلى هاتفه .

٦. قصة جرجيس (١٨٦) ٦٠٧٥:٦٠٨٦

قاد الكفار العربة فوق جرجيس ثلاث مرات ، لقتله وحرقه ، وفى كل مرة يصير جسده ذرات صغيرة مثل الغبار وتنبت الشقائق من ترابه ، ووسط كل هذه الآلام الرهيبة يهتف به هاتف من لدن العزة : إن كل من يدعى حبنا لن يتجرع خمرا صافية دون ثمالة ، وجزاء الأحباء يكون على هذا النحو فتسير العربة فوق أعضاء جسده ، ويقولون له : يا جرجيس ، أيها الطاهر فى أى شىء ترغب وأنت فى التراب ؟ فيقول : رغبتى الآن أن أصير تحت العربة مرة أخرى ، وأن يمزقوننى إربا إربا فى العذاب حتى يأتينى الهاتف مرة أخرى ، فكلما زاد عذاب روحى كلما زاد اقتراب الحبيب .

وأنت لا تعرف قدر أحبائه لأنك رجل غافل فى الحياة ، فكن الشخص الذى يعشقه أو كن من أحباء أحبائه .

٧. قصة يوسف وزليخا ٦٠٨٧:٦١٠٧

ذات يوم وبينما كان يوسف الطاهر يمضى فى طريقه شاهد زليخا جالسة على الأرض ، وقد أظلمت عيناها وكف بصرها عن الحياة ، وابتليت بالمرض والعوز وأنهكتها المحن

والمصاعب العديدة ، وكانت تجتر الأسف فى كل لحظة وتندم على ما حل بيوسف أكثر من يوسف نفسه ، جلست فى الطريق على أمل أن يصلها ذرات من تراب أقدام يوسف ، فتدرك رائحة من غبار طريق الملك غبار ربما تتناقله الرياح .

وعندما رآها يوسف قال : يا إلهى ماذا تريد من هذه العجوز العمياء ؟ لماذا لا تقضى عليها وقد أرادت تلويث سمعة نبيك ؟ عندئذ هبط عليه جبريل وقال : لن ننهى وجودها ، لأنها تكن حبا لا حدود له لمن يحبنا ، لأنها على عهد عشقك دائما فنحن نحبها من أجلك ، من قال لك اطلب موت الورد فى البستان وتمنى هلاك أحبة الأحباء ! إن قدرت لروح عمرا ثانيا لأعدتها شابة من أجلك ، لأنها منحتك روحها العزيزة فإعزازى لها أن تكون فداء لروحك ، ولأنها تعشق يوسفنا فمن يتمنى لها السوء ؟ إن ادعت عشق ملك مثلك فعيناها الدامعتان دليل على ذلك ، ولأن هذه العاشقة معها شاهدها فهى تزداد بهاء بك يوما بعد يوما .

وأنت إذ ما وقفت على سر الفداء تدرك علامة من سر العشاق ، وإن لم تصلك رائحة من الفداء فليس هناك فائدة من الحديث معك ، وإن لم تجد بروحك فى الحال يسحب منك سيف الفداء .

٨. قصة إبراهيم بن أدهم ٦١٣٨:٦١٠٨

هكذا روى إبراهيم بن أدهم : كنت فى طريقى إلى الحج ، سعيدا مسرورا ، وعندما وصلت إلى ذات العرق[١٨٧] شاهدت سبعين صوفيا ، يرتدون المرقع ، والدماء تنزف من آذانهم وأنوفهم يسلمون الروح وسط الآلام والبؤس ، فأسرعت صوبهم ووجدت بينهم رجلا بين الحياة والموت ، كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ، انتهى عمره ، ولم يبق له سوى لحظات ، فتقدمت منه ببطء ، استطلع الأمر متسائلا : ماذا حدث ، اشرح لى الأمر ؟

فتحدث الرجل وقال : يا إبراهيم اخش العشق ، فهو سيف باتر ، قتل الحجاج دون شفقة وألقى بهم فى الطريق مثل كفار الروم ، كانت معركته مع الحجاج وكانت أرواحهم فداء له .

كنا أيها الشيخ ، بعين شخصا عقدنا العزم على الذهاب إلى الكعبة ، جلسنا معا قبل السفر وتعاهدنا على التزام الصمت ، واتفقنا أيضا على عدم التفكير ساعة واحدة فى غير الله ، وعلى عدم النظر إلى غيره وأجمعنا على أن نكون كالشمع فى الاستقامة .

ومجمل القول أنه عندما توجهنا إلى الطريق تقابلنا مع الخضر عند ذات العرق ، وألقى الخضر الطاهر السلام علينا وبادلناه السلام ، وقد سعدنا جميعا برؤيته وقلنا لأنفسنا لقد تحقق هدفنا ، لأن الخضر قد استقبلنا فقد حالفنا الحظ من هذا السفر الطيب ، وعندما مرق هذا الخاطر من عقولنا تبعه هاتف آخر قائلا : انتبهوا أيها المعوجون دون ماء ولا زاد كلكم مدعون وكاذبون ، ألم تتعاهدوا وتتفقوا على ألا تنشغلوا بغيرنا ، ولأنكم نقضتم ميثاقنا لحظة واحدة واغتررتم بغيرنا من سوء عهدكم ، إنْ لم أرق دماءكم بذلة فلن يكون هناك مجال للصلح والمحبة ، وقد أراق الآن دم الجميع و لم يرحم دماء العشاق .

فسأله إبراهيم بن أدهم : كيف نجوت أنت من الموت ؟ فقال : كان يقال لى : إنك مبتدىء لا ترى سيفنا ، لأنك لم تكتمل بعد ، ولأنك خبرت الحقيقة أيها الضال فسوف ألحقك بهم الآن ، قال هذا ، وأسلم الروح أيضا وانتهت حياته مثلهم .

أى قيمة لدماء الرجال فى هذا الطريق فهنا طاحونة تدور على الدماء ، تفقد جماعة أعينها فى سبيله ونجود مجموعة أخرى بأرواحها المثقلة بالهموم ، ولأنك لم تفقد عينيك ولاروحك فلست من هؤلاء ولا أولئك .

٩ . قصة شعيب ٦١٣٩:٦١٥٦

عندما استبد الشوق بشعيب للقاء ربه ظل يبكى لمدة عشر سنوات فانطفأ نور عينيه ، ثم رد الله عليه بصره لكنه بكى ثانية عشر سنوات أخرى ، أظلمت بعدها عيناه الدامعتان فأعاد الله له بصره مرة أخرى ، إلا أنه لم يطق صبرا فبكى عشر سنوات أخرى ، كف بصره على أثرها ، واستمر فى البكاء .

فأرسل الله له وحيا : إن كنت دامى القلب خوفا من النار فقد نجيتك منها إلى الأبد ، وإن كنت تنتحب وتبكى من أجل الجنة فأنا أوعدك بالجنة والحور والرضوان ، فقال شعيب على الفور : يا صاحب الحكم الأزلى ، إننى أبكى هكذا بحرقة شوقا إليك لأننى لم أعد أهتم بالنور ولا بالزنار ، ولا أتذكر الجنة لحظة واحدة ولا أخشى النار ، يلزمنى قربك الخالد شرحت لك آلامى وأنت العليم بذات الصدور .

فجاء هاتف من أوج المعرفة : لأنك تبكى شوقا إلينا ، فابك الآن ، وابك بحرقة حتى يحين وقت اللقاء ، فقال شعيب عندئذ : يا عالم الأسرار لا ترد إلى بصرى بعد الآن ، فطالما لم يتحقق اللقاء لا شأن لى برؤية نفسى .

يا عزيزى لأنه لم يتحقق لك هذا اللقاء فابك طويلا ، فهذا ما يلزمك طوال عمرك ، ومهما ازدادت رغبتك فى إدراك ذلك فأكثر منها الدمع فى أعين العشاق .

١٠ . قصة أهل السعير ٦١٥٧:٦١٧٤

روى أن جماعة من الأمة الإسلامية لن تشملهم الرحمة الإلهية يوم القيامة ، فيأتى لهم هاتف قائلا : ادخلوهم السعير الآن غرقى فى دمائهم ، وقبل أن يحشروا فى الجحيم يطلبون من الحق أن يمهلهم لفترة قصيرة ، فيأتى الخطاب من الحضرة لن يضيرنا التأجيل ، الآن قد أمهلنا هؤلاء القوم من فضلنا ألف عام بلا تعليل .

ويذكر أن هؤلاء القوم البائسين يظلون يبكون طوال هذه المدة ليل نهار ، وعندما تنتهى الألف عام ، يطلبون من الحق مهلة أخرى ، فيحصلون على مهلة من الحق لمدة ألفى عام ليريقوا الدماء على ما ألم بهم من خسران وآلام ، وطوال الثلاثة آلاف عام ومايزيد يبكون ويتضرجون فى دمائهم ، ولا يسأل أحد هؤلاء المساكين أبدا عن سر بكائهم الدائم .

وعندما سمع أحد العظماء هذا القول قال : لتكن مائة روح ظامئة مثل روحى فداء لدمعهم ، فلا تعرف قلوب سوى قلوبهم الداء الذى لادواء له من قبل الحضرة .

طالما لم تصب بالداء الذى لادواء له فلن يتحقق لك العلاج ، ألم واحد منه أفضل من مائة روح فألمه أحسن لك من أدوية كثيرة ، وإن كنت أبا عبيدة بن الجراح لا يصلح قلبك إلا بالجراح ، الق بنفسك عند قدمى الحبيب مقلوبا فربما انقشلك من وسط السهام ، وإن لم تستطع أن تفوز به من رأسه حتى قدميه يمكنك الفوز بوهق عشقه .

١١ . قصة السلطان محمود وإياز ٦١٧٥:٦١٨٩

سأل سلطان الدين المظفر محمود غلامه إياز ذات يوم : ماهو الشىء الذى يثير غيرتك فى العالم ؟ أصدقنى القول ، فقال إياز : أغير من الحجر الذى تحك بمقدميك ، قلبى يثن غيرة منه لأنه يمسح بوجهه على كعبيك ، فإن تحقق لى ذلك الفوز أضع رأسى دائما على كعبيك ، وعندما يستقر وجهى على كعبيك يظل دائما معك ، وإن تحقق لإياز ملازمتك يطأ السماء السابعة .

لأن المعشوق ، لايهتم بالرأس ، ولا بالعمامة فتقرب إليه ، بالحيلة والمهارة ، ألا تعلم كيف مكر رستم على اسفنديار وصنع سهاما من شجر الطرفا[١٨٨] ، كل ما يمكنك عمله فى الباطن افعله واترك النوم والطعام فى الظاهر ، واسلك بكل حيلة ووسيلة وامض إلى

الصدق والمعرفة وأنت مشغول عن نفسك ، ربما عثرت على طريق يؤدى إليه فتأنس بالصحبة وقتا ، وإن تحقق لك وصال معشوقك لحظة تدرك حقيقتك وتتخلص من قيد نفسك ، ولاتنظر أين هو وأين أنت ؟ فالعجيب هو ألا يكون هناك حاجز بين العبد والرب .

١٢ . قصة المجنون وليلى ٦١٩٠:٦١٩٨

كان المجنون يجلس ذات يوم أمام رباط بسرور ، بينما تتكىء ليلى على حائط محكم من الآجر ، ورآهما شخص فقال : لقد تحققت أمنيتى ، بعد عمر طويل .

أحقيقة أم خيال ، هذا الذى أشاهده أمامى الآن ؟ ليلى تجالس المجنون ، من رآهما معا من قبل ؟ ومن شاهد هذا العز فى الحياة يا إلهى ؟

عندما استمع المجنون إلى هذا الكلام من الرجل سمع منه حال قلبه المفعم بالآلام ، فأطلق صيحة وقال : إن هذا ليس جديدا لأن ليلى لم تبتعد عن المجنون لحظة واحدة ، وقد أحكم أساس الاتحاد بينى وبينها قبل العالمين .

المقالة الحادية والعشرون ٦١٩٩:٦٦٣٦

قال الولد لأبيه : بكل نصيحة وجهتها لى حللت لى بها قيدا ، وذللت لى بها صعوبات جمة فتبدل نحاسى ذهبا خالصا ، حديثك كله صالح فهو مفيد جدا ، ورفيع للغاية ، ولكن لأن الشغف بالكمياء يراودنى ربما تحقق لى منها الدين والدنيا أيضا ، وعندما تجتمع الدنيا مع الدين يتحقق لى وصال المعشوق ، فلو لم تتلازم الدنيا والدين لما كان لى تأييد من الحبيب .

إجابة الأب (٦٢٠٦:٦٢١٢)

قال له الأب : رأسك يملؤه الغرور فهذه الفكرة بعيدة المنال ، وطالما لا تتغاضى عن الطيب والسيىء فأنت لست عاشقا إلا مجازا ، إن لزمك الكمال فى العشق يجب أن تمر بثلاث حالات بصفة دائمة ، الأولى الدمع والثانية النار[١٨٩] والثالة الدم إن خرجت من هذه البحار الثلاثة ، يسمح لك المعشوق باجتياز الحجب وإلا واجهك المعشوق بأشواك وفيرة ، وإن لم تعتبر بهذا الكلام فإن هذه الحكاية تكفيك على الدوام .

١. قصة رابعة بنت كعب[١٩٠] (٦٦٣٦:٦٢١٣)

كان أمير حكيم صائب الرأى ، يقيم داخل حدود بلخ ، وكان بعدله وإنصافه أميرا تقيا ، توارث آباؤه الملك عن أجداده ، وكان مرهوب الجانب بقوته وجنده ، اسمه كعب على اسم كعبة الدين ، من رأيه اكتسبت الشمس فيضها وحصل القمر على بهائه ، ومن جوده استمد أهل الفضل الصيت وسعة الرزق ، ومن عدله ساد السلام فى الحال ، بين الشاة والذئب فى تلك الأنحاء ، ومن رهبته صارت مياه البحار الهادرة ، مثل نار خامدة داخل الحجر ، ومن رحمته ، لو وجد ذنب عظيم ، كان يمحوه من خاطره فى التو واللحظة ، ومن قهره ، كانت النار الخامدة تضطرم ، وتصير مثل الفحم المشتعل تحيط بها الزرقة من كل جانب . ومن جاهه ، ظلت العظمة حبيسة الجب .

ماذا أقول فقد فاق جاهه كل الحدود ، ومن حلمه ثبت الجبل فى مكانه لايبرحه ، واستوت الأرض فوق الثرى ، تحت أقدامه ، ومن غضبه مضت النار غاضبة ،ولكن العين امتلأت بالدمع فى قلب الحجر ، ومن ضيائه اكتسبت شمس الفلك نورها ، ثم أشعت على العالم ضياءها ، ومن جوده خجل البحر والمنجم ، وحزن الجوهر ، فى قاع البحر وداخل المنجم ، ومن لطفه استجدى ورق الورد ، لكنه إتخذ حجابا خجلا منه . ومن خلقه تناثر المسك فى الدنيا ، ثم امتد من الدنيا إلى الآخرة أيضا .و كان للأمير التقى ولد ، كان جماله موضع حديث مجالس السمر فى العالم . فقد كان وجهه يشبه الشمس ، وكان القمر يبدو أمامه مثل أحقر العبيد .

أسماه الملك "الحارث" ، وكان القمر رهن إشارته مثل الجوزاء . وكان للملك ابنة أيضا فى إيوانه عزيزة لديه ، وغالية كروحه . كان اسم فضية الصدر هذه زين العرب ، سحرها العجيب ، يبرح القلوب و يأسرها . اعتلى جمالها عرش ملك الحسان فى العالم ، وسيطرت على منجم الجمال فى الدنيا . العقل أمامها يتملكه الجنون ، فقد كان جمالها أسطورة فى الدنيا . إن ذكرها شخص فى مكان تصبح كل ذرة فيه مثل يوسف . لم يكن الهلال يشاهدها من سمائه ، إلا ويجثو لها فى التو على الدوام و كأنه قوس ، ولو أن رضوان رأى جبينها ، لهانت عليه جنات عدن .

ولو أن طرف ذؤابتها لمس الأرض ، لسرى الاضطراب فى الأفلاك ، لها نرجسان ، كل واحدة وعاء من اللوز ، ولكأنهما ساحران أوقعا طفلين زنجيين فى الشرك . وكل طفل زنجى منهما يحمل قوسا ، ويقذف الأرواح بالسهام فى كل صوب ، وعندما لمس سهم غمزتها الوتر ، جعلت قلوب العشاق هدفا لها . وقد منحت السكر من شفتيها الياقوتيتين

مذاقا آخر ، فلشفتها فعل الترياق فى السكر . وثغرها تتزاحم فيه اللآلئ ،وكل لؤلؤة فيه أجمل من الأخرى .وما أن أظهرت أسنانها الثلاثون المرجان ، حتى صار نثارها كل روح فى الوجود . شفتها الورديه كأس من الجوهر ، وشرابه من زلال الكوثر ،

لو شاهد الفلك كرة وجهها الفضية ، لجرى مثل كرة طائشة . وصف جمالها محال ، ووصفى لها ضرب من الخيال ، لم يكن لإنسان لطف طبعها ، فكل ما كانت تسمعه من الناس ، كانت تنظمه شعرا فى الحال ، تنظمه ببعضه كا للؤلؤ ،وكانت عذبة اللسان فى قول الشعر ، وكأن لسانها استمد العذوبة من شفتيها وقد تعلق قلب أبيها بها، فكان دائم الرعاية والحب لها .

وعندما حانت منية الأب ، أجلس ولده أمامه ، وأودعه الفتاة قائلا له: انتبه إلى رعايتها والعناية بأمرها ، وعليك تحقيق رغباتها وحل مرادها ، وأسعد أيامها . لقد خطبها منى مشهورون كثيرون ، من عظماء وملوك . فلم أزوجها لأحد ، وإن استطعت أنت ، أن تجد شخصا جديرا بها ، فأنت تعلم ما يجب عمله .وإنى أشهد الله على كلامى هذا ، فلا تغضب روحنا، وبعد أن أتم الأب حديثه الشامل ، وارتضى الابن كل ما قاله أبوه الكامل ، فارقت الأب روحه الطاهرة ، ولست أدرى لما جاء ؟ ولماذا مضى ؟ فكثيرا ماكد وتعب مثل الأفلاك ، حتى دُفن تحت التراب ، إن قوس الحق ليس ملك يمين البشر ، لذلك لايعلم أحد بأمر الحياة والممات .من ذا الذى يعلم إلى متى تمتد حياته ، ولماذاينتظر الرحيل من جاء ؟

عندما مضى الأب إلى الإيوان الإلهى ، اعتلى الابن الديوان الملكى . وأشاع العدل والإنصاف فى العالم ، فوجدت الحياة فيه خليفة لأنوشيروان ، أغدق الأموال على الرعية والجند ، ومنح كثيرا من القادة الطبل والعلم . وكثيرا ما نزع الأهواء عن النفوس ، وقضى على الظالمين . وكان يعز أخته كروحه ، فى حسنها و دلالها ، وذكرها الطيب .

و الآن استمع إلى أية لعبه ، قام بها هذا الفرجار الدوارمن أجلها . فقد كان للحارث غلام فريد ، يقوم على أمر خزانته . وكان اسم ذلك الشبيه بالقمر بكاش ، ولاأعلم له نظيرا . كان أعجوبة الدنيا فى الجمال ، وتدله الناس بعشقه أمر عجيب يستحق التأمل. فقدكان جماله مثالا للجمال ، وكان الأجل حارس وصاله ، فإذا ما انتابته حمرة الخجل ، انتهت مهمة الورد وتساقط داخل الطين . وإن ظهرت صورة و جهه ، ارتجت الجدران . وإن استولى عليه غضب كذؤابته السوداء (الهندية) ، بدا وكأنه الزنوج بمجعدى الشعر ، وإذا ما أسرزلفه العصاة ، كان يزرهم للريح كالنقد .

وأذا تعبس حاجباه ، أصبحا كأنهما قوس يطلق سهامه . وكانت جاذبية عينيه تستحوذ على غنائمها من الأرواح ، بسبب ذلك الشكل اللوزى الذى يتوسط وجهه ، لقد هزم صف أهدابه صف الأبطال ، بجرح السهام المنطلقة منها . وله ثغر كالياقوتة المثقوبة ، اختفت داخله ثلاثون درة غير مثقوبة . بلى ، فلو يثقب يا قوت ثغره ، لما كان ذلك إلا بألماس لسانه ، وأصدرت شفتاه أمرا إلى العمر الخالد ، فأدرك مساء الخضر الروح من هذه الشفاة .ويمكن أن تروى الروايات عن أسنانه ، ففى سم واحدة اثنتان وثلاثون آية. كان يشبه يوسف فى حسنه ، فماذا تقول فى كرة نونته ، إلام أظل مجذوبا بكرته ، فعندما أبدأ الحديث عنها ، تتعطل لغة الكلام .

وكان أمام القصر روضة عالية ، والجنة ماثلة فى أنحائها .ولم ينم البلبل طيلة الليل من العشق ، وهو يشرح للوردة طريق اقتلاع الشوك . فأطلت الوردة من البرعم مبتسمة بعذوبة ، فى غنج ودلال شديدين . وخرجت الوردة الحمراء من قماطها الأخضر ، كأنها طفل غارق فى الدماء . وجرى نسيم الصبا مثل زليخا ، وقد تمزق ذيل الورد منه مثل يوسف ، وهب على الصحراء مثل نسيم أخضر ، فنبت العشب ، واخضوضرت الصحراء . وأصبح للبرق والشهاب سنان حساد ، وأطلق السحاب مائة عنان للمطر .وتشابكت أيدى المروج الخضراء معا ، و فى كل يد منها مئآت الدرر من المطر . وأمد البنفسج رأسه لخدمتها ، و لكن بعد أن قبل قدميها ، وظهر الأرغوان المضرج فى دمائه ، وهو يتصارع مع بعضه البعض ، وأمسك النرجس بكأس ذهبى ، وتجرع اللبن من الأمطار كالسكر . وتساقطت رؤوس الشقائق فوق الأقدام ، وأصبحت براعمها عند الوسط. ووصل من الروض آلاف مثل يوسف، وأدرك كنعان رائحة القميص ،وصدحت الطيور فى المروج ، فسادت الجلبة فى الصحراء .

و فى الصباح ، موجت الريح المسكية، صفحة المياه فأصبحت وكأنها مبرد. و كأن افراسياب قد وجد ماء زره ، الذى صنع الماء منه درعا بفعل رياح النيروز . كان الغدير يتدفق بمياه الكوثر من كل صوب ، بحيث يبدو ماء الخضر أمامه كرشح ضئيل له .

و كان أمام الروض طاق يطاول زحل ، وقد استقر عرش الحارس أمام الإيوان ، وكان الحارث متألقا كالشمس ، وهو يتصدر الحفل مثل سليمان ، ووضع الغلمان أيديهم على خصورهم كالجوزاء ، وكل واحد منهم ممشوق القامة كالسروة الميادة ، واصطف الأتراك الأقوياء واقفين ، وقد وضع كل واحد منهم يده فوق صدره للخدمة . وأطرق النساء من العظماء والحكماء بأبصارهم إلى الأرض من الهيبة ، فشرفاء العالم بأسره تحت

طوعه ، ونظام العالم كله من رأيه الرفيع ، و الفتنة مقيدة فى مهدها من تألق طالعه ، والدمع محتبس فى عين النار خوفا من غضبته . فله غضب زحل ، ووجه المشترى ، وطلعة القمر ، وفطرة عطارد ، ورفعة الشمس .

وما أن صعدت بنت كعب إلى السطح ، حتى بهرت بجلال الحفل . وأخذت تجول ببصرها فى كل صوب ، فشاهدت ذلك القمرى .وتبدى لها وجه بكتاش وعارضه ، مثل سروبا سق يرتدى القباء ، فشعرت بدنيا الحسن وقفًا على وجهه , ووجدت كل الجمال من نصيبه مثل يوسف ، إنه الساقى الواقف أمام الملك . وقد ألقى بطرته الطويلة على قدمه ، وأحمر وجهه مثل الجلنار ، بفعل الثمل ، و بدت أهدابه كشوك فى عين العاشق . و تفجر السكر من النبع العذب ، وانساب العرق من القمر على الثريا .

كان يقدم الشراب و هو ثمل حينا ، ويعزف على الرباب ألحانا جميلة حينا آخر ، ويصدح با لغناء مثل البلبل تارة ، ويصب الشراب من الإبريق تارة أخرى ، وعندما شاهدت الفتاة وجهه بهذا الحسن ، أدركت أن قلبها و قفا على شعرة واحدة منه .

وسرعان ما اجتاحتها نار هواه ، وسلبت كل وجودها . وأثرت تلك النار فى روحها ، لدرجة سلبت معها كل إحساس لها بها . صار قلبها عاشقا وأصبحت روحها متهمة ، وانعدم وجودها من رأسها حتى قدميها ، تدفقت الدماء من عينيها مثل السحاب ، فأجرت منه فى ساعة واحدة طوفانا كبيرا ، استأصل عشقه شأفتها من جذورها ، فصارت كأنها مصلوبة بأكملها ، هكذا وقعت فى شركه من نظرة واحدة فصار حلمها ليلا وراحتها نهارا ، و صارت تلك الحكيمة مسكينة ، فلم تكن تعرف رأسها من قدميها ، فكانت طوال اليل تريق الدماء وتنوح ، وتتجدد حرقتها مع كل نفس كالشمع ، ومن شدة النيران التى شبت فى روحها ، كانت تغيب عن وعيها كثمل بكأس من المدام .

بجمل القول بعد عام اعتلت صحة تلك القمرية بفعل الألم والأسى ، فأحضر لها الحارث طبيبا دون جدوى ، فما تعانى منه تلك الفاتنة داء لادواء له .وأنى لذلك الداء من دواء ، ودواء الروح عند الحبيب .

وكان للفتاة وصيفة خاصة ، واسعة الحيلة . استدرجت تلك الفاتنة بحيل شتى قائلة : أيتها الفتاة ماذا حدث لك ، اصدقينى القول . فى البداية لم تقترب القمر بشئ البته ، ثم انطلق لسانها قائلة : رأيت بكتاش فى ذلك اليوم ، بذوائب تحرق الفؤاد ووجه يضئ القلب . كان يحتضن ربابة كأنه ثمل ، وأنا منه كالربابة ويدى على رأسه . عندما عزف

نغمة (سبزانك) وتغنى بها ، طارت الطيور على الـ (قول) والـ (آهنـك) ، وعندما عرج إلى الـ (سبزارنك) والـ (كلزار) ، كان الثمل يبدو على الورود جليا واضحا . وبعزفه على المضراب للـ (دوراهـى) ، جعل أنغام المخالف تستقيم على أنغام الـ (قول) وتصبح (راست) ، لو لم يـوجـد مخـالف للـ (راست) فى العالم ، لعزفه على الـ (زير) و الـ (بم) [١٩١] ، ماذا أفعل وقد صار قلبى مخالفا ، ولن يستقيم عزفى على هذا اللحن .

الآن وقد همت فى الآفاق ، صرت أهلا لعزف نغمـة العشـاق ، عندمـا سمعـت لحنـا من ذلك الجامح ، جعلت من عينيه آلة تعزف الـ "بـرده" ، هكـذا برحنـى عشـقه ، فشـملنى بأحزان مائة عام ، وسلبنى زلفه قرارى ، فصار ملكى إلى زوال ، وقيدتنى حلقه طرته من وسطى ، فدمى قلبى ، حتى توقف كبدى عن العمل ، وقد اعتلت صحتى ، وتدلهت على هذا النحو ، لأننى أعلم أننى لا أستحق قدره .

لا مثيل لبكتاش فى حسنه ، ولا يمكن أن يفضله أحد فى جماله ، إن أمكننى الحديث عـن هذا السرو ، فلماذا يجب أن أتحدث عن أحـد سواه ،نونتـه تشبـه الكـرة الفضيـة ، بينمـا تجاعيد غدائره كصولجان مسكى ، وجبهته ميدان فضى ، فإن اتخذت من طرته صولجانا ، فما الخوف ؟ فى هذا الميدان لن أحمل الكرة مـن ذقنـه ، بصولجانـه الهـائم ، إن جعـل مـن جـديلته صولجانا ، فهو يجعل رأسى مثـل الكـرة الطائشـة ، إن تجلـت إشـراقات وجهـه الميان ، تجعل كل ذرة مائة قمر ، لقد ألقى بهلال عارضه كالهالة ، فجعل الهلال ينتحـب حزنا ، إن ظهرت حلقات طرته الآسرة ، أسرت فى كل حلقـة منهـا مائـة روح ، اتشح إنسانى نرجستيه بالسواد ، لذلك اعتكفا داخل مجلسه .

كان سحر كأسى عينيه الداميتين ، يتلاعب بالعـالم ويسـحرهم بأهدابـه ، عندمـا أصـاب سهم غمزته القلوب ، توقفت الرماح والسهام ، خوفا منه ، وله خط تقبع داخلـه أسنانه الثلاثـون ، وشفتاه ضاحكتان ، ينعكس عليهمـا لـون دمـائى ، وقـد رأت صدفـه ودره اليتيم ، فتوقفت عن نعت فضيتها أمام أسنانه ، فمه فستقة دقيقة ضاحكة ، وقـد احتـوت أسنانه داخلها مثل لوحى لعبة النرد .

إن ضحك ظهرت تباشير الصباح ، والعظام تقوى بالطباشير ، لشفته ما يربـو على المائـة ألف عبد ، فهى تتدفق حياة أكثر من مـاء الحيـاة ، استقام خـط عارضـه النضـر ، فصـار ناسخا لجميع الخطوط إلى الأبد ، العالم مختف داخل فص خاتم شفتيه ، والفلك قابع تحـت سرج كواكبه الثلاثين ، لقد ساء حالى من تفاحته ، ومن هيئته الصنوبريـة النارية هـذه ،

لأننا أسرى لهذا السرو الباسق ، فقد صار وجهي بلون السفرجل ، وفقد نضرته ، يشدني غم سهام قده كل لحظة ، إلى أوتاره مثل القوس .

والآن انهضي أيتها الجارية ، وانطلقي إليه ، لتكوني رسول هذين العاشقين ، اذهبي واشرحي له هذه القصة ، وارسي أساس عشق هذين الحبيبين ، افصحي له عن هذا السر ، فإن تملكه الغضب ، لن يبوح قلبي بهذا السر ، ويفتديه ، وأشيري له أيضا ، أنه سوانا نحن الاثنين ، لم يعرف هذا الأمر ، رجل ولا امرأة . قالتْ هذا ، ثم أخذت طيبة الذكر ، تخط رسالة بدماء قلبها :

ألا أيها الغائب الحاضر ، أين أنت ؟ لماذا أنت بعيد عني في نهاية الأمر ؟ عيناي تستمدان ضياء هما منك ، وقلبي يأتلف بك أيضا . تعال وضيف العين والقلب ، وإلا أستل السيف وأزهق روحي . فأنا لا أرى الآن من نعيم ملك العالم ، سوى نصف روح . فلماذا لاأفني نصف الروح هذه فيك : فإنني بدونك لست في حاجة إلى مائه روح . سلبت قلبي و لوكان لي ألف قلب ، لاقتصر عملي على أن أهبها كلها لك .

إنني لا أشغل القلب عنك لحظة ، لأنني لاأنزع القلب أبدا عن الحبيب . أخفي لوعة عشقك داخل روحي ،ولأنني بدونك لاقلب لي ولادين ، فلم تبرحني على هذا النحو ؟ أنا بدونك و جهي أصفر كالدينار ، ومن عشق وجهك وجهي معلق بالجدار . رأيتك فلم أر مثيلا لك و لم أشاهد سروا باسقا نظيرا لك .

إن تحقق لي وصالك ،نجوت ، والا سأهيم على وجهي حيثما أكون .أحمل بكل إصبع مصباحا ، وأبحث عنك في كل صحراء وبستان ، فإما يتجلى نورك أمامي كالشمع ، أو اعتبرني كسراج خبا نوره ، و بعد أن أتممت الرسالة ، رسمت صورة لها كالقمر . وأعطتها للوصيفة ، فا نطلقت بها ، وتوجهت بها إلى ذلك الحبيب ، قمري الوجه .

و عندما شاهد المحبوب صورتها ، وقرأ شعرها ، ظل متيما بلطف طبعها و جمال صورتها . وفي ساعة واحده فقد سيطرته على قلبه ، فقد استبد به العشق ، ودمى قلبه شجنا ، ابتلعه تمساح العشق في الحال ، وأجرى بحار الدماء حوله من كل جانب ، فألف وجه الدنيا ، دون وجهها ، كأنه خلا من الأرض و السماء . وبدا كأنه قد فقد التمييز بين رأسه وقدمه ، فارتدى القلنسوة على قدمه ،ووضع الخف فوق رأسه ، وقال للوصيفة : هبي أيتها الحكيمة ، اذهبي إلى تلك الفاتنة ، وابلغيها قولي :

لاسبيل لى لأتطلع إلى وجهك ، وبدونك ، فرغ صبرى ، وتلاشت راحتى ، وماذا عساى أن أفعل الآن بدونك ؟ وأنا لا يمكننى تجشم هذه الآلام المبرحة بعيدا عنك ، لقد مزقت طرتك سترى ، عندما هام قلبى بعشق وجهك . فقدسلبتنى طرتك قرارى ، فتعلق عمرى بها ، وعندما قبعت داخل روحى فى السر ، خفق قلبى ، فحللت بدمائى . وإن كنت كامنة داخل روحى ، فلماذا تتعطشين لدمائى .فياقمرا يختفى داخل السحب ، لاتشرقى مثل صباحى ، ولاتشهرى بعصيانك السيوف مثل شمسى ، إن أضأت عينى بلقاء ، أفتديك بوجودى ، أيتها الحياة إننى أموت الآن ، فادركينى وإلا سيكون مصيرى كما تعلمين .

انطلقت الوصيفة إلى تلك القمر ، وأخبرتها بعشق الغلام لها . فقالت : إنه متدله بالعشق أكثر منك ، ويحترق فى لهيبه ، إن شعر قلبك بمدى عشقه ، لتعلم العشق وخبر آلامه منه آنذاك . فسرّ قلب الفتاة للغاية ، وانساب الدمع فوق وجهها من فرط سعادتها .

ولم يعد لتلك الجميلة عمل ، سوى نظم الشعر وإنشاد الغزل ليل نهار . وأخذت تنظم الشعر بغزارة ، وترسله ، وأصبح لها باع وقدرة فى قول الشعر ، وكان الغلام كلما قرأ شعرا لها ، يشتد عشقه لها ، ويزداد تيها بها ، وعندما انقضت مدة على هذه الحال ، خرجت تلك الفاتنة إلى دهليز ذات يوم ، وفجأة شاهدها بكتاش ، وعرفها ، فقد أمضى مرا متدلها بعشق صورتها .فأمسك بأذيالها ، وثارت الفتاة ، وتخلصت منه قائلة :

ويحك أيها الوقح ما هذه الجرأة ، إنك تغلب فأى عرين للأسد تقتحم ؟ لايجرؤ شخص أن يحوم حولى ، فمن تكون أنت حتى تمسك بذيلى ؟ فقال لها الغلام : يامن أنا تراب محلتك ، كيف تخفين وجهك عنى ؟ والإفلماذا أرسلت الشعر إلى ليل نهار ؟ وأسرت قلبى بتلك الصورة الفاتنة ؟ إنك أوديت بعقلى فى البداية ، فلم جعلتينى غريبا فى النهاية ؟

أجابته فضية الصدر عندئذ إنك لاتعلم ذرة من هذا السر ، لقد وقع أمر فى صدرى ، لكنه انكشف بسببك ، وكيف لمائة غلام أن يفوز بما منحتك إياه .وهذا كاف لك وتام ، ألا يكفيك هذا على مر الزمان ، أن تكون وسيلة إلى هذا الأمر. أقمت أساسا من العار بهذا العمل ، وترديت بسببه أسيرا للشهوة . قالت هذا ثم اختفت من أمامه .

فاشتد افتنان قلب الغلام بها مائة مرة ، وقد قرأت من أقوال أبى سعيد مهنه .أنه قال : وصلت إلى هناك ، فتقصيت عن حال بنت كعب ، هل كانت عارفة أم عاشقة مدلهة ؟و يقول أبوسعيد : لقد نما إلى علمى ، أن ذلك الشعر الذى جرى به لفظها ، من تباريح

عشق معشوق مجازى ، فهى لم تنظم ذلك الشعر عبثا ، ولم يكن لذلك الشعر شأن بمخلوق ، فقد كان لها عهد مع الحق . وكان فى معانى شعرها كمال تام ، وكان الغلام وسيلة فى الطريق ، وظلت الفتاة العاشقة تعانى من هذه اللوعة ، فكانت تقول الشعر بالتياع ليل نهار ، وذات يوم ، بينما كانت تتجول بمفردها فى المروج ، كانت تترنم بهذه الأشعار :

ألايا نسيم السحر ، هب ، وأخبر عنى ذلك التركى البطل . وقل له إنك قدسلبتنى الكرى شوقا إليك ، و محوت و جودى ، وتجرعت دمائى ، وكان الحارث فى ناحية من المروج آنذاك ، فترامت هذه الأشعار إلى مسامعه فى الحال ، فثار ، وفاجأها بندائه وقال لها :

ماذا تقولين أيتها الضالة ؟ أسقط فى يد الفتاة العاشقة أمامه ، فغيرت ذلك الشعر ، وقالته على هذا النحو : ألايا نسيم السحر ، امض ، وأخبر عنى ذلك السقاء الأحمر ، وقل له : لقد سلبت نومى بسبب الظمأ ، ومنعت عنى الماء ، فأدميتنى . وكان لها سقاء أحمر الوجه ، يأتيها بإبريق الماء دائما ، فأبدلت التركى البطل القمرى ، بذلك السقاء الأحمر فورا ، وهكذا أوحت إلى أخيها ، أنه قد أساء الظن بها .

بمجمل القول ، عندما مضى شهر على هذه الواقعة ، جاء جيش لمحاربة الحارث ، جيش عدده يربو على الحصر ، يشبه دوران الفلك ويفوق العد والحصر ، جيش يموج بالسيوف والدروع ، فعم العالم الضياء من سيوفه ودروعه ، قدم الجيش من قمة الجبل و سفحه ، فصار ثور الأرض مثل حمار تكتنفه الثلوج ،

ومن ناحية أخرى وفى الوقت نفسه ، خرج الحارث بجيشه من بوابة المدينة ، وكان جيشه بأسره ميمون الطالع مثله ، مرتفع الراية والهامة مثل رأيه ، فدان النصر له كحلقة فى أذنه ، وتواكب الظفر مع الفتح والتوسع ، وخلاصة القول التحم الجيشان ، ودار القتال بينهما ، وغطى الغبار الصحراء بأسرها ، وتعالت الصيحات حتى عنان السماء ، وأصمت أصوات الطبول العالية أذن الفلك ، وفقدت الأرض ثباتها وأصبح سافلها عاليها مثل السماء ، ونبتت الشقائق فوق الأرض من دماء الأعداء ، وامتلأ الهواء بالطل من جراء السهام المتلاحقة، وتشابكت أنهار الحياة بالدماء ، وسد القتلى مجراها ، ونشب الأجل مخالبه فى الأرواح بحدة ، وسن القضاء أسنانه بالحقد والعداء ، وظهرت علامات عديدة للقيامة ، علت هامة الشيطان منها .

عندئذ تقدم الحارث الصفوف ، وهو يقود جيشه الجرار ، وبعد أن نظم جنوده ، تقدم كالليث ، وحمل على أعدائه ، فتمزق الفلك العتيد بنجومه العديدة ، من سن رمحه ، وعندما وجه سيفه إلى الرؤوس بعزة وكرامة ، حمدت الفتنة حتى يوم القيامة ، وعندما غسل حسامه من دماء خصمه الوردية ، نبت ورد النصر منه . وعندما انطلق سهمه صوب الفلك الأزرق ، خرج من ثقب إبرة عيسى .

و من ناحية أخرى كان بكتاش القمرى الوحه ، يوجه سيوفه كل صوب ، إلى أن أصابته عين السوء ، ففقد توازنه على إثر ضربة سيف ، وكاد هذا التقى ، أن يقع فى أسر الأعداء ، وظهرت فتاة ملثمة فى ذلك الصف ، تحمل سلاحا ، وتمتطى جوادا ، تقدمت الصفوف كأنها جبل ، فسيطرت هيبتها على القلوب .

و لم يعرف أحد من تكون فضية الصدر هذه ، التى تحدثت و قالت : ما هذا التخاذل ؟ أنا ملك يزين الفلك سرجى ، والقمر والشمس راجلان فى ركابى ، إن أطحت بفرس ، يكن مآله إلى الإعدام ، وأطرحه أرضا مثل الرجال الأشداء ، والرأس التى تسلك طريق العصيان على حكم هذه الذات ، ألقى بها تحت أقدام الفيلة ، فتدرك نهايتها ، إن جردت سيفى عن غمده ، أنزع كبد الأسد الهصور ، وإن برق سيفى الذى يضطرم نارا ، تتحول ألسنة النار ووهجها إلى ماء خوفا منه ، وإن هززت الرمح فى يدى مثل الثعبان ، لايطاولنى أحد فى الصفوف .

وإن واجه سندان رمحى ، يصر من ضرباتى المتلاحقة إربا إربا ، و من ضرباتى تشل قوة السندان ، ولا يبقى من السندان أى أثر ، وحينما يصوب طائر سهمى من الوتر ، يصدرالثناء من حلق طائر الفلك . وما أن أنزع الوهق عن السرج ، حتى أسقط العدو على وجهه فوق الأرض مثل الريح . إننى كالفرس فى هجومى ، لى أيادى كثيرة فى الفتح ، وأنا فى حرب رستم ، رستم فى الأصل .

قالت هذا ، وتقدمت كرجل مغوار ، وقتلت عشرة أشخاص من هؤلاء الرجال ،ثم أقبلت على بكتاش و سيفها فى يدها وأخذته من هناك وحملته إلى الصفوف ، ووضعته بين الجند ثم اختفت وسط الجمع ، و لم يعرفها أحد من أهل الزمان .

وعندما اختفت تلك الفتاة الفاتنة فى ناحية ، انطلق جيش العدو مثل مياه البحر ، وظل يقترب حتى تمكن من البلاد ، فلم يبق على مدينة ولاديار ، عندئذ ظهر المدد للحارث ، وكان خلقا كثيرا من قبل ملك بخارى ، وجاء جيش من الجبل والسهل ، فدار لكثرته

رأس الفلك ، وما أن أدرك المدد الحارث ، حتى انتصر الحارث و جيشه فى الحال ، وانهزم جيش عدوه ، فتناثرت أشلاؤه فى الطريق بذلة .

وعندما دخل الملك المدينة مظفرا سعيدا ، طلب فارس ذلك اليوم المغوار ، فلم يجد له أى شخص أثرا ، وقال الجميع : لقد اختفى مثل الجان ، خلاصة القول عندما ظهر زنجى الليل ، وهو يضع نصف القمر فوق شفتيه ، ظل قرص القمر طوال الليل ، يلقى بزبد نوره مثل قرص الصابون ، وظلت تلك الفاتنة تراقب الأنوار بعينين داميتين ، وقد فقدت الأمل فى حياتها .

وعندما انحسر غراب الليل عنها كان قلبها مثل طائر وقع فى الشرك ، وكان فؤادها ملتاعا لما أصاب الغلام من جروح ، فقد أحرق جرحه روحها فى طرفة عين ، لم يغمض لها جفن ، ولا هدأ لها بال ، ورأس معشوقها تنزف جراحه ، وأنى لقلبها أن يستريح ؟ فكتبت رسالة بدماء عينيها ، ونظمتها رائحة الياسمين على هذا النحو ، فاستمع إلى الفصيحة العاجزة :

رأس جعلته العظمة تاجا للكبار ، فلأى أمر يصيب نصل الرمح هذا الرأس ، وليكن رأس عدوك عاجزاً ، ولا رفع رأسه إلا فوق المشنقة ، والرأس الذى لا يتحقق له السيادة ، بوجودك ، لا يكون تنكيسه حماقة ، ورأس الذى لا تنحنى رأسه على تراب هذا الباب ، قسما بالروح والرأس أن يكون فداء لهذا الرأس ، وإن واجهك الحسود المغرور راكب الرأس ، اقتلع رأسه مثل الحية فإن هذا تدبيره ، وإن جاورك الخصم الأهوج ، فضع رأسه واجتزه أسرع منه ، والرأس الذى لا يستقيم صاحبه معك ، فلا كان هذا الرأس التى ينبع منه نقائصه ، وإن م يستسلم العدو ويحنى لك رأسه ، يشق عليه رأسه عصا الطاعة ، وإن لمن يحن الرأس أمامك ، فلن يبقى من رأسه قدر شعرة ، ورأسك الناضر الذى حظر الحج سنه بالسمو ، نالت الرياسة من نضرته كل رأس ، وقد رفع الفلك المنكس هامته له ، ليقتفى أثره فى كل لحظة ، وإن تسببت آلام رأسى فى صداع رأسك ، فليكن رأسى المقطوع دواء لرأسك ، لقد وضعت رأسى على الأرض أمام هذا الرأس ، فليكن مئات مثل رأسى فداء لذلك الرأس .

الشخص الذى اسبتد به الحقد نتيجة لجراح الخذلان ، إن تراجع فإنما بسبب قهرك ، والشخص الذى يأكل من غصن العيش ، إن أكل دون ذكرك ، فهو يأكل كبده ، والجاهل الذى يفتخر بحكمته ، إن سك الذهب بدون اسمك ، فسد عمله ، ومن هفت نفسه إلى الحج ، إن حج بدون أمرك ، فقد أخطأ ، فما الذى أصابك : فتضرجت فى

دمائك ، إنك لن تجد أحدا قد برحه الحزن عليك أكثر منى ، يحترق صدرى طوال الليل كالشمعة ، فإذا ما انقضى الليل ، واجهت الموت طوال النهار ، إننى مثل الشمع ، أضحك دائما من العشق ، وأقيم السدود أمامى من دمعى .

أنا مثل الشمعة التى تحيا من عشق الروح ، وتضحك بين الدمع والنار ، إن كان لليلى أمل فى النهار ، لقلت لوعتى واحتراقى ، ولأنه لا أمل للشمع فى صباح ، فهى لا تتوقف عن الاحتراق لحظة .

من هذه النيران التى شبت فى روحى ، حلت الأمطار الغزيرة بأهدابى ، ومن هذه النيران التى تتلاطم ألسنتها ، من العجيب أن تتدفق المياه على هذا النحو ، ماذا تريد منى ، مع كل هذه اللوعة ، فالحرقة تلازمنى ليل نهار ، لا تضرجنى بالدماء وسط هذا التراب ، ولا تتقاذفنى مثل الفلك ، إنك تعلم حيرتى ، فلماذا تسلبنى وجودى ؟ إنك تعلم أننى ثملة ، وقد ترديت على هذا النحو بسببك .

إننى لم أسفك دماء أحد ، فلماذا لا أحيا ، إلا وسط الدماء ، لقد فقدت وجودى فى عشقك ، فلم أعد أتلمس طريقى ، لى قلب مجروح ، مبرح بآلامه ، دخل إلى بيت الحزن ، وأقفل عليه بابه ، إلى متى تحرق وجودى ؟ وتحرقنى مثل البخور فوق النار ، لو لم يكن لدى أمل فى وصالك لما تبقى منى تراب ولا دخان ، لقد قاومت روحى الموت ، فعاشت ، لأنه يمكن الحياة على أمل وصالك ، لا يقوى قلبى على ذكر اسم الهجران ، وهو لم يدرك وصال الحبيب بعد ، لقد بحت لك بواحد من تباريح عشقى المؤلفة ، التى سلبت قرارى ، إن سنحت لى فرصة أخرى ، سأبوح لك ثانية بما يعتمل فى قلبى ، وإلا ، سوف أحفظ هذا السر داخل روحى .

وانطلقت الوصيفة حاملة الرسالة ، ولم تزد فيها أو تنقص منها أى شئ ، فوجدت رأس بكتاش مع جراحها الغائرة ، مرهما للقلب وراحة من تلك الرسالة ، وانهمرت سيول الدماء من عينيه ، وخط لها رسالة ، تموج بكلمات العشق فقال :

أيتها الحبيبة : إلى متى تتركيننى وحيدا ؟ ألا تعودين مريضك ؟ تعالى أيتها الفاتنة ، واجلسى هوينة ، إلى جانب فراش الغرباء ، مثل الأحباء ، إن كانت رأسى اليوم ، تعانى من جرح ، فروحى تنهشها آلاف الجرح ، أيتها المعشوقة برحنى الشوق إليك ، فصار ثوبى كفنا يلفنى ، قال هذا ، ثم فقد رشده .

ومضت عدة أيام ، وبدأ بكتاش يستعيد سابق عهده ، وشفى من جراحه ، وذات يوم ، وبينما كان الرودكى يسير فى طريقه ، ألف الفتاة الفاتنة جالسة هناك ، فكان أن قال بيتا له طلاوة ماء الذهب ، وقالت الفتاة أفضل منه ، وفى ذلك اليوم ، قال الأستاذ أشعارا غزيرة ، وردت عليه الفتاة ، وظل الرودكى هناك متعجبا ، من لطف طبع تلك الجليسة العاشقة ، وبعد أن وضح له أمر عشق ياسمينية الصدر تلك ، انطلق فى طريقه ، فبعد أن اتضح السر أمام الرودكى [١٩٢] ، توجه من هناك ، إلى مدينة بخارى .

وأسرع إلى خدمة الملك ، الذى كان قد أرسل مددا إلى الحادث ، وكان الحارث قد وصل إلى الملك المعظم أيضا ، ليقدم له آيات الشكر والعرفان ، و فى ذلك اليوم أقيم حفل ملكى ، ماذا أقول ، فقد بدا مثل جنة بهية ، وطلب الملك من الرودكى نظم الشعر ، فنهض الأستاذ وانطلق لسانه مترنما ، وكان لايزال يتذكر شعر بنت كعب ، فألقاه كله ، فبعث فى المجلس النشوة والدفء.

قال له الملك : اخبرنا عن قائل هذا الشعر ، فهو يشبه اللؤلؤ المثقوب ، وأنى للرودكى أن يعلم بوجود الحارث ، وهو نفسه ممتلا بالشعر والخمر . فانطلق لسانه ، وقد أطلق الثمل قيوده قائلا : إنه شعر بنت كعب أيها الملك ، إنها عاشقة مدلهة بغلام ، وقعت فى شباكه كطائر ، لا وقت لديها لطعام أو لنوم ، فليس هناك ما يشغلها سوى قرض الشعر وقول الغزل ، فإن نظمت مئآت الأشعار المفعمة بالمعانى ، أرسلتها إليه فى الخفاء . ولو لم تتأجج نيران العشق فى صدرها ، لما حسن منها قول هذا الشعر .

وما أن سمع الحارث هذا الكلام حتى تداعى ، وإن كان قد تصنع الثمل آنذاك ، وبجمل القول ، عندما عاد إلى مدينته ، لم يفض بالسر إلى أخته ، ولكن كانت روحه تموج بالحزن والأسى ، وهو يختلس النظر إليها على الدوام ، حتى يعاقبها بذنبها ، ويريق دمها أينما تكون .

وكانت الأشعار التى نظمتها تلك القمر ، قد بعثت بها إلى بكتاش كلها ، فوضعها بكتاش فى صندوق جواهر ، بإعزاز ، وأحكم إغلاقه بحيث لا يمكن فتحه ، وكان لبكتاش الفضى الصدر ، رفيق ، اعتقد أن هذا الصندوق يحتوى على جواهر ، ففتحه ، وقرأ الرسائل ، ثم أحضرها إلى الحارث ، و قرأها أمامه ، فاضطرم قلب الحارث بالنيران ، من هذا الأمر ، وبدأ يفكر فى القضاء على أخته .

فى البداية ، قيد الملك غلامه الخاص بكتاش ، وألقى به فى غيابة الجب ، ثم أمر بإحماء حمام ، من أجل فضية القوام تلك ، عندئذ أمر الملك أن تفصد عروق يديها ، لا أن

تقيدا ، ثم أدخلها الملك الحمام ، وسده من الخارج بالجص والآجر ، وتعالت صرخات سروية القد ، ولكن أى جدوى من الصياح ؟ ومن ذا الذى يعلم أنه عندما يفارقه قلبه ، يدمى كبد الحياة حزنا عليه ؟ و من ذا الذى يذكر قصة تشبه هذه القصة أبدا !؟ ولمن وقع مثل هذا الأمر أبدا !؟ ومن وجد ذات يوم فى الحياة ، بهذا البؤس ، وهذا الألم ، وهذا الاحتراق أبدا !

فتعال ، إن كنت عاشقا ، لترى اللوعة ، وترى طريق العشاق ، فقد أمسكت ألسنة النيران بتلك القمرية ، ثم خمدت كل تلك النيران دفعة واحدة ، نار من الحمام المخيف ، ونار أخرى من ذلك الشعر النارى ، ونار من نزق الشباب ، ونار من نزف الدماء بغزارة ، ونار من تباريح العشق ولوعته ، ونار أخرى من الفضيحة والحيرة ، ونار من المرض والوهن ، ونار أخرى من دفء القلب وحرقته وثمله ، ومن الذى يستطيع أن يخمد مثل هذه النيران بأى ماء ؟ ومن يمكنه السيطرة على كل هذه النيران ؟

وكانت تلك القمرية تضع إصبعها فى دمائها ، ثم تكتب أشعارها الغزيرة ، فملأت الجدار بما كتبته من دمائها ، وسجلت أشعارا كثيرة تنطق بآلام قلبها ، وعندما لم يتبق لها فراغ فوق جدار الحمام ، ولم يعد هناك كثير من الدم ، وامتلأ الجدار كله بالأشعار ، سقطت وانهارت مثل ناحية من جدار ، وفاضت روحها الطاهرة فى عزة وبهاء ، بين الدم والعشق والنار والدمع .

وفى اليوم التالى ، عندما فتحوا الحمام ، كيف أصور ، ما كانت عليه تلك الفاتنة ، كانت تشبه غصن الزعفران ، من قدمها حتى مفرقها ، ولكن وهى غارقة فى دمائها ، فحملوها ، وغسلوها بماء طاهر ، وأوروا الثرى قلبا داميا ، ونظروا إلى جدار الحمام ، فى ذلك اليوم ، فوجدوا هذا الشعر المهلك للفؤاد :

أيها المعشوق إن عينى بدونك نبع متدفق ، وكل وجهى مخضب بدماء قلبى ، لقد أودعت أهدابى للسيل ، لا لقد أخطأت فقد جرفت وجودى ، سلبت روحى وحللت بها سعيدا ، لا لقد أخطأت إنك جلست داخل النار ، ولأنك استقريت داخل القلب فلا تدعه ، لا لقد أخطأت لأنك لا ترد فى الدماء ، لأنك أجريت من عينى جدولى ماء ، فقد جعلت غسلى فى الحمام ، وأنا فى نهاية الأمر كسمكة فى مقلاة ، ألا تأتى إلى هذا الحمام فى النهاية ؟ على هذا النحو ، كُتب على ، أن يُلقى بى حية داخل سعيرهم فجأة .

وحتى داخل السعير ، توجد أسرار ، يمكن أن تكتب بين الاحتراق والنار ، وأنت متى تعلم كيفية الكتابة ، فمثل هذه القصة ينبغى أن تكتب بالدماء ، وإن كان جحيمى من

ذلك الفردوسى الوجه ، فالجنة بين يدى من كل صوب ، ولأن نصيبى من الحق هو جهنم ، فقد صارت قصتى للعشاق جنة. لدنيا العشق الآن ثلاثة دروب : إحداها النار ، والأخرى الدمع ، والثالثة الدم ، والآن أنا فوق النار ، لأننى أريق الدماء حينا وأذرف الدمع حينا آخر ، أردت أن تحترق روحى بالنار ، ولأنك كامن فيها ، لا أقدر على احتراقها .

إننى أغسل بدمعى قدم الحبيب ، وأودع الحياة بدمائى ، وأحرق كل أهل الغفلة فى العالم ، بهذه النار التى أشعلها من روحى ، وأغسل وجوه كل من لم يغسلوا وجوههم ، بما يراق على وجهى من هذا الدمع ، إن تيسر لى السبيل وسط هذه الدماء ، اجعل كل العشاق فى لون الورد ، ومن هذه النار التى أعانيها فى هذه الحرقة ، يظهر لى كيفية الاحتراق فى سبع من جهنم ، ومن دمعى هذا وهو طوفان متدفق بالدماء ، أعلم المطر كيفية الإمطار ، ومن دمى هذا وهو كالبحر ، أعلم الشفق الإحمرار ، ومن هذه النار التى أشعلها لى الزمان ، كانت جهنم تطلب منى شعلة ، ومن دمعى هذا جعلت العالمين بأكملهما ، طينا فى الماء حتى يوم القيامة ، ومن هذه الدماء سددت طريق الفلك ، حتى صارت طاحونة الفلك تطحن الدماء .

أحرق بتلك النار كل رسم ، سوى رسم خيال معشوقى ، وأغرق الأرض بالمياه من الدموع ، من هذا الألم الذى عاناه ذلك الجميل ، ولأن معشوقى يسعد بحزنى ، فما أجمل أن تمتلئ الدنيا بدمائى ، لقد تجرعت دماء روحى كاملة ، فهنيئا لك أيها الحبيب العزيز ، والآن أرحل عن هذه الدنيا ، بين النار والدمع والدم بقلب جريح ، وقد انتهت حياتى بدونك ، وأنا ذاهبة عنك ، فلتبق أنت إلى الأبد .

وما أن كتبت هذه الكلمات بدمائها ، حتى انتهى أمرها ، وفاضت روح هذه البائسة ، وأسفاه ، بل مئات الآلاف من الأسف والأسى ، على موت درة الفرسان بهذا البؤس ، أما بكتاش ، فأخذ يتحين الفرصة ، حتى سنحت له وخرج من قاع البئر ، فذهب خفية ، واجتز رأس الحارث ، وقت السحر ، ثم انطلق فى طريقه ، وجاء إلى قبر الفتاة ، وقد ثوبه ، وتناول خنجرا ، طعن به كبده ، ورحل عن هذه الدنيا الفانية ، وحرر قلبه من السجن والقيود المحكمة ، لم يطق صبرا بدون الحبيب الأوحد ، فلحق به ، وأنهى بذلك القصة .

المقالة الثانية والعشرون (٦٦٣٧ - ٦٨٦٠)

قال الولد يا والدي : ما كنه هذه الكيمياء ، التي لا تطيب لي الحياة بدونها ، اشرحها لي حتى اطلع على كنهها ، فتكف روحي عن سعيها ودأبها .

إجابة الأب

فروى الأب أمامه هذه الحكاية ، عن أفلاطون اليوناني .

١ ــ قصة أفلاطون[١٩٣] (٦٦٤٢ - ٦٦٨٧)

عزم أستاذ العالم أفلاطون ، في بداية أمره ، على محاولة استخراج الذهب ، وصنع الإكسير ، فقبع في مكان خفي خمسين عاماً ، جمع خلالها قشر البيض وشعر الناس ، وصنع منهما إكسيراً قوياً ، فجمع ذهباً وفيراً من كيمياء قليلة .

ولما سهل عليه تصنيع الذهب ، تساوى لديه هو والتراب ، فقال في نفسه ذات يوم ، فكر أيها القلب في أن تصنع إكسيراً من جوهرك ، فقشر البيض وشعر الرأس ، تحولا إلى إكسير مبهج بجهدك ، ولو صنعت إكسيراً من جوهرك ، لفاق العالم بأسره ، فمن قشر البيض أمكن صنع هذا ، فكيف سيكون إكسير الروح ؟ هل ستكون روحك أقل من قشر البيض ؟ ، وهل يفضل شعر الرأس وجودك ؟ ، إنك أمضيت خمسين عاماً في صنع هذا الإكسير ،و لم تنم ليلاً ولا نهاراً ، وظللت تفكر وتدبر ، والآن إن كنت عاقلاً ، اصنع الكيمياء ، لينكشف لك العالمان .

وعندما عقد عزمه على ذلك ، اعتزل أهل العالم ألف عام ، وصنع كيمياء من جوهره ، فأفاضت نوره على العالمين ، وانمحى أمامه الوجود من الأرض حتى السماء ، وانكشفت له الأسرار الإلهية ، وقضى ألف عام بين الأسرار ، وقلبه مشغول بالمعاناة .

في الشتاء كان يمسح بدواء لديه ، على جسده كله من رأسه حتى قدميه فينبت له شعر غزير على أعضائه ، بقية من زمهرير الشتاء ، وفي الصيف اعتاد أن يدهن ، جسده كله بدواء آخر ، فيسقط الشعر عنه ، ويحميه من حرارة الصيف ، كما كان يتناول دواءً ثالثاً ، مرة واحدة كل ست سنوات ، وكان إذ ما تناول ذلك الدواء ، يستغن عن الطعام طوال تلك المدة .

هكذا تمتع بصحة جيدة ، وقاوم عوامل الفناء ، ومع أنه كان أقوى خلق العالم ، كان هذا طعامه ، وهذه كسوته ، طوال ألف عام .

وحدث أن ذهب إليه أرسطوطاليس[١٩٤] ، وبرفقته الإسكندر ، وكان أفلاطون جالساً في صمت عميق ، داخل غار مخيف تحيط بـه الجبال من ست جهات ، وقد جلس تحت شجرة بجانب عين ماء ، والوجد يكاد يمزق صدره ، ومكث الإسكندر وأرسطو طويلاً ، ولم ينطق الشيخ الحكيم بشيء ، فقال له الإسكندر : وبعد ، أرجو أن تتحدث بشيء عن الحكمة ، فقد جئنا إليك نبحث عنها ، فأجابه أستاذ الأيام : إن ما نملكه هو الصمت في النهاية ، ولأن الصمت شيء خالد ، عليك أن تتلون بلون الخلود حتى تخلد .

فقال الإسكندر : إن أردت طعاماً ، أعده لك حتى يستقيم جسدك ، فأجابه رجل الرجال : أيها الملك لا تجعل جسدي ميزاً ، ولا تأكل فتناول الطعام لا يساوي صنعه ، ولا يساوي ذهابك لقضاء الحاجة ، عندما تكون بطني بئراً للنجاسة ، لا يبقى لي علم ولا فراسة .

فقال الإسكندر : يا رجل العالم ، نم بعض الوقت ، لينال جسدك بعض الراحة ، فأجابه الشيخ الحكيم : أمامي نوم عميق ، لا يمكن التكهن بمدته أو بكيفيته ، وعمري هو اليقظة الحالية ، ولأنني أمنح في كل لحظة روح جديدة ، فلا يليق أن أنام لحظة .

وعندما سئم من الحديث ، تركهما ومضى إلى الغار ، وظل الإسكندر وأرسطو ، يبكيان طويلاً من الألم والأسى .

سمعت كيف كان حال أفلاطون وكيف كانت حكمته رائدة إن لم تكن تعلم ما هي الكيمياء التي تنير العالم ، فتعلمها من أفلاطون ، لماذا تصنع كيمياء الفضة والذهب ، من قشر البيض ، وشعر الناس أيضاً ، أجعل جسدك قلباً ، ثم أحله إلى ألم ومعاناة ، فعلى هذا النحو يصنع الرجال الكيمياء .

٢ ـ قصة أبي علي الطوسي (٦٦٨٨ - ٦٦٩٦)

ينقل عظيم نقي السريرة حسن الإدراك ، عن الخواجه أبي على الطوسي ، أنه كان يقول لرجل يرتدي القباء : اذهب واترك القباء واجتهد فى الفناء ، فأنت الآن في البلاء نفسه ، لان القباء يحيط بك من رأسك حتى قدميك ، فتوجه الى الطريق ، وعندئذ حول نفسك كلها إلى رؤية وإلى عين ، واجعل عينيك كليهما قلباً دفعة واحدة ، واجعل كل قلبك ألماً ومعاناة يا رجل الطريق ، و عندما تصير أنت من الألم الألم نفسه ، تصبح الدواء أيضاً وتصير رجلاً .

لو أردت الألم لتصل إلى المعرفة ، تجيز الحياة لك الموت ، ولكن اعلم أن عين الألم ، هو الشيء الذي لا يعلمه شخص في العالمين أبداً .

٣ ـ قول في معنى الألم (٦٦٩٧ - ٦٧٠٤)

سأل شخص أحد المجاذيب ، ما هو الألم بما أنك تكابده ؟ ، فقال : الألم هو شيء لازم ، كما تلزم اليد لمبتور اليد ، وكما يلزم الماء أيضاً. لشخص اشتد به العطش عشرة أيام ، أكثر من أي شخص آخر ، كذلك يلزم الله لشخص ، انكشفت أمامه الأسرار ، تلك هي الآلام أيها السائل ، أن يلزمك شيء لا تعلمه ، وتريده دائماً ، ولا أعلم أي أمر هذا وأي عمل ، وكل ما يتحقق لك سواه لا شيء قط ، فما تريده وما تجده يحيط به الغموض .

٤ ـ قصة طفل في السوق (٦٧٠٥ - ٦٧٢٥)

أحضرت امرأة طفلها معها الى السوق ، فضل الطفل الطريق من أمه وبكى كثيراً ، كان يهيل التراب فوق رأسه من الحزن حيناً ويريق الدمع الدامي حيناً آخر ، وعندما رآه الناس على هذا النحو ، وخشوا أن يهلك من الخوف ، قالوا له : ما اسم أمك ؟ ، قال : لا أعلم ، قالوا : يا من تملكك الجنون بسبب بعادها كيف الوصول إلى مقرها ، قال الطفل الضال :

لا أعرف منزلها ولا مكانها ، قالوا اذكر اسم حيها ، لتتخلص من هذه المذلة ، قال : إن روحي طافحة بالألم ، ولا أعلم اسم ذلك الحي ، قالوا له : إذن ماذا نفعل معك ، إنك تحترق ونحن نتعذب ، قال إنني ضال في الطريق ، لا أعرف أمي أو اسمها ، ولا أعرف حيها ولا المنزل أيضاً ، لا أعرف شيئاً آخر سوى أمي ، ما أعلمه أنني عاجز ولا سند لي ، تلزمني هنا أمي فقط ، وما أعرفه أن روحي طافحة بالدماء ، وتلزمني أمي ولا أعلم شيئاً آخر .

إن اعتصرتك الآلام من رأسك حتى قدميك ، تصبح جديراً بحضرة الوصال ، وكيف لا تكون جديراً به ، وأنت في الحقيقة ، مطلوب مطلق في العالمين ، ولكن أنت لست أنت بل صورته ، لذلك فأنت دائماً جميل وفاتن ، إن كنت جميلاً اعتبره هو الجميل ، ولأنك صورة منه فاعتبر الصورة كلها هو ، لقد منحك الله هذا الحول ، فلست أنت الجميل ، بل هو الذي منحك الجمال ، لا تنظر إلى نفسك ، واعتبر الروح والجسد ملكه ، لا

ملكك أنت ، العالمان ينطقان به ، فدقق النظر ، وإن كان لك بصر ، لا تشاهد نفسك ، بل شاهده هو .

٥ ـ قصة يوسف والمرآة (٦٧٢٦ - ٦٧٥٦)

نظر يوسف في المرآة ، وأثنى على جمال وجهه الفتان ، إلا أن المرآة الجاهلة ، تصورت أن يوسف يثني عليها هي ، ما أقبح الجهل ! فجمال يوسف يستحق التهنئة ، أما المرآة فلها العزاء .

لو لم ينظر المعشوق في المرآة ، لما شاهد جماله ، وإن ارتفعت المرآة من الطريق ، فمن كان يعلم بجماله ، ولو شاهد يوسف جماله ، لقطع البرتقال وجرح يده[١٩٥] ، لأن وجهه لم يظهر له عياناً ، لم تبرح روحه في عشقه ، ولأنه لم يكن ينظر إلى نفسه ، لم يتدلله في عشقه ، ولكن إن نظر إليه آخر ، فبدون شك ، كان يقطع يده والبرتقال .

إن لزمك محبوب كيوسف ، يلزمك أولاً عين يعقوب ، حتى تنجلي مرآتك ، وتعكس الجمال الأبدي ، أزاح الله الجمال النقاب عن جماله ، وجعل آدم مرآة له ، وعندما شاهد آدم وجهه في المرآة عياناً ، شاهد جمالاً خفياً متجلياً ، فأثنى على جماله كثيراً ، ولا تظن أنه كان يثني على جمال إنساني .

إن لقب إنسان نفسه بصاحب جمال ، بمحض خياله ، فهو مخطيء مثل تلك المرآة ، وبعيداً عن خط دائرة الصورة ، إن جلست في الخلوة مائة قرن ، لترى وجهك فلن تراه ، أرايت شخصاً استطاع أن يرى وجهه هناك ؟ أو سمع أحد عن شخص يكون قد سمع هذا الأمر؟

إن رأيت صورتك في المرآة ، فأين أنت من مشاهدة وجهك ؟ فوجهك ليس باقياً ولا فانياً، فكيف يمكنك رؤية وجهك ؟ لأنه لا يمكنك رؤية وجهك ، بدون مرآة أمامك ، فحذار أن تتأوه أمام مرآة ، حتى لا ترى وجهك القمري أسود اللون .

احفظ أنفاسك هادئة داخل روحك ، واكتمها مثل الغواصين ، فإن وجدت ذرة تختلج داخلك ، لن تجد أثراً لتلك الصورة ، لا تقض على وجودك ولا تنم ولا تظل متيقظاً ، ولا تكن في الأصل ، تذكر هذا جيداً ، فأنت تملك ما تبحث عنه في الآفاق ، فافن عن نفسك حتى تدركه مثل العشاق .

٦ - قصة أحمد الغزالي [١٩٦] (٦٧٥٣ - ٦٧٦٥)

تحدث أحمد الغزالي ذات يوم ، أمام الصوفية الأبرار قائلاً : عندما جاء يعقوب من بيت الأحزان إلى مصر ، للتمتع بلقاء يوسف الفاتن ، أقبل يوسف نحوه مسرعاً ، واحتضن أباه الحزين بقوة ، عندئذ كتم يعقوب صرخة قائلاً : أين يوسف ؟ أوقع في البئر ؟ ، فقالوا له : ماذا تقول ؟ ، إنك تحتضنه ، فعما تبحث ؟ لقد شممت رائحة قميصه من كنعان ، وعندما رأيته الآن تقول إنك لم تره .

فأجاب النبي يعقوب ، لأنني صرت اليوم يوسف فجأة ، لقد شممت دون شك رائحة من يوسف ، لأنني كنت آنذاك يعقوب ، أصبحت الكل ، فأين يوسف ؟ لأنني وجدت نفسي ، فهذا كاف لي .

إن خفضت رأسك حيناً ، ستجد علامة عما تبحث عنه ، ولكن إذا ما تحررت من كل شيء ، لن تصبح حزيناً ولا مسروراً ، فيأخذونك من تحت الفلك الدوار ، ويكسبونك لون الرجال .

٧ . قصة أبي علي الفارمدي (٦٧٦٦ - ٦٧٧٨)

هكذا قص السالكون ، عن أبي علي الفارمدي أنه قال : أيها الرجل لا تسعد بالإقبال ، ولا تحزن من الخسران والتردي ، ولا تعتبر قبولك غنيمة ، وإن رددت لا تحملها إلى هزيمة أبداً .

فعندما لا تنخدع بالنعمة لحظة ، لا تقع أسيراً لحزنك عند البلاء ، وعندما يساعدونك للوصول بكل وسيلة ، كيف لا تتشبث بالوسيلة ؟ ووراء هذا كله ، لون مختلف ، وهناك تكتسب لونا آخر ، وإذا ما اكتسب ثوبك البالي هذا اللون ، يتعطر العالمان من رائحتك ، وإن اكتسبت هذا اللون فأنت طاهر بلا علائق ، فيشمل من وجهك جسدك وروحك .

إن أدركت هذا اللون ، أيها الفريد ، لن يلزمك أي شيء آخر ، إلى الأبد ، وكل شيء يكتسب قيمته منك ، فكيف تهتم بشيء آخر آنذاك ؟ إنك دائماً مقيد بوجودك دون عذر ، وكل ما تملكه خالد ، وعندما تحيى في الألوهية بصفة دائمة ، فسوف يُطلب منك ، أما أنت فلن تطلب شيئاً .

٨ – قصة سؤال المجنون عن ليلى (٦٧٧٩– ٦٧٨٩)

سأل صديق المجنون عن ليلى قائلاً : هل تحب ليلى كثيراً ؟ فقال له المجنون : بحق العرش والكرسي ، إن كنت أحبها ؟ فلماذا تسأل ؟ قال صديقه : لأنك تكثر من نظم الشعر ، وتعزف عن الطعام نهاراً ويضنيك السهر ليلاً ، وتعيش وسط التراب في لوعة تامة ، فمن أجل من كل هذا العشق ؟ .

فأجابه المجنون : لقد مضى ذلك الآن وأصبح المجنون هو ليلى وليلى هي المجنون ، ارتفعت الثنائية الآن ، وأصبح الكل ليلى ، وتنحى المجنون، مثل اللبن والخمر عندما يختلطان سوياً ويتخلصان من نقص الثنائية .

عندما تظهر الأحدية ، لا مجال للثنائية فقد حل الحبيب ، فإن تمنيت وصاله بروحك ، اذهب وافن عن نفسك حتى يظهر هو ، افن بحيث لا تستطيع ، ان تجد نفسك في الحياة مرة أخرى .

٩ – قصة أبي يزيد والمسافر [١٩٧] (٦٧٩٠ – ٦٨١٥)

قدم شخص غريب لمقابلة أبي يزيد ، فدق الباب بدون كلفة ، وكان الشيخ السديد الرأي واقفاً وسط المنزل ، مستغرقاً في التفكير ، فقال للزائر : من أين أتيت ؟ قال له الغريب : رجل حال وغريب ، جئت من مكان قصي ، من أجل لقاء أبي يزيد ، فأجابه الشيخ الوضاء قائلاً : أيها الدرويش ، مضى اليوم ثلاثون عاماً ، وأنا أريد رؤية أبي يزيد ، بحثت عنه كثيراً ولكن لم أر له أثراً ، لا أعلم ماذا حدث ؟ وأين مضى ؟ ، فقد انفصل عني منذ ثلاثين عاماً ، حمدت أنفاسه داخل ذهب وجوده ، فنسيت أمره طوال ثلاثين عاماً .

من يمحى في الذهب إلى الأبد ، لا يعرف شيئاً عن نفسه أبداً ، لكن الكيمياء أبداً هي نور الله ، يقذفه داخل قلوب السالكين ، فإذا ما ومض نوره على كافر ولو للحظة ، فيض أنواره على الدنيا ، فعندما سطع ذلك النور ، على سحرة فرعون ، آمنوا بعد كفرهم [١٩٨] ، وإن تلألأ على امرأة عجوز ، جعلها من رجال الطريق مثل رابعة ، وإن برق على ضارب بالفأس ، جعله مثل الخرقاني [١٩٩] عظيماً يمتلئ بالإعزاز ، وإن اتحدت ذرة منه بمعروف [٢٠٠] ، عرف بالتدين وتحول إلى الإسلام .

وإن ظهر أمام الفضيل [٢٠١] ، يتحول عن قطع الطريق الى طريق الأسرار ، وإن تمكن من روح ابن أدهم ، يصبح قلبه سلطاناً للعالمين ، وإن سرى في جسد ، تحول ترابه إلى قلب ،

وإن خفق داخل قلب ، صار روحاً طاهرة ، وإن أدركت روحك ذلك النور ، فازت بالعالمين ، بعيداً عن الوجود ، وعندما يحيل ذلك النور روحك إلى المحو المطلق ، يصدر عنها "سبحاني" "وأنا الحق" .

وعندما تجيء إلى ساحة الخلد بإخلاص ، يصلها الخطاب من الحضرة الخاصة بإعزاز ، فتكون هذه الرسالة من الملك الأوحد ، إلى الملك الخالد ، ولأننا نرتدي ثوب خاصيتها، فالرسالة من القدوس إلى القدوس ، ولأنه يمكنك أن تخلد مثل القدوس ، فاحمل جسدك إلى قلب وصير قلبك روحاً أيضاً ، ولأن الروح منحتك صورتك وصفاتك معا ، فتعال لتمنحك المعرفة أيضاً .

١٠ - قصة السلطان محمود والشيخ الخرقاني (٦٨١٦ - ٦٨٤٢)

عرج محمود في طريقه ، على الشيخ الخرقاني وقت الصباح ، وأراد أن يمتحن فراسة الشيخ، فاستدعى غلامه إياز ، وارتدى ملابسه وقال : لأكن أنا الحارس ، وهو الملك المفدى ، وما أن نظر إليه الخرقاني ، حتى قال له : إنك لست الحارس إنك الملك ، تقدم مني أيها الملك الدرويش ، لقد أعزك الحق الآن ، إنك يا محمود على الرغم من ملكك ، إلا أن قلبك يميل إلى الفقر ، وقد دان لك ملك العالم ، وتريد أن يدين لك هذا أيضاً .

و أنت أيضاً ملك في ملك العالم ، فلماذا تبحث عن كسرة خبز مثل الدراويش ، ألم تر كيف حقق المحمود الخالد ، ما أراد أن يفعله محمود ؟ فأجرى بحار صفاته الخارجة عن نطاق الحصر ، وخلق عالماً يغص بالمعرفة والعارفين ، ثم أظهر كل ذلك من أجل آدم ، ووضعه بين يدي خلق العالم ، و أحب أن يرى تلك الصفات في عبده ، وأن يتجلى له فيها قائلاً له : حذار ، لقد مرضت ، فماذا حدث لك ؟ إنك لم تعدني [٢٠٢] ، طلبت الماء والخبز من بابك ، ورددت دون هذا ولا ذاك ، فأشتري منك أموالك ونفسك مرة ثانية ، وأطلبّ منك ديناً ، يا له من سر ! و أنا مع كل هذا مشتاق لك ومحب ، فإن اشتقت لي حسن أمرك.

يا عزيزي ، أنا لا أعلم أي أمر هذا ؟ أي آلام ، وأي عشق هذا ، وأي نار ؟ الربوبية استغناء خالد ، والعبودية طريق العبيد ، الاستغناء من صفات الربوبية ، إلا أنه لازم في العبودية ، يا إلهي إنه أمر جلل ولكن ، لا علم لأحد بهذه الأحجية .

الإنسان في الحقيقة مثل إياز ، خصه محموده بلباسه ، في البداية منحك صورتك ، ثم وهبك صفاته ،وتسمى باسمك أحياناً ، و أحياناً أخرى جعل اسمه لباسه ولكن لأنه ليس

هناك أذن فماذا أقول ؟ الله قريب وأنت بعيد فمـاذا أقـول ؟ كيـف يمكنك الـترقي الى الحق ، طالما بقيت في قيد نفسك ، ولكن إن تخلصت من وجودك يمكنك اقتفاء أثره ، وفي هذا السبيل ، إن أردت مسك الغزال ، لا تكن أقل من الغزال ، وقت السحر .

التمثيل بمسك الغزال (٦٨٤٣ - ٦٨٦٠)

قال الأساتذة المظفرون : [٢٠٣] ، إن الغزال يمضي مدة أربعين يوماً كاملاً ، لا يـأكل تبناً ولا شوكاً ، بل يتناول الورد الطيب الشذي مرة أو مرتين ، وعندما يمضي هذه الأربعينية في طهـر ، ينهض وقت السحر ، ويتنفس نسيم الصبـاح ، ويبتلع تلك الأنفاس داخله فوراً ، فتسري تلك الأنفاس مع دماء روحهـا ، وتتكون داخل سرتها نافجة مسكية ، ومن تلك الأنفاس يظهر المسك ، فيصير الخلق مربدين لتلك الأنفاس .

من يعلم في العالم بأسره ما يشبه تلك الأنفاس ، التي يتحول منها الدم إلى مسك في لحظة واحدة ، لأن الدم يتحول إلى مسك من النفس الطاهر ، فمن الممكن أن يتحول الجسد منه إلى روح أيضاً ، نعم عندما يحل نور الحق في روحك ، يكتسب جسدك لون الروح في الحـال ، ماذا أقول ؟ لايمكن التحدث أكثر من ذلك ، فليس لروحي أمر أكثر من هذا ، إن صنعت الكيمياء اصنعها هكذا ، ولكن وجهها في طريق الدين .

واطلبهـا من روحك ، لماذا تسأل عنها الآخرين ، اصنع هـذه الكيمياء إن كنت رجل طريق ، فهي الكيمياء الإلهية للروح . توجد بعـد ذلك أسرار ، لا يمكن التحدث عنها إلا فوق المشنقة ، وبعدها توجد مقامات أخرى ، لا أعرف إن كان أحد على علم بهـا ، ولا أملك أن أدلك علي هذه الطريق ، فلا قانون عندى سوى الآه .

فإذا ما أذن لى شرحه ، أتحدث عنه ، وإلا أخفى الأسرار وراء الحجب .

خاتمة الكتاب (٦٨٦١ : ٧٢٩٢)

حتى ولو يعلو الكلام عن العرش المجيد ، فهو أقل مكانة من شعر فريد ، لا يتحدث بجاهز من العوالم العلوية ، بما تحدثنا بـه أبـدا ، فقـد أوصلنـا الكـلام إلى منزلـة ، يتعذر وصول شخص إليها ، فأظهرت لك صحبة عيسى وأوضحتهـا مثل الصبـاح من اليـد البيضـاء ، ومن الحدائق الكثيرة التى بقيت تذكارا عنى ، أصبحت الدنيا مزدانة مثـل ساحة الخلـد ، حيث يصل كثير من الشباب الليل بالصبـاح ، ليسعدوا منهـا ، والشخص الـذى يفخر بأقواله ، يتنفس بصفاء مثل الصباح الصادق..

إن كانت الحياة قد امتدت بالفردوسي إلى هذا العهد ، لكان قد نظر برجولة وهمة إلى هذه الأشعار أيضا ، نعم فعندما تشرق الشمس ، لا يبقى للصباح أى ذرة من الاحترام ، ولأن بحر شعرى جاء كاملا ، تفجرت آلاف العيون منه على الساحل ، وشعرى يشبه البحر ، يتفجر منه كل لحظة ، نبع ماء جار على كل ساحل ، إحدى عيونه الشمس المهيبة ، التى تفيض بنورها على الدنيا ، وإن لم تستمد المدد من بحر شعرى ، لما امتنت ضربة سيفى .

يوم القيامة سوف تسود الشمس ، لكن هذا الشعر الخالد يظل مضيئا ، حيث تنشده الحور الحسان فى الخلد ، على لحن العشق كل يوم ، ولأن شعرى كله يقوم على التوحيد الطاهر ، فأى خوف إن قرأته فى الخلد ، فتحت باب الكنز الإلهى ، وأسميت هذه المنظومة الهى نامه (الكتاب الإلهى) ، والعظماء القاطنون فى السماوات السبع ، ينشدون الهى نامه للعطار .

فخرى بهذا الكتاب عظيم ، لأن الهى نامه من فضل الله ، حيث تتواتر لى النفحات من الغيب كل ساعة ، وتصل إلى أنفاس قراء شعرى ، ولأننى أرزق من الغيب ، فلماذا أكون أسيرا لكل مسكين ، وقد لان قلبى من الدرس اللدنى ، ولا يريد طعاما ساخنا ، إننى مثل وحشى وحيد فى زاوية ، يكفينى من العالم كأس من حساء حمزة [٢٠٤] ، لأن وحشى هذا كان خائفا من حمزة ، فأى صلة لى بحمزة ووحشى .

إننى سجين هذه الدنيا ، يكفينى منها منزل واحد ، ماذا أفعل بطول الدنيا وعرضها ، وبزرقة السماء وأرض الدنيا ، فملكى هذا كاف ، وما يعوزنى هو البخور ، ولأننى مَلك فى مُلك القناعة ، فإننى أستطيع أن أفعل ما أريد دائما .

١ . قصة تلميذى المدرسة (٦٨٩٠ : ٦٩٠٨)

مرتقى عظيم فى طريقه على إحدى المدارس ، وفجأة شاهد طفلين ، أمام أحدهما خبز وطعام ، والآخر لا شئ أمامه سوى الخبز ، فطلب الثانى من الأول بعض الطعام ، لأن أمره لا يستقيم بالخبز فقط ، فقال الأول : إن تقلد الكلب وتركض خلفي خطوة خطوة مثله ، أمنحك الطعام ، وإلا يكفيك الخبز المجرد ، ولا شيء سواه .

فقبل الطفل ذلك الأمر ، وجرى مثل كلب في الطريق ، وربط له الطفل الآخر ، حبلاً في عنقه ، قائلاً : افعل كالكلب ، انبح واسرع بالعدو مثله ، خلاصة القول ، فعل الطفل ما أمره به زميله ، حتى جمع الطعام مع الخبز .

فقال التقي للولد : أيها الطفل الصغير ، إن أدركت حقيقة الأمر ، لقنعت بالخبز من زمانك ، وأمنت نفسك من تقليد الكلب ، وابتعدت عن الطعام ، حتى لا تضطر إلى تقليد كلب .

وأنت إلى متى تقلد الكلاب وتتعقب الدنيا من أجل جيفة وعظام ، إن كان محمود قد منح الشاعر عدة دراهم ، مقابل أخبار العجم ، فإن نظمت أنت شعرا لا حد له ، لن تجد درهما واحدا فى حياتك ، لأنه إن كان ذلك الشعر الغزير لا يساوى شيئا ، فإنه لم يساو عند الشاعر فقاعا[٢٠٥] أيضا ، فانظر إلى همة الشاعر آنذاك ، وانظر إليه الآن وقد مضى عن الحياة ، بحمد الله لى مكانة رفيعة فى الدين ، ومستغن عن الناس فى الدنيا ، كل ما يلزمنى ، لدى أكثر منه ، فلماذا أمد يدى إلى ما هو أكثر .

٢ . حديث عابدالله (٦٩٠٩:٦٩٤٢)

قال أحد العباد المطلعين على الأسرار ذات يوم : إن كل شيء موجود ويلزمك ، عزوفك عنه أفضل منه أيضا ، وافتقادك للأسباب فى العالمين ، أفضل من وجودها ، وإن أضحى العالمان دارين للسلام : تنعم فيهما روحى ، فهذا كاف وتام ولأن روحى طاهرة كالفردوس ، فلى مائة مشتر فى قوسى .

هذه هى الجنة وليست جليسا ، هى قلب مفعم بسر العشق وليست محرما ، ولأن كل جليس أراه حجابا ، فجليسى هو الكتاب فى كل لحظة ، ولأننى لا أرى شخصا معى ، فإننى أفضى بغمى للكتاب ، ولى فى قرارة نفسى ألم وشجن ، ينبعث منه هذا الكلام ، فلو نبست بالقليل أو تفوهت بالكثير ، فلماذا أبحث عن أحد ولا أقوله لنفسى ، مددت يدا حول الدنيا ، فلم تواسنى ، على أى وجه ، وإن فعلت ، فقد منحتنى نفساً واحدا ، بل لم تمنحه لى إنما منحتنى الأسف والأسى ، إن كان للصباح جليس ، إلا أنه لم يحالف مع صديقه بصدق .

لم أر من بين العديد من الناس ، شعرة واحدة من الوفاء فى أى مكان ، ولأننى أيضا لا أملك ذرة من الوفاء ، فمن غير الجائز البحث عن هذا الوفاء عند الغير ، ولأننى لست محرما لنفسى لحظة ، فمن يكون محرمى فى العالم ؟ لم أر رجلا من رفاق الدين ، ولم ألحظ صفاء من الإخوان ، كثيرا ما طفت أينما وجدت ، ولا أعلم ماذا استفدت من هذا الذهاب .

أيها القلب لقد مضى ندماؤك ، وذهب رفاقك وأقرانك ، وأنت إلى متى يبقيك غرور المعاملة ، فلتمض فحتام وأنت تطوى اليوم والغد ، انشغلت بالعالم مثل الغافلين ولم تفكر فى وجودك برهة ، افعل أمرا ، فالوقت لديك اليوم واشعل نارا إن كانت لديك لوعة ، لقد نام الجميع الشمل منهم واليقظ ، وأنت متى تستيقظ من النوم وإلى متى تتحدث بهذه الأقوال الجوفاء ، إن ما يلزمك هو نوم عميق .

جاء كلامك مثل إبراهيم ، فلماذا كان عملك كالنمرود ، عندما تستطيع أن تموت كرجل طريق ، فأى حسرة أن تموت كالميتة ، مضيت طويلا حول أقوال الآخرين فاخط فى الحال إن كنت هماما ، وإن اطمأن قلبك بالأقوال ، أنى لك أن تكتسب أحوال الرجال ؟

فهذه الأقوال ليست أكثر من قشور ، فاطلب حالا آخر ، مثل الرجال ، لقد وهبت عمرك العزيز كله للكلام ، فمتى تعمل ؟ ولو يبلغ شعرك حد الكمال ، فهو عندما تدقق النظر فيه حيض رجال ، ولو تسلل إلى قلبك قليل من المعرفة ، لما كان لك شأن بالكلام ، إننى أرى الشعر صنمك دائما ، فليست لك حرفة سوى عبادة الأوثان .

٣ . قصة أويس القرنى (٦٩٤٣:٦٩٧٩)

سأل أحد الأتقياء أويس : يقال إنه مضى ثلاثون عاما ، منذ أن حفر فلان قبرا لنفسه ، وهيأ كفنه ، وقبع أمام القبر ، لا يكف عن البكاء لحظة ، هجره الهدوء نهارا ، وجفاه النوم ليلا ، وجفت دموعه من كثرة البكاء ، ولم يعرف فى الدنيا أبدا ، مثل خوفه ووجله ، هل رأيته أيها المرشد الظاهر ؟ قال له أويس : خذنى إليه .

وعندما وصل إلى هناك ، وجده وقد فقد نصف روحه ، فزعا من سيف الموت ، كان فى ضعفه ونحوله يشبه الخلال ، وصار وجهه الشبيه بالبدر مثل الهلال ، تنساب الدماء من عينيه مثل السيول ، قلبه دام ولسانه مثل شعلة النار ، الكفن أمامه ، والقبر محفور بجانبه ، وهو جالس أمامه مثل ميت .

فقال له أويس : أيها البعيد عن الأسرار ، لقد جانبك الصواب بهذا القبر وذاك الكفن ، إنك تعبد خيالك ، وتعبد القبر والكفن ، شغلك القبر والكفن ، وعزلك عن الحق مدة ثلاثين عاما ، إنك ظللت ثلاثين عاما ، تعبد القبر والكفن ، فقطعت على نفسك طريق الله .

وما أن أدرك الدرويش المجذوب آفته ، حتى فاضت روحه ، لأنه غفل عن سر الحقيقة ، أطلق صيحة ، وسقط داخل القبر ، وطار مثل طائر من شرك الوجود ، مات وتحرر من عبادة الأوثان ، مثل هذا الرجل مع زهده المتناهى ، كانت له حجب عديدة من القبر والكفن .

وأنت أسدلت حجابا من الشعر ، فإلى متى يعوقك هذا الصنم عن الله ، لقد حطمت كثيرا من الأصنام المختلفة ، والآن أنا عابد للأصنام أمام شعرى ، حطمت آلاف القيود الخشبية ، وقيدى الآن من العشق الذهبى ، فإن تركت قيدى أتحرر ، وإلا فسوف أنقلب داخله وأموت ، وكيف أتحول عن الله إلى صنم ، وقد أفضيت بسرى إلى الله ، البلاء الذى أحاط عنقى ، أعلم يقينا أنه صدر منى أيضا .

الكلام الكثير الذى قرأه العطار عليك ، لو أنه قرأه على نفسه مرة واحدة ، لنفذ من السماء السابعة وصار أعلى من القديسين ، يالها من قصة ، فمن شؤم الكلام ، يأنف الكلب من الحديث مثل الناس ، أيها القلب إن مقرك ليس هنا ، هنا خسرانك ، وتردى جاهك ، فانزع عن رأسك وجودك وجاهك ، وتقيد بالدماء واصدر الآهات .

كنت مجرد لسان زمنا طويلا ، والآن صر أذنا من رأسك إلى قدميك مثل الرجال ، فكثيرا ما أصاب المتكلم آفات من لسانه ، وإن صمت أدرك ذهب العزة ، ورأس القلم يبرى دائما ، لأن له لسانين داخل فمه ، والميزان إن أخرج لسانه من حلقه ، تحاسبه الأيام على كل شعيرة ، وغدا فى يوم الحشر ، سوف يشهد لسانك على محنتك ، وقد ترعرع السوسن فى حرية ، لأنه اختار صمر الصمت ، ولأنك سوف تصير مثل جبل صامت ، فلا تموج بالزبد فوق شفتيك كالبحر .

٤ . قصة فى موت الإسكندر الرومى (٧٠٢٥:٦٩٨٠)

بعد أن انتقل الإسكندر من الحياة الدنيا ، قال أحد الحكماء : أيها الملك الميمون ، لأن نهايتك هى الاختفاء تحت الثرى ، لماذا أحطت نفسك ، بكل ذلك النعيم .

وأسفاه وأسفاه على حياتى ، فإن عملى ليس سوى الأسف دائما ، عندما استعرضت فحوى حياتى ، فقدت الأمل كلية من نفسى ، فقد كنت دائما فى فكر نفسى ،وفى ضررها طوال حياتى ، وبقدر ما تيسر لى من علم ، انقضى عمرى كله فى الأسوأ على أمل الأحسن ، وعندما سلبت الحياة صحتى جاءت بالمرض ، وأخذت الشباب وبدلته

بالشيخوخة ، ولم يعد لى جسم ولا روح لذلك لا أريد أن أحيا لحظة واحدة ولم يعد لى من وجهة سوى الموت ، لأنه لم يبق لى من الحياة سوى لحظات .

وعلى الرغم من أننى لم أر من الفناء شيئا ، إلا أننى لا أرى وجهة سوى الفناء ، لى حينا مأتم وحينا عيد ، فلى حينا وعد وحينا وعيد ، كان لى قلب من ملك العالم أجمع ، هلك كله فلم أعد أعلم شيئا عنه ، ما أجمل الألم المتنوع للقلب ! فهو نار وهو أيضا حياة للقلب ، الغوص فى هذا البحر يقين ، ولكن كيف أخرج منه ؟ هذا هو الخوف ، لماذا ينقبض قلبى من الموت ، فأنا لاشىء ولا يحتوى قلبى على شىء قط .

انقضى عمرى كله فى الحكايات ، فمن ذا الذى يتمنى عمرا آخر ؟ إننى فقير ، فقد اختل عملى ، وغاصت روحى فى الوحل من الحيرة ، وبقيت مثل قوم موسى فى التيه ، وبقيت أيضا فى التشبيه من التعطيل ، لم يقبلنى الله ولم يردنى ، فبقيت بين الكفر والإيمان ، والآن جلست فى زاوية حائرا ، مستندا بوجهى على يدى فلو لزمك ألم عظيم ، اجلس لحظة أمام قلبى فلدى كثير من الحزن والغصة ، كأن مائة جبل حاثم على قلبى ، ولى فى كل لحظة مئآت الآلاف من الآلام ، تنسكب على هذا القلب من العالم مثل المطر ، ولأن ورد عمرى الغالى قائم علي شوك فقد نزعته ، وما زلت أكمل العمل .

ولأنه لا يمكن شرح حياتى ، فقد ابتلعت أنفاسى فى حلقى وصرت أبكم ، ماذا أقول ، فما أقوله قد قيل ، ولمن أتحدث ، والخلق جميعا غافلون ، ولسان العلم يغلى مثل الشمس، ولسان المعرفة أبكم إلى الأبد ، شرحت ثمل حيرتى بإخلاص ، واسترحت مثل حفنة التراب تحت الثرى ، تقول لى : لا تقل ، لن أقول شيئا آخر ماذا أفعل ؟ إننى أحترق إن لم أقل ، يسألنى دائما عن الكلام ، ولا يسألنى عن لوعتى .

يا عزيزى قلت لك القصة ، فلا تبخل علىّ فى النهاية بدعاء ، إن وصلنى منك دعاء طاهر ، تنعكس أنواره المتلألأة على داخل القبر ، ولأنه لا يتحقق شىء لأحد وإن تحقق لا يدوم ، فمن الأفضل له أن يأتنس بدعاء وقت السحر دون نفاق ولارياء ، والآن اطلب الدعاء لى بإخلاص ، من أصحاب القلوب فى الخلوة الخاصة ، وهدفى من هذا القول ، ليس أكثر من الدعاء .

يا عزيزى لأن الأمر المنزه عن الغرض ، لا يكون إلا من الله ذكرت لك أحوال الرجال ، فإن كنت رجلا ، لا تنس أقوالى ، وإن أدركت ذرة من هذا السر ذات يوم ، يتأجج صدرك بالنيران ، بصورة دائمة ، وإن أقمت مأتما فى هذا الأمر ، يليق بك النواح ، لكنك من الغفلة ، بحيث تستمع إلى النواح ، وتعتبره ألعوبة .

ولأن النواح لائق بالأحرار ، فالسالكون مثل النائحين ،فإن كنت عاشقا يبحث عن معشوقه ، أو كنت سالكاً متلهفاً ، فلا عمل لك سوى النواح ، ولا اختيار أمامك سواه ، إنك تبحث عن أثر من العدم ، ولا تهدأ عن هذا البحث لحظة واحدة ، لأنك لم تفقد شيئا ، فعجبا لأمرك ! لماذا تبحث وتنقب كثيرا ؟

٥ . قصة ناخل التراب (٧٠٣٢ : ٧٠٢٦)

قال شخص لرجل ينخل التراب : إننى أتعجب لأمرك ، تبحث عن شيء لم تفقده وتعجز عن إيجاده إنك لن تجد أبدا ما لم تفقده ، فأجابه الثانى : الأكثر عجبا مما قلت ، هو ألا أبحث عما لم أفقده ، فأتألم للغاية ، وهذا أمر عجيب ، وأكثر عجبا مما قلته فى البداية ، إن ما أبحث عنه لا يمكن العثور عليه ولا يمكن افتقاده ولا الصمت فى طريقه ولا البيان ، المقصود هو طالما لا تفنى فأنت غير موجود ، إنك لست كأيوب ولا زكريا ، فلتكن ككليهما .

٦ . قصة أيوب (٧٠٤٦ : ٧٠٣٣)

قال أحد العظماء : إن الهدف من ابتلاء النبى أيوب بالمرض والغم لسنوات عديدة ، كان التأوه والآهات فعندما تأوه ، نجاه المعبود ، وإن زكريا عندما وجهوا المنشار إلى رأسه ، جاءه هاتف : إن أصدرت صوتا ، أمح اسمك من بين الأنبياء ، لا تصدر نفسا ، حتى يقضى عليك المنشار .

انظر إلى عجائب الأمور ، فقد طلب الحق من الأول التأوه ، بينما طلب من الثانى الصمت ، الأول لم يكن يستطيع التأوه ، والثانى لم يمكنه الصمت فاتعظ ، إن الجسم والروح مثل بحر ، لا بداية له ، ولا قاع ، ولا وسط ، فى هذا البحر ، لا يجوز الصمت ولا الكلام ، ولا يليق السكون ولا الحركة .

أيها الهمام ، إن وجودك غامض ؟ فكيف تسلك وأنت لا شيء ، أمامك آلاف من الحجب من الظلام والنور ، فكيف تطوى الطريق البعيد ؟ وأمامك آلاف من الأغلال حتى القيامة ؟ فكيف تسلك صوب السلامة ؟ عندما يسقط الحجاب ، تسطع شمس من لطف الحق ، وما أن يشع ذلك اللطف الإلهى ، حتى تشفى آلاف الآلام .

٧ ـ قصة الأعرابى والرسول (٧٠٥٨:٧٠٤٧)

جاء أعرابى إلى الرسول ، وقد جمع ثوبه على شيء ما ، وقال للرسول : إن قلت ماذا أضع داخل ثوبى ، أسلم على الفور ، فقال الرسول : تخفى حمامة ، تحمل صغيريها تحت

جناحيها ، ومن صدق الصدر العالى المدهش أسلم الرجل فى التو والحال ، وقال للرسول : من قال لك هذا أيها الرسول ؟ فقال الرسول : الحق ، السلطان الأكبر .

فى تلك اللحظة ، تعجب الحاضرون من العرب ، من أمر تلك الحمامة ، ففى تلك اللحظة كانت الحمامة ، تحتضن صغيريها تحت جناحيها بقوة .

فقال الرسول : أيها الصحابة والأنصار لماذا تتعجبون من هذا الأمر ؟ بحق تلك الألوهية التى أظهرتنا فى الوجود ، إن الله أكثر إشفاقا مائة مرة على كل عاص فى الدنيا ، من هذه الأم التى تحتضن صغيريها والتى شعرتم بشفقتها اليوم .

٨. حديث فى الرحمة الإلهية (٧٠٥٩:٧٠٦٥)

روى فى الأخبار ، أنه غدا عندما يواجه العبد ، الجبار ، ينادى الجبار على العبد سبعين مرة ، ولا يجرؤ العبد على مواجهته من الخجل ، فيقول له الحق : إهدأ قليلا ، فاليوم يوم المصالحة ، ارفع رأسك إلى متى تحجم عنى ؟ اعتبر كل سيئاتك كأنها لم تكن ، يا عزيزى إن الأمر سهل مع الحق ، وإن وجد الداء فالدواء مع الحق ، ولأن الأمر سهل مع الحق الخالد فلا يجوز أن تستهول الأمر .

٩. قصة رؤيا أبى سهل[٢٠٦] (٧٠٦٦:٧٠٧٤)

ذات ليلة ، فى وقت السحر رأى أبو سهل الصعلوكى فى منامه فجأة ، أن أبا سعيد أقبل من بعيد والأنوار تسطع من وجهه ، فتضىء الدنيا وتتعطر الأرض من شذاه ، فسأله أبو سهل : أيها الشيخ الفاضل حدثنى بما فعله الله معك ، لأننى احترق خوفا من عقابه فأجابه أبو سعيد :

الأمر مع الحق أسهل مما يعتقد الضعفاء من الناس ، إن أيدك لطف الله تزدهر الدنيا ببهائك ، وإن شغلت بمائة عصيان وقمت بطاعة واحدة ، يتحقق لك القبول .

١٠ ـ قصة الرسول وامرأة فاسقة (٧٠٧٥:٧٠٨٨)

قص الرسول هذه القصة : كانت امرأة ساقطة خارجة على الدين ، أعمالها السيئة كالطين ، وذات يوم كانت تسير فى الصحراء فشاهدت بئرا فى طريقها ، بجانبه كلب يلهث من شدة العطش ، فأشفقت عليه وتوقفت عن سيرها وجعلت من خفها دلوا ، ومن ملاءتها حبلا ، وأخرجت الماء ، وسقت الكلب فأكرمها الله فى الدارين ، وقد رأيتها ليلة المعراج كالقمر وسط جنة عدن .

وهكذا كان ثواب المرأة الفاسدة التى سقت الكلب ، لا حد لـه ، وأنت إن أرحت قلبا للحظة واحدة فثواب ذلك لا يسعه العالمان ، لأن القلب الذى يهتم بغيره يكون ثوابه أكبر من العالمين .

اقض على وجودك ، وافن بهمة حتى تدرك الرفعة فى الفناء ، الأنانية أصابت إبليس باللعنة وتزيده على الإنسان أصابه بالغرور ، إن تطهرت من إبليسك تصبح مثل آدم من تراب طاهر ، وإن كان إبليس قد قال أن خير منه إلا أن أمله خالد فى رحمة الله .

١١ . قصة شبلى وإبليس (٧١٢٣:٧٠٨٩)

كان شبلى الإمام التقى يمر فى عرفات ، ذات يوم ، فوقعت عيناه على إبليس فجأة فقال لذلك اللعين : أيها الملعون من الحضرة ، إنك لا إسلام لك ولا طاعة فلماذا تمر بين هذه الجماعة ، ألم يدم كبدك من هذا اليوم الأسود ؟ أمازلت تأمل فى رحمة الحق ؟

وعندما سمع إبليس الحزين هذا الكلام تحدث وقال : ياشيخ العالم ، لقد عبدت الحق مئآت الآلاف من الأعوام بين الخوف والرجاء ، وأرشدت الملائكة إلى الحضرة وأوضحت السبيل إليها لكل عاص ، وكان قلبى مفعما بعزته وأقررت بوحدانيته ، فإن كان قد طردنى من حضرته على الرغم من كل هذه الأعمال ، دون سبب ، فحتى لا يجرؤ شخص من خلق الله على التساؤل عن سبب الطرد .

وإن كان سيعفو عنى ثانية دون سبب فما وجه العجب فى عدم إفصاحه عن هذا السر ، لأننى طردت من رحمته دون سبب فسوف يعيدنى إلى حضرته بلا سبب أيضا ، لأنه ليس هناك علة وكيفية فى إرادة الله فلا يجوز إذن قطع الأمل من الحق ، عندما نفذ حكم قهره وطردنى فليس من العجب أن يعيدنى ثانية إلى فضله .

إننى لا أعلم ولا أعرف ياإلهى فأنت تعلم وأنت تعرف ما تريد ، تقرب واحدا وتحيطه بإعزازك وتطرد آخر بحرقة شديدة ، ليس بسبب طاعة الأول ، ولا إثم الثانى فلا مناص لأحد من حكمك ، بحقك أيها المبرأ عن الشبه يا من تفنى الخلق فى ساعة واحدة ، تجاوز عن إثمى ووضاعتى وانظر إلى هذا الحقير ، بفضلك ، ولا تسحلنى بذلة تحت أقدام فيل قهرك بينما ، فلا يحتوى قلبى على جرأة نملة ، وليس لى قوة صدر نملة فلا قبل لى بفيل قهرك .

لقد انتابنى الحزن ، فاسعد قلبى إما أن تقتلنى أو تحرر رقبتى ، إن أسأت فإلى نفسى فقد تعاظمت ذنوبى مع أفضالك لى ، إن كنت قد فعلت خيرا أم شرا فأنت تعلم أننى فعلته

لنفسي ، إنك في غنى عن حسناتي وسيئاتي فتجاوز عنهما ، ويسر لي أمري ، إن كنت مكبلا بالحسنات والسيئات إلا أنني لن أتحدث عن الخير والشر والشر والخير ، إنك تهب الحظ فجأة فلتهبه الآن بلا سبب أيضا .

لأنك منحتني وجودي دون سبب فاغرقني في وجودك دون سبب أيضا ، إن راحتك لا علاقة لها بعذابي لذلك فلا علة لعفوك ، لا تمزق الحجاب عن أفعالي وتجاوز عنها .

ألا يصير الكافر الذي يؤمن مؤمنا ، من أول يوم ؟ وبشهادته يغسل نبع السعادة قلبه من سنوات الكفر المديدة ، يا إلهي إن كنت قد جعلتك داميا اعتبرني آمنت الآن فقط ، وعدني تائبا مثل ذلك الكافر واعتبرني مثل مسلم حديث العهد بالإسلام .

١٢. قصة ربط أبي يزيد للزنار (٧١٢٤:٧١٤٩)

عندما كان البسطامي في النزع الأخير قال لرفاقه : أيها القوم الصالحين ، احضروا لي زنارا الآن ليربطه هذا المسكين المجذوب ، فتعالت صيحات القوم قائلين : لا صلة لك بالزنار ، فكيف يجتمع لك يا سلطان الأسرار العرش والزنار ، فعاد أبو يزيد وطلب الزنار من أصحابه و لم يستطع أحد تلبية طلبه وفي نهاية الأمر ألح الشيخ وأصر و لم يعرف أحد حلا لهذا الأمر ، فقالوا جميعا إن كان القدر قد كتب على الشيخ الشقاء فلا جدوى .

وأحضر له أحدهم الزنار فربطه وانهمر الدمع من عينيه ، ثم مرغ وجهه بالأرض وانتحب بروح محترقة وقلب ملتاع ، ونثر الدماء من عينيه التي تمطر دما ثم مزق الزنار وتحدث قائلا :

أيها القيوم المطلق بحقك وأنت الخالد الحق ، الآن مزقت قيد الزنار فاعتبرني مجوسيا طوال هذه السنوات السبعين ، بل مجوسيا تاب في هذه اللحظة وأصبح بفضلك صاحب سر ، أنا ذلك المجوسي وقد تبت الآن وإن كنت قد تأخرت إلا أنني تبت ، قال هذا وقرأ الشهادة وبكى بحرقة كبيرة .

إن كنت قد خرجت على حدود الطاعة فاعتبرني آمنت الآن فقط ، لأنك يا إلهي تعلم أنني لا شيء فماذا تنتظر من عدمي هذا ؟ آلام قلبي لا حصر لها لأنني أحييه بالمال والملك ، إن قلبي خرب ومحترق فكيف تطلب خراجا من مكان خرب ؟ إن طلبت العجز ، فهو يربو على الحصر وأنا لا أعرف أحدا عاجزا مثلي ولا يعلم بغصتي أحد سواك وأنت تعلم ولا يعلم عداك .

لماذا أتحدث فأنت تراني دائما وعمن أبحث فأنت حاضر معي كل لحظة ، أنت ترحم إن طلبت منك أم لم أطلب وأنت تعلم إن شرحت لك أم لم أشرح ، لأن الأغلال قد قيدتنا نحن البائسين فماذا نستطيع ، ونحن على هذا النحو من البؤس ، ولأنه لا نفع من الخلق ولا ضر فلتشمل برحمتك العصاة .

١٣ . مناجاة إبراهيم بن أدهم (٧١٥٠:٧١٦٢)

وقف إبراهيم بن أدهم أمام الكعبة وأخذ يقول للحق : يا مالك العالم ، أعصمني واغفر ذنوبي وامح آثامي التي اقترفتها ، عندئذ هتف به هاتف : إن هذه العصمة التي تطلبها من الحضرة ، هي نفسها التي طلبها مني الخلق جميعا فإن حققت لكم جميعا رجاءكم ، لبقيتم جميعا معصومين فتحرموا من رحمتي ، وإن عصمت الجميع إلى الأبد فلمن أغفر يوم القيامة .

إن بحار الرحمة آلاف لا حصر لها لكن عبدك خائف ، فلا أعلم ماذي نهاية حرماني وماهو طريق عقلي التائه ، ليس لي في الدنيا سوى نصف روح وآلامها لسان يشرح حالي .

إنني لم أر من العمر سلامة ورأيت أذى كثيرا ولم أر نفعا ، إنني راض بالموت من هذه الحياة وإن منحتني النجاة بعد ذلك ، فأنت قادر ، إنني غارق من مفرق رأسي حتى أخمص قدمي فلا يوجد مجال لجرح آخر في كل لحظة .

١٤ . قصة صوفي أمام دكان[٢٠٧] (٧١٦٣:٧١٨٧)

وقف أحد الصوفية أمام دكان وقلبه مفعم بالألم والأسى ، وطلب صدقة من صاحب الدكان فلم يجبه إلى طلبه فأطال الوقوف أمام الدكان ، فتحدث صاحب الدكان وهو مستاء قائلا : إنني لن أعطيك شيئا إلا إذا أصبت بجراح ، إن جرحت نفسك ، اطلب مني النقود وإلا ، فابق على هذا النحو .

وعلى الفور خلع الصوفي ملابسه وقال له : انظر إلى جسدي ، لن تجد مكانا واحدا من رأسي حتى قدمي لا تدميه الجراح ، قل لي اين أجرح بعد ذلك فإنني لا أجد مكانا بلا جراح ، وإن وجد بي مكان لا أثر للجروح فيه لا تكون عين السوء جريرة منك آنذاك ، فأنا لا أخلو من الجروح من قدمي إلى رأسي فامنحني شيئا تهبني به الراحة ، إن جسدي الآن كله جروح وقد حل الدور على روحي الآن .

يا إلهى إننى مثل ذلك الصوفى المستجدى لا يوجد مكان على جسدى لا تكتنفه الجراح ، وحيثما تبحث وتدقق النظر فمن رأسى حتى قدمى يكتنفه الجروح ، اللحظة التى التمس فيها الراحة هوينه هى التى تنشغل رأسى فيها بالجراح ، إن لم أصب بمئآت الجراح كل لحظة فلن أدرك الراحة فى عمرى ، وإن لفتنى الآلام من رأسى حتى قدمى ومللت هذه الآلام أكن كافرا .

يلزمنى عشقك من العالم أجمع فليس لى وجود ، لأننى متدله بعشقك ، وأسفاه أننى لا أملك مئآت الآلاف من الأرواح لأنثرها تحت أقدام عشقك ، مثل المطر ، عندما ترامت كلمة هو إلى مسامعى صرخ وجودى كله بها ، رأيتك فمحوت وجودى وبقيت بك وفنيت عن نفسى ، إن ظللت على هذا النحو ، فهذا هو الكمال وإن عدت إلى نفسى ، فهذا هو الزوال .

يا إلهى خذ بيد هذا العاشق وخلصنى من هذا السجن المحزن ، فى تلك الساعة عندما تصعد روحى إلى حلقى لن يبقى لى أى أمل فى الدنيا ، فامنح جسدى ضياء اللحد وامنح قلبى المعرفة الأبدية ، وعندما يزول ملك وجودى لا تحرمنى من بحر جودك .

١٥ . قصة هارون الرشيد أثناء النزع (٧١٨٨:٧١٩٤)

عندما سقط هارون الرشيد ذلك الرجل الوجل داخل شباك الموت ، نزل عن العرش وألقى بالتاج وهام بين التراب والرماد ، ثم وضع وجهه على الأرض بذلة وتحدث قائلا : أيها العادل الطاهر ، بحقك تعالى يا إلهى يا من لا يزول ملكك أبدا ، ارحم هذا المسكين الذليل الذى تهاوى ملكه ، ووضح له مصيره من أجل قلبه الثمل المفعم بالمعاناة والآلام .

١٦ . قصة الشيخ أقطع[٢٠٨] أثناء النزع (٧١٩٥:٧٢٠٤)

عندما دنا أجل الشيخ أقطع بكى بحرقة شديدة على نفسه ، فقالوا له : أيها الشيخ الميمون الطالع أتخشى الموت إلى هذه الدرجة ؟ فقال : إننى مشتاق للموت ولا أمل لى من العالم سوى الموت ، ولكن ما أخاف منه للغاية هو أن تغرق سفينتى هذه اللحظة ، فلا أعلم على وجه اليقين هل ستسقط هذه السفينة إلى القاع أم تسلم ؟ إن تغضب على ، تغرق سفينتى وإلا فمآلى الجنة إلى الأبد ، والآن أنا متردد بين هذين المقامين ولهذا أبكى حتى يتضح لى من أى فريق أنا ؟ من قاد سفينته فوق اليابسة مائة عام كيف يكون حاله ، إن غرق الآن ؟ لكن أمل هذا البائس هو أنه يحفظ روحه حرزا لدى الحق .

١٧ . قصة إيداع الأمانة لله (٧٢١٧:٧٢٠٥)

اعتاد صديق عزيز أن يتلو الشهادة بصدق كل ليلة ، قبيل النوم ، ثم يقول للحق : يا إلهى اكرمنى وخذ هذه الأمانة فترة منى ، فأنت الأمين ، ولا أمين على وجه الأرض سواك ماذا أقول ، فلا أمين غيرك ، حتى إذا مالزمنى دواعك هذا تدركنى به عند عجزى ، وعندما دنت منيته عجز عن الكلام ثلاثة أيام كاملة .

وعندما زرته ، كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ووجدت عقدة لسانه قد حلت ونطق بالشهادة ، وما أن قال الشهادة حتى أسلم الروح بعد أن هتف به هاتف : انتظر أيها الرجل ، وخذ هذه الأمانة التى كنت تودعها لدينا ، كل ليلة ، فى عبادتك ، حتى يعلم الرجل الفطن أن الله لا يضيع أبدا عمل شخص صالح .

يا إلهى لو أن قلبى مفعم بالأمل فليس هذا من الطاعة بل من شعرى الأبيض ، إن اعتمادى على العبادة غرور كبير فكل ما صدر عنى هو القصور بعينه ، ولأن عفوك ليس له سبب فإن عفوت عنى قليلا فلا عجب .

١٨ . قصة طلب السجاوندى لعبد ٧٢١٨:٧٢٣٨

قال إمام الدين السجاوندى ، فى أحد مجالسه : يا صانعى الكيمياء ، كما هى عادتى معكم لى طلب واحد منكم ، أريدكم أن تحضروا لى عبدا لتخففوا عن هذا الشيخ المشقة ، قال هذا الكلام مرة ثم كرره مرة ثانية وظل يكرره حتى المرة السادسة ، ثم قال لهم : لأننى شيخ عاجز يلزمنى عبد مسن ، لآ حيلة له مثلى ، وعندما سمع أهل المجلس هذا الكلام أبدوا موافقتهم فورا ، وكرر الشيخ طلبه ، فى المجلس الثانى ، والثالث أيضا ، لم يأت له أحد بعبد مسن .

عندئذ ، أفصح الشيخ عن شكواه قائلا : لم أكن انتظر من جلسائى ، أن أرى منهم هذا التقصير وأن يبخلوا على بعبد .

فقال له شخص : التقصير ليس منهم وإنما من رغبتك فى عبد مسن ، فقد طوفنا أنحاء المدينة كثيرا ولم يظهر أحد مثل هذا العبد ، ولم يقبل عظيم ولا حقير أن يعرض عبدا مسنا فى السوق ، فالجميع يقولون : إننا نخجل من الحق تعالى فكيف نبيع عبدا مسنا أبدا ، وإن كنا معوزين إن الخجل يتملكنا من هذا الأمر .

وما أن سمع الشيخ هذه الكلمات حتى نهض وقال : لقد تحقق مرادى ، فهدفى من طلب هذا العبد أن أوضح حسن العاقبة ، لأنه لا يجرؤ مخلوق البوم أن يجرح قلب عبد مسن ،

فكيف يبيع الله الكريم عبده الشيخ ذات يوم فى الأسر ، يا إلهى إن كنت قد ذللت إلا أننى شيخ وعبد أيضا ، وإن كنت قد قصرت فى طاعتك فلا تبعنى ، فقد صرت هرما .

١٩ . قصة عبد الله بن مسعود (٧٢٣٩ : ٧٢٨٠)

كان لعبد الله بن مسعود عبد ماهر وحاذق ، وحدث أن قرر بيع ذلك العبد لضيق ذات اليد ، فقال للعبد : أيها المغوار اذهب واغسل ثوبك ، ومشط شعرك ، حتى أبيعك ، بسبب عوزى فللجسد قيمة ، وإن كانت تدمى القلب .

وعندما نفذ العبد أوامره تساقطت شعيرات بيضاء من شعره ، وما أن وقع بصره عليها حتى طفق يبكى بحرقة ، وعندما شاهده عبد الله بن مسعود على هذه الحال ووجد عينيه مثل سحب تنثر الدماء ، قال له : لماذا تبكى ؟ ولماذا تحترق على هذا النحو ؟ أعاهدك الآن على أننى لن أبيعك فاصمت ، ولا تبك ، ولا تصح .

فقال العبد : إننى لا أبكى بسبب بيعك لى ، إنما أبكى هكذا بحرقة لأننى أفنيت عمرى عند شخص ، وسرى المشيب فى رأسى من خدمته ثم تخلى عنى فى نهاية الأمر ، لماذا وجدت عند رجل يبيعنى فى النهاية ببؤس ؟ ولماذا أفنيت شبابى فى مكان يعرضوننى فيه للبيع ، فى شيخوختى ؟ لماذا عشت فى مكان لم تثمر خدمتى فيه سوى البيع ؟ ولماذا أسلك فى دار الأغيار وأمامى مثل هذه الدار ؟ فمن له مثل ذلك البلاط كيف يجد إلى سبيله إلى بلاط آخر ؟ وأنت يا سيدى ، لا تصغ إلى حديثى وبعنى ، وإن كنت لا أساوى شيئا قط .

عندئذ هبط جبريل فى الحال على صدر العالمين والبدر الخالد : أن قل لعبد الله : أيها الوفى لا تستمرىء هذا الألم ، لقد إبيض شعره فى الإسلام ولن يكون له سبيل سوى الحرية .

يا إلهى ، إن حلقة عبوديتك فى أذنى فلا تبعنى فى شيخوختى ، إن لم يكن لى ، أى أمل من طاعتى فقد إبيض شعرى فى الإسلام ، إن بعتنى ، فسوف تحترق روحى وتشعل السعير عندئذ ، وماذا تستطيع الروح الملتاعة والقلب المحترق وماذا يمكن لنملة فى مثل ذلك اليوم أن تفعل ، وبحق عزتك يا عالم الأسرار لا تلق بى داخل خندق العجز ، ولا تجعلنى مثل الشمع بيد قهرك ولا تحرمنى من فضلك ، واعتبر كل مافعلته من خير ومن شر لم يصدر عنى واجعلنى بفضلك بعيدا عن نفسى فكل خير وشر يصدر عنى يطوقنى دون إرادتى .

إن أظهرت لى برهانا من داخل نفسى يمكنك ، لأنك تفعل ما تريد ، لا تجعلنى مقيدا بوجودى ، وابعدنى عن نفسى فقد سئمت منها ، فاقض على وجودى ، لا أعرف نفسى ، ولا أعرف الطيب من الخبيث ولأنك أنت موجود فماذا سوف أفعل بنفسى ، وبحق معرفتك بما ألم بى انتشلنى من الغرق فى دمائى ، واجعلنى أفنى عن نفسى ولا تأسرنى داخل نفسى ثانية أبدا ، اعتبرنى كلبا ولا تطردنى من أعتابك حيث يكفينى من حيلك قطعة واحدة من العظام ، فإن أفز بعظمة من حيلك ، أمد الخوان حتى عنقاء الفلك .

٢٠ ـ قصة بشر الحافى[٢٠٩] (٧٢٨١ : ٧٢٩٢)

كان بشر الحافى صاحب الروح الشفافة ، يسير فى بداية أمره ثملا بالوجد ، فعثر فى طريقه على قطعة من الورق ، مكتوب عليها اسم الله ، ولم يكن معه إلا قليل من النقود ، فدفعها ، واشترى مسكا ، وفى الليل عطر رجل الطريق ، بمسكه العطر اسم الحق .

وفى تلك الليلة رأى فى منامه ، أن هاتفاً قد جاءه قائلا : يا من رفعت اسمى من وسط التراب ، وصنت حرمته ، فطهرته وعطرته ، لقد جعلناك سالكا فى طريق الحقيقة ، ووهبناك همة طاهرة عطرة .

يا إلهى كثيرا ما نفهم العطار العطر القول ، اسمك الذكى بالعطر ، وإذا كان للعطار ملاحة فى القول ، فلأن اسمك كان دائما ذكيا طيب الشذى ، فلتشمل وجوده أيضا بفضلك ، ولتجعله ذائع الصيت ببركة اسمك ، فليس أمامه من سبيل سوى فضلك ، لأن طاعاته لا تساوى شيئا .

هوامش الترجمة

١- مصداقا لقوله تعالى : " وسقاهم ربهم شرابا طهورا " .سورة الإنسان ، آية ٢١

٢- مصداقا لقوله تعالى (ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون) سورة الأعراف آية ٣٤

٣- الأمانة إشارة إلى الآية الكريمة (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) سورة الأحزاب آية ٧٢

أى أن الحق تعالى أوجب على نفسه ألاترى أسماؤه وصفاته إلافى الإنسان الكامل ،لكن الإنسان ظلوم جهول أى أنه قد ظلم نفسه بأن أنزلها عن تلك الدرجة وجهول بمقداره لأنه محل الأمانة الإلهية وهولايدرى

انظر عبد الكريم الجيلى ، الإنسان الكامل فى معرفة الأواخر والأوائل ج٢ ،ص٤٨ الطبعة الأولى ١٣١٦

٤- مصداقا لقوله تعالى : (وإذقلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) سورة البقرة آية ٣٤

٥- مصداقا لقوله تعالى : (ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا) سورة الأحزاب ، آية ٤٥ وآية٤٦

٦- من الأحاديث التى ينسبها الصوفية إلى الرسول (ص) هذا الحديث (لولاك ماخلقت الأفلاك) لم أجده

٧- الفقر فخرى حديث ينسب للرسول (ص) لم أجده

٨- إشارة إلى الآية الكريمة : (إنا فتحنالك فتحامبينا) سورة الفتح آية ١

٩- إشارة إلى الآية الكريمة : (نصر من الله وفتح قريب و بشرالمؤمنين) سورة الصف آية ١٣

١٠- إشارة إلى الآية الكريمة (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) سورة الحجر آية ٧٢

١١- إشارة إلى الآية الكريمة : (ألم نشرح لك صدرك) سورة الشرح آية ١

١٢- مصداقا لقوله تعالى : (ربنا إلى أسكنت من ذريتى بواد غيرذى زرع عند بيتك المحرم سورة إبراهيم آية ٣٧

١٣- ينسب إلى الرسول (ص) قوله إنه يفضل الأنبياء بست فضائل ، منها التراب الطاهر . تعليقات روحانى ص٣٢٤

١٤- إشارة إلى اهتزاز عرش كسرى ليلة ميلاد الرسول (ص)

١٥- إشارة إلى الحديث الشريف : مثلى ومثل الأنبياء كرجل بنى دارا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها و يتعجبون ويقولون : لولاموضع اللبنة . محمد فواد عبد الباقى : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان كتاب الفضائل ح٣ ،ص٩٤ القاهرة ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م

١٦- إشارة إلى الآية الكريمة (اسلك يداك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) سورة القصص آية ٣٢

١٧- مصداقا لقوله تعالى : (و من يسلم و جهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) سورة لقمان : آيه ٢٢

١٨- مصداقا لقوله تعالى : (ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) سورة الصف آية ٦

١٩- إشارة إلى الآية الكريمة : (فكان قاب قوسين أو أدنى) سورة النجم ، آية ٩

٢٠-مصداقا لقوله تعالى : (وما رميت إذرميت ولكن الله رمى) سورة الأنفال ، آية ١٧

٢١- مصداقا لقوله تعالى : (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) سورة الحجر ، آية ٧٢

٢٢- إشارة إلى الآية الكريمة : (مازاغ البصروماطغى) سورة النجم آية ١٧

٢٣- مصداقا لقوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) سورة فصلت آية ١١

٢٤- من رآنى فقد رأى الحق رواه البخارى فى ١٠باب من رأى النبى (ص) فى المنام - من٩١ كتاب تعبير الرؤيا

٢٥- مصداقا لقوله تعالى (وما أرسلناك إلارحمة للعالمين) سورة الأنبياء آية ١٠٧

٢٦- مصداقا لقوله تعالى : (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) سورة القمر ، آية ٥٥

٢٧-مصداقا لقوله تعالى : (عينا فيها تسمى سلسبيلا) سورة الإنسان ، آية ١٨

٢٨-مصداقا لقوله تعالى : (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا) سورة الإنسان آية٥

٢٩- مصداقا لقوله تعالى : (ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا) سورة الإنسان آية ١٧

٣٠-مصداقا لقوله تعالى : (يسقون من رحيق مختوم) سورة المصطفى ، ٢٥

٣١- يوجد خارج منطقة الجاذبية نجم كبير أمام بنات النعش يسمى (سماك رامح) و رمحه نجمان كأنهما جانبان و جالسان على ركبتيهما يسمى سماك نظرا لعلوه ، و أمامه نجم آخر من ناحية الجنوب كبير ومضئ يسمى (سماك اعزل) أى دون سلاح ، لايوجد أى نجم قريب منه ، تعليقات روحانى ص٣٢٨

٣١- السنبلة من صور منطقة البروج ، ويقال إن برج العذراء مشهور بين العامة باسم السنبلة . تعليقات روحانى ص٣٢٨

٣٣- النسران : عبارة عن النسر الواقع و النسر الطائر وهما اسمان لنجمين ،تعليقات روحانى ص٣٢٩

٣٤- من الصور الفلكية صورتان باسم (هفت اورنك) أى السماوات السبع الصغرى أو الدب الأصغر أو شرفة الفلك أو بنات النعش الصغرى ، الثانية : السماوات السبع الكبرى أو الدب الأكبر أو بنات النعش الكبرى تعليقات روحانى ص٣٢٩

٣٥- المقصود بهم الأولياء وهم القطب ، الغوث الأخيار ، الأوتاد ، الأبدال ، النقباء ، النجباء . انظر : كشف المحجوب الهجويرى ترجمة د.إسعاد عبد الهادى قنديل ج٢٠ ص٤٤٨ القاهرة ١٩٧٥٢٧٤

٣٦- مصداقا لقوله تعالى : (و البيت المعمور) سورة الطور آية ٤

٣٧- إشارة إلى الآية الكريمة : (عند سدرة المنتهى) سورة النجم ، آية١٤

٣٨- إشارة إلى الآية (فلماذا رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هـذا بشرا إن هـذا إلاملك كريم) سورة يوسف ، آية ٣١

٣٩- مصداقا لقوله تعالى :(ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفاً لاترى فيها عوجا ولا أمتا) سورة طه ، آيات ١٠٥،١٠٦،١٠٧

٤٠- مصداقا لقوله تعالى :(متكئين على رفرف خضر و عبقرى حسان) سورة الرحمن ، آية ٧٦

٤١- إشارة إلى الآية الكريمة : (نور على نور) سورة النور ، آية ٣٥

٤٢- المقصود جبريل .

٤٣- مصداقا لقوله تعالى : (مازاغ البصر وما طغى) سورة النجم ، آية ١٧

٤٤- مصداقا لقوله تعالى : (فكان قاب قوسين أو أدنى) سورة النجم آية ٩

٤٥- إشارة إلى الآية الكريمة : (فأوحى إلى عبده ما أوحى) سورة النجم آية ١٠

٤٦- مصداقا لقوله تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها) سورة البقرة ، آية ٣١

٤٧- إشارة إلى قوله تعالى : (وماكنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون) سورة العنكبوت ، آية ٤٨

وقوله تعالى (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى) سورة الأعراف ، آية ١٥٧

٤٨- مصداقا لقوله تعالى : (وعنده أم الكتاب) سورة الرعد ، آية ٣٩

٤٩- مصداقا لقوله تعالى : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت) سورة البقرة آية ١٢٧

٥٠- إشارة إلى الآية الكريمة (قل هو الله أحد) سورة الإخلاص آية ١ .

٥١- إشارة إلى الآية الكريمة (قل أعوذ برب الفلق) سورة الفلق ، آية ١ .

٥٠ـ مصداقا لقوله تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير) سورة فاطر ، آية ٣٢ .

٥١ـ يقال أن أبا بكر عندما أسلم ، كان يملك أربعين ألف درهم ، أنفقهم فى سبيل علو شأن الإسلام .

انظر د. فتحية النبراوى ، دراسة فى عصر الخلفاء الراشدين ص ٤٦ .

٥٢ـ إشارة إلى قول أبى بكر فى أول خطاب له بعد مبايعته بالخلافة : " قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى " .انظر الشيخ محمد الخضرى بك ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، الدولة الأموية ، ص ١٧٠ .

٥٣ـ يقال أن أبا بكر كان قد أوصى بحمل جنازته إلى روضة الرسول (ص) فإذا فتح القبر من تلقاء نفسه ، دفنوه هناك . تعليقات روحانى : ص ٣٣٣ .

٥٤ـ يروى أن أبا بكر دخل إلى الغار قبل الرسول (ص) وسد جميع الثقوب بداخله ، فعرض نفسه لأذى الحيات عدة مرات ، دون أن يصدر صوتا حتى لا يستيقظ الرسول . تعليقات روحانى ، ص ٣٣٤ .

٥٥ـ يقصد الشاعر الفتوحات الإسلامية التى تمت فى عهد عمر رضى الله عنه فى بلاد الروم .

٥٦ـ المحتسب : الحسبة هى أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهى عن المنكر إذا ظهر فعله ، وكان المحتسب يهتم بكل الأمور التى تتعلق بالنظام العام ، وقد نشأت الحسبة فى عهد الرسول (ص) وسار عمر رضى الله عنه على نهج الرسول (ص) كما استعمل آخرين للإشراف على النظام العام ، فاستتب الأمن فى عهده للغاية .انظر : د. أبو زيد شلبى ، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى ، ص ١٢٩ الطبعة السادسة القاهرة ١٩٨٤م/١٤٠٤هـ .

٥٩ـ مصداقا لقوله تعالى : (المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى ، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية) سورة النور ، آية ٣٥ .

٦٠ـ مصداقا لقوله تعالى : (إذا الشمس كورت) سورة التكوير آية ١ .

٦١ـ إشارة إلى الآية الكريمة : (ونفخ فى الصور) سورة الزمر آية ٦٨ .

٦٢ـ إشارة إلى قوله الرسول : الحياء من الإيمان رواه البخارى فى ١٦ ـ باب الحياء من الإيمان ص ٧ كتاب الإيمان .

٦٣ـ لقب عثمان رضى الله عنه ـ بذى النورين لزواجه من ابنتى الرسول (ص) أم كلثوم ورقية وقد تزوج الثانية بعد وفاة الأولى والنور الثالث لجمعه القرآن .

٦٤ـ إشارة إلى أحداث الفتنة التى سبقت مقتل عثمان عندما اجتمع عليه الثوار داخل مسجد رسول الله (ص) ومنعوه من الصلاة وتطاول عليه أحدهم بعصا الرسول (ص) التى كان يحملها عثمان فى يده ، ويقال أن هذا

الرجل أصيب بعد ذلك بمرض الجذام . انظر د. فتحية عبد الفتاح النبراوى ، دراسة فى عصر الخلفاء الراشدين ، ص ٢٥٤ .

٦٥- من الاتهامات التى وجهت إلى عثمان رضى الله عنه أنه اختص بنى أمية بالملك والثروة دون المهاجرين والأنصار .

انظر : الشيخ محمد الخضرى بك : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، الدولة الأموية ، ص ٤٠ .

٦٦- عندما هاجم الثوار دار عثمان ، كان عثمان عاكفا على قراءة القرآن ، والعبادة ، يصلى وبين يديه المصحف ، وقد سالت دماؤه فوق المصحف .

٦٧- إشارة إلى شعر منسوب إلى الإمام الشافعى :

على حبه جنة قسيم النار والجنة وصى المصطفى حقا إمام الانس والجنة

تعليقات روحانى : ص ٣٣٧

٦٨- إشارة إلى الحديث الشريف : أنا دار الحكمة وعلى بابها . رواه الترمذى . كتاب المناقب ٢٠ .

٦٩- إشارة إلى العجل الذى صنعه السامرى لقوم موسى ليعبدوه يقول تعالى (فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى) سورة طه ، آية ٨٨ .

٧٠- مصداقا لقوله تعالى : (الله عنده حسن المآب) سورة آل عمران ، آية ١٤ .

٧١- مصداقا لقوله تعالى : (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) سورة ق ، آية ٢٢ .

٧٢- أورد العطار هذين البيتين باللغة العربية .

٧٣- المقصود بالحمورين عمر وأبى بكر أما المقصود بالصهرين فهما عثمان وعلى .

٧٤- مصداقا لقوله تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) سورة البقرة ، آية ٣٠ .

٧٥ - مصداقا لقوله تعالى : (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .) سورة الإسراء آية ٨٥ .

٧٦- عندما جاهر أبو مسلم الخرسانى بالدعوة العباسية ، فى عام ١٢٩هـ ، نشر رايات سوداء ولواءين كبيرين أحدهما اسمه الظل والآخر اسمه السحاب ، وقد ظل السواد من يومئذ شعارا للعباسيين ، وقيل أيضا نسبة إلى عمامة ابن عباس السوداء ، أو لأن النبى عندما دخل مكة كان يرتدى عمامة سوداء ، أو أن رايته فى " أحد " كانت سوداء ، بل إن بنى هاشم كانت تتفاءل بالسواد ، كما أن السواد كان زيا عند العرب ، يلبسونه ليدركوا ثأرهم . انظر : د. عبد المنعم ماجد ، العصر العباسى الأول ص ٣٤ . الطبعة الثانية القاهرة ١٩٧٩

٧٧- مصداقا لقوله تعالى (فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف) سورة يونس آية ٧٣ .

٧٨- مصداقا لقوله تعالى (والضحى) سورة الضحى آية ١ .

٧٩ـ مصداقا لقوله تعالى (إنا أنزلناه في ليلة القدر) سورة القدر آية ١ .

٨٠ـ مصداقا لقوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) سورة يس آية ٨٢ .

٨١ـ إشارة إلى قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) سورة الأعراف : آية ١٧٢ .

٨٢ـ يعتبر أنو شيروان ٥٣١ ـ ٥٧٩ أكبر ملوك الأسرة الساسانية ، وصلت امبراطورية الساسانيين فى عهده إلى أوج عظمتها وتوسعت حدودها ، كذلك قام أنو شيروان بإصلاحات عديدة داخل بلاده . وتعرفت إيران على العلوم اليونانية فى عهده ويعتبر أنو شيروان العادل آخر ملك تجسمت فى شخصه عظمة إيران القديمة . انظر : دوره تاريخ إيران تأليف / حسن بيرنيا وعباس اقبال ص ٢١٨، ٢١٩ .

٨٣ـ الخواجه جندى : من المرجح أنه يقصد الجنيد وخاصة أن القصة تذكره كشيخ له مريدوه ولم أجد فى الكتب الخاصة بتراجم الصوفية أحدا باسم الخواجه جندى ، والجنيد البغدادى هو أبو القاسم جنيد بن محمد بن جنيد الملقب بسيد الطائفة توفى عام ٢٩٧هـ .ق وهو من أقطاب التصوف المشهورين أصله من نهاوند وولد وعاش فى بغداد ويقال أنه ذهب إلى الحج ثلاثين مرة مترجلا . تقوم طريقته على الصحو وكان ملتزما بالشريعة . انظر : تعليقات د. محمد استعلامى على كزيده تذكرة الأولياء ص٥١٥ .

٨٦ـ الشيخ أبو الفضل حسن : كان شيخا للشيخ أبى سعيد بن أبى الخير ، يقال إنه كلما كان أبو سعيد يشعر بانقباض كان يذهب إلى مزاره ، ويطوف حوله ، حتى ينتهى انقباضه ، كذلك كان أبو سعيد يرسل كل مريد عنده يريد الحج إلى قبر أبى الفضل ويقول له اذهب ، وطف حوله سبع مرات حتى يتحقق مرادك . ويقال ستل أبو سعيد عن المقام الرفيع الذى وصل إليه فقال كنت أسير بجانب جدول وكان الشيخ أبو الفضل يسير على الجانب الآخر ، فوقع بصره على ، فتحققت لى كل هذه السعادة . وقد أورد العطار قصة أبى الفضل نفسها فى الهى نامه فى تذكرة الأولياء . انظر تذكرة الأولياء ، ج ٢٠ ص ٣٣٧ وما يليها ـ تصحيح نيكلسون

٨٧ـ شهرته أبو اسحاق إبراهيم بن أدهم البلخى . عارف مشهور توارث والده إمارة بلخ . انقلب حاله فجأة وهناك روايات متعددة فى هذا الشأن . فترك المال والجاه وذهب إلى بغداد وساح فى العراق والشام والحجاز . وكان يتعيش من العمل . واشترك فى حرب الروم . وكان يتحدث العربية بطلاقة . ولم يعين بالحكم والمال . مات ١٦١هـ.ق .

وهو شخصية فريدة فى تاريخ التصوف وحياته تشبه حياة بوذا ، ولهذا كانت مصدرا لقصص كثيرة ونوادر أمعن فى الأسطورة منها فى التاريخ . انظر : د. عبد الحليم محمود : إبراهيم بن أدهم شيخ الصوفية ص٣٣: ٥٠ ـ د. عبد الرحمن بدوى : تاريخ التصوف الإسلامى ص٢١٨ .

٨٤ـ معشوق الطوسى : اسمه محمد وكان من عقلاء المجانين ، كان صاحب حال ، عاش ودفن فى مدينة طوس وقد قابل الشيخ أبا سعيد وعاصره ، ويقال إنه لم يكن يؤدى الصلاة ، كما يقال إن أبا سعيد اعتبره سلطان العصر وقائده . انظر جامى : فحات الأنس ص٣٠٩، ٣١٠ ـ تهران ١٣٣٧هـ ق .

٨٥ـ هو أبو سعيد فضل الله بن أبي الخير محمد بن أحمد الميهني شاعر فارسي وشيخ من شيوخ الصوفية ، ولد عام ٣٥٧هـ في خراسان ، تنقل في بداية حياته من ميهنة إلى مرو إلى سرخس وأكمل راسة علوم الدين ، ثم اعتنق التصوف وعاد إلى بلدته ميهنة حيث اعتكف في زاوية داره حيث مارس الرياضة الروحية . وقد نال الخرقة الأولى على يد أبي عبد الحمن السلمي في نيسابور ثم نال الخرقة الثانية على يد أبي العباس القصاب ثم عاد إلى ميهنة وقد بلغ مرحلة الكشف الكامل ، فمارس نشاطه كولي من أولياء الله .وحول منزله إلى خانقاه للدراويش ، ثم انتقل إلى نيسابور حيث عقد مجالس الإنشاد وأقام حلقات الرقص والسماع ، واستطاع أن يواجه أعداءه من أئمة نيسابور وقد مات في ميهنة عام ٤٤٠هـ .انظر أسرار التوحيد ترجمة د. إسعاد عبد الهادي ص١٣ وما بعدها .

٨٨ ـ الشيخ أبو القاسم علي الجرجاني : من مشايخ صوفية القرن الرابع الهجري في طوس ، كان معاصرا للشيخ أبي سعيد ، كما أدرك الهجويري بمجالسه تعليقات محمدا استعلامي على كريدة تذكرة الأولياء ص٥٠٢ .

٨٩ ـ مصداقا لقوله تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية) سورة الفجر آية ٢٧،٢٨ .

٩٠ ـ إشارة إلى قوله تعالى (إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربي) قرآن كريم ، سورة يوسف ، آية ٥٣ .

٩١ ـ إشارة إلى الحديث الشريف : أسلم شيطاني على يدي جزء من حديث رواه البخاري في ١٦ باب تحريض الشيطان ولقبه وفي ٥٠ كتاب صفات المنافقين .

٩٢ ـ محمود الغزنوي : عندما توفي ناصر الدين سبكتكين في عام ٣٨٨هـ كان محمود ولده الأكبر في نيسابور ، فجلس أخوه الأصغر إسماعيل على العرش ، ولم يفز محمود بالعرش إلا بالحرب ، وقد حقق محمود انتصارات عديدة ساعده عليها استعداده وقدرته الحربية الفائقة ، وإليه يرجع الفضل في نشر الإسلام في بلاد الهند فقد قاد جيشه إلى تلك البلاد سبع عشرة مرة وعاد بغنائم وفيرة من هناك . وقد مات في غزنين بعد مرض قصير في عام ٤٢١هـ .انظر : غلام جيلاني : غزنة وغزنويان ص٨ وما يليها .

٩٣ ـ تأثرا بالحديث الشريف : كنت كنزا مخيفا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف لم أعثر عليه وهو من الأحاديث التي ينسبها الصوفية إلى الرسول عليه الصلاة والسلام .

٩٤ ـ أبو بكر الشبلي : اسمه جعفر بن يونس كما كتب على قبره في بغداد ، يختلفون في أصله هل هو مصري جاء إلى بغداد أو جاء من خراسان ، وقد تاب في مجلس خير نساج ، وتتلمذ على الجنيد ، كان يعتنق المذهب المالكي ، وكان يعقد المجالس كما كان عالما وفقيها . وقد قال الجنيد عنه : لا تنظروا إلى أبي بكر الشبلي بالعين التي تنظروا بها إلى بعضكم البعض فإنه عين من عيون الله تعالى . وتوفي الشبلي عام ٣٣٤هـ كان من أصحاء ، الشطحات ذلك أدخلوه المستشفى مرات عديدة . توفي عام ٣٣٤هـ . انظر : جامي : نفحات الأنس ص١٨٠ .

٩٥ ـ يشير العطار بذلك إلى ما جاء في الشاهنامة بأنه ذات يوم خرج بيشن للصيد فرأته منيژة ابنة افراسياب وأحبته فحملته إلى قصرها ، فحبسه أبوها في جب مظلم وسده عليه بصخرة هائلة ، كان كيوان الجني قد

أتى بها من قاع بحر الصين ، ولا يستطيع جرها غير الفيلة ، وتمكن رستم من إنقاذه في النهاية . انظر شاهنامه فردوسي ، جلدچهارم من ١٠٨٩:١١٢٩ .

٩٦ - رخش : اسم حصان رستم .

٩٧ - شبديز : اسم حصان خسروبرويز .

٩٨ - الإمام جعفر الصادق : شهرته أبو عبد الله جعفر بن محمد الملقب بالصادق (٨٠ - ١٤٨هـ.ق) الإمام السادس للشيعة .

٩٩ - هو فخر الدين أسعد الجرجاني ، من شعراء القرن الخامس الهجرى ، كان مقربا للسلطان طغرل السلجوقى ، ولا توجد معلومات وافية عنه وكان من ناظمى القصص وهو الذى نظم ويس ورامين . وقد نقل الشاعر التركى يوسف نابى هذه القصة عن الهى نامه واستفاد من مضمونها وترجم بعض أجزائها ، ثم سمى مثنويته خير آباد على اسم ولده أبى الخير ، واهتم فيها بالمحسنات اللفظية وإيراد التراكيب الفارسية . انظر تاريخ الأدب التركى للدكتور حسين مجيب المصرى ص٣١٢ .

١٠٠ - هو الحسين بن منصور الحلاج ، كان يكسب قوته من حلج الصوف . حوكم لقوله " أنا الحق " مع ثلاث تهم أخرى ، وأصر على دعاويه . فقتل عام ٣٠٩هـ بعد أن تحمل فى شجاعة نادرة الآلام المبرحة التى أنزلها به قاتلوه والحلاج يرى أن الرجل المتأله يجد فى نفسه بعد تصفيتها بأنواع الرياضة والمجاهدة حقيقة الصورة الإلهية التى طبعها الله فيه ، لأن خلق الإنسان على صورته . ويصف الحلاج اتحاد اللاهوت بالناسوت أو الروح الإلهى بالروح الإنسانى بأنه حلول فالإنسان صورة الله ومن أشهر أقواله " أنا الحق " وقد انتهت نظريته بموته . انظر : نيكلسون فى التصوف الإسلامى وتاريخه أبى العلا عفيفى ص ١٣٠:١٣٤ .

١٠١ - شجرة باسقة ، أخشابها بيضاء ، ولا تثمر . فرهنك عميد ص ٦٢١ .

١٠٢ - الشيخ نورى : هو أحمد بن محمد يعرف بابن البغوى لأن والده من مدينة بغشور وهى مدينة بين هرات ومرو ، ولد ونشأ فى بغداد ، وقد صحب عدة من المشايخ المشهورين ؛ كما رأى ذا النون ، و دان من أقران الجنيد ، عندما مات قال الجنيد : ذهب نصف هذا العلم بموت النورى ، اشتهر فى حياته بغلبة الوجد . وقد مات فى عام ٢٩٥ أو فى عام ٢٨٦هـ . انظر نفحات الأنس لجامى ص ٧٨،٧٩ .

١٠٣ - يعتقد نيكولسون : أنه كانت هناك صلة قديمة بين الكيمياء والسحر وعلم الطلسمات ، وهذه الصلة وضحت فى الفلسفة الأدربة المسيحية فقد ذكر فى مؤلف قبطى عن هذه الفلسفة شىء عن سر الاسم الأعظم الذى يستغنى به السالك عن سائر الأسرار الأخرى والتأثير ببعض الأسماء والعبارات من المبادىء المعروفة فى علم الطلسمات.

وقد وضح تأثير هذه الفلسفة فى التصوف ، فذكر أن إبراهيم بن أدهم دعابه فرأى الخضر عليه السلام . كما ذكره كثير من الصوفية كذلك كان ذو النون يستخدم الأدعية .

انظر : نيكولسون فى التصوف الإسلامى وتاريخه ترجمة أبى العلا عفيفى ص ١١،١٢ .

١٠٤ ـ النمرود : ملك بابل فى عصر إبراهيم وما ذكره القرآن الكريم عنه هو المحاجة التى دارت بين إبراهيم وبينه عندما أحب أن يعيد إبراهيم إلى عبادته وعبادة آلهته فيقول الله تعالى : (إذ قال إبراهيم ربى الذى يحي ويميت قال أنا أحيى وأميت) إلى نهاية الآية . سورة البقرة ، آية ٢٥٨ . انظر قصص الأنبياء تأليف عبد الوهاب النجـــار ص ٧٠:١١٢ .

١٠٥ ـ أبو يزيد : هو طيفور بن عيسى بن آدم بن سروشان ، كان جده مجوسيا ثم أسلم ، مات فى عام ٢٦١ أو ٢٣٤هـ ويرجح جامى التاريخ الأول ويقول الشوشترى : إن التاريخ الثانى لشخص آخر يلقب بطيفور وأن أبا يزيد كان تلميذا لحضرة الإمام جعفر ، كما كان سقاء الإمام الخاص ومحرم أسراره .

كان أبو يزيد أشد حماسة من متصوفى عصره ، وقد بين فكرة وحدة الوجود بجرأة عجيبة لدرجة أنه قال : ليس فى جبتى سوى الله . وقد أسس طريقة خاصة فى التصوف عرفت بطريقة السكر مقابل أهل الصحو . انظر : فريد الدين العطار : تذكرة الأولياء جـ١ ص١٣٥ وما يليها تصحيح نيكلسون ، ليدن ١٣٢٢هـ ـ ١٩٠٥م ـ عبد الرحمن بن أحمد جامى : نفحات الأنس من حضرات القدس ص٥٦ ، تهران ١٣٣٧هـ.ق ـ القاضى نور الله شوشترى مجالس المؤمنين جـ٢ ص٢٠،٢٣ تهران ١٣٥٤ش .

١٠٦ ـ يوسف الهمدانى : يقول عنه جامى : هو الإمام العالم والعارف الربانى صاحب الأحوال الجزيلة والكرامات والمقامات الجليلة ، ذهب فى بداية أمره إلى بغداد ولازم مجلس الشيخ أبى اسحق الشيرازى حتى ارتفع شأنه ، وبز أقرانه وبعد ذلك سلك طريق العبادة والرياضة والمجاهدة ، وقد توفى فى طريق عودته من هرات إلى مرو عام ٥٣٥هـ . انظر جامى : نفحات الأنس ص٣٧٥ .

١٠٧ ـ هذا المضمون نفسه نسبه المعرى إلى الشبلى فى البيت التالى :

ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء . تعليقات روحانى ص ٣٤٠ .

١٠٨ ـ الحسن البصرى : شهرته أبو سعيد حسن بن يسار البصرى (٢١،١١٠هـ) من الزهاد والعلماء المشهورين فى العصر الأموى . ولد فى المدينة ، ثم ذهب إلى البصرة حيث أمضى حياته هناك ، واشتهر بسبب زهده ، كانت له حلقات للدرس فى مسجد البصرة وقد نقلت عنه أحاديث كثيرة .

رابعة العدوية : هى ابنة إسماعيل العدوى القيسى البصرى ، وكنيتها أم الخير ، بعد وفاة والديها ظهر قحط عظيم فى البصرة ، وتفرقت عن إخوتها ووقعت فى يد ظالم باعها . واستطاعت الهرب ثم انشغلت بالعبادة . توفيت عام ١٣٥هـ.ق . وتعتبر رابعة أول من غرس بذور الحب والعشق الإلهيين ويقول العطار عنها : لو يقول شخص لى لماذا ذكرتها بين الرجال ؟ أقول : يقول سيد الأنبياء (ص) إن الله لا ينظر إلى صوركم .

والجدير بالذكر أن العطار قد أورد قصة الهى نامه نفسها حول الحسن البصرى ورابعة فى تذكرة الأولياء ضمن ترجمته لرابعة . انظر : عبد الرحمن بدوى : شهيدة العشق الإلهى رابعة العدوية . د. محمد استعلامى

: كزيدة تذكرة الأولياء ص٦١ وما يليها وص٥١٧ ـ فريد الدين العطار : تذكرة الأولياء جـ١ ص٦٤،٦٥ تصحيح رنولدالن نيكلسون ليدن ١٣٢٢هـ ـ ١٩٠٥م .

١٠٩ ـ إشارة إلى الآية الكريمة : (من شر الوسواس الخناس) سورة الناس آية ٤ .

١١٠ ـ إشارة إلى الحديث الشريف : " الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم " رواه البخارى فى ١١ ـ باب صفة إبليس وجنوده . ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق .

١١١ ـ إشارة إلى الآية الكريمة : (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون) سورة يوسف : آية ٧٠ .

١١٢ ـ إشارة إلى الآية الكريمة : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) سورة البقرة ، آية ٣٤ .

واخسؤ إشارة إلى الآية : (قال اخسؤا فيها ولا تكلمون) سورة المؤمنون آية ١٠٨ .

١١٣ ـ جمشيد : من ملوك البيشداديين مال إلى الظلم فى أواخر عهده واستطاع الضحاك أن يقضى عليه فبناء على أمره نشر بالمنشار ومما ينسب إلى جمشيد فى الروايات الفارسية القديمة كأس أو مرآة كان جمشيد يشاهد فيها العالم بأسره . وقد نسبها الفردوسى فى الشاهنامه إلى كيخسرو . انظر : شاهنامه فردوسى : تصحيح درويش برورده إيران ، جلداول ، تهران ١٣١٣ ، ص٢٣:٣٣ .

١١٤ ـ إشارة إلى قوله تعالى : (قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) سورة : ص ، آية ٧٦ .

١١٥ ـ بهلول بن عمرو الصوفى الكوفى ، فقيه وعارف وحكيم ، ابن عم الخليفة هارون الرشيد . انظر معصوم معليشاه : طرائق الحقائق جـ٢ ، ص٢٨٥ ـ تهران ١٣٣٩هـ.ش .

١١٦ ـ شقيق بن إبراهيم البلخى : كنيته أبو موسى ، كان من أهل الحديث وكان سنيا من تلاميذ الإمام زفر من قدماء مشايخ بلخ . أدرك صحبة حاتم الأصم وإبراهيم بن أدهم وكان من أهل التوكل . ويقال إنه توفى فى عام ١٧٤هـ . وإن قبره فى مدينة ختلان . انظر : عبد الرحمن بن أحمد جافى : نفحات الأنس من حضرات القدس ، ص٤٩،٥٠ .

١١٧ ـ إشارة إلى الآية الكريمة : (قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها) سورة طه آية : ٩٦ أى قال السامرى رأيت جبريل جاءك بالوحى وكنت أعلم أنه روحانى لا يمس أثره شيئا إلا أحياه فأخذت قليلا من التراب الذى وطئه ووضعته على الذهب الذى أذبناه فلما صنعناه عجلا سرت فيه الحياة والصوت . ويقصد الشاعر بقضائه عليهم قتلهم لأنفسهم بعد ذلك فكان كل إنسان يقتل من يقابله من قريب أو أخ ، ثم عفا الله عنهم بعد أن قتلوا من أنفسهم عددا كبيرا . انظر قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص٢١٨،٢٢٦ .

١١٨ ـ إشارة إلى الآية الكريمة (فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين) سورة الأنبياء ، آية ٩١ .

١١٩ - أبو بكر الواسطى : اسمه محمد بن موسى وكان يعرف بابن الفرغانى ، من أصحاب الجنيد والنورى ، وكان من علماء مشايخ قومه ، كما كانت له مكانة بارزة فى التصوف ، كذلك كان عالما بالأصول والفروع والعلوم الظاهرة . ذهب فى شبابه من العراق إلى مرو حيث توفى عام ٣٢٠هـ . انظر : جامى : نفحات الأنس ، ص١٧٥

١٢٠ - الشيخ أبو على فار مدى ، اسمه فضل بن محمد ، كان شيخ شيوخ خراسان ، وكان تلميذ الإمام القشيرى ، وقد عاصر أبا سعيد وحضر مجالسه . وتوفى عام ٤٧٧هـ انظر جامى : نفحات الأنس ص ٣٦٨.

١٢١ - سنجر : كان عصره إحياء وامتداد لعصور السلاجقة العظام حينما كانت الدولة السلجوقية تدين بالولاء لسلطان واحد ، ويعد سنجر آخر السلاجقة العظام كما يعتبر عصره من العصور المهمة فى تاريخ الأدب الفارسى ، فقد رعى سنجر الشعراء والكتاب ، فازدهرت حركة التأليف فى عهده . وقد توفى سنجر عام ٥٥٢هـ . انظر سلاجقة إيران والعراق للدكتور عبد النعيم حسنين ص١٣٤ .

عباسه الطوسية : من نساء خراسان الزاهدات ، تاريخ حياتها غير معروف استشهد العطار ببضع كلمات لها عند حديثه عن رابعة العدوية فى تذكرة الأولياء . تعليقات محمد استعلامى على كزيدة تذكرة الأولياء ص٥٢٨ .

١٢٢ - المقصود بالروح الواحدة التى يخصها أهل المعرفة بحديثهم هو الروح المحمدى أو النور المحمدى وهى الروح الإلهى الذى نفخ الله منه فى آدم ، وأول الفيوضات ومبدأ الحياة ومركزها فى العالم ، وهى روح كل شىء وحياته ، والواسطة بين الله وعباده . نيكلسون : فى التصوف الإسلامى وتاريخه ترجمة أبى العلا عفيفى ص١٥٩ .

١٢٣ - الشيخ أبو الليث قوشنجى يقال إنه كان يسير حافى القدمين : ولد فى هرات وجاء إلى بوشنك . وقد ظهرت له كرامات كثيرة واشتهر بالزهد والتقوى . وقد أورد العطار قصة إلهى نامه نفسها فى تذكرة الأولياء عند حديثه عن قوشنجى (بوشنجى) . انظر جامى ، نفحات الأنس ص٣٥٠:٣٥١ د. محمد استعلامى كزيدة الأولياء ، ص٣٥٧ .

١٢٤ - أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى من أئمة فلاسفة الإسلام ولد بطوس إحدى مدن خراسان ٤٥٠هـ وتتلمذ على الإمام الجوينى أكبر علماء نيسابور وخراسان وكان أستاذه يتباهى به ، وقد حظى بمرتبة رفيعة فى بلاط الملوك والسلاطين مثل السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك ، وقام بالتدريس فى أكبر مدارس الإسلام فى مدرسة نظامية بغداد واجتمع عليه حوالى ثلاثمائة من فضلاء العلماء ، كما احترمه الخلفاء . وقد ترك بغداد فى قمة شهرته وساح عشر سنوات ، ترك الغزالى الفلسفة ووجد ضالته فى التصوف وحاول أن يوفق بين الشريعة والطريقة ومات عام ٥٠٥هـ . انظر : مقدمة الكتور بدوى طبانه على إحياء علوم الدين للغزالى جـ١ ص٧ وما يليها - القاهرة ١٣٧٧:١٩٥٧ .

١٢٥ - البادية صحراء تقع بين العراق ومكة .

١ - المقصود حسن البصرى وحبيب العجمى : شهرة الأول أبو سعيد حسن بن يسار البصرى (٢١:١١٠هـ) وهو من كبار التابعين والزهاد والعلماء فى العهد الأموى ، كان من الموالى . ولد حسن فى المدينة ثم ذهب إلى البصرة ونزل بها حيث حاز شهرة واسعة ، وخالف يزيد بن معاوية ، كان يقيم حلقة للدرس فى مسجد البصرة ، حيث تتلمذ عليه الكثيرون ، كما رويت عنه أحاديث كثيرة عديدة . أما حبيب فشهرته أبو محمد حبيب العجمى ، وكان مريدا للحسن البصرى ، وتوفى عام ١٣٠هـ . تعليقات محمد استعلامى على كزيدة تذكرة الأولياء ص٥١٦ .

١ - إشارة إلى المعتزلة الذين نفوا الصفات القديمة عن ذات الله ، المشبهة هم الذين أثبتوا لله صفات أزلية . انظر الملل والنحل للشهرستانى ص٤٨، ٤٩ .

١ - عبد الله بن المبارك : هو أبو عبد الله بن المبارك المروزى (١١٨-١٨١هـ) من المحدثين المعروفين ، أمضى عمره فى السفر للحج والتجارة والجهاد كان مبرزا فى الحديث والفقه واللغة العربية ، مات قرب بغداد عند عودته من جهاد الروم ، وله كتاب فى الجهاد .تعليقات محمد استعلامى على كزيدة تذكرة الأولياء ص٥٣٠ .

١ - جاء فى الشاهنامة أن كيخسرو تنسك واعتزل الحياة بعد أن هبط عليه الملك ، وأمره بالتهيؤ للقاء ربه ، فخرج عن أمواله لأوجه الخير ، وقسم الممالك بين الأبطال ، وعهد بالملك إلى لهراسب ، ثم غاب عن أعين الناس . انظر شاهنامه فردوسى ، جلد پنجم ص١٤٣٦-١٤٤٣ .

١ - يعتبر السلطان ملكشاه من أعظم سلاطين الدولة السلجوقية ، فقد وصلت الدولة فى عهده إلى أقصى قوتها وعظمتها ، وأصبحت مدينة إصفهان فى عهده من أهم بلاد العالم ، ومن أشهر الأعمال التى تمت فى عهده تقويم جلالى وقد اشترك فى وضعه وإصلاحه الشاعر عمر الخيام ، وكان قتل نظام الملك ووزيره عام ٤٨٥هـ وموت ملكشاه فى ظروف غامضة بعده بأيام ، واختفاؤهما من المسرح السياسى من أهم الأحداث التى وقعت فى تاريخ الدولة السلجوقية ، فقد انتهى بموتهما عهد القوة والاتحاد . انظر سلاجقة إيران والعراق للدكتور عبد النعيم حسنين ص٨٢ .

١ - إشارة إلى الآية الكريمة : (إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ، أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم ... سورة طه ٣٨، ٣٩ .

١ - الإسكندر الرومى هو ابن فيلبوس الملك ، سلمه أبوه إلى أرسطو طاليس ، فأقام عنده خمس سنين يتعلم منه الحكمة والأدب ، حتى بلغ أحسن المبالغ . استقل بأعباء الحكم بعد وفاة أبيه . ولما توفى برومية المدائن وضعوه فى تابوت من ذهب ، وحملوه إلى الإسكندرية ، وكان قد عاش اثنتين وثلاثين سنة ، وملك اثنتى عشرة سنة .

ويقال : إنه هو ذو القرنين الملك ، وليس هو المذكور فى القرآن . بينما يرى البعض الآخر أن ذا القرنين المذكور فى القرآن هو الإسكندر المقدونى لأنه لم يعلم فى تاريخ البشر من تنطبق عليه أكثر الصفات التى

ذكرها الكتاب الكـــريم غير الإسكندر .انظر : الشهرستانى : الملل والنحل ، ص٤٤٧،٤٥١ . المصحـف المفسر محمد فريد وجدى ، سورة الكهف ، آية ٨٥ .

١٣٣ ـ أورد الهجويرى قصة مشابهة لهذه القصة ، وهى : اتفق لفقير لقاء ملك ، فقال الملك : سلنى حاجة . قال الفقير : أنا لا أسأل عبدا لعبيدى حاجة ! قال الملك : كيف ؟ قال : لى عبدان كلاهما سيد لك : أحدهما الحرص ، والآخر طول الأمل . انظر كشف المحجوب : ترجمة د. إسعاد عبد الهادى جـ١ص٢١٦ .

١٣٤ ـ إشارة إلى الآيات الكريمة : (حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهـون قـولا ، قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا) سورة الكهف : ٩٣،٩٤ .

١٣٥ ـ يقال إن عوج كان معاصرا لموسى ، وقد حاربه موسى لأنه أراد منع بنى إسرائيل من العبور أثناء رحيلهـم . ومذكور فى الأساطير أن قوام موسى كان عشرة أذرع وكانت عصاه بنفس هذا الطول ، وأثناء عراكـه مع عوج ألقى عصاه إلى ارتفاع عشرة أذرع وبهذا استطاع أن يضـرب رأس العصـا بكعـب قـدم عـوج . تعليقات روحانى ٣٤٣ .

١٣٦ ـ إشارة إلى ما جاء فى الشاهنامة : وقعت سودابه زوجة كاؤس فى حب ابـن زوجهـا سـياوش ، وراودتـه عن نفسه ، ولكنـه رفض ، فأوقعت له عند أبيه ، ولكن أباه شك فى صدق روايتها ، وبناء علـى حكـم الموابذة عبر سياوش النار ، ولكنه خرج منها سليما . انظر شاهنامه فردوس ، جلدسوم ص٥٣٢:٥٥٣ .

١٣٧ ـ طاووس اليمانى : من التابعين ورواة الحديث ، كان مشهورا بالتقوى وكان الناس يذهبون إليه فى أوقـات الشدة ليدعو لهم لأنهم كانوا يعتقدون أن الله يستجيب دعاءه .

تعليقات روحانى ص٣٤٤ .

١٣٨ ـ بوزرجمهر (بزركمهر) : لعب برزرجمهر دورا فعالا فى القيام بالاصلاحات الداخلية فى البلاد ، كان فـى البداية معلما لهرمز ابن شيروان ، وعندما لمس أنوشيروان اللياقة والكفـاءة فيه ، اختـاره للوزارة ، وقد كثرت الروايات وتعددت حول ذكائه وفطنته ، وقد قتل بوزرجمهر فى عهده خسروبرويز بنـاء علـى أمر منه . انظر : حسن پيرنيا وعباس إقبال : دورة تاريخ إيران ، ص٢١٩ .

١٣٩ ـ باربد : كان مطربا معروفا فى بلاط خسروبرويز ، ويذكره الشعراء كثيرا ضمن أشعارهم كمثـال لجمـال الألحان وعذوبتها .

١٤٠ ـ الفضل بن الربيع : اختاره هارون وزيرا له بعد قضائه على البرامكة وبعد وفاة هارون ، تضامن مع زبيـدة ومع ابنها الأمين وحث الأمين على أن يخلع أخاه المأمون من ولاية العهد بصفة رسمية ويختـار ولـده لولاية العهد . انظر دورة تاريخ إيران تأليف حسن پيرنيا وعباس إقبال القسم الثانى ص٩٦ العصر العباسـى الأول د.عبد المنعم ماجد ص٢٠٥ وما يليها .

١٤١ ـ كان اليونانيون يسمون إله المصريين بهذا الاسم ، ويعتبرونه أحد ملوك مصر القدماء ، ومؤلفا لكثير من الكتب عن السحر والكيمياء والطلسمات . وقد زعم جماعة من العلماء أن جميع العلوم إنما صدرت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى .

كما اعتبره البعض أنه إدريس النبى عليه السلام وأنه هو الذى وضع أسماء البروج والكواكب السيارة بينما اعتقد البعض أنه شخص خيالى لم يكن له وجود فعلى . انظر تعليقات روحانى ص٣٤٤ . عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص٢٨ .الشهرستانى : الملل والنحل ص٣٢٩

١٤٢ ـ يقصد العطار من قصة الإسكندر وتكرارها قصة الشاهنامة المعروفة عندما ذهب الإسكندر إلى أرض الجنات حيث تغرب الشمس فى عين ماء كبيرة من شرب من مائها خلد . وانتقى لهذه المهمة صاحب الأتمة الخضر ـ عليه السلام ـ وانقسموا إلى فريقين وتوغلوا فى طريق الظلمات . وأفضت الطريق بفريق الإسكندر إلى جبل شاهق تسكنه الطيور البواسق . ثم مروا على الجبل الأسود وحذرهم هاتف من حمل حجارة ذلك المكان ومن لا يحمل منها يندم أيضا . وعندما خرجوا من تلك الظلمات رأوا تلك الحجارة جواهر وبواقيت فندم من حمل حيث لم يستكثر وندم من لم يحمل أما الخضر فوصل إلى عين الحياة وفاز بالمطلوب .

ومن الواضح أن العطار أعطى لياقوتة صبغة صوفية وجعلها مرشدة للنمل . انظر شاهنامه فردوس ، جلد هفتم ، ص١٨٨٧، ١٨٨٩ .

١٤٣ ـ العناصر الأربعة هى النار ، الهواء ، الماء ، التراب .

١٤٤ ـ إشارة إلى الآية الكريمة : (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس . سورة يونس آية ٢٤ .

١٤٥ ـ كان الرسول (ص) إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه بمراعاة الله ثم قال : إذا لقيت المشركين فادعهم إلى ثلاث ، أدعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم ، وإن أبوا فالجزية وإن رفضوا قاتلهم . وقد التزم المسلمون بهذه المبادىء التى سنها الرسول (ص) فى حروبهم وفتوحاتهم . لذلك فالقصه هنا لا تشير للواقع .

١٤٦ ـ مهمتى من شاعرات القرن الخامس الهجرى ، يقال إن اسمها منيرة ، وقد اهتم والدها بتعليمها ، كما برعت أيضا فى عزف الصنج وعندما بلغت العشرين من عمرها طبقت شهرتها الآفاق فى ما وراء النهر وفجند وكنجه ، كما وخجند ذاع صيت جمالها وسحرها .وبعد وفاة أبيها جاءت مهستى من خجند إلى كنجه ثم تنقلت حتى مرو وهناك دخلت فى زمرة المقربين إلى السلطان سنجر حيث قابلت عمر الخيام ، وبانتهاء أسرة السلاجقة هناك عادت إلى كنجه حيث تزوجت أحد الأمراء واستقرت هناك .نظمت كثيرا من الرباعيات ، وفاضت أشعارها بمعانى الحب والعشق . ويقول البعض إن سنجر كان يهيم بها . انظر على أكبر ـ شيرسليمى : زنان سخنور جلد اول ص٢٥٥ وما يليها

١٤٧ ـ إشارة إلى الآية الكريمة : (وإن شكرتم لأزيدنكم) سورة إبراهيم آية ٧ .

١٤٨ ـ جاء فى القرآن الكريم : (فسخرنا لـه الريـح تجـرى بـأمره رخـاء حيـث أصـاب ، والشـياطين كـل بنـاء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الأصفاد . سورة ص آيات ٣٦،٣٧،٣٨ .

١٤٩ ـ كـذلك ذكـر تعلـمه لمنطـق الطير ولـرسوز النمل فى الآيات الآتية : قال تعـالى : (وورث سـليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير) سورة النمل ، آية : ١٦

قال تعالى : (حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مسـاكنكم لا يحطمنكـم سـليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك . سورة النمـل آيـة ١٨ آية ١٩ .

١٥٠ ـ قابل رستم ابنه سهراب الذى حال أفراسياب دون معرفة أحدهما للآخر ، فى إحدى المعـارك و لم يعـرف أنه ابنه ، إلا بعد أن أجهز عليه فوسده التراب . انظر شاهنامه فردوس ، جلد دوم ، ص٥٠٢ ، ٥٠٩ .

١٥١ ـ إشارة إلى ما جاء فى القرآن الكريم : (قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فا نظر ماذا ترى قـال يـا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) سورة الصافات ، آية ١٠٢ .

١٥٢ ـ الدرفس الكاويانى : عندما ثار الناس على الضحاك لظلمه وقتلـه أبنـاءهم لتقديـم أدمغتهـم لحيتيـه ، تزعـم الثورة حداد اسمه كاوه اتخذ من جلدة الحدادة راية ، وكانت راية كاوه أول رايـة ، وتـوارث ملـوك إيـران هذه الراية وزينوها بالديباج والجواهر الثمينة وحملوها فى كل حروبهم تيمنا بها . انظر شاهنامه فـردوس ، جلد أول ص٤٤، ٤٨ .

١٥٣ ـ إشارة إلى قوله تعالى : (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) سورة القارعة ، آية ٥

١٥٤ ـ بعد انهزام يزدجرد فى موقعة نهاوند (٣١هـ) على يـد العـرب ، صـار يتنقـل بـين مـدن إيـران المختلفـة ، ويطلب المساعدة من ملوك الصين والترك ، فلم يجبـه أحـد إلى طلبه ، وفـى نهايـة الأمـر لجـأ إلى صـاحب طاحونة بالقرب من مرو ليمضى عند الليل ، فقتله الرجل طمعا فى ملابسه الفاخرة وجواهره ، ويقال إنـه دفن فى فارس .

انظر دورة تاريخ إيران تأليف حسن بيرنيا وعباس اقبال ص٢٣٧ ، ٢٣٨ .

١٥٥ ـ بهرام كور من أبطال الشاهنامه ، كان مولعا بالصيد واللهو والحسان . انظر شاهنامه فردوس ، جلد هفتم ص٢٠٧٧ : ٢٢٦٠ .

١٥٦ ـ بهرام جو بين هو القائد الثائر على خسروبرويز .انظر شاهنامه فردوس : جلد نهم ، ٢٦٨١ : ٢٨٢٤ .

١٥٧ ـ وردت فى النص على هذا النحو .

١٥٨ ـ إشارة إلى الآية الكريمة : " فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون " .سورة المؤمنـون ، آية ١٠١

١٥٩ ـ إشارة إلى الآية الكريمة : يومئذ لا تنفع الشفاعة " إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا " . سورة طه . آية ١٠٩

١٦٠ ـ عرف هذا التشبيه عند الصوفية فيقول الهجويرى وقد قال المشايخ : " الوقت سيف قاطع " لأن صفة السيف القطع ، وصفة الوقت القطع ، لأن الوقت يقطع جذور المستقبل والماضى ، ويمحو عن القلب هموم الأمس والغد . كشف المحجوب ج ٢٠ ص ٦١٤ ، ٦١٥ .

١٦١ ـ تلقب السيدة فاطمة بالزهراء : ابنة الرسول والسيدة خديجة وزوجة على ، ووالدة الحسن والحسين ، لذلك تحتل مكانة عظيمة لدى الشيعة .

١٦٢ ـ أبو بكر الوراق الترمذى : اسمه محمد بن عمر الحكيم الترمذى ، أصله من ترمذ ، وقبره هناك . له كتب كثيرة وديوان شعر ، وكان أبو بكر الوراق يمنع أصحابه عن الأسفار والسياحات ويقول مفتاح كل بركة الصبر فى موضع إرادتك إلى أن تصح لك الإرادة فإذا صحت لك الإرادة فقد ظهرت عليك أوائل البركة انظر جامى : نفحات الأنس ص١٢٣ .

١٦٣ ـ يتفق العطار فى هذا مع المرجئة ـ وهم فرق عديدة ـ وعقيدتهم هى أنه لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، كذلك قالوا بإرجاء حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة ؛ فلا يقضى عليه بحكم ما فى الدنيا من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار . انظر الشهرستانى : الملل والنحل ص ١٤٢ .

١٦٤ ـ أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى ٩٧ : ١٦١هـ . فقيه ومحدث وزاهد معروف . عندما رشحه أبو جعفر المنصور لتقلد منصب القضاء رفض ، وهرب من الكوفة ، وذهب إلى اليمن ثم تنقل بين الديار حتى اختفى فى البصرة . من آثاره الجامع الكبير والجامع الصغير فى الحديث وكتاب الفرائض .

انظر تعليقات محمد استعلامى على كزيدة ، تذكرة الأولياء ص ٥٢٢ .

١٦٥ ـ هذه القصة إحدى قصصى ألف ليلة وليلة ، فروزانفر : شرح أحوال ونقد وتحليل آثار شيخ فريد الدين محمد عطار نيشابورى ـ ص٢٦٧ ، تهران ١٣٥٣ .

١٦٦ ـ تحدث الصوفية كثيرا عن ملك سليمان ، واتخذوه مثلا على عدم جدوى الملك ، فيقول أبو سعيد : " لن يأتى أعز من سليمان ، ولم يكن هناك ملك أعظم منه . ومع ذلك فلم يكن فى قبضته سوى الريح " . ويقول الهجويرى : فقر سليمان فى الحقيقة مثل غنى سليمان ، لأن الله قال لأيوب فى شدة صبره : "نعم العبد" وقال لسليمان فى استقامة ملكه " نعم العبد " فلما حصل رضا الرحمن جعل فقر سليمان مثل غنى سليمان . انظر : أسرار التوحيد ، ترجمة د.إسعاد عبد الهادى ص٣٤٠ ، كشف المحجوب ترجمة د.إسعاد عبد الهادى ج ١٠ ص ٢٢١ .

١٦٧ ـ إبراهيم الخواص ، يقال إنه من شيوخ بغداد ، وكان من أقران الجنيد ، توفى عام ٢٩١ هـ . اشتهر بالتوكل والتجرد . انظر جامى : نفحات الأنس ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

١٦٨ ـ المأمون : هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد ، ولد عام ١٧٠هـ ولاه أبوه العهد وسنه ١٣ سنة بعد أخيه الأمين ، وولاه خراسان وما يتصل بها ومنحه استقلالا يكاد يكون تاما . ولما توفى أبوه لم يف له أخوه بعهده بل أراد أن يقدم عليه فى ولاية العهد ابنه موسى ، فأبى ذلك المأمون ، وكان من وراء ذلك الحرب الفظيعة التى انتهت بقتل الأمين فى ١٩٨ . بويع المأمون بالخلافة العامة واستمر إلى أن توفى غازيا بطرسوس فى ٢١٨هـ . انظر : الشيخ محمد الخضرى بك : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية ص١٧٤ .

١٦٩ ـ إشارة إلى الحديث القدسى : " من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا " .وهو جزء من حديث رواه البخارى فى ١٥ باب قول الله تعالى ويحذركم الله نفسه ، ٩٧ كتاب التوحيد .

١٧٠ ـ الأصمعى من رواد علم النحو فى البصرة وقد توفى عام ٢١٦ هـ . ويعتبر من علماء الأدب المشهورين الذين كانوا يعيشون فى بلاط هارون الرشيد ، وقد اشتهر ذلك العصر بكثرة المناظرات فانتشرت مجالس المناظرة فى الدور والقصور والمساجد بين العلماء وفى حضرة الخلفاء ، فى الفقه والنحو والصرف واللغة والمسائل الدينية . وقد شهدت بغداد على نحو خاص مناظرات فى النحو والصرف واللغة من أشهرها ما كان بين الكسائى والأصمعى أمام الرشيد . انظر : د.حسن أحمد محمود ، د. أحمد إبراهيم الشريف . العالم الإسلامى فى العصر العباسى ص٢٦٢ . د. أبو زيد شلبى : تاريخ الحضارة الإسلامية ص٢٣٠ .

١٧١ ـ إشارة إلى الآية الكريمة : " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ". سورة التوبة ، آية ١١١ .

١٧٢ ـ إشارة إلى الآية الكريمة : " قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون" . سورة يوسف آية ٨٩ .

١٧٣ ـ خالوى السرخسى: اسمه أحمد ولد فى سرخس ومات فيها له كرامات كثيرة . لم يذكر جامى معلومات كثيرة عنه انظر جامى : نفحات الأنس ص٢٨٦ .

١٧٤ ـ يحيى بن المعاذ الرازى : كنيته أبو زكريا ولقبه واعظ ، يقال إنه كانت له قدرة فائقة على الكلام ، ومن أقواله : صدق المحبة العمل بطاعة المحبوب . ويقال إنه خرج إلى بلخ وأقام بها مدة ثم عاد إلى نيسابور ومات بها سنة ثمان وخمسين ومائتين . انظر جامى : نفحات الأنس ص٥٥ ، ٥٦ .

١٧٥ ـ أبو على الروذبارى : اسمه أحمد بن محمد بن القاسم بن المنصور من أبناء الرؤساء والوزراء يتصل نسبه إلى كسرى ، استمع ذات مرة إلى حديث للجنيد فى المسجد الجامع ، فترك لك ما يملك وأقبل إلى الطريق ، كان عالما فقيها وأديبا وإماما كما كان سيد قومه لدرجة قيل معها عنه : ما رأيت أجمع لعمر الشريعة والحقيقة من أبى على الروذبارى . وقد أدرك صحبة الجنيد ونورى وغيرهما ، كما أقام فى مصر وصار شيخ شيوخها . توفى عام ٣٢١. انظر جامى : نفحات الأنس ٢٠١ ، ٢٠٢ .

١٧٦ ـ إشارة إلى الآية الكريمة : "ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ". سورة الفجر ، آيات ٦ ، ٧ ، ٨ .

١٧٧ - ذكر فى الروايات أنه عندما صعد عيسى عليه السلام إلى السماء ، لم يكن يحمل معه من الدنيا سوى إبرة ، فلم يفسح له الطريق إلى الجنة حتى ألقى بهذه الإبرة . تعليقات روحانى ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

١٧٨ - إشارة إلى قوله تعالى " إن الإنسان خلق هلوعا " سورة المعارج ، آية ١٩ .

١٧٩ - الجُعْل : نوع من الخنافس التى تعيش على رائحة الروث . فرهنك عميد ص٣٧٥.

١٨٠ - إشارة إلى قوله تعالى : " الذى خلق سبع سماوات طباقا " سورة الملك ، آية ٣ .

١٨١ - نسبة إلى آزر ، والد إبراهيم عليه السلام .

١٨٢ - يقال إن النمرود أحضر صندوقا وربط ثلاثة نسور به ، ودخل فيه ، وطار إلى السماء ليحارب الله ، وكل سهم كان يلقى به إلى السماء كان جبريل يعيده فى صدره. تعليقات روحانى ص ٣٤٨ .

١٨٣ - زبيدة : ابنة عم هارون الرشيد وزوجته منذ عام ١٦٥هـ ، كان لها نفوذ كبير على الرشيد حيث وصفت بالجمال والحشمة وكانت فصيحة لبيبة عاقلة مدبرة ، كذلك أُعتبرت أقوى النساء العباسيات اللاتى كن يتدخلن فى السياسة . وكانت تمثل العنصر العربى مقابل النفوذ الفارسى آنذاك وقد تزعمت الفريق المناهض للبرامكة . انظر : د. عبد المنعم ماجد : العصر العباسى الأول ج١٠ ، ص٢٠٤ وما يليها .

١٨٤ - أردشير من ملوك الساسانيين ، وتوجد روايتان حول قصة قتلة لزوجته الأولى أن أردشير قد عاهد الله ألا يدع شخصا من أسرة الإشكانيين على قيد الحياة ، وعندما عرف أن زوجته من أسرة الإشكانيين أمر بقتلها ، والقصة الثانية هى ما أوردها العطار ويرى الأستاذ روحانى أن القصة الثانية أنسب لتبرئة أردشير . تعليقات روحانى ص٣٤٨.

١٨٥ - شاهبور : معناها ابن الملك .

١٨٦ - ذكر فى الروايات أن الكفار أذاقوا جرجيس كل ألوان العذاب ، ألقوا به فى النار ، وقطعوا جسده ، بأسياخ الحديد ، ومرروا فوق جسده عربة بها سيوف حديدية ، وقتلوه ثلاث مرات ، وفى كل مرة كان يعود إلى الحياة ، وفى نهاية الأمر هلك أعداؤه بنار أرسلها الله من السماء . تعليقات روحانى ص٣٤٨ .

١٨٧ - ذات العرق : مكان فى شمال شرق مكة كان يتلاقى عنده الطريقان القادمان من الكوفة والبصرة عبر بادية العرب . انظر تعليقات محمد استعلامى على كربدة تذكره الأولياء ، ص٥٢٠

١٨٨ - شجر الطرفا يصنع منه نوعا من السهام القاتلة . برهان قاطع ص١٠٠٤ .

١٨٩ - تحدث الصوفية عن النار التى تضطرم فى صدور العباد ، ويقول أبو سعيد : خلق الله تعالى نارين : إحداهما نار حية ، والأخرى نار ميتة . والنار الحية هى نار الحاجة التى وضعت فى صدور العباد لتحرق نفوسهم . وهى نار نورانية عندما تحرق النفس تتحول نار الحاجة هذه إلى نار الشوق وهى لا تخمد أبدا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . وعلامتها التجافى عن دار الغرور إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزول

الموت . أما النار الميتة فهى نار الجحيم ونار الظلمة والوحشة . وكل من لا يحترق بالنار الحية يحترق بتلك النار الميتة سواء فى الدنيا أو الآخرة أسرار التوحيد : ترجمة د.إسعاد عبد الهادى ص٣٣٤.

١٩٠ ـ هى رابعة بنت كعب الفز دارى البلخي ، شاعرة من شعراء القرن الرابع الهجرى ، عاشت فى زمن السامانيين والمعلومات عن حياتها قليلة ، وقد عاصرت الرودكى .

وينقل العطار فى قصته عن أبى سعيد ابن أبى الخير أن أشعار رابعة لم تكن تعبيرا عن عشق مادى وإنما كانت موجهة إلى الله . وهو ما نقله حامى أيضا عند حديثه عن رابعة . وجدير بالذكر أن رضا قليخان هدايت قد نظم قصة رابعة تحت اسم بكتاش نامه أو كلستان ارم وقد اعتمد فى قصته على قصة العطار فى الهى نامه ولم يأت بجديد عنها .انظر : نفحات الأنس لجامى ص٦٢٩ . مجمع الفصحاء : بخش سوم ازمجلد دوم ١٣٤٠ص ١٣٦٢ وما بعدها .

١٩١ ـ رباب ، سيزارنك ، آوار ، قول ، آهنك ، كلوار ، زخمه ، دوراهى ، مخالف ، راست ، برده ، زيروبم ، سار ، برده عشاق ، سرود ، رود .كلها أسماء ونغمات موسيقية شهيرة . تعليقات روحانى ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

١٩٢ ـ هو أبو عبد الله جعفر بن محمد الرودكى (متوفى عام ٣٢٩هـ / ١٩٤٠م) ولد فى قرية رودك بالقرب من سمرقند . ويقال إنه حفظ القرآن فى الثامنة من عمره ، وكان له صوت جميل ، كما أنه كان يعزف على البربط ،وكان يتمتع بحظوة فى بلاط الأمير نصر السامانى . وقد جمع ثروة كبيرة .والرودكى أو شاعر عظيم فى إيران ، يُسمى أستاذ الشعراء . من آثاره الهامة منظومة كليلة ودمنة ولكنها فقدت .انظر زهراى خانلرى : فرهنك ادبيان فارسى درى ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

١٩٣ ـ عاش أفلاطون فى أواخر القرن الخامس وأوائل الرابع ق.م ، وولد فى أثينا ، ونشأ فى بحبوحة من النعيم ، وتتلمذ لسقراط ولازمه فى السنوات الثمان الأخيرة من حياته . وقد سافر إلى مصر وتحدث عنها فى كتابيه القوانين والجمهورية وأقام فيها زمنا طويلا ومات فى الثمانين من عمره . ويبدو من قصة العطار مدى إعجابه به لأن أفلاطون نظر إلى عالم الحسن على أنه خيالات زائفة وأوهام باطلة وركز الحقيقة فيما أسماه بـ " عالم المثل " وحصر الوجود الحقيقى فى عالم العقل أو المجردات ، واعترف بوجود اله لهذا الكون مدبر له ومهيمن عليه ، وهو إله واحد وروح عاقل منظم متصف بصفات الجمال والخير والعدل والكمال ، لا يخضع لقواعد الزمان ، وقال كذلك إنه لا بد أن يلقى الأشرار جزاءهم فى ساعة آتية . وإنه بقدر ما يتخلص الإنسان من علائق عالم الحس تنكشف له حقائق الموجودات وعالم الحقيقة حيث الدوام والخلود . انظر د.محمد بيصار : الفلسفة اليونانية مقدمات ومذاهب ص٧٦ : ١٠٥ .

١٩٤ ـ ولد أرسطو عام ٣٨٥ ق.م فى إحدى المدن الأيونية القديمة ، من أسرة اشتهرت بالاشتغال بالطب ، وكان والده طبيبا لجد الإسكندر . التحق أرسطو بأكاديمية أفلاطون وحاز إعجاب أستاذه فسماه (العقل) . وقضى بالأكاديمية عشرين عاما ثم هجرها . بعد ذلك عهد إليه بتثقيف الإسكندر البالغ من العمر آنذاك ثلاثة عشر عاما . وبعد بضع سنوات أسس مدرسة فى أثينا . ومات فى الثالثة والستين .

وقد خالف أرسطو أستاذه أفلاطون فى ترفعه بفلسفته عن عالم الحس . ويرى أنه لا وجود من عدم فالموجودات قديمة بموادها ، حادثة بصورها ، والصراع يكون بين الهيولى والصورة . كما قال بأن الله ليس متقدما على العالم فى الزمان مما أثار كثيرا من الجدل . ويتفق مع أفلاطون فى أن العالم يعقل مبدأه الأول (الله) ويعشقه ويسعى إليه وإلى الوصول إلى حياة شبيهة بحياته ، ولكن ما فى العالم من مادة يحول بينه وبين ذلك ، فيكتفى بالتحرك نحوه حركة متصلة دائرية . انظر : د.محمد بيصار ، الفلسفة اليونانية مقدمات ومذاهب ، ص١١٥ : ١٣٠ .

١٩٥ ـ إشارة إلى الآية الكريمة : " فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن " . سورة يوسف آية ٣١ .

١٩٦ ـ هو أبو الفتوح مجد الدين إمام أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالى الطوسى الأخ الأصغر للإمام محمد الغـــزالى ليست هناك معلومات دقيقة عن حياته سوى مال إلى الزهد والانزواء فى شبابه وصاحب الصوفية ، حتى اختار الشيخ أبا بكر نساج أستاذا له ودخل حلقته وقام بالتدريس لفترة فى نظاميه بغداد مثل أخيه ، وكان يحضر مجالس وعظه عدد غفير وكان ينظم الشعر بالفارسية والعربية وله آثار متعددة بالفارسية و العربية أشهر رسالة سواخ ، والمواعظ ، وكتاب لباب الأحياء ، ورسائله إلى عين القضاة اختلف فى تاريخ وفاته من ٥٠٤ :٥٢٧ هـ و قد دفن فى مدينة قزوين انظر مقدمة د . جواد نوبخش على رسالة سوانح ورسالة اى در موعظة ص٣ ومابليها .

١٩٧ـ أورد العطار هذه القصة فى تذكرة الأولياء وأضاف عليها ذهاب شخص آخر إلى منزل الشيخ وقول أبى يزيد : ليس فى المنزل سوى الله انظر كزيده الأولياء به كوشش د. محمد استعلامى ص ١٢٨.

١٩٨ـ إشارة إلى قوله تعالى : (وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين) سورة الأعراف ، آية ١٢٠،١٢١.

١٩٩ـ هو الشيخ أبو الحسن الخرقانى واسمه على بن جعفر وطريقته فى التصوف مستمدة من روحانية الشيخ أبن يزيد البسطامى و ـ ولد الخرقاني بعده بمدة . ومن أقواله مابقى فى لغيرالله شئ ولافى صدرى لغيره قرار . توفى عام ٤٢٥هـ انظر جامى : نفحات الأندلس ص٢٩٨،٢٩٩

٢٠٠ـ شهرته معروف بن فيروز الكرخى ولد فى الكرخ ببغداد وعاش ومات . وكان يقول منذ صغره إن الله واحد ، حتى هرب وأسلم على يد على بن موسى الرضا . وقد بلغ من زهده أنه أراد أن يتصدق بنوبه الوحيد كى يخرج من الدنيا عاريا كما أتى إليها . توفى عام ٢٠٠هـ .ق . انظر كزيده تذكرة الأولياء د. محمد استعلامى ص ٢١٥،٢١٦.

٢٠١ـ هـو أبو على الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر ، اختلف فى مكان مولده بين خراسان وسمرقند وبخارى .ويعتبر من أوائل مشايخ خراسان . ويقال إن سبب سلوكه الطريق أنه كان فى بداية أمره قاطعا للطريق ، ووقع فى حب جارية وبينما هو يرتقى الجدران إليها ،سمع القرآن يتلى فرجع وتاب . ثم ذهب إلى مكة ومكث بها حتى مات عام ١٨٧هـ .وكان الفضيل دائم الحزن . انظر د. عبد الرحمن بدوى : تاريخ التصوف الإسلامى ص ٢٦٤ :٢٦٨

٢٠٢- (مرضت فلم تعدنى) جزء من حديث رواه البخارى فى ١٣ باب فضل عيادة المريض من٤٥ كتاب البر والصلة .

٢٠٣- الأربعينية : كانت لمراسم الأربعينية أهمية كبيرة بين صوفية إيران والمسالك الحديث العهد أمامه درجات معينة يجب أن يجتازها ، وهى تبدأ من الدرجة الأقل إلى الدرجة الأرفع ، وقد اختلفت هذه الدرجات من فرقة إلى أخرى ويذكر الأستاذ نفيسى أنه فى الفرقة المولوية يجب على المسالك الحديث العهد أن يقضى أربعين يوما فى خدمة الحيوانات ثم أربعين يوما فى خدمة الفقراء ثم أربعين يوما فى إحضار الماء ...الخ حتى يترقى فى هذه المراحل ، وبعد ذلك يقبل كمريد انظر سعيد نفيسى : سر جشمه تصوف درايران ص١٠١.

٢٠٤- إشارة إلى تربص وحشى بحمزة بن عبد المطلب عم الرسول (ص) وقتله إياه فى غزوة أحد عام ٣هـ . وبعد أن قتله مزق بطنه بحربته انظر د. عماد الدين خليل ، دراسة فى السيرة ، ص١٩٢.

٢٠٥- الفقاع شراب يتخذ من الشعير ، سمى به لما يعلوه من زبد .

٢٠٦- اسمه محمد بن سليمان الصعلوكى الفقير ، كان إمام وقته فى علوم الشريعة ، صحب الشبلى . توفى فى نيسابور عام ٣٦٩هـ انظر جامى : نفحات الأنس ص٣١٢ .

٢٠٧- هذه القصة تشبه القصة التى أوردها جامى حـــول سلوك العطار الطريق الصوفى ، ثم ســردها دولتشاه مع تغير طفيف ، كما أوردها آذربيكدلى مع بعض التغير أيضا ثم ناقلها كتاب التذاكر بعد ذلك انظر جامى : نفحات الأنس ص ٥٩٩ دولتشاه سمر قندى : تذكرة الشعراء ، ص٢٠٨ لطفى آذربيكدلى : آتشكده ص ٦٩٨ .

٢٠٨- أبو يعقوب أقطع : كان من كبار مشايخ البصرة ، وقد كاتب الجنيد وراسله ، وكان يعيش فى مكه ، وعندما حانت منيته قالوا له أن ينطق بالشهادة فرفض و قال توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين . قال هذا وأسلم الروح . وهو من صوفية القرن الثالث الهجرى . انظر جامى : نفحات الأنس ص ١٣٢

٢٠٩- بشر الحافى : بشر بن الحارث بن عبد الرحمن الحافى كنيته أبو نصر ، و يقال إن أصله من بعض قرى مرو ، أقام فى بغداد حتى وقت وفاته عام٢٢٧هـ.

وقد أورد العطار هذه القصة نفسها (فى تذكرة الأولياء)و اعتبرها السبب فى سلوك بشر الطريق الصوفى ، ويوجد بعض الاختلاف بين رواية العطار فى(الهى نامه) وما أورده فى تذكرة الأولياء ، فبينما ترى الهاتف يجئ إلى بشر مباشرة فى الهى نامه ، نجد الهاتف يأتى إلى أحد رجال الطريق فى تذكرة الأولياء ، فى منامه ثلاث مرات ، ويقوم هذا الرجل بإبلاغ بشر رسالة الله إليه . (إنك طيبت اسمنا فطيبناك وبجلت اسمنا فبجلناك وطهرت اسمنا فطهرناك فبعزتى لأطيبن اسمك فى الدنيا والآخرة) . فبكى بشر وتاب وأناب وخرج عارى الرأس والقدم ومنذ ذلك الحين لم ينتعل شيئا فى قدميه . فعرف ببشر الحافى ، واشتهر منذ ذلك الحين بالزهد التام . ويقال إن أحمد بن حنبل كان يتردد عليه ويلتمس منه معرفة الله .كما يقال إن الدواب لم تكن تلقى بروثها فى الطريق حفاظا على قدمى بشر . انظر : جامى : نفحات الأنس : ص٤٨ . كزيده تذكرة الأولياء ٩٥:١٠١ .

تصويب أهم الأخطاء

الخطأ	الصواب	رقم الصفحة
وأد	اد	٢٦
لأهل العال	لأهل العالم	٢٧
أهاتي	آهاتي	٢٩
آلام	آلامي	٣٣
إنتشاره	انتشار	٣٤
جميلاً أو قبيحاً	جميلاً أم قبيحاً	٣٦
أخاط	وأخاط	٤٤
عن نسفه	عن نفسه	٥٢
إن إردتمونا	إن أردتمونا	١١٧
أتخذ	اتخذ	١٣٩
إعتبر	اعتبر	١٣٩
فرأها	فرآها	١٣٤
الغزال	الغزالي	١٧٤
ومعارك	ومعاركك	١٤"من الترجمة"